المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨) ٧ـ٤١

النَّقْدُ التَّارِيخِي عند الإغْرِيق

نَقْدُ بُولِيبْيُوس Πολύβιος لِتِيمايُوس Τιμαῖος أُنْمُوذَجًا

دِراسَةٌ تارِيخِيَّةٌ مُقَارَنَة

نادر فتحي محمد

تهتم هذه الأطروحة البحثية بمنهج وقواعد التدوين والنقد التاريخي[(١)] للأحداث بين النظرية والتطبيق، متخذة نموذجًا نقد المؤرخ بوليبيوس Polybius Πολύβιος (٢٠٠ق.م ــ ١١٨ق.م)[(٢)] للمؤرخ تيمايوس Timaeus Τιμαῖος (٣٤٥ق.م ــ

---

(١) أن كلمة تاريخ أو الهستوريا Historia هو البحث والفحص والنظر من أجل المعرفة الإنسانية في الماضي وليس سردًا للأحداث. لذا كانت نظرة الإغريق للتاريخ على أنه تراث ومعرفة الإنسان في العصور الماضية. لذلك أصاب الرومان عندما عرَّفوا علم التاريخ بأنه المنجزات ResGestae لذلك ليس عيبا أن يخطئ المؤرخون القدامى خاصة الإغريق والرومان الذين رأوا أن الخطأ من صفات الإنسان Humanum EstErare.

وللمزيد انظر:

- J. ARNOLD.TOYNBEE, *Greek Historical, Thought*, New York. 1952 p.16-
- J.D. DENNISTON,*Greek Literary Criticism*, London, 1924. p. 14 -
-W.D. JOHNSTON, Greek Literary Criticism Oxford 1907 p.7.

ـ سيد أحمد على الناصري: تأملات في طبيعة الفكر التاريخي عند الإغريق، المجلة التاريخية المصرية ١٩٧٣، ٨٣–٩٨.

(٢) بُولِيبيُوس Πολύβιος مؤرخ وسياسي يوناني، ولد حوالي عام ٢٠٠ق.م. بمدينة ميغالوبوليس بأركاديا (اليونان) وتوفي بها عام ١١٨ق.م وهو يُعد أكبر مؤرخي اليونان في عصره. وهو صاحب كتاب التاريخ العام للجمهورية الرومانية ــ وللمزيد راجع: عبد المعطى شعراوي: النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، القاهرة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٩، ٦٤. أحمد عتمان: الأدب الإغريقي تراثًا إنسانيًا وعالميا، القاهرة ــ دار المعارف ١٩٨٦، ٢١٢.

٢٥٠ق.م)[١] وآراء بعض اللاحقين لنقد تدوين تيمايوس للأحداث. وطبيعي أن نوضح معنى النقد التاريخي وهو نقد المنهج الذي أتبعه تيمايوس ولم يلتزم بالفرضيات النظرية الموضوعة عند التدوين التاريخي. علمًا بأن للنقد التاريخي عند الإغريق مبادئه وأصوله وقواعده لأنه لون من ألوان الإبداع الإغريقي يتميز بالحركة. جريًا وراء سلامة الفكرة وأمانة النقل وتتبع الدقة. لست أشك في أن كثيرًا مما كتبوه يتسم بالجدية في البحث والإنصاف في الدراسة غير أن أكثر تلك المحاولات جاءت على هيئة استطرادات أو مقتطفات شغلت حيزًا محدودًا من دراساتهم للموضوعات النقدية التي أرادوا دراستها أو مست بعض جوانب اهتماماتهم. وهنا سؤال يطرح نفسه.. هل كان قبل تيمايوس منهجًا للنقد التاريخي؟ وهل كان هناك من يلتزم بهذا المنهج؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول نعم كان هناك منهج متبع للنقد التاريخي فبذور التدوين التاريخي عند الإغريق ارتبط بالملاحم الشعرية. فنجد أن القصائد والأناشيد الشعبية كانت هي الأساس في التدوين الذى أعطى لنا ملامح المجتمع آنذاك[٢] ومن

---

[١] تيمايوس TIMAEUS (٣٥٠ـ٢٦٤) قبل الميلاد، ولد في Tauromenium، صقلية هو المؤرخ اليوناني الذي شكلت كتاباته التاريخ الغربي للبحر المتوسط طُرد من صقلية من قبل حاكمها أجاثوكليس، الطاغية من سيراكوز، حوالي ٣١٥ قبل الميلاد، وذهب تيمايوس إلى أثينا، حيث درس البلاغة على يد سقراط تلميذ Philiscus من ميليتوس وأمضى هناك ٥٠ عاما من حياته. كتب تاريخ صقلية *Sikelikai Historiai*. وأيضا عمله الألعاب الأولمبية Olympionikai التي سجل فيها الأحداث التاريخية طبقًا لترتيب دورات الألعاب الأولمبية. O.C.D.Sub. Verbo (s.v). Timaeus.

F. W. WALBANK, "Polemic in Polybius", *The Journal of Roman Studies*, Vol. 52, Parts 1 and 2 (1962), p.10.

[٢] محمد حمدي إبراهيم: "الحياة الفكرية والثقافية في آثينا"، مجلة عالم الفكر، العدد ٢ المجلد ٣٨ (أكتوبر ديسمبر ٢٠٠٩)، ٩٣ـ١٠٩. وعن تسلسل التدوين التاريخي عند الإغريق ـ انظر: محمد السيد محمد عبد الغني: :نظرة الأثينين إلى الأسطورة"، مجلة عالم الفكر، العدد ٢، مجلد ٣٨ (أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠٠٩)، ٧ـ٤٠ ؛لطفي عبد الوهاب يحيى: "الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة"، مجلة عالم الفكر، العدد ٢ مجلد ٣٨ (أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠٠٩)، ١١١ـ١٥٣.

أشهر معالم هذه النهضة الأدبية في القرن التاسع قبل الميلاد شخصية هوميروس "Ὅμηρος"[١]. من هنا نشأ ما يعرف بالمشكلة الهومرية وأدلى كُلٌّ بدلوه فيما عرف بحياة هوميروس "Ὅμηρος" Via Homeri. وكانت هذه الأشعار تمثل أوَّل كتابة تاريخية تستحق الذكر عند الإغريق ومصدرًا للمعلومات عن ثقافتهم ومجتمعهم نحصل منها على صورة حية عن حضارة ذلك العصر. جاء بعد هوميروس. الشاعر الملحمي هيسيودوس Ἡσίοδος Hesiod[٢] مؤلف الملحمة الأسطورية أنساب الآلهة

---

(١) **هوميروس** "Ὅμηρος" "شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة بشكلٍ عام، آمن الإغريق القدامى بأن هوميروس كان شخصية تاريخية، لكن الباحثين المحدثين يُشككون في هذا لأنه لا توجد ترجمات موثوقة لسيرته باقية من الحقبة الكلاسيكية (Classical Antiquity)، كما أن الملاحم المأثورة عنه تمثل تراكمًا لقرونٍ عديدة من الحكي الشفاهي وتواريخ حياة هوميروس كانت موضع جدلٍ في الحقبة الكلاسيكية واستمر. فقال هيرودوت: Herodotus. V,58,2 إن هوميروس عاش قبل زمانه بأربعمائة سنة، مما قد يعني أنه عاش في ٨٥٠ ق.م. تقريبًا بينما ترى مصادر قديمة أخرى أنه عاش في فترة قريبة من حرب طروادة كما يعتقد إيراتوسثينيس الذي جاهد لإثبات تقويم علمي لأحداث حرب طروادة وبالنسبة للباحثين المعاصرين، يعني "تاريخ هوميروس" تاريخ تأليف القصائد الشعرية، ويُجمعون على أن الإلياذة والأوديسة تعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، أو تبدأ من القرن الثامن ق.م، حيث تسبق الإلياذة الأوديسة بعقود"، مما يجعل الإلياذة أقدم نص أدبي مكتوب في الأدب الغربي. وللمزيد انظر:

ـ لطفى عبد الوهاب يحيى: "عالم هوميروس"، مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد الثاني عشر عدد ٣ (١٩٨١)، ١٣ـ٥٦.

ـ محمد صقر خفاجة: هوميروس شاعر الخلود، القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦، ٢٢.

ـ أحمد عتمان: "أغاني نقدية من هوميروس حول طبيعة الشعر ووظيفته"، القاهرة ـ مجلة الثقافة، عدد ٣٨ (نوفمبر ١٩٧٦)، ٦٢ـ٦٦.

- J.B. HAINSWORTH, "The Criticism an Oral Homer", *JHS* 90 (1970) pp.90-98.

(٢) هيسيودوس Ἡσίοδος Hesiod : ولد في بلدة كيمي Cyme في آسيا الصغرى وهو مواطن من كوس في إيوليس، كان يعمل بالتجارة وربما أيضًا بالزراعة. دفعه الفقر إلى الهجرة إلى أسكرا الواقعة بالقرب من ثسبياى Thespiae في إقليم بيوتيا. ومن أشهر أعماله الأعمال والأيام εργα και ημ ερα. وأنساب الآلهة=

Θεογονία Theogony كان أول من نادى بالنقد حين ذكر في إحدى أبيات ملحمته Theogony قائلا: "إن ربات الوحى والفنون الموساى Musae قد تصدر عنهن في بعض المناسبات أكاذيب مقبولة"(١).

أيضًا في القرن السادس قبل الميلاد نقد كسينوفانيس الكلوفونى ὁ Ξενοφάνης Κολοφώνιος(٢) Colophon of Xenophanes كلاً من هوميروس وهيسيودوس لأنهما صاغا مفاهيم الإغريق عن الآلهة والعقيدة الإغريقية القديمة. وينكر عليهما نظرتهما المبتذلة لآلهتهم التي يصفونها بأنها تسرق وتزني وتخدع(٣) ويرى أن هذه الأفكار عن الآلهة من صنع مؤلفيها، ويعتبر أن القول بمولد الآلهة آثم، كالقول بموت الآلهة طبقًا لما أورده الفيلسوف طاليس المالطي Thales of Miletus - ὁ Θαλῆς Μῑλήσιος(٤) ومع منتصف القرن السادس قبل الميلاد أدخل كادموس المليتي

Θεογονία Theogony هو أحد أعظم الشعراء القدامى، ويضعه هيودوت في نفس المرتبة مع معاصره هوميروس. وللمزيد انظر: (Hesiod O.C.D. Sub. Verbo s.v).

- M. L. WEST, HESIOD, *Theogony*, Oxford University Press (1966), p. 163.

(1) HESIOD, *Theogony*, p.27–28.

(٢) كسينوفانيس الكلوفون Colophon Xenophanes ٥٧٠ ق.م ـــ ٤٨٠ ق.م ولد في كولوفون بآسيا الصغرى. فيلسوف يوناني وشاعر وناقد اجتماعي وديني. معرفتنا بوجهاتِ نظره تقتصر على شعره الباقي والذي يتضمن هجاء ونقدا لمجموعة واسعة من الأفكار الإغريقية. هو الذي دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة، وكان من بين الرواد المؤسسين لمدرسة إيليا الفلسفية في جنوب إيطاليا قضى السنوات الأخيرة من عمره في كنف الطاغية هيرون في سيراكوز في صقلية وتوفى بها عام ٤٨٠ ق.م تناول إكسينوفانس مفهوم الوجود من وجهة نظر مادية وانتقد فكرة مركزية الإنسان في الكون. ذلك أنه كان جم النشاط لا يكل من العمل، مبتكرًا لا يهاب الابتداع، ظل ستة وسبعين عامًا ــ على حد قوله هو نفسه ــ يطوف في البلاد وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس، ويندد بهوميروس ويعيب عليه عدم تقواه، ويسخر من الخرافات التي ذكرها.

(3) K. JASPERS, *The Great Philosophers*, New York. 1993; GREGORY VLASTOS, “Theology and Philosophy in Early Greek Thought”, *The Philosophical Quarterly*, Vol. 2, No. 7. (1952), p.p 97-123; GUTHRIE, *A History of Greek Philosophy*, Vol. 2, Cambridge University Press, 1965. p.72.

(4) *Thales of Miletus*, Oxford, 2016, p.6.

من مدينة ملطية طريقة الكتابة Cadmus of MiletusΚάδμος ὁ Μιλήσιος بالنثر(١) بدلاً من الشعر. يعتبر كادموس Κάδμος واحدًا من أوائل كتاب النثر الإغريقي الذي أطلق عليهم القصاصيين ــ أو كتاب النثر λογογραφοι Logoraraphi وصحب ذلك ظهور الفلسفة الأيونية(٢) التأملية وهي الفلسفة التي جاءت للعالم بأصول الفكر الحر. يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنتدبر التطور الذي حدث

=الفيلسوف طاليس المالطى Thales of Miletus- ὁΜΙλήσιοςΘαλῆς ولد ٦٢٤ـ٥٤٦ق.م هو رياضي وعالم فلك وفيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية، وهو أحد الحكماء السبعة عند اليونان، قال بأن الماء أصل الأشياء كلها، واكتشف عددًا من النظريات الهندسية. رفض الأخذ بالخرافات والأساطير، وقيل أنه تنبأ بكسوف الشمس الكامل الذي حدث في ٢٨ أيار من عام ٥٨٥ قبل الميلاد، كما حاول تحديد الأفلاك السماوية بالنسبة للأرض، فجعل النجوم أقربها إلى الأرض، ثم القمر وبعدها الشمس.

ويقول استرابون: إن طاليس كان أوّل من كتب في الفيزيولوجيا أي علم الطبيعة (Physics)، أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها. وقد تقدم علمه تقدمًا عظيمًا على يد تلميذه أنكسمندر.

- BOYER, *Ionia and the Pythagoreans*, Oxford.1991 p.43.

- J. J. O'CONNOR and E. F. ROBERTSON, *Thales of Miletus*, p.06-16; ARISTOTLE, *De Anima*, 411 a7.

(١) كادموس المليتي هو أقدم من كتب بالنثر حوالى عام ٥٥٠ (ق.م) كان لكتاباته السبق في نقد الأساطير والنظرة العقلانية والانتقائية فيما يسجله، وترك بصمة لا تنكر في التدوين التاريخي نثرًا، وللمزيد . O.C.D.S.V. Cadmus of Miletus

(٢) شهدت أيونية المدينة الإغريقية القديمة التي تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى على البحر الأبيض المتوسط ولادة الفلسفة واستوطن الأيونيون هذا الساحل منذ القرن العاشر ق.م، وانتشروا فيما بعد في جزر بحر إيجة المجاورة ونشأت في أحضان المدرسة الأيونية فلسفة جديدة غزت الفلسفات اللاحقة كما أرست المدرسة الأيونية دعائم البحث الميتافيزيقي وجاءت التسمية من لفظ أيونية وعُرفت بهذا الاسم وقت قيام دولة اليونان القديمة وهي منطقة تاريخية تقع بالقرب من مدينة أزمير (حاليًا سميرنا بتركيا)، كانت أيونيا في آسيا الصغرى مهدًا للفكر الحر وأخذ الفلاسفة الأوائل في القرنين السادس والخامس ق.م يعملون عقولهم للتحقيق في البحث في أصل العالم وتكوينه ومن ثم بدأوا عملية تحطيم وجهات النظر في المعتقدات الدينية القديمة. وللمزيد انظر:

- J. BURNET, *Early Greek Philosophy*, London, 1930, p.40.

- I. CUYPERS, *Ruins of Greek Historiography*. Oxford, 2010, pp.320-325.

في الروح اليونانية فهنا بدأت حركة التفكير، فالإيمان القوي بالآلهة بدأ يتوارى واستبدل المفهوم الديني للحياة بمفهوم آخر هو المفهوم الفلسفي الذي أثر بلا شك في طريقة التدوين وأيضًا النقد.

أيضًا أسهم هيكاتايوس[(1)] Ἑκαταῖος ὁ Μιλήσιος Hecataeus of Miletus (من ٥٥٠ ق.م حتى ٤٧٦ ق.م) في تطور حركة التدوين التاريخي حيث وضع أمام معاصريه صورة للماضي السحيق وأيقن أن الشعوب ينبغي أن تُرى في إطارها الجغرافي وأضاف محورين هامين في المنهج العلمي لتدوين علم التاريخ.

أولهما: جعل الحقيقة مقياسًا لما يرد بالروايات. **ثانيهما**: اتخذ اتجاهًا نقديًا صريحًا تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التي دارت حول نشأة الخلق.

جاءت طبيعة النقد التاريخي عند هيكاتايوس في كتابه المسمى الأنساب "علم الأصول" Genealogiai قائلاً في افتتاحيته: "إن ما أدونه هنا هي الرواية التي أعتبرها صادقة وحقيقية لأن قصص الإغريق عديدة وهي في رأيي تبعث على السخرية γελοιοι"[(2)] ثم بعد ذلك بخطى حثيثة أخذت الاتجاهات الفكرية التي أنجبت هيكاتايوس "Ἑκαταῖος" تساهم في ظهور مجموعة أخرى من الكتاب الاخباريين، وقد كان النثر القصصي السبب في أفول نجم الملحمة. وكان من خصائص قصصهم

---

(1) هيكاتايوس مؤرخ وجغرافي يوناني أوَّل من انتقد استخدام الكتاب للأساطير اليونانية وطالب بتنقيتها من الخرافات والأساطير أ ويشير هيرودوت أن هيكاتايوس يرجع بنسبه ووضعه كحفيد سادس عشر من جذوره الإلهية (Herodot.II. 143) . وله عملان كبيران هما سلسلة الأنساب Γενεαλογίαι وتتكون من أربع كتب وفيها يتناول التقاليد العائلية وتحتوى على الكثير من القصص، وعمله الثاني هو رحلة حول العالم Περίοδοςγῆς يتكون من جزئيين يحكى فيهما عن تجاربه الشخصية وما رآه في أوربا وآسيا ومصر وليبيا وأثيوبيا، وقد بقى لنا من كتاباته ما يقرب من ٣٧٠ شذرة، وفيها حكايات عن أسر النبلاء وبعض أحداث بلاد اليونان وكان يدخل في مجال كتاباته العديد من الأساطير والحكايات البطولية، دون أن ينسى تمجيد عائلته.

- O.C. D. S.V *Hecataeus of Miletus.*
- L. PEARSON, *Early Ionian Historians*, London, 1939.

(2) □κατα□οςΓενεαλογίαι. I.

ميلهم إلى سرد الأساطير التي كانت تتعلق بالديانات التي كان يؤمن بها الشعب اليوناني القديم ــ نعم ــ كانت هناك حاجة روحية إلى الاستماع إلى تلك الأساطير، وذلك لمعرفة أكبر بالعالم الخارجي والتباهي بقصص البحارة والتجار عما شاهدوا أو سمعوا وما جربوه أحيانًا بأنفسهم في رحلاتهم. بجانب تأمل حقيقة الكون وطبيعة الإنسان والنظم الاجتماعية والسياسية والدينية. وحينما خيم الظلام على ميليتوس بعد أن وقعت تحت سيطرة الفرس بدأت أثينا تتفوق كمركز ثقافي وحضاري وسياسي في بلاد اليونان[١]. وجاء من بعد هيكاتايوس كاتب آخر هو هيلانيكوس[٢] Hellanicus Ἑλλάνικοςὁ Μυτιληναῖος of Mytilene من ميتيليني في جزيرة لسبوس ولد (٤٩٠ق.م ــ ٤٠٥ق.م) وهو أوَّل من أفسح مجالاً للأسطورة في كتاباته، ونجد عنده الكثير من الحكايات وخاصةً فيما بقي لنا من شذرات حيث دون أحداث بلاد اليونان في الفترة من ٤٩٠ق.م ــ ٤٣١ق.م وله العديد من الأعمال عن التسلسل الزمنى والجغرافيا والتاريخ.

يرجع الفضل لهيرودوت[3] Ἡρόδοτος Herodotus (٤٨٥ق.م ــ ٤٢٥ق.م)

---

[١] إبراهيم عبد العزيز جندي ــ معالم التاريخ اليوناني القديم ــ الجزء الأوَّل ــ القاهرة ــ ٢٠١٢ ص٢١٥.

(2) CARLROBERT: "Eine epische Atlantias", *Hermes*, Vol. 52, No. 3 (Jul., 1917), pp.477-79; ALLAN H. GILBERT: *Literary Criticism (Plato to Dryden)*, American Book Company (1940). FHG. i. 45. iv . 630-2; FGRH. i. 41.

[٣] ولد هيرودوت عام ٤٨٥ ق.م في بلدة هاليكرناسوس، حين بلغ العشرين من عمره تم نفيه منها إلى جزيرة ساموس بعد تورطه في انقلاب فاشل ضد السلالة الحاكمة فيها. يبدو أنه لم يعد إلى بلدته رغم اعتداده الشديد بانتسابه لها. يحتوي كتاب هيرودوت على مناقشات كثيرة حول عادات وتقاليد وأوصاف رائعة وتاريخ الشعوب، والمدن، والإمبراطوريات الواقعة علي البحر المتوسط وخاصة مصر حيث أعجب بها وأطلق عليها هبة النيل، تميز أسلوب هيرودوت في الكتابة بالتشويق والإثارة وأسلوبه المتماسك، التصويري، وإبداعه الأدبي والفني فيه، كما كان يمتلك عقلا فلسفيا في كتاباته ويؤخذ عليه أن كتاباته تفتقر إلى الدقة والمصداقية لأنه كان يدون كل ما يسمعه دون تحري الدقة فيه وللمزيد عن هيرودوت:

- M. GRANT, *The Ancient historians*, London 1970. p.47.

الذي ينتمي إلى مدينة هاليكارناسوس "Halikarnāssós" ــ تعريف مواطنيه بمزيد من الحقائق عن مواطني الشرق. ولم يكن هيرودوت "أبا التاريخ فقط ولكنه أيضًا أمير الروائيين". ويمكننا القول أن أوَّل ظهور لما يسمى عناصر الرواية اليونانية القديمة كان عند هيرودوت. يعتبر هيرودوت واحدًا من أمتع رواة القصص في الكتابة التاريخية كلها بجانب كونه مؤرخا للتاريخ الثقافي. أيضًا هناك كاتبان معاصران لهيرودوت من كُتاب القرن الخامس ق. م هما:

سيكيلاكس(1) Scylax of Caryanda Σκύλαξ ο Καρυανδεύς من كارياندا ٤٨٠ ق.م وهو رحالة يوناني كتب في أوائل القرن الخامس ق.م، وعلى الرغم من أهمية كتاباته بقيت لنا شذرات من خلال استشهاد اللاحقين به ومن أشهرها مقالاً يصف رحلاته على سواحل الهند بالإضافة للحديث عن حياة هيراكليس Haraclides طاغية ميلسا Mylasa والتي تُعد أوَّل سيرة تاريخية.

وإكسانثوس(2) من ليديا Xanthus of Lydia Ξάνθος ὁ Λυδός. ألف عملاً عن حياة الفيلسوف أمبادوقليس ــ Empedocles ذلك إلى جانب مؤلفه الرئيسي ليدياكا Lydiaca Λυδιακά التي تحدث فيها عن تاريخ مسقط رأسه ليديا وكتب أيضًا ماجيكا Magica Μαγικά التي تناول فيها التقاليد الفارسية. وكان هيرودوت أكبر منهما سنًا وأطلق عليهم كاتبي الأساطير.

- A. MOMIGLIANO, *The development of the Greek Biography*, Cambridge 1971, p.32.
- J.B. BURY, *The ancient Greek Historians*, New York 1958, p.79.

(1) HERODOTUS, *Histories*, 4.44; ARISTOTLE, *Politics*, 7.13.2; STRABO, *Geography* 14. 2. 20.

ARNALDO MOMIGLIANO, *The Development of Greek Biography*, Harvard 1971, p.29.

- JONA LENDERING, *Scylax of Caryanda*, Oxford 2008 p.p. 63-68

(2) JOHN MARINCOLA, *op. cit.*, p.42.

ثم جاء بعدهما من المؤرخين ثوكيديديس[1] Θουκυδίδης- Thucydides (٤٦٠ق.م ــ ٤٠٠ ق.م) مؤسس علم التاريخ الذي تناول المسائل التاريخية بروح اختلفت كثيرًا عن هيرودوت وغيره. حيث تخلى عن إتباع الأسلوب القصصي مفضلاً عنه أسلوب السرد النثري المتزن الجاد للحقائق التاريخية. استبعد ثوكوديديس الأساطير والخرافات التي ذكرها هيرودوت وغيره وفصل التاريخ عن شعر الملاحم والقوى غير الطبيعية ففسر أحداث التاريخ في ضوء أسباب منطقية أساسها العقل أو المبررات الدنيوية ولا تجد في كتابات ثوكوديديس استطرادات طويلة.

ويعدنا ثوكيديديس في كتابه (التواريخ أو التحقيقات) بأنه سيبذل أقصى ما في وسعه لإدراكه أن مؤلفه هذا (يُؤلف لينضم إلى مقتنيات الخلود لا لمجرد أن ينال جائزة مؤقتة)[2].

فعمل ثوكوديدس على انتقاء أكثر الروايات مصداقية وحاول إضفاء تفسير عقلاني منطقي على بعض الجوانب غير المنطقية عند تدوينه للأحداث واستبعد الخرافات والأساطير من كتاباته.

كان ثوكيديديس مهتمًا بإبراز الهدف من كتابة التاريخ ووسائل المؤرخ[3]. ويرى أن

---

(1) ثوكيديديس (٤٦٠ ق.م ــ ٤٠٠ ق.م) مؤرخ إغريقي شهير، صاحب المنهج العلمي في تدوين التاريخ ويعد أول المؤرخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة، تخصص في دراسة وتاريخ الحروب البيلوبونيسيه الكبرى بين أثينا وأسرطه والتي اندلعت عام ٤٣١ ق.م وكان احد القادة العسكريين الاثينيين الذين اشتركوا فيها ــ وللمزيد راجع: إبراهيم نصحى، ثوكوديديس منشورات الجامعة الليبية كليه الآداب ١٩٧٠م، وأحمد غانم: الفكر السياسي والاجتماعي عند ثوكوديديس، مجلة كليه الآداب جامعه الإسكندرية، ٢٠٠٤.

(2) THUCYDIDES I, 22-4, V. EHRENBERG, *from solon to Socrates (Greek History and Civilization during the 6th and 5th centuries* B.C. Methuren. 1973, pp.363-367; J. B. BURY, *The Ancient Greek Historians*, London, 1909, pp.140–143.

(3) THUCYDIDES I. 22.1; KAGAN, DONALD, *The Peloponnesian War*, New York 2003, p.40; T. J. LUCE, *The Greek Historians*, London 1997 p.97.

مهمة المؤرخ تقوم على إعطاء الحقيقة بشكل مباشر وعليه الاعتماد على المعلومات الواضحة، ويشرح ويحدد منهجه للأجيال القادمة قائلاً: "أما بخصوص الأحداث المروية فإنني لا أسمح لنفسي بأن أقصيها عن مصدرها الأوّل وإنني لا أثق حتى بانطباعاتي الأولى بل أثق فقط فيما أراه بنفسي أو ما يراه الآخرون من أجلي كما يمكن الاعتماد على الخبر الذي يثبت دقته بالبراهين"(١).

كان يشجب بشدة دمج العادات والتقاليد إلى السرد التاريخي مما قد يجعل منها مادة جذابة وشيقة، إلا أنها ستكون على حساب الحقيقة التاريخية قائلاً: "إن غياب الإمتاع من كتاباته التاريخية قد يثير الملل عند قراءتها"(٢) ويحذر من الخلط الأسطوري الذي لا تحظى كثير من أقاصيصه بالمصداقية نظرًا لإيغالها في القدم(٣) ويشرح واجبات المؤرخ وهو ما لا نجده في العصور الكلاسيكية الإغريقية(٤). بادئًا بالتأكيد على عدم ملاءمة الروايات الشفهية في كتابة التاريخ.

كانت الحروب البيلوبونيزية Peloponnesian War من ٣٣١ق.م ــ ٤٠٤ق.م هي الموضوع الرئيسي الذي عالجه في كتاباته فتناولها بوصفه شاهد عيان وناقد راعى

---

(1) *THUC.* 1.23.1

(2) *THUC.* 1.20.2

(3) *THUC.* 1.21.1

(4) V. EHRENBERG, *from solon to Socrates (Greek history and civilization during the 6th and 5th centuries B.C)*, London. 1970 p.49.

وللمزيد انظر: إبراهيم عبد العزيز جندي: معالم التاريخ اليوناني القديم،١: ٢٠١٦.

تنقسم مؤلفات ثوكيديديس عن الحرب إلى ٥ أجزاء وهي المقدمة وهى تغطى الكتاب الأول ثم أحداث العشر سنوات الأولى من الحرب وهي تُغطى في الكتاب الثاني حتى الرابع ثم في الكتاب الخامس يتناول محاولات نيكياس لعقد السلام وبعدها يتناول حمله أثينا ضد صقليه في الكتابين السادس والسابع وفي الكتاب الثامن يعرض شذرات عن هجوم أسبرطة بعد هروب الكبياديس إليها واحتلالها لمنطقة شمال أثينا. أما من ناحية الحقيقة أن تفاصيل الحرب سجلها في الكتاب الأول والسادس والسابع ــ وللمزيد انظر:

ANDREWS GOMME and J.K. DOVER, *A Historical commentary on Thucydides*, Vol 4, Oxford 1970 p.62.

عند تدوينه التثبت من المادة التاريخية والاقتناع بها مهتمًا بالحقائق السياسية مبررًا الأسباب البعيدة منها والقريبة.

إن ثوكيديديس يخرج عن العرف ويلزم نفسه بشرطين لا بد أن يكون ما يقال ملائمًا ومناسبًا للموقف الذي قيل فيه، ويفرض على نفسه أن يكتب ما كان يجب على القائل أن يقوله مع التزامه في نفس الوقت بأن يضع في حسبانه الظروف التي كانت تمر بالقائل(١).

يقابلنا في القرن الرابع اكسينوفون(٢) Xenophon <u>Ξενοφῶν</u> الذي يرى كثير من المؤرخين انه أديب وفيلسوف لا مؤرخًا فها هو عمله الصعود إلى الشمال Anabasis وهو يُعد تعليقات على حملة عسكرية كتبها أحد قوادها(٣) وتخضع لتأثير أدب

---

(١) تبدو نظرية ثوكيديديس في كتابه التاريخ واضحة كل الوضوح. وتمسك ثوكيديديس بها وطبقها نظريًا في مؤلفه وهنا تدور نقاشات وأطروحات حول هذا الموضوع ــ انظر: عبد المعطى شعراوي. مرجع سابق. ص ٧٩ هدف ثوكيديديس أنه يكتب من أجل أن تبقى كتاباته في العصور التالية وتظل ذات فائدة وقيمة. وللمزيد انظر: V. EHRENBERG. *Op. Cit.*, p.370.

(٢) اكسينوفون هو مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي، عاش بين القرنين الثالث الثاني ق.م. واشترك مع الفرس في حروبهم وله كتاب Anabasis اشتهر به حيث أرخ لرحلة تقهقره مع رجال قورش الأصغر لآلاف الكيلومترات، درس الفلسفة على يد سقراط. ثم حارب في فارس وبلغ مرتبة عسكرية عليا، وقاد جيشًا قوامه ١٠.٠٠٠ جندي يوناني في طريق العودة إلى الوطن. وعقب هذه الخدمة الحربية انصرف كسينوفون إلى حياة الكتابة الجدية في التاريخ، فوضع قصة الحملة الفارسية التي قادها قورش الأصغر بعنوان Kurou Anabasis يقدم فيها فيضًا من المعلومات الجغرافية والأنثولوجية عن آسيا الصغرى. وأيضًا مؤلفه الأمور الهيلينية Hellenika حيث يكمل فيه الأحداث التاريخية من عام ٤١١ ق.م ــ ٣٦٢ ق.م، أما كتابه تربية قورش Kurou Paideia يمكن اعتباره أوَّل رواية تاريخية ــ أو قصة نثرية طويلة تصلنا من العالم القديم أخلاقية الطابع.

(٣) يدعي ثميستو جينيس Themistogenes وهو شخص لا وجود له صنعه اكسينوفون في حديثه لكي يبدو على الحياد وكتب بضمير الغائب ونسب حديثه وآراءه لشخصية ثميستوجينيس.

WILL DURANT, *The Story of Civilization Volume 2: The Life of Greece. Simon & Schuster*, 1939. pp.460–61.

الرحلات من حيث عرض النواحي الجغرافية وتأثر فيها بكتسياس[١] Ctesias Κτησίας وهو طبيب ومؤرخ يوناني، ولد في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد وكان طبيبا في البلاط الفارسي شارك في معركة كوناكسا عام ٤٠١ق.م ـ بين الفرس واليونانيين ـ وعاد بعدها إلى اليونان وكتب كتابه بريسيكا Persica Περσικά يتناول تاريخ أشور وفارس في ثلاثة وعشرين مجلد، ومؤلفه الثاني أنديكا ἸνδικάIndica، الذي يتناول فيه الأطروحات على الأنهار في الهند وكذلك معالم الحضارة الفارسية.

لا شك أنه لا يوجد في العالم الهليني نموذج للتدوين التاريخي لا نزاع حوله. وأعني بهم: هيلانيكوس وأكوزيلاوس الأرجوسي[٢]. Argos of Acusilaus فأكوزيلاوس الأرجوسي من الحكماء السبعة في بلاد اليونان اهتم بالجغرافيا وكان كاتب للأساطير عاش في النصف الأخير من القرن السادس ق.م والخلافات التي نشأت بينه وبين هيلانيكوس[٣] Ἑλλάνικοςὁ Λέσβιος Hellanicus من ٤٩٠ق.م ـ ٤٠٥ق.م حول مسائل الأنساب عالج هيلانيكوس تاريخ الفرس واليونان من

---

(١) كتسياس ولد في كنيدوس Cnidus في كاريا في آسيا الصغرى على خليج كوس. LAVERS, *Chris The Natural History of Unicorns*, New York, 2009: Morrow. p.5.

(٢) أكوزيلاوس الأرجوسي Acusilaus Ἀκουσίλαος : ولد في أرجوس في القرن السادس قبل الميلاد. كتب الأنساب. والتي كانت في معظمها مجرد ترجمة لأعمال هيسيود إلى النثر. وادعى أنه أخذ بعض معلوماته من الأقراص البرونزية المكتشفة في حديقته والتي كانت تحمل معلومات، وهو مصدر نظر إليه بشك بعض المؤرخين ـ للمزيد انظر:

SMITH, William, *Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology*, Boston 1967, p. 18.

(٣) هيلانيكوس من ليسبوس Ἑλλάνικος ὁ Λέσβιος Hellanicus of Lesbos، المصور اليوناني القديم الذي ازدهر خلال النصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد. ولد في ميتيلين في جزيرة ليسبوس في ٤٩٠ ق.م ـ ٤٠٥ ق.م، واحدًا من أوائل المؤرخين. له أعماله العديدة، على الرغم من أنها فقدت الآن، كانت مثمرة جدًا. واستشهد به عدد من الكتاب والمؤرخين اللاحقين، LOUIS FOWLER, *Early Greek Mythography*, Oxford University Press, (2000), p.161; JOSÉ J. CAEROLS *Helanico de Lesbos*, 1991, fragment 84.

وجهة نظر اجتماعية، وكان أوَّل مؤرخ إغريقي نادى بضرورة نظام شامل للتدوين التاريخي ونجح في ذلك نجاحًا نسبيًا ــ كتب في التسلسل الزمني وعلم الجغرافيا والتاريخ وخاصة تاريخ أثينا. التي نقدها وأظهر إخفاقاتها تيمايوس Timaeus وكذلك أيضًا عدم دقة تيمايوس التي أظهرها بوليبيوس.

فبفحص وتمحيص مؤلفاتهم يتضح تمامًا أنها لا تقوم على أية معرفة مؤكدة، إنما تقوم على الحدس والتخمين. فليس لما كتبوه من أثر أكثر من كشف أحدهم للآخر.

بطبيعة الحال هناك سؤال يطرح نفسه ما سبب هذا التناقض البالغ في النقد؟

وللإجابة عن هذا السؤال أرى أنني أعزو الأثر الأكبر إلى سببين هما: قلة المادة المسجلة لدى الهلينيين آنذاك[1] مما أدى دون شك للخلط الذي وقع فيه الكتاب الذين حاولوا تباعًا تناول الأحداث مما أدى إلى ارتكاب الأخطاء التي وقعوا فيها وعدم الدقة والتناقض في سرد الأحداث.

١. اهتم الكتاب والنقاد بإظهار قدرتهم الأدبية، ووائموا أنفسهم مع أي منهج يُقدم لهم، وتخصص آخرون في كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها على اعتبار أن هذا مجال يمكن أن يلمعوا فيه.

وتناسوا أن التدوين التاريخي الصحيح يتمثل في البحث الدؤوب من أجل الوصول إلى أقرب ما يكون إلى الحقيقة التاريخية. واعتبروا أن أفضل وسائل التدوين هي أن يقفوا في وصف الأحداث المتماثلة إلى جانب الأقلية المعارضة

---

[1] إن تسجيل الأحداث لم يهمل في هيلاس كلها فحسب بل في آثينا أيضًا، تلك المدينة التي اشتهر أهلها بالثقافة والاحتفاء بها حيث لم نجد أي أثر لهذه الظاهرة. وأكثر السجلات العامة قدمًا كانت في أثينا، ويقال أن التشريع الجنائي لـ"دراكون" Dracon (Δράκων)، من ٦٥٠ إلى ٦٠٠ ق.م كان أقدم تشريع مسجل بالسجلات بأثينا ــ وللمزيد راجع: ARISTOTLE, *Politics*, 1274a

وللمزيد انظر: أرنولد توينبي: الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة محمد صقر خفاجة، القاهرة ــ مجموعة الألف كتاب ١٩٦٢، ٤٦.

واهتموا بالشكل الأدبي.

هذا ما أكده بلوتارخوس Πλούταρχος, Plutarchus في نبوءات بيثية قائلاً: "عندما نزل التاريخ من عربته الشعرية وسار على قدميه قد فرق وميز بين الأسطورة والتاريخ[١] حيث أن التحول من التدوين الإغريقي شعرًا إلى التدوين نثرًا ساهم كثيرًا في إرساء قواعد التدوين التاريخي.

حديثنا ينتقل إلى صلب الموضوع عارضين سيرة تيمايوس الذي ظهر كفيلسوف ومؤرخ أرستقراطي دارس في مدرسة فيثاغورس ويبدو أنه كان متخصصًا في مجالات الفلسفة القديمة خاصة الفلسفة الطبيعية وعلم الفلك[٢]. ودرس البلاغة على يد فيليسكوس من ميليتوس Philiscus of Miletus Φιλίσκος ο Μιλήσιος[٣] كانخطيب ومدرس أسس مدرسته الخاصة في أثينا، حيث درس المؤرخ تيمايوس فيها، وكتب في تعليم الفنون البلاغية الذي يتكون من كتابين، والسيرة الذاتية للخطيب والسياسي الأثيني ليكرجوس ومجموعة من الاقتباسات والأمثلة البلاغية لسقراط Isocrates[٤]. وكان تلميذا في المدرسة الفيثاغورثيه[٥].

هنا يتضح لنا من خلال إشارات المصادر سواء السابقة أو اللاحقة طبيعة ثقافة وفكر تيمايوس الذي جعله يختلف شكلاً ومضمونًا مع من نقده ونعود بحديثنا عن إشارات المصادر عنه.

كذلك يضعه الفيلسوف يامبليخوس Ἰάμβλιχος Iamblichus (٢٤٥ـ

---

(1) PLUTARCHUS PYTHIA, *Orac.*24. 406e.

ولد بلوتارخوس في مدينة خيرونيا عام ٤٥م وتوفي عام ١٢٥م.

(2) PLATO, *Timaeus* 20a, 27a.

(٣) كتب الخطاب τηνη، والمخطوطة حياة ليكرجوس Lycurgus theorator ويحتمل وجوده في أثينا في ٣٢٥ ق.م الى ٣١٠ ق.م.

(٤) سقراط ISOCRATES ـ٤٢٧ ق.م ـ ٣٤٧ ق.م.

(5) CICRO., *De Republica 1-16*; VALERIUS MAXIMUS, 8.7.

٣٢٥م)[١] مع قائمه من أبرز أعضاء المدرسة الفيثاغورثيه مع ديوجنيس اللايرتى Διογένης Λαέρτιος, Diogenēs Laertios[٢].

وبناء على ذلك ذكره ماكروبيوس[٣] إنه لا يمكن أن يكون تيمايوس اللوكري قد عاصر سقراط أو دخل معه في حوار لأن سقراط مات قبل تيمايوس بوقت كبير. بالتالي لا يمكن أن يكون عاصر أفلاطون.

---

(١) ولد الفيلسوف يامبليخوس Iamblichus Ἰάμβλιχος في مدينة قنسرين الواقعة في شمال سوريا إلى الشرق من نهر العاصي، حيث كان سليل عائلة ملكية ثرية، ومن المرجح أن يكون متصلاً بنسبة مع الأسرة الملكية الحمصية التي تنتسب إليها الإمبراطورة جوليا دومنا، رفض يامبليخوس أن يحمل اسمًا يونانيًا وحافظ على اسمه السوري الآرامي، تتلمذ على يد أنطوليوس اللاذقي ومن ثم انتقل ليكمل تعليمه على يد فرفوريوس الصوري الذي كان تلميذًا لأفلاطون والمؤسس للأفلاطونية المحدثة كان يامبيلخوس الممثل الأهم للأفلاطونية المحدثة في سوريا، غير أن تأثيره لم يقتصر على سوريا، بل تجاوزها ليشمل الكثير من أرجاء العالم القديم. تعرض معظم الإنتاج الفكري ليامبليخوس للتخريب ولم ينجُ منه إلا النزر اليسير. من أعماله: حول حياة فيثاغورث On the Pythagorean Life، حض على الفلسفة The Exhortation to Philosophy، حول علم الرياضيات العام the General Science of Mathematics، حول علم الحساب عند نيكوماخوس On the Arithmetic of Nicomachus، المبادئ اللاهوتية لعلم الحساب Theological Principles of Arithmetic، الأسرار المصرية On the Egyptian Mysteries.

- SHAW, GREGORY, *Theurgy and the Soul: The Neoplatonism of Iamblichus,* Pennsylvania, Pennsylvania State University Press 1995

(٢) ديوجنيس اللايرتى من ١٨٠ إلى ٢٤٠م Διογένης Λαέρτιος, Diogenēs Laertios هو أحد فلاسفة القرن الثالث ومن أهم أعماله حياة وآراء الفلاسفة البارزين وكتب باللغة اليونانية LONG, HERBERT, *Introduction. Lives of Eminent Philosophers,* By Laërtius, Diogenes, .London. (1972), p.40.

(٣) ماكروبيوس Macrobius Ambrosius Theodosius كتب سبعة كتب تعرف باسم ساتورناليا وتكون من سرد للمناقشات التي أجريت في بيت فيتيوس أجوريوس بريتكستاتوس Vettius Agorius Praetextatus خلال عطلة أعياد الساتورناليا ويحتوي على مجموعة كبيرة ومتنوعة من المناقشات التاريخية، الأسطورية، المهمة، والأثرية والنحوية. "العمل يأخذ شكل سلسلة من الحوارات بين الرجال النقدة في مأدبة خيالية 1.1.5. Macrobius's Saturnalia., وللمزيد انظر: CAMERON, "The Date and Identity of Macrobius", *Journal of Roman Studies,* 56 (1966), p.27.

يتفق كثير من المؤرخين إلى أن تيمايوس اللوكري كان مشهورًا حتى أنه لقب بهيرودوت العصر الهلينستي لأنه إذا ما حاولنا أن نقارن بين ما كتبه ودوَّنه تيمايوس وغيره من معاصريه سنجد أنه التزم بتعاليم هيرودوت. ومن ناحية أخرى إذا ما قارنا إنتاجه مع معاصريه أمثال ثيوفراستوس Θεόφραστος Theophrastus[1]. سنجد أن مؤلفات ثيوفراستوس أقل مكانة من كتابات تيمايوس من حيث البحث والتقصي واستخدام الوثائق. وإذا ما قارنا بين تيمايوس ومعاصره، فيلوخوروس الاثينى[2] Φιλόχορος ὁ Ἀθηναῖος Philochorus of Athens من حيث البحث والتقصي واستخدام الوثائق ومعالجة الشئون المعاصرة آنذاك يتضح أنفراد تيمايوس منهجيًا، فقد جمع بين أنواع مختلفة من التاريخ منها الروايات المتعلقة بالأنساب، الروايات المتعلقة بالمستعمرات وإقامة المدن وتاريخ الأسر.

فأعمال تيمايوس اللوكري موضوع حديثنا. نبدأها بعمله بالأولمبيونيكاي Olympionikai وهي تسجيل الأحداث طبقًا لدورة الألعاب الأوليمبية التي تقام

---

(١) ثيوفراستوس Θεόφραστος Theophrastus (٣٧١ ق.م ـــ ٢٨٧ ق.م) عالمًا إغريقيا هو أوَّل من حاول تصنيف النباتات، وذلك على أساس أشكالها وطرائق نموها. ساهم بالكثير من الأعمال في البيولوجيا، الفيزياء، الأخلاق، والميتافيزيقيا؛ وفي المنطق قام بإكمال أعمال أرسطو. O. C.D 1996 p.620

(٢) فيلوخوروس الاثينى Φιλόχορος ὁ Ἀθηναῖος Philochorus of Athens (٣٤٠ ق.م ـــ ٢٦١ ق.م)من مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد، وكان ضمن عائلة من الكهنة وكان عرافا ومفسر ورجلا ذا نفوذ واضح، وكان في السياسة ذا عداء واضح للمقدونيين وعدوا لدودا لديمتريوس بوليوركيتس، وعندما قام أنتيجونوس بحصار أثينا والاستيلاء عليها عام ٢٦١ ق.م تم إعدام فيلوخوروس لدعمه بطليموس الثاني فيلادلفوس ملك مصر الذي شجع الأثينيين على مقاومتهم لمقدونيا. كانت تحقيقاته حول أعراف وعادات أهل أتيكا قد جمعت في ١٧ كتاب، وحكت عن تاريخ أثينا من القدم إلى عام ٢٦٢ ق.م، وأعماله محفوظة بين علماء اللغة والمدققين وغيرهم، وكان فيلارخوس قد كتب أيضًا عن الكهانة والأضحيات وغيرها من المواضيع الدينية وكتب عن الأساطير والملاحظات الدينية في أتيكا وأساطير سوفوكليس وسيرة يوربيديس وفيثاغورس وجمع قوائم تاريخ الأراخنة والأوليمبيات وجمع مجموعة من النقوش الأتيكية وهي الأولى من نوعها في اليونان. O. C.D. SV. *Philochorus of Athens*

كل أربع سنوات وشملت قائمة لأسماء المنتصرين في الألعاب الأوليمبية وقائمة بأسماء الملوك والأوفورس والأبناء الاثنين وكاهنات هيرا في أرجوس[١]. حتى أصبحت الأولمبيونيكاي معيارًا في التاريخ القديم آنذاك. أما ثان أعماله فكان عن تاريخ صقلية وكتب ٣٨ كتابًا شملت تاريخ صقلية منذ الأوقات الأسطورية.

حتى وفاة أجاثوكليس[٢]. ٢٨٩ق.م شملت الكتب من ١ـ٥ مقدمة تناولت الجغرافيا والأثنوغرافيا في الغرب والكتب ٦ـ١٥ اشتملت على تاريخ صقلية حتى حكم ديونيسيوس الأوَّل والكتب من ١٦ـ٣٣ احتوت على حسابات المستعمرات وتأسيس المدن وعلاقاتها وطغيان ديونيسيوس الأول والثاني ٤٠٦ق.م ــ ٣٤٤ق. م حتى وصول أجاثوكليس إلى السلطة.

وتناولت الكتب ٣٤ـ٣٨ تاريخ أجاثوكليس وحكمه وبقى من هذا العمل حوالي ١٦٤ شذرة أو فقرة تقريبًا تم حفظها من خلال إشارات ديودوروس الصقلي وبوليبيوس. تعددت الآراء واختلفت حول تأريخ تيمايوس لتاريخ صقلية فيرى البعض أنه شوه الأحداث لصالح صقلية وأغفل إنجازات الأثنيين والقرطاجيين، بينما يرى آخرون أنه لا يمكن الحكم بصورة صحيحة على بقايا شذرات لمؤرخ يعتبر عمله مجزأ من خلال قراءات ورؤى واستشهادات من نقلوا عنه.

ثالث أعماله كان طبيعة العالم والروح، واستخدم طريقة مبسطة في العرض لسهوله استيعاب القارئ لفكره واستخدم الاستنتاجات بدلاً من الحجج والبراهين وأغفل سرد الحوارات المختلفة، وربما كان المقصود من استخدام هذه الطريقة في العرض هو

---

(١) Olympionikai والتي أسست للتدوين التاريخي في ذلك الوقت طبقًا لدورات الألعاب الأولمبية والتي أنفرد بها تيمايوس عن غيره من المؤرخين وميزته.

(٢) أجاثوكليس Ἀγαθοκλῆς Agathocles : الطاغية سيراكوز. وهو اسم مشتق من ἀγαθός، أجاثوس، أي "جيدة" وκλέος، كليوس، أي "المجد". حكم من ٣٤٣ ق.م ــ ٢٨٩ ق.م وهو من قام بنفي تيمايوس.

استخدام كتاباته في الفلسفة الطبيعية وعلم الفلك لتدريسها في الفصول الدراسية لتعليم الفلسفة الطبيعية لصغار الدارسين[١].

انتقد تيمايوس مرارًا وتكرارًا من قبل مؤرخين في وقت لاحق وخاصة بوليبيوس وذكروا أن أخطاؤه[٢]. كانت مثل:

١. تكوين الخطب البلاغية الاصطناعية. وكانت سمة من سمات الكتابات عامة في ذلك العصر لتأثر النثر بالبلاغة والفلسفة.

٢. أهان بشكل منهجي طغاة صقلية مثل: ديونيسيوس الأول[٣] وأجاثوكليس.

٣. بالغ في فضائل الجنرال تيموليون Timoleon[٤].

٤. بوليبيوس أتهمه بالجهل والخيانة المتعمدة ووصفه بأنه غير عادل ولا موضوعي.

في محاولة لإبداء الرأي. نرى أن وصول شذرات من أعمال تيمايوس وبقاؤها حتى القرن الثاني ق.م يعطي انطباعًا أنه يحتل مكانة وقامة بين كتاب التاريخ الهيليني آنذاك.

وهنا يقودونا الحديث عن المبررات الشخصية لنقد بوليبيوس لتيمايوس والتناقضات المنطقية التي ذكرها بوليبيوس حيث كان تيمايوس اللوكري دليلاً وثائقيًا لمن جاء بعده من الكتاب والمؤرخين، وسابق متميز لبوليبيوس إذا ما قورنت كتاباته

---

(1) F. W. WALBANK, "The Historians" of *Greek sicily (Acta Classica) 31*. 14-15 – 1968 – 1969 pp.476–497.

(2) B. lEVICK, *The ancient Historian and His Materials*, London. (1975) pp.45-88.

(٣) ديونيسيوس الأوَّل Dionysius I ١٤٣٢ ق. م ــ ٣٦٧ ق. م. ΔιονύσιοςὉΠρεσβύτερος كان طاغية يونانية من سيراكوز، في صقلية، جنوب إيطاليا. غزا عدة مدن في صقلية وجنوب إيطاليا، عارض تأثير قرطاجة في صقلية وجعل سيراكوز أقوى من المستعمرات الغربية. واعتبره القدماء مثالا على أسوأ أنواع الطغاة.

(٤) تيموليون Timoleon Τιμολέων ابن تيموديموس، من كورينث (٤١١ــ٣٣٧ قبل الميلاد) كان رجل دولة يوناني وعموما كان بطل اليونان ضد قرطاج وأعماله ترتبط ارتباطا وثيقا مع تاريخ صقلية، وخاصة سيراكوز. Timoleon. O.C.D.S.V

بمعاصريه، وكان ذا شعبيه كبيرة حتى إن اسمه وجد محفورا في إحدى قاعات الجمنازيوم في تورومينيوم مسقط رأسه(١) مما يؤكد قيمته وقامته كمؤرخ.

إن كلاً من تيمايوس وبوليبيوس ينتميان لإقليم آخايا(٢). وتيمايوس اللوكري هو من كتب تاريخه طبقًا للألعاب الأوليمبية أي كل أربع سنوات يتناول موضوعات من مصادرها ويعرضها كما نقلها عنه ديدور الصقلي(٣).

مما سبق يتضح أن وبوليبيوس وتيمايوس مدرستان مختلفتان في التدوين التاريخي فتيمايوس يسير على نهج هيرودوت بينما بوليبيوس يسير على نهج ثيوكيديديس، كان بوليبيوس عدسة مشوهة عن تيمايوس اختار من أعماله شذرات تؤكد نقده وتتماشى مع مآربه وأغراضه في كشف الثغرات عند تيمايوس الذي جعل صقلية محور الأحداث في بلاد اليونان في عمله تاريخ صقلية ورفض بوليبيوس في نقده بشكل غير مباشر أن تكون صقلية هي محور الأحداث في بلاد اليونان وكيف تم تجريد أثينا من دورها وزعامتها، ويقول بوليبيوس: (لو أنك جرَّدْتَ التاريخ من الحقائق فإن ما يبقى يصبح قصصًا عديم الفائدة)(٤).

وهنا يحدد بوليبيوس الفرق بين التاريخ والحكاية (السرد القصصي) فعَنِيَ بصحة الوثائق، وانتقد الانسياق وراء العاطفة، وكان خصمًا لدودًا لعلم البلاغة الذي خضع له علم التاريخ في القرن الرابع قبل الميلاد، كان يرى أن كُتَّاب التاريخ يجب أن يركزوا

---

(1) G. RYLE., *Op.Cit.*, p.180.

(٢) إقليم آخايا ـ عبارة عن اتحاد لدول المدينة المتمركزة في شمال ووسط شبه جزيرة البيلبونيز Peloponnse.

(٣) ديدور الصقلي Διόδωρος Σικελιώτης Diodorus Siculus مؤرخ يوناني ازدهرت شهرته في القرن الأول قبل الميلاد. في موسوعته التي أسماها (Bibliotheca historica) أو مكتبة التاريخ في ٤٠ مجلدا لم يبق من موسوعة ديودورس إلا المجلدات من ١ إلى ٥ ومن ١١ إلى ٢٠، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام تتناول أول ستة مجلدات فيها تاريخ الإغريق وغير الإغريق والقبائل الهيلينية حتى تدمير طروادة.

(4) POLYBIUS XII, 12.

انتباههم أكثر على مسببات الأحداث وتبعاتها والنتائج بدلاً من التركيز على السرد الروائي للأحداث[١] وعلى الكاتب أن يبدأ بحسن اختيار البداية لأنها نصف الموضوع وهذا لا يتأتى إلا إذا حددنا طبيعة الموضوع والهدف منه والغرض من كتابته مناقشًا من أين بدأ الحدث، وكيف تطور ولماذا وصل إلى هذه النتيجة[٢] من هذا المنظور وجه بوليبيوس نقده لتيمايوس Timaeus بشأن أفريقيا وكورسيكا حيث يشير هنا بوليبيوس بأن تيمايوس لم يكن ملمًا بأفريقيا فحسب، بل أن حكمه عليها كان طفوليًا ومعيبًا تماما[٣]. مستطردًا أن تيمايوس ظل حبيسًا ومقيدًا بالرواية القديمة التي وصلت إلينا (بأن افريقيا كلها كانت رملية وقاحلة وغير منتجة)[٤]. ونفس الأمر كان ينطبق أيضًا على كلامه عن الحيوانات ــ سواء عدد الخيول أو الثيران أو الأغنام أو الماعز ــ في دولة شاسعة أنا شخصيًا أشك في أنه لا يوجد لها مثيل في بقية العالم. ويضيف بوليبيوس أن معلومات تيمايوس وكتاباته عن أفريقيا قائلاً: (لم يكن لدى تيمايوس Timaeus أدنى علم عن هذا الموضوع (أفريقيا) بل أنه كان يتحدث بعكس الحقائق القائمة على ارض الواقع[٥]. أما بشأن كورسيكا Corsica فقد أطلق تيمايوس نفسالأحكام الجزافية مثلما أطلقها على أفريقيا[٦].

---

(1) ARNOLD. J. TOYNBEE,*Greek Historical Thought*, New. York 1952 p.135.
(2) F.W. WALBANK, *Polybius*, London 1990. p.64.
(3) POLYBIUS, *book*. 12. 3.5.
(4) POLYBIUS, *book*.12. 3.6.
(5) POLYBIUS, *book*.12. 3.7.
(6) POLYBIUS, *book*.12. 3.9.

شكل رقم (١)

ففي رواية تيمايوس عن كورسيكا (شكل رقم ١)

يخبرنا ذاكرًا (كان بها العديد من الماعز البري، والأغنام البرية، والثيران الوحشية)[١] وأيضًا يذكر في فقرة أخرى (أن سكان كورسيكا كانوا يقضون أوقاتهم في صيد وقنص هذه الحيوانات[٢] وأن هذا كان شغلهم الشاغل) وينتقد بوليبيوس هذه المعلومات قائلاً: (الحقيقة أن جزيرة كورسيكا لم يكن بها ماعز بري واحد ولا ثور وحشي واحد وذلك لأن الجزيرة كانت بها غابات كثيفة وذات تضاريس وعرة ومتعرجة) وهذا هو الحكم الجزافي الذى حكم به تيمايوس بعد بحث عارض وغير ملائم[٣] أما عن أخطاء تيمايوس عند نسخه ونقله لمعلومات عن المؤرخين ايفوروس

---

(١) استوطنها في العصر الحجري الوسيط شعوب البحر المتوسط. ومنذ أواسط الألفية الأولى قبل الميلاد أحتلها القرطاجيون، كما استوطنها الإغريق وأحتلّها الإوتروسكيون لفترة طويلة من الزمن حتى سقطت بيد الرومان، جزيرة كورسيكا متباينة في تضاريسها، إذ نجد فيها المرتفعات الجبليّة وأيضًا الأماكن المنخفضة، ويؤكد بوليبيوس أن الجزيرة كانت بها غابات كثيفه وذات تضاريس وعرة ومتعرجة وكان رعاة الجزيرة حينما يرغبون في جمع القطعان والماشية فإنهم يقومون بالنداء عليها عن طريق نفخ الأبواق وتستجيب هذه الحيوانات فهذا هو السبب الذى يجعل تلك الحيوانات تعطى انطباع بأنها برية أو وحشية وهو ما أخطاء فيه تيمايوس في تحليله (POLYBIUS, *book*. 12. 3.8-9)

(2) A. BARON, *Timeaus of Tauromenium and Hellenistic Historiography*, Cambridge 2012, p.45.

(3) j. B. BURY, *The Ancient Greek Historians*, London 1909 p.70.

Ephoros (١) ومعاصره ثيوبومبوس Theopompos(٢).

وهنا نقده بيلوبيوس عن الاخطاء التي وقع فيها قائلاً أن الأخطاء ليست أخطاء المؤلفين ولكنه خطاء الناسخ Timaeus ومع ذلك لا أظن إن أحدًا يقبل على حُب

---

(1) □φορος, Ephoros; c. 400 – 330 BC.

كان ايفوروس تلميذًا لسقراط وقد سجل لنا تاريخ العالم (historiae) في ثلاثين كتاب وبدئها بعودة أبناء هيراكليس (الغزو الدوري لبلاد اليونان) حتى حصار بيرنثوس الشهير على يد فليب عام ٣٤٣ ق. م ولقد كان ايفوروس المصدر الأوّل للمؤرخ ديودورس الصقلى Diodorus Siculus فيما بعد كما تأثر بدوره بالمؤرخين الذين سبقوه وخاصة ثوكوديديس Thucydides Θουκυδίδης بالإضافة لكتابته للمقالات في القرن الرابع ق.م ولكن تأثيره ظل قويا على المؤرخين الرومان إبان عصر الإمبراطورية الرومانية وللمزيد انظر: K. DONALD YEOMANS, *Great Comets in History*, 1998. p.7-15.

(٢) كان ثيوبومبوس Theopompus Θεόπομπος من ٣٨٠ ق.م – ٣١٥ ق.م مواطنا من جزيرة خيوس Chios فر مع أبيه، بسبب ميولها الإسبرطية، وظل الأب والابن في المنفى غير أنه لم يتبقى لنا من أعمال هذا المؤرخ سوى شذرات من مؤلفه الضخم الهللينيكا Ἑλληνικά theHellenica. أو تاريخ بلاد اليونان وهو استمرار للتاريخ الذى بدأه ثوكوديديس. ولكنه يبدأ بعام ٤١١ ق.م يستمر حتى معركه كنيدوس Cnidus عام ٣٩٤ ق. م. ويلاحظ أن جوهر هذا المؤلف يسجل التفوق الإسبرطى إبان الحروب البيلوبونيسية ولم نكن نعرف شيئا عن هذا المؤلف حتى عثر على نصوص منه من خلال أوراق البردى الأدبية التي استخرجت من مدينه اوكسيرينخوس (البهنسا محافظه المنيا) في مصر ودار جدل عنيف بين علماء الأدب انتهى بأن مؤلف بردية اوكسيرينخوس ما هو إلا المؤرخ ثيوبومبوس. أما مؤلفه الثاني. فهو الذى يعرف باسم الفلبينيات Philippica λόγοιΦιλιππικοί والذى روى فيه تاريخ فيليب الثاني Φίλιπποςβ΄ὁΜακεδών, Phílippos II منذ توليه الحكم ومدى انعكاس ذلك على أحداث العالم ويتميز ثيوبومبوس ببعد النظر والبحث والنقد البناء وللمزيد ارجع إلى:

- M. R. CHRIST, "Theopompus and Herodotus: A Reassessment", *The Classical Quarterly*, New Series, 1993: 47–5.

- M. R. CHRIST, "Theopompus and Herodotus: A Reassessment". *The Classical Quarterly*, New Series (1993). 43 (1): 47–52.

- KURT VON FRITZ: *The historian Theopompus - His political convictions and his conception of historiography*. In: American philological review 46, 1941, S. 765–787.

- A. E. BRUCE: *Theopompus and classical Greek historiography*, history & theory 1x.1970, pp.86-109.

تيمايوس لإثارته للتفاهات والبحث عن الأخطاء أن مهمة البحث والتقصي لديه قد شابها التسرع[١].

وفي محاولة لإبداء الرأي نرى أن تيمايوس بمقاييس عصره كان متفردًا وأن رأي بوليبيوس فيه شيء من التحامل كمنافس له ليس هذا فحسب بل أن شهرة تيمايوس وتنوع أعماله ساهمت في ذلك.

أخطاء تمايوس بشأن مستعمرة لوكرى: أيضًا يتناول بوليبيوس أخطاء تيمايوس بشأن مستعمرة لوكرى[٢] (شكل رقم ٢). ويؤكد أن المعلومات التي تلقاها عن

---

(1) POLYBIUS, *book.* 12.Verse 4.3-9.

(٢) لوكري أنشئت حوالي عام ٦٨٠ ق.م على الشاطئ الإيطالي للبحر الأيوني، سكانها المحليون على ما يبدو من مدينة أوبوس Opus واسمها اللاتيني، لوكري، Locri، *Dionysius of Halicarnassus, Roman Antiquities*, *Book* 1, 17;-Strab. ix. p.425; HOMER, Iliad, Book II, verses 494–760, pp.Il.2.494 ؛ وكان سكانها الأصليون من القبائل اليونانية القديمة التي سكنت وسط اليونان. تحدثوا اللهجة الدورية، وكانوا على صلة وثيقة مع قبائلهم المجاورة، Phokians ٦٦٨—٤٥٠ ق.م (لا يزال التاريخ المبكر لها غامضًا تمامًا وخلال الغزو الفارسي الثاني لليونان في ٤٨٠ ق.م انضمت قبائل فوكيانز في البداية للدفاع ولكن من خلال سلوكهم في معركة ثيرموبيلاي فقدت هذا الموقف مع اليونانيين وفي معركة بلاتيا كانوا مسجلين على الجانب الفارسي. في ٤٥٧ قبل الميلاد فى محاولة لتوسيع نفوذهم إلى منابع سيفيسوس Cephissus في إقليم دوريس Doris ودخلوا في تحالف في ٤٥٤ ق.م وقت الحرب البيلوبونيسية Peloponnesian War كان اسميًا واعتمدوا على إسبرطة، وفقدوا السيطرة على دلفي)، ALTY, JOHN "Dorians and Ionians". *The Journal of Hellenic Studies.* 102: 1982.pp.1–14؛ والدوريين Dorians (Δωριεῖ، واحدة من المجموعات العرقية الرئيسية الأربعة التي اعتبرها الهيلنيين منقسمين (جنبا إلى جنب مع الأيونيين) أقدم ذكر أدبي لهم في أوديسيا (HOMER, ODYSSEY, *Book* XIX line 177). حيث سكنوا قديما جزيرة كريت)، JOHN M. FOSSEY: *The Ancient Topography of Eastern Phokis*, J. C. GIEBEN, Amsterdam 1986 p.77، تم تقسيمهم إلى قبليتين متميزتين جغرافيا، هما أوزوليانز الغربية Ozolian وأوبونتيانز الشرقية Opuntian كانت مدينتيها الرئيسيتين هما أمفيسا وأوبس على التوالي، وكانت مستعمرتهم الأكثر أهمية هي مدينة إيبسفيريان لوكري Epizephyrian Locri، التي لا تزال تحمل اسم "لوكري" وكان من أبنائها أبطال شاركوا في حرب طروادة ووضعوا أول قانون يوناني مكتوب.

أرسطو بشأن إنشاء تلك المستعمرة أصح من التي قدمها تيمايوس حيث يذكر تيمايوس أن مستعمرة لوكرى تتكون من عبيد شاردين، وخدم، وزناه، ومختطفين كما أن ذلك قد قيل في وسط هالة من الثقة والمصداقية لدرجة أن القارئ قد يشعر أنه من الرجال المشاركين في الحملة العسكرية(١).

شكل رقم (٢)

ويستطرد بوليبيوس في نقده عن المعلومات التي أوردها تيمايوس عن مستعمرة لوكرى قائلا: أن تيمايوس أخبرنا بأنه تقصى وتثبت من تاريخ المستعمرة وقام بزيارة شخصيه للوكريين في إيطاليا. ثم يقول: إنهم أظهروا له في البداية معاهدة مكتوبة ظلت محفوظة فيما بينهم وبين المهاجرين(٢). ويوضح أن أرسطو(٣) في بنائه لأحكامه

(1) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 9, 2-5.

(2) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 10, 2-5.

(٣) أرسطو Ἀριστοτέλης Aristotle : ولد في مدينة اسطاجيرا Stagira بمقدونيا سنة ٣٨٤ ق.م، شرقي مدينة سالونيك، وكانت وفاته في عام ٣٢٢ ق.م وكان والده نيكوماخوس Nicomachus طبيبًا لدى الملك أمينتاس الثالث المقدوني جد الإسكندر الأكبر، وقد ترك أرسطو مقدونيا إلى أثينا في السابعة عشرة من عمره لينال تعليمه والتحق فيها بأكاديمية أفلاطون، وقد استمر في الأكاديمية عشرين سنة قبل أن يغادر أثينا=

ولاسيما المتعلقة بلوكرى فإنه قدم الكثير من المعلومات الصحيحة وكان هذا السبب هو ما جعل ارسطو يطلق على تيمايوس أنه متهور ومتكبر وعنيد وأن لديه وقاحة في مهاجمة مدينة لوكرى عن طريق ما ذكره سالفا عنها[١].

هنا يصف بوليبيوس تيمايوس قائلاً: (أن تيمايوس كان كثيرًا ما يصدر أحكام خاطئة وهو يبدو بالنسبة لي ليس قليل العلم والمعرفة بهذه الأمور، وإنما يخيم على أحكامه التحيز وعدم الموضوعية وعندما يقوم بإطراء شخص ما أو إلقاء اللوم عليه فإنه ينسى كل شيء ويبتعد كثيرًا عن مهنته كمؤرخ)[٢].

ويشبه بوليبيوس الحقيقة التاريخية بالعين قائلا: (إنه في حالة إخراج العين من

=في ٣٤٨ ق.م. بعد وفاة أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م. ارتحل إلى آترنيوس إحدى المدن اليونانية في آسيا الصغرى، حيث تزوج شقيقة حاكمها هرمياس، وما هي إلا ثلاث سنوات وبعد إقامة قصيرة في جزيرة لسبوس، حتى تلقى دعوة من الملك فيليب المقدوني ليكون معلم ابنه الذي أصبح فيما بعد الإسكندر الأكبر. وقد لازم أرسطو الإسكندر صديقًا، ومعلمًا، ومستشارًا حتى قام سنة ٣٣٤ ق.م بحملته الحربية الآسيوية، وعلى الرغم من غزارة إنتاج أرسطو الفكري المتمثل في محاضراته وحواراته الكثيرة، إلا أنه لم يبق منها إلا النذر اليسير، فقد ضاع معظمها، ولم يبق سوى بعض الأعمال التي كانت تدرس في مدرسته، والتي تم جمعها تحت اسم (المجموعة الأرسطوطالية) بالإضافة إلى نسخة ممزقة من (الدستور الإثيني) الذي وضعه.

- BERTRAND RUSSELL, *A History of Western Philosophy*, Simon & Schuster, 1972 p.64.

- MCLEISCH, KENNETH COLE, ARISTOTLE: *The Great Philosophers*, Routledge , 1999. p.57.

- CARNES LORD, *Introduction to The Politics by Aristotle*: University of Chicago Press, 1984 p.81

(1) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 10, 6-9.

هنا تعجب الكتاب اللاحقون من المعلومات التي ذكرها تيمايوس عن مستعمرة لوكرى ولم يتوثق عند حديثه من النقوش التذكارية التي كانت على مباني المدينة كذلك على بنايات المعابد والتي تؤكد من خلال عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم أن من يحكم المستعمرة مجموعة من الأحرار ولا يمكن أن يكونوا من العبيد كما أشار لهم تيمايوس وهنا أشاروا أن أسواء خطيئة في تدوين التاريخ هي الكذب ولذلك قدموا النصيحة لما يدانوا بالكذب في أعمالهم أن يجدوا اسم آخر لكتبهم ودعواتها بأي شيء غير التاريخ.

(2) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 10, 6-9.

مكانها فلن يكون هناك فائدة من الثقوب، لذلك إذا أخرجت الحقيقة من التاريخ فلن يبقى إلا الخرافات ومع ذلك فقد ذكرت أن هناك نوعين من الكذب، أحدهما نتيجة الجهل والآخر متعمد. هنا يجب علينا التماس العذر لمن أقصوا الحقيقة نتيجة جهلهم ولكن يجب الرفض لمسامحة الكذب المتعمد)(١). ويستطرد أيضا بوليبيوس قائلاً: أن كتابة التاريخ ترتكز على ثلاثة جوانب هي:

الجانب الأول: دراسة جادة للكتب والوثائق ومقارنة ما تحتويه.

الجانب الثاني: دراسة استقصائية للمدن والأماكن والأنهار والبحيرات. وبشكل عام كل الخصائص المميزة للأرض والبحر والمسافات من مكان لآخر.

الجانب الثالث: عرض الأحداث السياسية والعسكرية والإلمام بها(٢).

بوليبيوس يستند للإشارات التي جاءت عند تيمايوس في مجلده الرابع والثلاثين حيث يقول تيمايوس: (عشت بعيدًا عن أثينا لمدة خمسين عامًا وأعترف بأنني لا أمتلك أي خبرة بالحرب التي حدثت فيها وليس لي أي معرفة شخصية بأماكنها)(٣). لذلك ارتكب تيمايوس العديد من الأخطاء عند كتابة وتدوين التاريخ وحتى عندما يقترب من الحقيقة فكان يشبه الرسامين الذين كانوا يعملون رسوماتهم بصورة انتقائية(٤). حيث أنه حذف الكثير من الحقائق التي كانت يجب أن تذكر وتحدث بالتفصيل عن كثير من الأشياء التي لم يكن لها أن تذكر.

ويختتم بوليبيوس نقده لتيمايوس قائلاً: (أن الجزء الأكبر من منهجه التاريخي هو عبارة عن نسيج لكل الأخطاء) ذاكرًا أن الطبيعة أعطتنا اثنتان من الأدوات التي فهمنا من خلالها كل شيء وهما السمع والبصر، وكان البصر هو الأكثر تأثيرًا حيث أن العين

---

(1) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 19, 1-3.
(2) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 21, 4-6.
(3) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 24, 2-5.
(4) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 26, 6-9.

هي الشاهد الدقيق للأحداث أكثر من الأذن، ولكن تيمايوس اختار الأكثر رواجًا (السمع) وتجنب استخدام بصره وفضل أذنيه حتى أصبح مصدر معرفته هو السمع وأقتنع تيمايوس بذلك واكتفى بقراءة الكتب فقط(١).

وننتقل لبعض الآراء الأخرى من اللاحقين عن تيمايوس:

أشار أيضًا أرسطو Ἀριστοτέλης(٢) ناقدًا تيمايوس حينما تحدث في مقاله فن الشعر عن أصول العرض الأدبي حيث يقول يجب أن نخفي فننا ونبدو وكأننا نتحدث حديثًا طبيعيًا لا حديثًا أكاديميًا، فالحديث الطبيعي مقنع والحديث الأكاديمي عكس ذلك(٣). وأيضًا يذكر أنه على الكاتب أن يكون رقيبًا على نفسه فهو بذلك يجرد الناقد من سلاحه(٤).

أيضًا أشار ماركوس توليوس شيشرون MarcusTullius Cicero(٥) في مقاله Topica لتيمايوس مشيرًا إلى واجبات الكاتب عند التدوين وهي: التدقيق Docere وإدخال البهجة Delectare وإثارة العواطف Movere(٦) ونقد شيشرون تيمايوس واصفًا أن المؤرخ الأمثل (أوَّلاً لا يجرؤ أبدًا على أن يقول كذبًا، وثانيًا لا يجرؤ إلا على

---

(1) POLYBIUS, *book*. 12. Verse 28 ,2-6.

(٢) أَرِسْطُو ٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م أو أَرِسْطُوطَالِيس أو أرسطاطاليس فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو وأحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

(3) ARIST, *Rhet*, III, 204; III 16-17.

(4) ARIST, *Rhet*, III, 7, 9.

(٥) شيشرون كاتب روماني وخطيب روما المميز، ولد سنة ١٠٦ ق.م، صاحب إنتاج ضخم وصلنا لحسن الحظ جانب كبير منه، ولكنه أيضًا الجسر الذي عبر من خلاله جانب من الفلسفة اليونانية وتوفي ٧ **ديسمبر** ٤٣ ق.م.

(6) CICERO, DEORATORE, 3, 202 – 208; 136-139.

قول كل ما هو صادق)[١].

نتتقل إلى سترابو Στράβων Strabō [٢] في مؤلفه (Geographica) حيث ذكر الكثير والكثير من الأخطاء الجغرافية التي وقع فيها تيمايوس من حيث تحديد مواقع المدن وأسماء الأنهار والمحيطات وأيضًا طبيعة الأرض وتضاريسها، هذا بجانب بعض الأخطاء عن التكوين الديموغرافي للسكان. كذلك أشاد كلاوديوس بطوليميوس Claudius Ptolemaius بقدرة تيمايوس على تصوير الأرض في قارة أفريقيا جغرافيًا حيث يذكر أنه وصف الأرض المسكونة وذكر فيها المدن والجبال والأنهار، والشعوب والقبائل التي تسكن بعض الأقاليم، وقال أن تيمايوس أدرك أن الجغرافيا تعني تصوير الأرض فوصف وصور ذلك في كتاباته[٣].

---

(1) ne quid Flsi dicere audeat, deinde ne quid vry non audeat. Cicero, oratores, 2.15.

(2) STRABO, *Geographica*. 5.9.26; 3.1. 9-11; 6.2 4-6; 14.3.10.

ـ ولد سترابو في كبادوكية (أكاسيا) سنة ٦٣ أو ٦٤ ق.م لأسرة ثرية، ووالدته جورجية الأصل، تتلمذ على يد الكثير من الجغرافيين والفلاسفة في اليونان والرومان وكان من الفلاسفة الرواقيين وكسياسي كان من أنصار الإمبريالية الرومانية. قام برحلاته المشهورة في البلاد المختلفة في الإمبراطورية الرومانية حتى وصل إلي الحدود الجنوبية لنهر النيل في أفريقيا لدراسة المعالم التاريخية والجغرافية وذكر ذلك في موسوعته (التاريخ الجغرافي) التي تتكون من ٤٧ مجلدا لمختلف البلدان والأماكن في أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولم تعرف موسوعته الجغرافية كثيرا في أيامه، وكانت مجهولة في القرون الوسطى حتى ظهرت إلى الوجود في عصر النهضة الأوربية في القرن ١٦م، ويعتقد أنه توفي سنة ٢٣ أو ٢٠ تقريبا.

(٣) يدعى أيضًا بطليموس القلاودي من ٩٠م ـ ١٦٨م فلكي ورياضي وجغرافي ولد في مصر وعاش في الإسكندرية بين عامي ١٢٧م ـ ١٤٨م حيث اتيح له العمل والاستفادة من مكتبتها الضخمة، هو كاتب موسوعي له عدة مؤلفات منها المجسطي Almagest اسمه الأصلي باليونانية μαθηματική σύνταξις والتي وتعني الأطروحة الرياضية هو كتاب في الفلك والرياضيات وألفه العالم الإغريقي بطليموس عام 148م في الإسكندرية ويعتقد أنه أقدم كتاب معروف في الفلك وظل هذا العمل مرجعًا في حركة الأجرام السماوية لوقت طويل، أما العمل الذي أشتهر به هو كتابه الدليل الجغرافي وهو مقسم إلى ثمانية كتب وفي الكتاب الرابع من الدليل الجغرافي يتحدث فيه عن جغرافية قارة أفريقيا ومصر. وللمزيد انظر:

أيضًا أشار برفوريوس الصوري Porphyry of TyreΠορφύριος (٢٣٤ـ ٣٠٥م)[١] في كتابه Philosophos Historia حيث يتناول فيه ملامح شخصية تيمايوس وبعض صفاته وكذلك بعض الأخطاء التي ذكرها في كتاباته. ويصفه بأنه مؤسس التقويم التاريخي الأولمبي من جانبه ذكر أثينايوس Athenaeus Ἀθήναιος[٢] في كتابه (مأدبة الحكماء Deipnosophistae) أن تيمايوس كاتب هزلي كتب عن أتباع الإله ديونيسيوس Διόνυσος or Διώνυσος[٣] كما ذكر بعض الأخطاء التاريخية التي

- H. TOZER, *A History of Ancient Geography*, Cambridge 1935 p.340.

- CLAUDIUS PTOLEMAIUS, *Almagest* VI. 6.

(١) فَرفوريوس الصُّوري نحو ٢٣٤ـ٣٠٥م فيلسوف يوناني، من مواليد صور، يُعتبر أحد أبرز ممثلي الفلسفة الأفلاطونية المُحْدَثة، تتلمذ على يد أفلاطون ووضع ترجمةً لحياته، على أن أشهر آثاره هي إيساغوجي Isagoge Εἰσαγωγή، وهي مقدمة لمقولات أرسطو. كما انتقد النصرانية في كتاب دعاه "ضد النصارى".

- *Porphyry of TyrePhilosophoshistoria*, 11.6.16.

- AARON JOHNSON, *Religion and Identity in Porphyry of Tyre*, Cambridge, 2013. p.62.

(٢) أثينايوس Ἀθήναιος : هو خطيب ونحوي إغريقي من نقراطيس في مصر، وعاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد. في عهد ماركوس أوريليوس، ويقول أثينايوس بنفسه أنه كاتب بحث عن الثراثا وهو نوع من السمك ذكره أرخيبوس وشعراء هزليين آخرين وتاريخ الملوك السوريين، وكلا العملين قد ضاعا. ومازال في أيدينا عمله: Δειπνοσοφισταίوتعني مائدة الحكماء أو المفكرون في الوليمة ويقع في خمسة عشر كتابا. والكتابين الأولين وأجزاء من الثالث والحادي عشر والخامس عشر قد بقيت إلينا فقط في خلاصات، ولكن ما عدا هذا فيمكن القول أن العمل وصل إلينا كاملا. والعمل مخزن هائل للمعلومات المتنوعة، وأغلبها مواضيع متعلقة بالطاولة، ولكنها تحتوي أيضا على ملاحظات عن الموسيقى والرقص والأغاني والألعاب والمحظيات. وهو مليء بالاقتباسات عن كتّاب لم تصل أعمالهم إلينا؛ وتقريبا أشار أثينايوس لنحو ٨٠٠ كاتب و ٢٥٠٠ كتابًا منفصلاً؛ وكان أثينايوس يتباهى بأنه قرأ ٨٠٠ مسرحية في مجال الكوميديا الوسطى وحدها.

- BALDWIN, BARRY, "The Minor Characters in Athenaeus". Acta Classica 20. 1977: 37–48.

(3) *Athenaeus Deipnosophistae*. 6.56.45.

وقع فيها تيمايوس ذاكرًا أن تيمايوس قال: "أنه لم يكن يوجد أسطول لليونانيين من قبل" وهو مخالف للحقيقة التاريخية الثابتة[1] لطبيعة بلاد اليونان وأيضًا لطبيعة الحضارة اليونانية عامًا لأنها في أساسها حضارة بحرية.

يتضح من العرض السابق أن نقد بوليبيوس ليتيمايوس قد أثر سلبًا على سمعة وسيرة تيمايوس لدى اللاحقين ونقلوا كل ما ذكره بوليبيوس نقلاً عن من سبقوه دون فحص أو تمحيص للشذرات التي بقيت من أعمال تيمايوس وهو ما حاولنا عرضه في الصفحات السابقة وذلك نظرًا للأسباب الآتية:

١. أن أعمال تيمايوس وصلت إلينا مجزئة.

٢. أن نقد بوليبيوس لتيمايوس تم بعد قرن ونصف من الزمان.

٣. ظهور الفكر الحُر وأثره على حركة التدوين والنقد التاريخي.

في نهاية حديثنا عن التدوين والنقد التاريخي عند الإغريق يتبين لنا أن التدوين التاريخي عند الإغريق مر بمراحل مختلفة كان لكل مرحلة سماتها المميزة وإنتاجها الغزير نظرًا للتحولات الفكرية والفلسفية التي كان لها أكبر الأثر على مراحل التدوين المختلفة.

أما عن النقد فكان له ملامحه وأسسه التي تبلورت معالمها فكانت مرآة عكست عوامل الإجادة وأسباب الإخفاق وشرحت جوانب متعددة من إبداعاتهم التي تميزوا بها وساهمت في تفرد الإغريق الثقافي وأعطت لنا نماذج من أعمالهم عبر عصور مختلفة ما كان لنا أن نصل إليها إلا من خلال الإشارات التي جاءت عن طريق النقد.

=- ديونيسوس أو باكوس أو باخوس Διώνυσος: هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة. أصوله غير محددة لليونانيين القدماء، إلا أنه يعتقد أنه من أصول "غير إغريقية" كما هو حال الآلهة آنذاك.

- BALDWIN, BARRY, "Athenaeus and his Work", Acta Classica 1976. 19: 21–42.

(1) *Athenaeus Deipnosophistae*. 6-86-1.

نتائج الدراسة

١. كشفت الدراسة مبررات نقد بوليبيوس المنهجية والشخصية لتيمايوس وعرضت:

أ ـ المبررات المنهجية:

* أن كلاً من تيمايوس وبوليبيوس ينتميان لمدرستين مختلفتين في التدوين التاريخي فتيمايوس مؤرخ موسوعي يسير على نهج هيرودوت بينما بوليبيوس موضوعي أكاديمي يسير على نهج ثيوكيديديس.

* تيمايوس كان أوّل مؤرخ يوناني يدون ملخصًا شاملاً للتاريخ الروماني حتى عام ٢٦٤ق.م مما جعله مصدرًا تاريخيًا يرجع إليه بوليبيوس حيث أن بوليبيوس بدأ التدوين التاريخي للتاريخ الروماني من حيث انتهى تيمايوس.

* يرجع الفضل لتيمايوس كونه مؤسس التقويم التاريخي عن طريق التدوين طبقًا للألعاب الأوليمبية، ليس هذا فقط بل بمقاييس عصره ومقارنة مع أقرانه يتضح أنه أحتل مكانة وكان مرجعًا ومرشدًا لمن جاء بعده.

* أعمال تيمايوس التاريخية جعلت من صقلية مركزًا ومحورًا لأحداث بلاد اليونان. هنا رفض بوليبيوس أن تكون صقلية هي محور الأحداث وعلق على أن آثينا هي محور أحداث بلاد اليونان.

ب ـ المبررات الشخصية:

١. بوليبيوس وتيمايوس ينتميان إلى إقليم آخايا مما جعل بينهما تنافس، فكان بوليبيوس عدسة مشوهة عن تيمايوس أختار من أعماله شذرات تؤكد نقده وتتماشى مع مآربه وأغراضه، وكان مقصدها كشف أخطاء تيمايوس والتقليل من مكانته كمؤرخ موسوعي احتل مكانه حتى أطلق عليه في عصره هيرودوت العصر الهيلينستي.

٢. كشفت الدراسة عن سمة بارزة كانت عند الكتاب والمؤرخين آنذاك وهي كشف كلاً منهما لأخطاء الآخر ونقدها، وسبب التناقض في التدوين والنقد التاريخي عن الإغريق آنذاك يرجع إلى عدم عنايتهم بالاحتفاظ بسجلات عمومية للأحداث الجارية آنذاك. مما أدى إلى عدم الدقة ووقعوا في كثير من الأخطاء. وأيضًا واءموا أنفسهم مع أي منهج يُقدم لهم وتخصصوا في كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها، وتناسوا أن التدوين التاريخي الصحيح يتمثل في الاتفاق الإجماعي على مسائل تاريخية بذاتها.

٣. أوضحت الدراسة أن مؤرخي الإغريق حطموا التقييد بالجنس والموضوع والتخصص فساهم في تدوين التاريخ الإغريقي كلاً من الأدباء والفلاسفة والمؤرخين والأطباء، كما أن معظم مؤرخي الإغريق لم ينحدروا من أصول إغريقية فمثلاً هيرودوت خليط من أب إغريقي وأم آسيوية من إقليم كاريا في آسيا الصغرى وثوكوديديس بالرغم من أنه ولد في أثينا إلا أنه ينحدر من أصول تراكية وغيرهم من هذه النماذج كثير.

٤. الدراسة أشارت إلى أن نقد بوليبيوس لتيمايوس يعتبر مرحلة من مراحل وضع قواعد ومناهج للبحث التاريخي عند الإغريق القدماء على الرغم من أن الكتاب الثاني عشر لبوليبيوس يعتبر خروج عن موضوعه الرئيسي مما يؤكد أن النقد كان سمة بارزة وشائع في ذلك الوقت وقبله بفترات طويلة لإظهار قدرات المؤلف الجديد وكشف الأخطاء عند من سبقوه وإظهار تفرده وإضافاته وإسهاماته.

المراجـــع

أوَّلاً: المراجع العربية:

ـ إبراهيم عبد العزيز جندي ـ معالم التاريخ اليوناني القديم ـ الجزء الأوَّل ـ القاهرة ٢٠١٢م.

ـ إبراهيم نصحى ـ ثوكوديديس منشورات الجامعة الليبية كليه الآداب ١٩٧٠م.

ـ أحمد عثمان ـ الأدب الإغريقي تراثًا إنسانيًا وعالميًا ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٦م.

ـ ــــــــ "أغاني نقدية من هوميروس حول طبيعة الشعر ووظيفته". مجلة الثقافة ـ القاهرة ـ عدد ٣٨ نوفمبر ١٩٧٦م.

ـ أحمد غانم ـ الفكر السياسي والاجتماعي عند ثوكوديديس ـ كلية الآداب جامعة الإسكندرية ٢٠٠٤م.

ـ أرنولد توينبى. الفكر التاريخي عند الإغريق. ترجمة محمد صقر خفاجة مجموعة الألف كتاب القاهرة ١٩٦٢م.

ـ سيد أحمد على الناصري ـ "تأملات في طبيعة الفكر التاريخي عند الإغريق" ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧٣م.

ـ عبد المعطى شعراوي ـ النقد الأدبي عند الإغريق والرومان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٩م.

ـ لطفى عبد الوهاب يحيى "عالم هوميروس" مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد الثاني عشر عدد ٣ (١٩٨١م).

ـ ــــــــ: "الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة" مجلة عالم الفكر، العدد ٢ مجلد ٣٨، أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠٠٩م.

ـ محمد السيد محمد عبد الغني "نظرة الأثينين إلى الأسطورة" مجلة عالم الفكر، العدد ٢، مجلد ٣٨، أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠٠٩م.

ـ محمد حمدي إبراهيم: "الحياة الفكرية والثقافية في أثينا" مجلة عالم الفكر، العدد ٢ المجلد ٣٨، أكتوبر ديسمبر ٢٠٠٩م.

ـ محمد صقر خفاجة ـ هوميروس شاعر الخلود ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٦م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- AARON JOHNSON, *Religion and Identity in Porphyry of Tyre*, Cambridge, 2013.

- ALLAN H. GILBERT, *Literary Criticism* (*Plato to Dryden*), American Book Company 1940.

- BALDWIN, BARRY, "Athenaeus and his Work". *Acta Classica. 19.* 1976.

- ___________. "The Minor Characters in Athenaeus". *Acta Classica 20.* 1977.

- BERTRAND RUSSELL, *A History of Western Philosophy*, Simon & Schuster, 1972.

- BURNET. J., *Early Greek Philosophy*, London 1930.
- BLAMIRES. H, *Ahistory of literary criticism.* Macmillon 1991.
- BOARDMAN. J., The oxford History, *The classical World.* New York. 1986.
- CARNES LORD, *Introduction to The Politics by Aristotle,* University of Chicago Press, 1984.
- CHRIST. M. R., "Theopompus and Herodotus: A Reassessment". *The Classical Quarterly,* 43. New Series 1993.
- CUYPERS. I., *Ruins of Greek Historiography.* Oxford 2010.
- DONALD YEOMANS. K., *Great Comets in History.*, 1998.
- HAINSWORTH. J. B., *The Criticism an Oral Homer,* JHS. 90. 1970.
- JOHNSTON. W.D., *Greek Literary Criticism,* Oxford 1907.
- JONA LENDERING, *Scylax of Caryanda.* Oxford 2008.
- *Helanico de Lesbos* 1991, fragment 84.
- KAGAN, DONALD, *The Peloponnesian War.* New York 2003.
- KURT VON FRITZ, *The historian Theopompus - His political convictions and his conception of historiography.* In: American philological review 46, 1941.
- LOUIS FOWLER, *Early Greek Mythography, Oxford,* Oxford University Press, 2000.
- LUCE. J.T., *The Greek Historians.* London 1997.
- MCLEISCH, KENNETH COLE. Aristotle: *The Great Philosophers.* Routledge , 1999.
- TOZER. H., *A History of Ancient Geography,* Cambridge 1935.
- WEST. M. L. HESIOD, *Theogony,* Oxford University Press 1966.
- SMITH, WILLIAM, *Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology.* Boston 1967.
- BARON. A., Timeaus *of Tauromenium and Hellenistic Historiography.* Cambridge 2012.
- ALTY, JOHN, "Dorians and Ionians". *The Journal of Hellenic Studies.* 102: 1982.
- ARNALDO MOMIGLIANO, *The Development of Greek Biography,* Harvard 1971.
- ARNOLD. TOYNBEE, *Greek Historical, Thought,* New York. 1952
- BOYER, *Ionia and the Pythagoreans,* Oxford.1991.
- BRUCE. A.E., *Theopompus and classical Greek historiography,* history & theory 1x.1970.
- BURY. J.B., *The ancient Greek Historians,* New York 1958.
- CAMERON, "The Date and Identity of Macrobius", *Journal of Roman Studies,* 56 (1966), "Eine epische Atlantias", *Hermes,* Vol. 52, No.3 Jul., 1917.
- DENNISTON. J.D., *Greek Literary Criticism,* London, 1924.
- DURANT, WILL., *The Story of Civilization,* Volume 2: *The Life of Greece.* Simon & Schuster 1939.
- EHRENBERG. V., *from solon to Socrates(Greek History and Civilization during the 6th and 5th centuries,* B.C.Methuren. 1973.
- GOMME. A., A. ANDREWS and J.K. DOVER. *A Historical commentary on Thucydides,* Vol 4, Oxford 1970.

- GRANT. M., *The Ancient historians*, London 1970.
- GUTHRIE, W.K.C., *A History of Greek Philosophy*. Vol. 2: Cambridge University Press, 1965.
- JASPERS. K., The *Great Philosophers*. New York. 1993.
- JOHN FOSSEY, M: *The Ancient Topography of Eastern Phokis. J. C. Gieben*, Amsterdam 1986.
- LAVERS, *Chris The Natural History of Unicorns*. New York, 2009: Morrow.
- LEVICK. B., *The ancient Historian and His Materials*, London.1975.
- MOMIGLIANO. A., *The development of the Greek Biography*, Cambridge 1971.
- O'CONNOR and E. F. ROBERTSON, *Thales of Miletus*, Oxford 2016.
- PEARSON. L., *Early Ionian Historians*, London 1939.
- VLASTOS, GREGORY, "Theology and Philosophy in Early Greek Thought", *The Philosophical Quarterly*. Vol. 2, No. 7. 1952.
- WALBANK. F.W., "Polemic in Polybius," *The Journal of Roman Studies*, Vol. 52, Parts 1 and 2 1962.

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٤٣ - ٨٢

مَظَاهِرُ ثَقَافَةِ المرتَدِّين في الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّة

صالح بن أحمد الضويحي*

ملخص البحث

كان ما يجمع بين المرتدين عموما وقياداتهم خصوصا عقدة الشعور بعلو المكانة وتيار العصبية الجارف، فنتج عنها التمرد على الرسالة الإسلامية، ورفض طاعة الخليفة، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة، واعتبروا ذلك نوعا من المذلة، وأداءً الجزية.

واتصفت قيادات المرتدين بالطمع والطموح لتصدر الجماهير، والسيطرة على القبائل واتخذوا وسائل متعددة، منها الأذان محاكاة لشعائر الإسلام، وادعوا نزول الوحي؛ ليجذبوا إليهم الجماهير.

وتميزت بعض قيادات المرتدين بالعناد، والكبر والحسد، وظهرت عليهم سلوكيات فيها شذوذ، وتناقض في المواقف، وقتلوا المراسلين، وبالغوا في شأن المرأة، وجعلوا لها القيادة، وأشاعوا الفاحشة، مما على الجيوش الإسلامية القضاء عليهم بعد تفرق الناس من حولهم.

هذه السلوكيات التي مثلت ثقافة للمرتدين في الجزيرة العربية في تلك المدة كانت نوعا من الأمراض القلبية يجب التحرر والتحذير منها؛ حتى لا يقع بعض أفراد المجتمع في ممارسة لون من ألوانها وهم لا يشعرون.

---

* الأستاذ المشارك بجامعة الملك سعود في الرياض.

المقدمــة

يعنى هذا البحث بدراسة مظاهر الثقافة عند المرتدين، ويعطي صورة واضحة عن مظاهر ثقافتهم التي سادت بينهم في مختلف جوانب حياتهم.

والثقافة كما هو معلوم تشتمل على المعرفة، والمعتقد، والفن، والأدب، والقانون، والعرف، والقدرات الأخرى والتي اكتسبها الإنسان من عضويته في مجتمعه[1]، وهو مخزون لدى أفراد المجتمع لما يصدر منهم من أقوال، وأفعال تسير حياتهم، وهذا ما رأيته تجسد لدى المرتدين في الجزيرة العربية؛ حيث سيرت حياتهم بثقافتهم الموروثة، التي ظهرت في اعتقاداتهم، وقناعاتهم بعد إعلانهم الردة عن الإسلام وممارسة شعائرهم، ومظاهر جديدة شكلت توجههم الثقافي والاجتماعي والتي من خلالها تتجلى مظاهر ثقافتهم.

أهمية الموضوع وسبب اختياره

كانت حركة المرتدين في الجزيرة العربية ظاهرة جديدة على مجتمع الجزيرة، ظهرت بعدما عم الإسلام كافة نواحيها، ولهذا فلم تتشكل في بداية أمرها بصورة واضحة.

ولعل ذلك يعود إلى أنها تجربة جديدة يمر بها الناس، فبعد أن كانت أطماعا شخصية لأفراد منهم، إذا بها تأخذ صورة جديدة، وتؤسس لثقافة بين الناس يتعاملون بها، ويمارسونها في حياتهم اليومية، مما يجعلها جديرة بالدراسة للتعريف بمعالمها وبيان تحكمها في أحوال الناس لاعتمادهم عليها.

---

(١) معن زيادة: معالم على طريق تحديث الفكر العربي، الكويت ـ منشورات عالم المعرفة ١٩٨٧م، ينقله عن كتاب إدوارد ب تايلور «الثقافة البدائية» الصادر عام ١٨٧١م.

كما ظهر من ثقافتهم التناقض في مسيرتها ، فبينما كانوا يسعون لرفض الولاية عليهم إذا بهم يتخذون وسائل الدين الذي رفضوه لتثبيت نفوذهم على الناس ، فيزعمون تلقي الوحي من السماء ، ويحاكون آيات القرآن الكريم ، ويسنون شرائع من عندهم ، يزيدون فيها وينقصون وفق أهوائهم .

كما ظهر عليهم التناقض في مبادئهم التي يدعون الناس إليها ، وبالغوا في شأن المرأة والتي كانت ثقافتهم القبلية لا تضعها في مكانها اللائق بها ، فإذا بهم يذعنون لقيادتها ، فضلا عما بدر منهم من سلوكيات قديمة كانوا يمارسونها قبل الإسلام .

وهذه الدراسة التي سأتناولها تعتبر جديدة في بابها ، فكل الدراسات السابقة تعنى بتصوير أحداث الردة ، وبيان ما جرى فيها من حروب وصراعات ، تمثلت بإعلان الردة عن الإسلام ، والاستقلال السياسي عن إدارته ، وموقف الخلافة في المدينة منه .

كما تعنى هذه الدراسة بقراءة الأحداث ورصد مجرياتها وبيان مظاهر الثقافة التي هيمنت عليها ، وسيرت حياة الناس فيها ، والتي تمثلت في توظيف العصبية القبلية لجمع الناس ، والوقوف بها أمام غيرهم ، وتمثلت كذلك برفض كل مظاهر الولاء للخليفة ، عن طريق رفض الزكاة ، أو السماع للولاة في أمرها .

يظهر للقارئ في أحوال المرتدين شعورهم المبني على ثقافتهم ، أن دفع المال والمتمثل في الزكاة إلى مركز الخلافة في المدينة النبوية ، وهو لون من النيل من سيادتهم ، ومكانتهم التي يرون فيها كمال صورتهم أمام الآخرين ، ولهذا فقد ظهر موقفهم واضحا برفض ذلك ، وقد تمثل هذا الرفض بمواقف مختلفة لكل قبيلة ، فقد قدمت وفود على المدينة من قبائل مختلفة بعد وفاة رسول الله ﷺ أمثال بني أسد وغطفان وهوزان وطيء ، وطلبوا من أبي بكر رضي الله عنه أن يعفيهم من الزكاة ، لكن أبا بكر رفض ذلك الطلب ، وأكد تمسكه بما كانوا

يؤدونه لرسول الله ، فلم يزدهم موقفه ﷺ إلا إصرارا على طلبهم[١] .

ومن ذلك أن أهل حضرموت[٢] كانوا قد بادروا بدفع الزكاة لعاملهم زياد بن لبيد ، ثم بدا لهم العودة فيها ، وقد قال الأشعث بن قيس[٣] لقومه : ما كان الرأي إلا قتل زياد بن لبيد ، وارتجاع ما دفع إليه من إبل الصدقة ، والله ما نحن إلا كعبيد لقريش ، مرة يوجهون إلينا أمية ، فيأخذون من أموالنا ما يريدون ، ومرة يولون علينا مثل زياد بن لبيد ، فيأخذ من أموالنا ويهددنا بالقتل ، والله لا طمعت قريش في أموالنا أبداً ، ووافقه قومه على ذلك ، ثم أنشأ أحدهم يقول أبياتاً من جملتها :

إذا نحن أعطينا المصدق سؤله فنحن له فيما يريد عبيد

ثُمَّ تَكَلَّمَ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ، واستثار في قومه الحمية والعصبية القبلية ، ودعاهم إلى وحدة الصف والكلمة ، ولزوم البلاد وحمايتها ومنع الزكاة ، وزعم بأنهم أحرى بالملك من غيرهم ، لأنهم من سلالة الملوك مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ قُرَشِيٌّ وَلا أَبْطَحِيٌّ[٤] .

وهكذا حدد هذا الموقف موطن الخلاف مع المدينة ، فهو يتمحور بمن يسوسهم ، ويأخذ الزكاة منهم وأن ذلك يمثل القيادة عليهم ، فهم يرون أن كمال الاعتداد بالنفس والقبيلة هو عدم الولاء لأحد ، ولهذا رأى زعيمهم الأشعث بن

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٤١؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٢: ٢٠٢.

(٢) ابن أعثم : الفتوح ١: ٤٧، ٤٨؛ الردة للواقدي ١: ١٧٤-١٧٩.

(٣) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي وفد على النبي ﷺ ، ثم رجع إلى اليمن ، فلما قبض رسول الله ارتد ، فحاصره زياد بن لبيد البياضي حتى نزل إليه ، فبعث به إلى أبي بكر الصديق ، فمن عليه وزوجه أخته ، وخرج إلى العراق ونزل الكوفة ، وكان أكبر أمراء علي يوم صفين ، ومات بالكوفة ٤٠هـ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١: ٢٤٨، ٣: ٤٤٩، ٥: ٧؛ البغوي : معجم الصحابة ، المحقق : محمد الأمين بن محمد الجكني ، الكويت ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ١: ١٩٢؛ وسير أعلام النبلاء ، دار الحديث ، ٣: ٣٦٢.

(٤) ابن أعثم : الفتوح ١: ٤٨؛ الردة : الواقدي ١: ١٧٥.

قيس بعدما سمع من قومه مقالاتهم بأن دعاهم إلى وحدة كلمتهم والالتزام بحماية بلادهم، ونسائهم، ومنع زكاة أموالهم، ثم تطلع إلى المكانة بين العرب فقال: إن العرب لا تعترف بطاعة بني تميم بن مرة وتدع سادات البطحاء من بني هاشم، وإن المؤهل لهذه المكانة هي قبيلته، فقد قال: إنها لنا أجود، ونحن لها أحرى، وأصلح من غيرنا؛ لأنا ملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قرشي ولا أبطحي، وهكذا نرى أن العرب تنافست على المكانة، والريادة للقبائل الأخرى، وقد يرى أحدهم في نفسه المكانة التي لا يراها لغيره.

وممن كانوا يرون الزكاة إتاوة، أو جزية مفروضة عليهم قرة[١] بن هبيرة بن سلمة؛ حيث قال لعمر بن العاص في عودته إلى عمان بعد أن أكرمه وخلا به: إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها فسوف تسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم[٢].

فقد ظهر من حديثه قناعته المطلقة بأن الزكاة جزية، أو ضريبة تؤخذ منهم لتأكيد ولائهم، وطاعتهم للمسلمين، وأنها كانت تدفع لرسول الله ﷺ، فلما مات امتنعوا ظنا منهم أن الإسلام إلى زوال، وأن الرسالة ملك سيحل محله آخر[٣]، وذلك فهم خاطئ لديهم، فثمة فرق كبير بين الزكاة وبين الجزية التي تؤخذ من غير المسلمين، ولعلهم كانوا قد تأثروا بما كان معروفا عندهم في الجاهلية

---

(١) قُرَّةُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ سَلَمَةِ الْخَيْرِ بْنِ قُشَيْرٍ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وقال له: (يا رسول الله، الحمد لله، إنَّا كنا نعبد الآلهة لا تنفعنا ولا تضرنا)، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «نعم ذا عقلا» فَأَكْرَمَهُ، وَكَسَاهُ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى صَدَقَاتِ قَوْمِهِ وقد قال كلاما يدل على ردته، ثم أنك ذلك، فَلَمْ يُعَاقِبْهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَفَا عَنْهُ وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ١: ٢٣١، حاشية كتاب الردة، ١: ٨٤؛ الاستيعاب، ٣: ١٢٨١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٥٩؛ ابن أعثم: الفتوح، ١: ١٦.

(٣) محمد حسن بريغش: ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأول، ١٣٨.

من خلال تعاملهم مع غيرهم من القوى المجاورة لهم من الروم والفرس وكثير منهم أسلم في عام الوفود ولم يتعمق الإسلام في نفوسهم ولم يفهموه حق الفهم.

وقد خلصوا من ذلك إلى أن العرب لا يمكن أن تدين بالولاء والطاعة مع الزكاة، وغاب عنهم حكمة الشريعة وحكمها؛ بأن الزكاة تؤخذ من الأغنياء، وترد إلى الفقراء، فلا مجال لاعتبارها إذلالا للناس، بل هي عنصر تضامن يؤمن للجميع حاجاته ومتطلباته.

دعوى علوهم على غيرهم

مما سيطر على نفوسهم، وبثه قادتهم فيهم شعورهم بعلو منزلتهم عن غيرهم من منافسيهم، فحين اشتهر أمر مسيلمة في قومه، وذاع صيته، استغل الولاء القبلي والمتابعة للعادات[1]، فلجأ إلى أسلوب يستدر به محبة الآخرين والقناعة به، وذلك بمقارنة قومه بغيرهم؛ بحيث لا يرون للآخرين عليهم فضلا، ولا ميزة، فقد تساءل أمامهم قائلا: لماذا صارت قريش أحقّ بالنبوّة والإمامة منكم؟ والله ما هم بأكثر منكم وأنجد، وإنّ بلادكم لأوسع من بلادهم، وأموالكم أكثر من أموالهم، وإن جبريل عليه السلام ليأتيني في كل يوم بالذي أريده من الأمور، وينزل علي كما كان ينزل على محمد بن عبد الله من قبل[2].

لقد كان مسيلمة يعلم أن قريشا لها فضل على العرب، ومكانة سامية في نفوسهم؛ لعدة أمور، منها فضل نسبهم على غيرهم، وحمايتهم للبيت الحرام، ورعايته وخدمته؛ ولهذا عدل عن المفاضلة بهذا الأمر إلى غيره، فقد ذكر أن قومه أكثر من قريش عددا، وأن بلادهم أوسع، وأن مال بني حنيفة أكثر من مال

---

(١) محمد حسن بريغش: ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأول، ١٥٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، ١: ٢١، الواقدي: الردة، ١: ١٨؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٦: ٣٨٩.

قريش ، فلا تقل بنو حنيفة عن قريش في هذه الأمور ، وأما فيما يخص الرسالة ، فقد كذب على قومه بزعمه نزول جبريل عليه ، وقد عمي عليه مضمون ما ينزل على رسول الله ، وهو العاجز أن يأتي بشيء مثله أو قريب منه ، ولهذا عاب عليه العرب ما يزعم أنه قرآن يأتي به جبريل ؛ لأن العرب تميز الصحيح من السقيم في حديثها ، فكيف غاب عنه ذلك ؟ ولكن الظاهر أنه أراد أن يحفز قومه لأتباعه ، وذلك بعرض ما لديهم من خصوصية تميزهم عن غيرهم من العرب حسب زعمه .

وثمة موقف آخر أراد مسيلمة من خلاله التأكيد على دعوى رسالته فقد استشهد برجلين من أصحابه أن رسول الله قد أشركه معه في أمر الرسالة[١] ، فشهدا له بذلك ، فكانت شهادة الزور التي فتن بها قومه ، فاتبعوه إلا قليلا منهم .

وهذا من التناقض الذي كان يعيشه مسيلمة ، فكيف يعلو على قريش وهم من أشركوه في أمرهم!

فالفخر والمنزلة العالية لهم أصحاب قريش ؛ حيث تفضلوا عليه بإشراكه معهم ـ كما يزعم ـ ، وليس له عليهم من فضل .

و شبيه بهذا ما فعله طليحة الأسدي مع قومه ، فحين طلب منهم قرة بن هبيرة الرجوع إلى ما سبق من المتابعة للإسلام ومبايعة الخليفة أبي بكر ، كان ردهم : لا نعطي الدنية في ديننا أبدا ، ونحن أحق بالخلافة من أبي قحافة[٢] .

فاعتبر المتنبئة العودة إلى الإسلام دنية ، ومكانة أقل في شأنهم ، بل كانوا يرون أحقيتهم بالخلافة من أبي بكر ﷺ ، فهل إذا تنازل لهم أبو بكر عن الخلافة سيعودون إلى الإسلام ؟! أظن أن ذلك كان مجرد ذريعة لاستمرارهم على باطلهم .

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ٢١، والشاهدان هما الرحال بن نهشل ومحكم بن الطفيل من اليمامة من قوم مسيلمة ، والواقدي : الردة ، ١: ١٠٩.

(٢) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ١٢.

وما ندري كيف تكون هذه الأحقية لهم، وهم يعرفون أصول العرب، وتقديرها لقريش، سواء كان ذلك في النسب والقبيلة، أم في بيعة الأمة لأبي بكر رضي الله عنه، ولكن استعلاء الباطل الذي هيمن على قلوبهم كان قد صدهم عن استماع الحق والإنابة إليه.

العصبية القبلية

ومما هيمن على ثقافتهم عودتهم إلى مرمى القبيلة، وتوظيفه في الصراع مع المسلمين، والسمو به عليهم وذلك مما يجتمع عليه قومهم، فهي أمر اعتاده العرب في حياتهم قبل الإسلام، وأسسوا عليه ثقافتهم وقناعتهم، ولما دخلوا في الإسلام وجدوه يساوي بين الناس، ولا يعير القبلية صورة في التميز عن غيرهم، ولهذا فإن زوال هذا المفهوم يحتاج إلى وقت حتى يدعوه، فما أن ارتدت بعض القبائل حتى برزت هذه الموروثات، وأضحى أمرها جليا، قال عيينة بن حصن: ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة، والله لأن نتبع نبيا من الحليفين ـ يعني أسدا وغطفان ـ أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش، وقد مات محمد، وبقي طليحة، فطابقوه على رأيه، ففعل وفعلوا[1].

فتأمل كيف أثرت العصبية القبلية على عيينة بن حصن ـ والذي لم يتمكن الإسلام من قلبه ـ وجعلته يعود إلى حلفه في الجاهلية ويوالي طليحة الأسدي.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت ـ دار التراث، ٣: ٢٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ـ دار الفكر، ٢: ٢٣١، وتحقيق عبد السلام تدمري، بيروت ـ دار الكتاب العربي، ٢: ١٠٣، حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، القاهرة ـ دار القاهرة ١٩٧٦م، ٦٠.

ومع يقينهم أن طليحة كاذب في دعواه ، فإنهم تبعوه ، وقدموه على رسول الله ﷺ ؛ بسبب تعصبهم القبلي وذلك بتقديم قبيلتهم «أسد» على قبيلة قريش ، فضلا عن التحالف الذى كان بينهما ، وكان لذلك الأولوية عندهم .

ولك أن تتساءل : هل كانوا يعرفون النبوة حقا ؟ أم أن فهمهم لها لم يصل إلى إدراك حقيقتها .

إن من تشرب رسالة المصطفى ﷺ يدرك قيمتها ومكانتها وعظمتها ، وأنه لا يمكن مساواتها بغيرها من الدعاوى .

إن تقديم الولاء للحليف يقدم صورة للواقع الذي كان عليه بعض العرب في الجزيرة العربية ، وأنهم لم يكونوا قد استوعبوا الرسالة حتى تؤثر في قناعاتهم .

ومن مواقفهم العصبية في الرسالة قول شاعرهم وهو الحطيئة بن جرول بن مالك[1] :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا	فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بإجابة	وهلا خشيتم حس راغية البكر
فإن الذي سألوكم فمنعتم	لك التمر أو أحلى إلي من التمر

---

(١) جرول بن أوس بن مالك العبسي المشهور بـ الحطيئة . شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وأسلم في زمن أبي بكر . ولد في بني عبس من أَمَةٍ اسمها (الضراء) دعِيًّا لا يُعرفُ له نسب فشبّ محروما مظلوما ، لا يجد مددا من أهله ولا سندا من قومه فاضطر إلى قرض الشعر يجلب به القوت ، ويدفع به العدوان ، وينقم به لنفسه من بيئةٍ ظلمته ، ولعل هذا هو السبب في أنه اشتد في هجاء الناس ، ولم يكن يسلم أحد من لسانه فقد هجا أمّه وأباه حتى إنّه هجا نفسه . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٤٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ٩: ٤٣٨؛ المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، ١: ١٠٥، والأبيات تنسب لمعدان بن الأسود ، ويدعى له الجفشيش ، ويقال إنها لحارثة بن سراقة بن معد يكرب الكندي .

فدى لبني ذبيان طريفي وتالدي عشية ذادوا بالرماح أبي بكر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة وقوموا ولو كان القيام على جمر

ومقصودهم أن الرسالة كانت لرسول الله ﷺ خاصة ، ولا يمكن أن يحملها أحد بعد وفاته ﷺ ، وذلك في إدارة شؤون الناس ، فإذا مات ، فإن لكل قبيلة نصيبا من الأمر بعده ، وهي أحق بإدارة شئون نفسها من غيرها ، فلا يحق ـ حسب زعمهم ـ ولاية أبي بكر ، ولا غيره .

ومن المواقف التي تدل على شيوع ثقافة العصبية ما ورد أن أبا طلحة النميري جاء إلى اليمامة واجتمع بمسيلمة فسأل : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم ، قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن ، قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، وقتل يوم عقرباء كافرا مرتدا[1] .

لقد تأكد لأبي طلحة النميري أن مسيلمة كاذب في دعواه ، وأن الحق والصدق مع رسول الله ﷺ ، لكن الهوى ، وعمى البصيرة ، وسيطرة العصبية ، وتجاوز الحق دفع طلحة إلى تقديم ولائه لمسيلمة ، وإنكار نبوة رسول الله ﷺ ، والسبب في ذلك عنده هو نسبه الذي يتفق فيه مع نسب مسيلمة ، ويبعده عن مضر ، وهذا يظهر بجلاء أن العرب لم تكن قد انفكت من رواسب العصبية في نفوسها ، وأن ضعف الإيمان بالنبوة دفعهم إلى العودة إلى موروثهم الجاهلي ، فأعادوه جزئيا إلى ثقافتهم ، وحكموه في مسار حياتهم ، بل في أكبر أمر يعنيهم وهو الإيمان برسول الله ﷺ .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٣: ٢٨٦، وعقرباء اسم مكان في طرف اليمامة ، عسكر فيه مسيلمة ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيوت ـ دار صادر ، ٤: ١٣٥، زين الدين الهمداني : الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة للترجمة والبحث والنشر ١٤١٥هـ، ١: ٦٨٦، (وهي معروفة الآن تبعد قرابة ٤٠ كيلا عن مدينة الرياض من جهة الشمال وإلى الشرق من مدينتي الجبيلة والعيينة) ، (ولم أجد ترجمة لأبي طلحة النمري) .

ولقد شاعت العصبية عندهم حتى عزا من ارتد من أهل البحرين من قبيلة بكر بن وائل سبب ردتهم[1] إلى أن ولاية أبي بكر ﷺ لم تكن لها أحقية بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولهذا تداولوا بينهم أن النعمان بن المنذر أحق من أبي بكر بذلك، وقد ذهبوا إلى كسرى، وحسنوا له ولاية النعمان وأن خليفة رسول الله ﷺ ضعيف اليد والرأي.

ولذلك نرى أن سبب الردة هو الجهل بحقيقة الإسلام وعدم تمكنه منهم، بينما العصبية القبلية كانت متمكنة منهم، وأنهم كانوا يرون قريشا منافسا قويا لهم لا تجب لها الولاية عليهم، ولذلك قالوا: إن النعمان خير من والي قريش أبي بكر ﷺ.

لقد كان مما ظهر بين المرتدين العودة إلى أخلاق العرب القديمة، ومنها النظر في مصلحة القبيلة بعيدا عن الولاء لأي شيء آخر، حقا كان أو باطلا، وذلك مما حرر الإسلام الناس منه وجعل الدين مقدما على كل شيء، ولكن بعض العرب لم يخالط الإسلام عقله وقلبه، فبقي حنينه إلى سالف عهده.

ومع أن العصبية كانت متمكنة من ثقافة المرتدين، فإن ذلك لم يمنع بعضهم من أن يعمل عقله، ويبحث عن الحقيقة والمصداقية، فحين قاتل عيينة بن حصن مع قوم فزارة، ورأوا مظاهر الهزيمة عليهم، رجع عيينة إلى طليحة يسأله عن الوحي الذي ينزل عليهم، وكأنه سيوظفه في مقاومة المسلمين، والتقوي به عليهم، لكنه كان في كل مرة لا يجد الجواب عند طليحة.

ولعل طليحة كان قد شعر بما قد يجلبه إقراره بنزول الوحي عليه، فحين بادره عيينة في المرة الثالثة؛ ليتأكد من حقيقة النزول عليه، وسأله عن ماذا أنزل عليه؟

---

(1) ابن أعثم: الفتوح، بيروت - دار الأضواء ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ١: ٣٨-٣٩؛ الواقدي: الردة، تحقيق يحيى الجبوري، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ١٤٧.

كان رد طليحة أن قال له : إنه نزل عليه : «إن لك رحاء كرحاه ، وحديثا لا تنساه» ، فلم تعجب هذه الكلمات عيينة ؛ لأنه سبق وأن عرف أساليب الوحي الذي كان ينزل على رسول الله ، فرد على طليحة قائلا : (أظن أنه قد علم الله أنه سيكون حديثا لا تنساه) ، ثم نادى قومه : يا بني فزارة ، هذا والله كذاب ، وولى عن عسكره ، فانصرفوا عنه وهزم[1] .

وأيا كانت مبررات عيينة بن حصن ، لكن الظاهر منه مخاطبة قومه أن دعوى طليحة بنزول الوحي عليه كانت كاذبة ، وأن ما يزعم أنه وحي لا يمكن التصديق به ؛ لأنه لا يتوافق وطبيعة الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ ، فضلا عن أن عيينة رجل عربي يعرف دلالات الكلام ومراده ، ولهذا لم يجد بدا من إطلاق لفظة الكذاب على طليحة ، وهذا يوحي أنه رغم كل المؤثرات المحتملة على العرب المرتدة ، إلا أنه يبقى عندهم حد يمكن القبول به أو رفضه في دعاوى الناس في هذه المرحلة ، وذلك من أسباب الرجوع إلى الحق .

والواقع أن هؤلاء العرب المرتدين كانوا حديثي عهد بالإسلام ، لذلك لم يتدبروا أحاديث الرسول ﷺ ، التى تدعوا إلى ترك العصبية القبلية .

وأما طليحة الأسدي فبعد ردته عن الإسلام أتبع ذلك بإعلان نبوته ، واستمراره بمواجهة[2] المسلمين ، ومحاربتهم ، ولكنه لما ظهر له أن الباطل الذي يحمله لا يمكنه من مواجهة الحق ، تخلى عنه ، وانهزم أمام جيش المسلمين ، وتخلت عنه القبائل ، فلم يجد بدا من أن يخلي ساحة القتال ، ويحمل أهله معه ، ويغادر الجزيرة العربية ، بل دعا قومه إلى الخروج معه ، ثم استقر به المقام في الشام عند قبيلة

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٥٦؛ الفتوح : ابن أعثم ، ١: ١٤، البلاذري : فتوح البلدان بيروت ـ مكتبة الهلال ١٩٨٨م ، ١: ١٠١؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢: ٢٥؛ الواقدي : الردة ، ١: ٩١.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٦١، الواقدي ، الردة ، ١: ١٠١.

كلب، وحين جاءته الأخبار بعودة أهله إلى الإسلام، كان بإمكانه أن يبقى في الشام عند قبيلة كلب أو العودة إلى بلاده، والدخول في الإسلام، فاختار العودة إلى الإسلام، ورجع إلى بلاد المسلمين، وذهب إلى مكة لأداء العمرة، ولم يمر على المدينة؛ حياء من أبي بكر، ولكنه جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ بعد توليه الخلافة؛ ليبايعه على الإسلام، فبايعه عمر ﷺ ذلك، وخرج طليحة مع المسلمين إلى العراق فحسن بلاؤه في الفتوح، واستشهد في نهاوند عام ٢١هـ[١].

ادعاء الوحي لإثبات الصدق

ومن مظاهر الثقافة التي ظهرت على المرتدين ادعاء نزول الوحي على المتنبئين؛ لإثبات صدقهم أمام الآخرين، والتشريع لهم في عبادتهم وظهر هذا واضحا عند اشتداد الأزمة عليهم فحين لما اقترب جيش خالد بن الوليد من معسكر طليحة الأسدى ومن معه وشعروا بخطورة الأمر، فتوجه طليحة مخاطبا قومه: «يا معشر بني أسد، لا يهولنكم ما قد اجتمع إلى خالد من هذا الجيش، فإنهم على باطل وغرور، وأخرى فإنهم لهجوا بهذه الصلاة، فهم يظنون أنهم محسنون، ولقد أتاني جبريل يخبرني عن ربي أنه ليس يحتاج إلى تعفير وجوهكم، وفتح أدباركم، ولا يريد منكم ركوعا ولا سجودا، وإنما يريد منكم أن تذكروه قياما وقعودا، فانظروا أن تمنعوا القوم أموالكم كما منعتموها في جاهليتكم»[٢].

لقد وجد طليحة الفرصة سانحة لاستغلال هذا الظرف الذي يمر به قومه من حالة الضعف، والخوف، وأن يرفع من معنوياتهم، وأن يضعف خصمهم أمامهم

---

[١] الواقدي: الردة، حاشية ص ٤٩؛ ابن الأثير: الكامل، ٢: ٣٤٣-٣٤٩؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت - دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، ٣: ٥٤٢.

[٢] ابن أعثم: الفتوح، ١: ١٣؛ الواقدي: الردة، ١: ٨٧، المطهر المقدسي: البدء والتاريخ، ٥: ١٥٨.

بدعوى نزول الوحي عليه في ذلك، فقد وصف جيش خالد بأنه على باطل، وغرور، وأن هذا لن يضيف إليه إلا الضرر والمعاناة، ثم انتقل إلى ما يراه يميز به قوم خالد عن قومه، وهو أداء الصلاة التي يظنون بها الإحسان، والتقوي بها عليهم، فهرع إلى ما رسمه في نفوسهم من نزول الوحي عليه، فادعى أن جبريل أخبره عن ربه: أنه لا يرى في هذه الصلاة رفعة للناس، فالصلاة كما يرى أنها لا تعدو أن تكون تعفيرا للوجوه بالتراب، وعلوا للأدبار، وإنما يريد الله ـ كما يزعم ـ في تشريع جديد جاء به أن يذكروه قياما وقعودا.

فطليحة يرى أن ذلك أولى من تلك الصلوات مستغلا ما غرسه في نفوسهم من نزول الوحي عليه، وما جاء منه من توصيات في ظل تلك الظروف الخاصة يعطي الدلالة على تصورات وممارسات طليحة، وأنه أراد أن يتميز عن المسلمين في عبادتهم، بحيث ينفي عن نفسه الردة، ويجعل ما يدعو إليه تنزيلا جديدا، بعد رسول الله ﷺ.

وحين أطبقت جيوش المسلمين على طليحة وقومه، ورأى ان قومه قد يفرون عنه، بحث عما يدعوهم إلى الثبات، ومواجهة المسلمين، فقال لهم: إن عيينة بن حصن قد خاف من حرب القوم، وأيم الله، لو كانت نيته صادقة لما خاف أحدا أبدا إذا كان على هذا الدين.

فانظر كيف صور طليحة لقومه صدق قوله، وقناعته الواضحة بدعواه.

وقد قامت نوار زوج طليحة بالتشنيع على من ينسحب من جبهة القتال، وناداهم طليحة: ويحكم! ما بالكم منهزمين؟ فقال رجل منهم: أنا أخبرك يا أبا عامر: لم لا ننهزم؟ نحن قوم نقاتل ونريد البقاء، وهؤلاء قوم يقاتلون، ويحبون الفناء، وعندما رأت نوار امرأة طليحة بوادر الهزيمة تكاد تحل بزوجها بعد تفرق أنصاره قالت: أما إنه لو كانت لكم نيّة صادقة لما انهزمتم عن نبيكم! فقال لها رجل منهم: يا نوار! لو كان زوجك هذا نبيا حقا لما خذله ربّه، فلمّا سمع طليحة

ذلك صاح بامرأته : ويلك يا نوار! اقتربي منّي فقد اتّضح الحقّ وزاح الباطل ، ثم استوى طليحة على فرسه ، وأردف امرأته من ورائه وفرّ منهزما مع من انهزم[١] .

وهكذا أبدت نوار رأيها في نتيجة المعركة ، فقد تكلمت بنوايا جندهم ، وأنه لم يكن هدفهم كما تزعم خدمة ما يدعو إليه زوجها ، بل وراءهم أهداف يسعون إلى تحقيقها ، ويمشون في سبيلها .

لقد عمد طليحة وزوجه إلى التذكير بالقيم ؛ ليزعم تمثله بها ، وأن صدق النية في القناعة بما جاء به ، وصدق الولاء له هو ما يثبت المرء في مواقف الشدة ، وأن من انسحب فقد تجرد من كل هذه القيم والمبادئ ، فوقع في قلبه الخوف ، وأن ذلك كان سبب فراره من المعركة .

وثمة موقف آخر لطليحة اعتمد فيه الوحي المزعوم ؛ حيث استغل فيه حاجة الناس إلى الماء فدلهم على مكانه ـ ولا شك أنه كان يعرف مكانه من قبل ـ فوظفه في إثبات علم الغيب ؛ حيث قال لهم : اركبوا علالا ، فاضربوا أميالا ، وجاوزوا الرمالا ، وشارفوا الجبالا ، ويمموا التلالا تجدوا قلالا[٢] .

لقد رَكّب طليحة هذه الكلمات ؛ ليدل قومه على مكان يعرفه ؛ ليشربوا منه بعد ما أحسوا بالظمأ ، واعتبر ذلك فرصة سانحة ؛ ليزيد من قناعتهم بدعواه ؛ مستغلا حاجتهم إلى الماء ، وهو ما تحقق ، فبعد أن وجد القوم الماء زادت فتنتهم به ، والتعلق بدعوته .

دعوى مسيلمة مشاركة الرسول ﷺ في النبوة

الواقع أن دعوى الانتفاع من الوحي لم تكن مقصورة على طليحة وحده ، فهذا

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ١٤ـ ١٥؛ الواقدي : الردة ، ١: ١٩.

(٢) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ١٣؛ الواقدي : الردة ، ١: ٨٨.

مسيلمة يزعم مشاركة الرسول ﷺ في حياته بنزول الوحي عليه، ويشيع هذه الثقافة في قومه حتى تحقق مراده، فالمطلع على أحوال مسيلمة يرى أنه لم يعلن دينا جديدا، بل ربط نفسه بالإسلام، وأنه جزء منه؛ لهذا كانت دعواه في أول لقاء برسول الله ﷺ أنه خاطبه، وربما طلب منه أن يشركه في النبوة؛ ولهذا جاء رد رسول الله ﷺ بقوله: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه(١).

وقيل: إنه لما وفد مع قومه على رسول الله بقي خارج المدينة، فذكروا لرسول الله ﷺ أنهم خلفوا صاحبا لهم في رحالهم يحفظها، فأمر له رسول الله بمثل ما أمر للقوم، وقال: إنه ليس بشركم مكانا؛ لحفظه ضيعة أصحابه(٢)، وهذا الذي كان يقصده رسول الله ﷺ.

لكن مسيلمة وظف هذه الكلمة لخدمته، وقال: إن رسول الله قال ذلك لما علم بأني أشركت معه في الأمر؛ ولهذا فإن طلب مسيلمة المشاركة في النبوة كان يعني به أن دينه ليس جديدا، ولكن أحواله كانت تدل على تبديله في دين الإسلام، ونسج آيات يدعي أنها من آيات القران الكريم نزلت عليه وحيا، ولا أدري كيف غفل عن أن العرب تعرف لغتها، وتدرك جودة استخدامها.

وهذا الذي جعل ثمامة بن أثال ينادي في قومه بقوله: إن محمداً ﷺ كان نبياً مرسلاً، لا شك في نبوته، ومسيلمة رجل كذاب، لا تغتروا بكلامه وكذبه، فإنكم قد سمعتم القرآن الذي أتى به محمد ﷺ عن ربه؛ إذ يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢: ٥٧٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ١٣٨.

[سورة غافر، آية ٣] . فأين هذا الكلام من كلام مسيلمة الكذاب ؟[١] .

فاستشهاد ثمامة بالقران الكريم ، كان يريد منه بيان حقيقة ما ادعاه مسيلمة في القرآن الذي يتلوه على الناس وليضعف حجته أمام أتباعه ، ويكشف حقيقة أمره ، ويجعله يدرك أن أمره غير مستقيم ، فكيف يؤمن برسول الله ، ثم يعمد إلى التشريعات ويتصرف فيها ، فقد وضع عن قومه الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ، وكم يأخذك العجب من هذا التناقض الذي يظهر عليه ، وعموم قبيلته تعلن ولاءها له .

تقليد الرسول ﷺ في معجزاته

وبحكم ما كان يظهر بين يدي رسول الله ﷺ من معجزات ، فإن مسيلمة عمد إلى هذا الأمر ؛ ليظهر لأتباعه ويقرر أمامهم أن المعجزات هي من وسائل نبوته ، فتنتشر هذه الثقافة في الناس ، ويكون ذلك دافعا لإيمانهم به ، وقد حاكى مسيلمة الكذاب رسول الله ﷺ في أعمال يرى أنها ربما تقنع الناس بنبوته ، وتزيد ولاءهم له ، فقد شكت له امرأة من بني حنيفة بؤس حالهم وذلك بضعف سقي نخيلهم ؛ لندرة الماء عندهم، وسألته الدعاء لمائهم ونخلهم ، فسأل أصحابه عن فعل رسول الله ﷺ في مثل هذه الحالة ؛ ليحاكيه بالجواب ، فذكر له حال رسول لله مع أهل هزمان ، وأنهم شكوا حالهم وأنه كان كحال أهل هذه المرأة ، فدعا لهم رسول الله ﷺ ؛ فتغيرت أحوالهم ، وصارت أحسن مما كانت .

---

[١] ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٦: ٧٦، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، تحقيق وتعليق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ ، ٦: ٣٢٦.

فدعا مسيلمة بسجل ودعا لهم فيه فتمضمض فيه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى أفرغوه في تلك الآبار فغارت مياهها ، وخوت نخيلها[١] ، فكانت النتيجة عكس ما تحقق من فعل رسول الله ﷺ[٢] .

محاكاة قادة المرتدين للرسول ﷺ في معجزاته

ومما سعى إليه قادة المرتدين في تأكيد صحة دعواهم ما أشاعوه من ثقافة محاكاة القرآن الكريم ، وذلك بإخراج نصوص أدبية يحاكون بها آياته ، وأرادوا أن يتخذوا ذلك سبيلا إلى كسب أقوامهم ، وظنوا أن تلك المحاكاة أهون عليهم ، وأقرب تأثيرا في نفوسهم ، وذلك حتى يظهروا للناس صورة يقبلونها بدلا عن كتاب الله ، ويصوروا للناس أن مصدرها أمين الوحي جبريل عليه السلام ، الذي كان يأتي رسول الله ﷺ ، وذلك يدل على قناعتهم بصدق النبوة ، وأنهم يرون أن مصدرها محل تقدير ، وثقة عند الناس ، ولذلك ذكر أن طليحة الأسدي قال وهو يقابل جيوش المسلمين : إن جبريل قال لي : (إن لك رحا كرحاه ، وحديثا لا تنساه)[٣] .

وقد كان طليحة يسخر أدبه للمواقف التي يمر بها ، فكما طرح على الناس الرحا والحديث الذي لا ينسى ، فقد قال في موقف آخر : (الحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام)[٤] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٨٤؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢: ٢١٦؛ جواد علي : دار الساقي ، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام ، ١١: ٩٣.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٥٦؛ الفتوح : ابن أعثم ، ١: ١٤؛ البلاذري : فتوح البلدان ، بيروت ـ مكتبة دار الهلال ١٩٨٨م ، ١: ١٠١؛ ابن الأثير : الكامل في التأريخ ، ٢: ٢٥؛ الواقدي : الردة ١: ٩١.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٦٠؛ الكامل في التأريخ ، ٢: ٢٠٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ٩: ٤٥٤؛ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، بتحقيق محمد عبد القادر عطا ،=

وهكذا استمر طليحة في التضليل؛ حتى يبث الأمل في نفوس أتباعه، فيستمروا في ولايتهم له، وحين التجأ القوم إلى بزاخة، قال لهم: (أمرت أن تصنعوا رحا ذات عرى يرمى الله بها من رمى، يهوى عليها من هوى[١]، وأردف يخاطب أتباعه؛ ليثبتهم في ساحات القتال: (ابعثوا فارسين، على فرسين أدهمين، من بني نصر بن حصين، يأتينكم بعين[٢].

وهذه صور من تعامله مع أتباعه يحاكي بها القرآن من خلال سجعه المتكلف.

ومن الهذر الذي قالته سجاح[٣] في حثها على قتال الرباب من بني تميم الذين لم يعترفوا بنبوتها قولها: (أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب)[٤].

لقد كان حديثها يقوم على سجع الألفاظ، وربما رأت أن ذلك يوحي بتميز ما عندها، فهي لا تريد أن يكون حديثها كحديث الناس بعضهم لبعض؛ حتى تبقي مكانا لنبوتها.

=مصطفى عبد القادر عطا، ٤: ٢٤، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ، ٤: ٢٤.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٦٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٦٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق عمرو العمروي، بيروت ـ دار الفكر ١٤٢٥هـ ـ ١٩٩٥م، ٢٥: ١٦٦.

(٣) سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية من بني يربوع، وكانت في بني تغلب بالجزيرة، شاعرة وأديبة، وهي من نصارى العرب وكان لها علم بالكتاب، تنبأت بعد موت رسول الله ﷺ، فاستجاب لها الهذيل وتركت التنصر، وتابعها جمع من عشيرتها، بينهم بعض كبار تميم: كالزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، وشبث بن ربعي الرياحي، وعمرو بن الأهتم وقد قابلت مسيلمة، وتزوجها وعادت إلى بني تغلب فمكثت حتى نقلهم معاوية في عام الجماعة من الجزيرة إلى الكوفة، وقد أسلمت وحسن إسلامها، ابن كثير: البداية والنهاية، ٩: ٤٥٧؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٦٩؛ الزركلي: الأعلام، بيروت ـ دار العلم للملايين ٢٠٠٢م، ٣: ٧٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٧٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢: ٢١٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٩، ابن الجوزي، المنتظم، ٤: ٢٢.

كما وظف مسيلمة هذا السجع في استجابته لشكوى قومه من اعتداء بني أسيد عليهم فقال: (والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم ما انتهكت أسيد من محرم)، وحين تكرر اعتداء بني أسيد على قومه قال: والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس، ولكي يقترب من حياة قومه نسج لهم ما يذكرهم بمعاشهم فقال: والشاة وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، ما لكم لا تمجعون.

وكان يقول: والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه)[1].

و هكذا، فإن مسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة، وأساليبها، ومحاسنها، ودقائق التركيب البياني، كأنما فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات، وأجراس الحروف دون ما عداها[2].

وهذا ما يظهر الفرق بين المتنبئة، وبين مشركي العرب الذين لم يلجؤوا إلى المحاكاة، فإنهم وإن ضلوا في عقولهم، وجحدوا الحق، فقد كانوا أوسع إدراكا، وأكثر تمييزا.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٨٣؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٤: ٢١؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١١: ٩٢.

(٢) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن، القاهرة ـ دار الفكر العربي، ١: ٢١٠.

اتخاذ الأذان وسيلة للإبلاغ

ومما ساد في ثقافتهم اتخاذ الأذان وسيلة لإبلاغ أتباعهم، فحاكوا بذلك أذان الصلاة؛ ليتخذوا من ذلك شرعية لوجودهم، ولتبليغ أتباعهم بما يرون الحاجة تدعو إليه، فهذه سجاح بنت الحارث[١] اتخذت مؤذنا يشهد بالنبوة لها فيقول: أشهد أن سجاحا نبية الله، ويردد ذلك في اليوم والليلة خمس مرات، فينتشر أمرها ويؤكد دعوتها وبالذات لدى ابناء قبيلتها؛ مما يزيد من أتباعها ويؤكد نبوتها عندهم.

بل إن سجاحا لما قابلت مسيلمة، ثم انصرفت إلى قومها فسألوها ما عندها، فردت أن الحق عليها، فاتبعته وتزوجته، وحينما سئلت عن صداقها منه، أفادت بأنها لم تأخذ منه شيئا، فطلبوا منها أن ترجع إليه؛ لتأخذ صداقها؛ حيث إن تركها الصداق لا يليق بها، فلما رجعت ورآها مسيلمة أغلق الحصن دونها، وسألها عما تريد، قالت: أصدقني صداقا، فسألها عن مؤذنها، فقالت: إن شبث الرياحي، فدعاه ليمارس الدور المنتظر منه، وأمره أن ينادي في الناس بالإعلان: أَلا إِنَّ نَبِيَّكُمْ مُسَيْلِمَةَ قَدْ رَفَعَ عَنْكُمْ صَلاتَيْنِ مِنَ الخَمْسِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَهِيَ صَلاةُ الْفَجْرِ وَصَلاةُ الْعِشَاءِ الأَخِيرَةِ. فَقَالَتْ سَجَاحُ: أَشْهَدُ: لَقَدْ جِئْتَ بِالصَّوَابِ[٢].

وقد كانت هذه المناداة في القوم جميعا، فبلغت رسالة مسيلمة إليهم جميعا بإسقاط هذه الصلاة عنهم.

---

(١) ابن أعثم: الفتوح، ١: ٢٢؛ الواقدي: الردة، ١: ١١١.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، ١: ٢٨؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٧٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢، ٢١١؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٦: ٣٩٤.

وهكذا استقر في ثقافة الناس أن الأذان هو الوسيلة لتبليغ الأمر الذي يراد للناس معرفته ، ولعل ذلك يعود لما اعتاد عليه الناس ، ومحاكاة لنداء الصلاة ، وبهذا يتضح أن زعماء الردة قد وجدوا الآذن وسيلة يبلغون بها أخبارهم لتأكيد مرادهم في ادعائهم النبوة باتخاذهم إحدى وسائلها .

استخدام الشعر والنثر في تواصلهم

كذلك ساد في ثقافتهم أن الشعر وسيلة لنقل آمالهم والسمو بمعتقداتهم فكما كان الشعر عند العرب هو وسيلتهم للتواصل والتعريف ، والمدح والهجاء ، وقد أصبح ذلك في فترة الردة وسيلة للتعبير عن واقعهم ، وسببا من أسباب تباهي بعض القبائل على غيرهم ، ومن ذلك قول عطارد بن حاجب معرفا بحال قومه ، ومبينا تميزهم عن غيرهم من العرب :

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا[1]

لقد عرف الشاعر بنبيتهم سجاح ، وأنها أنثى ، وبين أن أنبياء العرب ذكور ، فهل هي ميزة يفتخر بها ؟ أم هي حالة فرضت نفسها عليهم ، فاستجابوا لها ؟

و هذا مسيلمة عندما تَرَاجَعَتْ بَنُو حَنِيفَةَ في إحدى المعارك وَقَفَ أَمَامَ قَوْمِهِ ، ثُمَّ حَسَرَ عَنْ رَأْسِهِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

أَنَا رَسُولٌ وَارْتَضَانِي الْخَالِقُ ... الْقَابِضُ الْبَاسِطُ ذَاكَ الرَّازِق

يا ابن الْوَلِيدِ أَنْتَ عِنْدِي فَاسِقُ ... وَكَـافِـرٌ بِـرَبِّـهِ مُـنَـافِـقُ[2]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٤٤، ٢٤٧؛ المطهر المقدسي : البدء والتاريخ ، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ، ٥: ١٦٥.

(٢) الواقدي : الردة ١: ٢٩.

ويقول أحد المرتدين في موطن آخر وهو عمرو بن عبد العزى بن عبد الله السلمي[(١)] :

سَلِ النَّاسَ عَنَّا كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ إِذَا مَا الْتَقَيْنَا دَارِعِينَ وَحُسَّرَا
أَلَسْنَا نُعَاطِي ذَا الطِّمَاحِ لِجَامَهُ وَنَطْعَنُ فِي الْهَيْجَا إِذَا الْمَوْتُ أَقْفَرَا!
وَعَاضِرَةٌ شَهْبَاءُ تَخْطُرُ بِالْقَنَا تَرَى الْبُلْقَ فِي حَافَّاتِهَا وَالسَّنَّوْرَا
فَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لأرجو بعدها ان أعمَرا[(٢)]

وفي حالة أخرى يعبر الشاعر حكيم بن عياش الأعور الكلبي وهو يعير مضر بسجاح :

أتوكم بدين قائم وأتيتم بمنتسخ الآيات في مصحف طب

وهنا كان الشاعر يؤكد للناس أن مضر جاءوا بدين واضح المعالم بين الأسس والأهداف أما المرتدون ، فقد كان ما جاءوا به مسجوعا على غرار الآيات القرآنية ، لكنه لا يحمل هدفا ولا معنى ، فعرفت العرب كذبه فأنكرته .

لقد وجدنا أن كثيرا من الشعراء وقف بشعره ضد الردة وأهلها ، ومن أولئك الشاعر وهب بن بني ضبيعة بن عجل ، حيث يقول :

ألم تر أن الله يسبك خلقه فيخبث أقوام ويصفو معشر
لحى الله أقواما أصيبوا بخنعة أصابهم زيد الضلال ومعمر[(٣)]

---

(١) عمرو بن عبد العزى بن عبد الله السلمي الشاعر ، وقيل : عبد الله بن عبد العزّى بن قَطَن ، وقيل : عمرو بن الحارث بن عبد العزى ، وقيل : سليم بن عبد العزى ، وقيل : سليم بن عبد العزيز بن عبيد السّلميّ ، ويكنى أبا شجرة السلمي ، ووقع ذِكْرُه في كتاب «الرِّدَّة» لوثيمة ، لكنه قال : أبو شَجرة بن شريد ؛ فكأنه نُسب إلى جده لأمه ، وأمُّه الخنساء بنت الشريد الشاعرة المشهورة ، أسلمَتْ هي وأولادها ، وقد أسلم معها ، ثم ارتدّ في زمن أبي بكر ، وقاتل المسلمين ، قال المبرّد في «الكامل» : «كان من فُتَّاك العرب» .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣: ٢٦٦.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣: ٣١٠.

لقد جلى هذا الشاعر حال الناس، وكيف قسمهم الله إلى قسمين، أحدهما في الخبث والآخر في الطهر والنقاء.

وهذا الشاعر عفيف بن المنذر يقول:[١]

أَلم تَرَ أنَّ اللّه ذلَّلَ بَحْرَه وأنزل بالكفّار إحدى الجَلائِلِ
دَعَوْنا الذي شقَّ البحارَ فجاءنا بأعجب من فَلْقِ البحار الأوائلِ[٢]

وهذه أبيات من الشعر قالها عابد الناجي[٣] بعد هزيمة المرتدين في عمان:

لعمري لقد لاقى لقيط بن مالك من الشر ما أخزى وجوه الثعالب
وبادى أبا بكر ومن هل فارتمى خليجان من تياره المتراكب
ولم تنهه الأولى ولم ينكأ العدا فألوت عليه خيله بالجنائب[٤]

ممارسات سلوكية

التناقض في المواقف

ومن مظاهر ثقافتهم ما يمارسونه سلوكيا من مخالفات لتشريعات فرضوها على أتباعهم، فقد ظهر عند قيادات المرتدين مثل مسيلمة تشريعات جاء بها إلى أتباعه،

---

(١) عفيف بن المنذر هو أحد بني عمرو بن تميم، شهد مع العلاء بن الحضرمي قتال الحطيم، وأبلى فيه بلاء حسنا، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٥: ١٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ الامم ٣: ٣١١؛ الذهبي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٤: ٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٩: ٤٧٩.

(٣) عباد الناجي له إدراك شهد بعض الفتوح في زمن أبي بكر، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٥: ٦٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣: ٣١٦؛ ابن أعثم: الفتوح، ١: ٥٩.

منها[١] أنه لا يجوز لرجل أن يتزوج وقد رزق بمولود ذكر ، ويستثنى من ذلك إذا مات ذلك المولود ، وله حق الزواج والاستمرار فيه حتى يرزق بمولود ذكر ، عند ذلك يقطع زواجه ، لكن مسيلمة نفسه خالف هذه التعليمات ، وذلك حين التقى بالمتنبئة[٢] سجاح بنت الحارث التميمية ، فبعد أن ظهرت هزيمتها من تميم وبني أوس بن خزاعة ، انتهزت فرصة الحرب بين ثمامة بن أثال الحنفي[٣] ومسيلمة الكذاب ، وأحس مسيلمة بالخطر عليه فما كان منه إلى أن راسلها يستميلها ويضمن لها نصف الأرض ، وطالبها بالاجتماع للنظر فيما أبداه لها ، فوافقت على هذا الطلب دون ان تشترط لنفسها ، فدفع ذلك مسيلمة أن يقوم عليها برجاله ، واقترح عليها أن يتم الاجتماع بينهما منفردين ، فوافقت على ذلك ، وجرى بينهما حديث توجاه بالزواج ؛ مخالفا بذلك ما كان يأمر به أتباعه .

وثمة موقف آخر استخدم فيه من ادعى النبوة ما يظنه قومه وحيا ينزل عليه في تثبيت أموره ، وضمان تأييدهم له ، فقد بلغ أسيدا خروج خالد بجيشه إليهم ، فتخوفوا منه ؛ لأنهم قتلوا ثلاثة نفر من المسلمين ، فطلبوا من طليحة أن يعينهم في معرفة خبر خالد ﷺ ، فقال لهم :[٤] (إن أنتم بعثتم بفارسين بطلين على فرسين عتيقين أدهمين أغريّن محجلين من بني نصر بن قعين أتياكم من القوم بعين) فلما سمع قومه كلامه ، قالوا : نشهد إنك نبي حقا ، فليس هذا الكلام إلا من كلام

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ٢٢.

(٣) ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالِ بْنِ النُّعْمَانِ الْحَنَفِيُّ أَسْلَمَ ، فَضَيَّقَ عَلَى قُرَيْشٍ فَلَمْ يَدَعْ حَبَّةً تَأْتِيهِمْ مِنَ الْيَمَامَةِ فَلَمَّا ظَهَرَ مُسَيْلِمَةُ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ قَامَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فِي قَوْمِهِ فَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ . فَلَمَّا قَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْيَمَامَةَ شَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَعَرَفَ بِهِ صِحَّةَ إِسْلَامِهِ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ٦، ٧٥، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٢٧٠، ٢٧١، ابن أعثم : الفتوح ، ١: ١٢؛ الواقدي : الردة ١: ٨٧.

الأنبياء، ثم بعث القوم فجاءوا بخبر خالد فازداد الناس فتنة به؛ حيث ظللهم بعبارته المسجوعة وأوهمهم أنه يعلم الغيب، والأمر على خلاف ذلك.

فتأمل كيف ضلل قومه بتلك العبارات المسجوعة، والتي ظن قومه أنها كما جاء في القرآن، وهؤلاء هم فاقدو الرأي من أهله وذريته.

ولما قبض على عيينة بن حصن بعد ما انهزم جيش طليحة، وفر كثير من الناس وأتي به إلى المدينة، وكان الناس يرونه مسلما، فجعلوا يقولون له: أكفرت بعد إيمانك، وقاتلت المسلمين؟ فاعترف أنه لم يكن مسلما وأنه كان يضمر النفاق، ولما أتي به إلى الخليفة قال: يا عدو الله، أأسلمت وقرأت القرآن، ثم رجعت بعد الإسلام كافرا، لأضربن عنقك صبرا، فقال عيينة: يا خليفة رسول الله، إن الجميل أجمل، وقد كان رسول الله ﷺ أعرف بي منك، فلم يكن يخفى عليه شيء من أمري، ولقد خرج من الدنيا وإني لمقيم على النفاق، وأعلن توبته وطلب العفو، فعفا عنه أبو بكر رضي الله عنه[1].

وقال شرحبيل بن مسيلمة: (يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم[2] تستردف النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم).

إن المتأمل يجد أن أهل الردة لم يكونوا يعولون على مبادئهم في توجيه الناس في الأزمات، بل يذهبون إلى غيرها، فمقالة شرحبيل واضحة في العودة إلى ما يصيب الأسرة إن وقعت الهزيمة عليهم، لا ما يصيب المبدأ الذي يدافعون عنه، فالمبدأ يتوارى في الملمات.

---

(١) ابن أعثم، الفتوح ١: ٢٢؛ الواقدي: الردة، ١: ٩٥.

(٢) محمد رشيد رضا: أبو بكر أول الخلفاء ٦٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، القاهرة ـ دار الحديث ٢٠٠٦م، ٢٨: ٤٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢: ٢١٦.

تمردهم على قيم الإسلام

ومن مظاهر ثقافة المرتدين والتي تتواءم مع حالهم رفض تعاليم الإسلام، وعدم الاستجابة إليها، فعندما سمعت بعض الفتيات باليمن بوفاة رسول الله ﷺ، طربن فرحا بذلك، وسارعن إلى العودة إلى عادات لهن في الجاهلية؛ كي يمارسنها، وذلك بإقامة حفلات ماجنة تعلن فيها الرذيلة، وتحارب فيها الفضيلة، وكن من ذوي المكانة في المجتمع وبعض اليهوديات، واشتهرت حرفتهن بالبغايا، وقد وصل الخبر لأبي بكر رضي الله عنه بهذه الأبيات:

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته … أن البغايا رُمْنَ أيَّ مرام
فظهرن من موت النبي شماتة … وخضبن أيديهن بالعُلاَّم
فاقطع هديت أكفَّهنّ بصارم … كالبرق أمضى من متون غمام[1]

وقد رد أبو بكر رضي الله عنه، فأمر عامله بإيقاع العقوبة عليهن، وقتال من يدافع عنهن، فذهب عامله إليهن، فاعترضه رجال من كندة وحضرموت، فقاتلهم وهزمهم وأخذ النساء وأوقع عليهن العقوبة[2].

وهنا يتجلى كيف كانت الفتيات يردن إعادة ثقافة لهن في الجاهلية إلى الإسلام، وفرضها بذلك على المجتمع رغم رفضه لها، وعدم مواءمتها لطبيعة المرأة

---

(١) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ، ٣: ١٣٣؛ أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق داود القاضي، بيروت ١٩٨٨م، ٨: ١٩٨؛ الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، بيروت ـ مؤسسة الأعلمي ١٤١٢هـ، ٣: ٣٨٠؛ الثعالبي: الشكوى والعتاب، تحقيق د. إلهام المفتي، الكويت ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٠م، ١: ٩٥؛ الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٩هـ، ١: ١٢١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣؛ محمد بن حبيب البغداد: ، المحبر، بيروت ـ دار الآفاق الجديدة، ١: ١٨٦.

العربية المسلمة، وهو الأمر الذي جعل رفضها سريعا ، وتم قطع دابرها ، وتطهير المجتمع منها .

ومما يذكر في هذا الشأن أن امرأتين غنتا بشتم رسول الله ﷺ فتم إيقاع العقوبة عليهن[١] .

وهنا نرى أن النيل من رسول الله ﷺ ظهر أيام الردة ، وتحقق هذا بأساليب عدة ، ومنها الغناء الذي يلازمه الشتم ، وقد شدد أبو بكر رضي الله عنه العقوبة على الفاعلين ، وذلك بما دون المثلة ، وحكم على من يفعل ذلك من المسلمين بالردة[٢] .

وكذلك فقد صاحب أهل الردة عودة إلى سلوكيات قديمة ، ومن ذلك مجالس اللهو التي انتشرت بين فئات منهم ، فحين قدمت خيل المسلمين إلى ديار كندة ، وجدوا قادة المرتدين في مجالس اللهو والطرب غافلين عن مواجهة عدوهم[٣] .

فهل كان ذلك تعبيرا عن ردتهم ، أم أنه سلوك الجاهلية الذي تركوه بعد إسلامهم ثم عادوا إليه بعد ردتهم ؟ وأيا كان الأمر فهي صورة من صور حياتهم أثناء ردتهم ، وكأنها تعطي إشارة الى تحللهم من بعض قيم الإسلام ، وقد كان ذلك مما اتخذوه ذريعة ؛ لصرف الناس إليهم إذا هم رفعوا عنهم ما يظنون أنه قيود عليهم .

كذبهم في الولاء

ومما ظهر عند المرتدين الكذب في الولاء ، فقد قدم إلى أبي بكر رضي الله عنه الفجاءة إياس بن عبد ياليل فقال : أعني بسلاح ، ومرني بمن شئت من أهل الردة ، فأجابه

---

(١) الواقدي: الردة ، ١: ٩٥.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٣٤١؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق حمدي الدمرداش ، مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ١: ٨١،.

(٣) ابن أعثم : الفتوح ، ١: ٢٢، الواقدي : الردة ، ١: ٩٥.

إلى طلبه ، ولكن الفجاءة حنث في أمره ، فأصبح يشن الغارات عليهم من سليم وعامر ، فقام أبو بكر ﷺ ، وأرسل إليه قوة بقيادة طريفة بن حاجز ، فهزم وقبض عليه ، وأرسل إلى المدينة ، فأمر أبو بكر ﷺ بقتله(١) .

لقد استغل الفجاءة حالة الردة التي تمر بها الجزيرة العربية ، فأظهر ولاءه للمسلمين ؛ حتى يأخذ منهم ما يريد من عتاد الحرب ؛ ليعيدها إلى نحورهم مرة أخرى ، ولعله أراد بهذا الأمر أن يتشفى من المسلمين ، فيأخذ سلاحهم ، ويقتلهم به ، ويظهر فيهم الضعف الذي ربما يؤثر على انتصاراتهم على القبائل المرتدة ، فأهلكه الله قبل أن يحقق مأربه من المسلمين في المدينة .

عدم الالتزام بالعهود والمواثيق

كذلك ظهر في ثقافتهم ضعف الالتزام بالعهود والمواثيق فقد بعث مسيلمة كتابا إلى رسول الله ﷺ قال فيه : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون(٢)، وحمل هذه الرسالة رجلان ، فلما اطلع رسول الله ﷺ على رسالته قال لهما : ما

---

(١) الواقدي : الردة ، ١: ٧٥ـ ٨٠؛ الفتوح : ابن أعثم ١: ٩؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون بتحقيق خليل شحادة ، بيروت ـ دار الفكر ، ٢: ٤٩٨. والفجاءة بن إياس بن عبد ياليل ، أحرقه أبو بكر في الردة ، (٣: ١٠٢٤؛ ابن حجر العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفى : ٨٥٢هـ) : تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، تحقيق محمد علي النجار ، بيروت ـ المكتبة العلمية ، بيروت ، وطريفة هُوَ الَّذِي كتب إِلَيْهِ أَبُو بكر الصّديق فِي قتل الْفُجَاءَة الَّذِي حرقه أَبُو بكر بالنَّار ، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى : ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، المحقق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، بيروت ـ دار إحياء التراث ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ، ٦: ٢٤٩.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣: ٣٨٦، ٣٨٧؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ١: ٩٣؛ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، ٤: ٢٢؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢: ١٨٨.

تقولان أنتما ؟ فردا بقولهما : نقول :[1] كما يقول ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله ، لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم .

وفي الطرف الآخر حمل حبيب بن زيد الأنصاري[2] رسالة رسول الله ﷺ إلى مسيلمة ، والتي قال فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى) ، فلما سلم حبيب بن زيد الرسالة لمسيلمة ، قال له مسيلمة : أتشهد أن محمدا رسول الله ، فقال حبيب : نعم ، فقال مسيلمة : أتشهد أني رسول الله ، فيقول حبيب : أنا أصم ، لا أسمع ، فاستمر على ذلك مرارا ، وكان في كل مرة لا يجيبه حبيب إلى طلبه يقطع من جسمه عضوا ، وظل حبيب صابرا محتسبا ؛ حتى قطعه إربا إربا ، فنال الشهادة ﷺ بين يدي مسيلمة[3] .

والموقف من الرسل تعرفه الأمم كلها ، فلا يمس أحدهم بسوء ، ولهذا كان موقفه ﷺ واضحا مع حامل رسالة مسيلمة حين أقر أنه يشهد بما يقول مسيلمة ، فقال له رسول الله ﷺ : (لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك) ، وأعاده إلى سيده مسيلمة الذي لا يقيم لعرف أو معتقد وزنا .

ومع زعم مسيلمة بنزول النبوة عليه ، ومشاركته المرسلين كذبا وزورا ، فإن هذا الموقف الذي تراعيه كل الأمم على اختلاف نحلها ومللها لم يسع مسيلمة ما وسع

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢: ١٤٧، ١٤٦؛ ابن الأثير : الكامل ، ٢: ١٦٤؛ سير أعلام النبلاء ٢: ١٨٨.

(٢) حبيب بن زيد بن عاصم أخوه عبد الله بن زيد بن عاصم ، وحبيب ممن شهد أحدا ، وهو غير حبيب بن زيد بن تميم الأنصاري الذي استشهد يوم أحد ، ابن الأثير : أسد الغابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ١٩٩٤م ، ١: ٤٤٣.

(٣) القرطبي : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، بيروت ـ دار الجيل ، ١٩٩٢م ، ١: ٣١٩-٣٢٠.

الناس فيه ، فإذا به يقدم على قتل حامل رسالة رسول الله ظلما وعدوانا .

وإمعانا في رفضه العهود والمواثيق عمد إلى قتل رسول رسول الله ﷺ قطعة قطعة حتى فارق الحياة .

إنه الفارق بين من يحمل القيم وينشرها بين الناس ، وبين من يسعى لشهوته وهواه بأي وسيلة كانت ، وهذه ثقافة المرتدين التي أرادوا نشرها بين الناس بعد رفض الرسالة السماوية التي تحمل كل معاني القيم الأخلاقية .

المبالغة في رفع مكانة المرأة

ومن ثقافتهم ما يدل على اضطراب الحال عندهم ، وعدم تناسقها مبالغتهم فيما يزعمون أنه رفع لمكانة المرأة ، فالعرب في الجاهلية كانت نظرتها للمرأة دونية في كافة أحوالها ، فلم تكن تتولى السلطة أو تتقدم على الرجال ، بل كان لفظ الأنثى يحمل معنى النقص عندهم ، ولهذا قال أبو جهل لما نقل له ما رأته عاتكة بنت عبد المطلب : أما رضيتم يا بني عبد المطلب أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم[1] .

وحين جاء الإسلام أعطى المرأة المكان اللائق بها ، وأنزلها المكانة المناسبة لها .

وعندما نجمت الردة ـ كما مر معنا ـ رأينا أن نوارا امرأة طليحة لما رأت بوادر الهزيمة تكاد تحل بزوجها طليحة بعد تفرق أنصاره تدخلت وخاطبت الجيش المساند لزوجها ، وقالت لهم توبخهم على ترددهم : أما إنه لو كانت لكم نيّة صادقة لما انهزمتم عن نبيكم .

---

(١) أحمد باوزير : مرويات غزوة بدر ، ١٢٤؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢: ١٣؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥: ٥٨؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ٢: ٣٣.

لقد بلغ من مكانة المرأة عند المرتدين أن يعلو صيتها ، حين اتخذت سجاح بنت الحارث مؤذنا يقول في أذانه : أشهد أن سجاح نبية الله .

هذه الثقافة محاكاة للأذان عند المسلمين ، وترى سجاح فيها وسيلة التقوية ودفعا لمشروعها ، وتثبيتا لفكرها عند أتباعها .

لقد بالغ المرتدون في الانقياد للمرأة وأصبحوا يؤذنون لها ، فلم تعد بحاجة إلى غيرها من النسوة للقيام بهذا العمل .

وهكذا وجدنا أن الثقافة التي لازمت المرتدين من العرب في الجزيرة العربية كانت تعطي المرأة مكانة مبالغا فيها بينهم ، فقد كانوا يسمعون لها ، ويطيعون أمرها ، وتكون رأسا عليهم ، فلا تجد مضايقة في ذلك ، ولا يجد الرجال في ذلك حرجا ، وقد تجسدت هذه الصورة في سجاح بنت الحارث ؛ حيث استجابت لها قبيلتها بنبوتها ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها   وأضحت أنبياء الناس ذكرانا

ومما يؤكد مكانة المرأة المبالغ فيها عند المرتدين أن سجاحا لما أطاعها قومها وحارب من رغبت به من قومها ، وانفتح الباب أمامها إلى نجد ، قال لها رؤساء أهل الجزيرة : ما تأمريننا ؟ فقالت : اليمامة فقالوا : إن شوكة أهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ أمر مسيلمة ، فقالت : عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ؛ فإنها غزوة صرامة لا يلحقكم بعدها ملامة[1] .

لقد عزمت سجاح على حرب مسيلمة ، فيا ترى ما سبب هذه العزيمة ؟ أليس يحاكيها في كل دعواها من الردة ، وإعلان النبوة ؟ أم أن مرد ذلك هو الاختلاف في القبيلة ؟ لكن سجاحا حاربت كل من لم يخضع لها حتى من بني تميم ، ولعل

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١: ٢٧١، ٢٧٢؛ ابن الأثير: الكامل ، ٢: ٢١٠، زينب الغافلي : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، المطبعة الكبرى الأميرية ١٣١٢، ١: ٢٤١.

ما يتبادر إلى الذهن أن الثقافة المهيمنة عليهم هي المنافسة على حيازة الأرض، وولاء الناس، وهذا ما جعلها تقدم إلى نجد، وتهدد كل من لم يخضع لولائها، فبدأت بقبيلتها تميم؛ لبسط نفوذها عليها، وأعلنت الاستعداد لمحاربة من رفض الولاء، فكان أول لقاء مع الرباب من بني تميم، ومن تردد بالولاء لها خير دليل على أن المنافسة بين أولئك المرتدين هو كسب الأتباع والأنصار(١).

ولكنها بعد مقابلة مسيلمة وما جرى من حديث بينهما تنازلت له عن مكانتها(٢)، بل أظهرت إعجابها به وأبدت رغبتها بالزواج منه، وعندما سألته عن ما نزل إليه، تلا عليها قوله: [لا أقسم بهذا البلد، ولا تبرح هذا البلد حتّى تكون ذا مال وولد، ووفر وصفد، وخيل وعدد، إلى آخر الأبد، رغم من حسد] قالت عند ذلك: إنك نبي حقا، وقد آمنت بك وزوجتك نفسي، ولكن أريد ان تجعل لي صداقا يشبهني.

فانظر كيف أنها ومع منزلتها التي ادعتها لنفسها ما لبثت أن تنازلت عنها ورغبت بالزواج لنفسها، وحين طلبت مهرها، استجاب مسيلمة ورفع عنهم صلاتين من الخمس التي جاء بها محمد بن عبد الله، وهي صلاة الفجر والعشاء الآخر.

إنه مهر خاص وغريب فهو أراد أن يبقى في الدائرة التي اجتمعوا عليها وليستفيد من صداها عند الناس في زيادة مكانته فردت عليه: أشهد بك لقد جئت بالصواب.

ونلحظ أنها بعد زواجها تركت ما ادعته لنفسها، وغادرت إلى أهلها في الجزيرة، وهذا يظهر عدم الاستقرار على الرأي، فكيف ادعت النبوة والاستقلال عن غيرها، ثم تنازلت عن جميع دعواها وعادت أدراجها إلى بيتها؟.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ٣: ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، ١: ٢٢؛ تاريخ الإسلام: الذهبي، ط التوفيقية، ٢: ٣٠٧؛ تاريخ ابن خلدون، ٧: ٥٦٦.

ومن النساء اللاتي تربعن على مكانة عند المرتدين أم زمل[١] سلمى بنت مالك بن حذيفة، وهي من سيدات العرب، ويضرب بها المثل؛ لكثرة ولدها، وعزة قبيلتها، وأجمع عليها الناس يوم بزاخة بعدما تردد قومها في القتال، فكان لها دور في قيادتهم، ودفعهم إلى قتال المسلمين، وهم ينتسبون إلى قبائل عدة، منها بنو سليم وطيء وهوزان، فشكلوا جمعا كبيرا، فلاقاهم خالد بن الوليد، واقتتل معهم قتالا شديدا، وقد بلغ من مكانة هذه المرأة أنها في الوسط على جملها، ويقاد جملها، والناس حولها، وذلك؛ لعزها ومنعتها من قومها.

وقد استطاع جيش خالد بن الوليد هزيمتها وعقر جملها وقتلها[٢].

وهنا نتأمل كيف استطاعت هذه المرأة في تلك الظروف الحرجة، والمواقف الصعبة أن تبرز للناس، وتستميل قلوبهم إلى الولاء لها، والإذعان لقيادتها، ولا تكتفي بذلك، بل تواجه باسمهم قوة كبرى في ساحة القتال، والأمر لها، وتقود جيشها الذي كان في حال من البطر والكبر، والموت محدق بها، ومع ذلك تستمر على هذا الحال حتى عقر جملها، ثم قتلت.

---

(١) أم زمل بنت مالك بن حذيفة بن بدر فكانت قد سبيت أيام أمها أم قرفة، فوقعت لعائشة فأعتقتها ورجعت إلى قومها وارتدت، واجتمع إليها الفل فأمرتهم بالقتال، وكثف جمعها، وعظمت شوكتها، فلما بلغ خالدا أمرها سار إليها فاقتتلوا قتالا شديدا أول يوم وهي واقفة على جمل كان لأمها وهي في مثل عزها فاجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها، وقتل حول الجمل مائة رجل، وبعث خالد بالفتح إلى أبي بكر، محمد رشيد رضا: أبو بكر أول الخلفاء، تحقيق الشيخ خليل شيحا، دار الكتاب العربي ١٤٢٤هـ، ٤٠؛ الزركلي: الأعلام، ٣: ٧٨، ٣: ١١٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢: ٢٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٩: ٤٥٦، وبزاخة ماء لبني أسد كانت فيه موقعة عظيمة في أيام أبي بكر الصديق مع طلحة بن خويلد الأسدي: معجم البلدان، ١: ٤٠٨؛ محمد الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ـ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠م، ١: ٩٢.

لقد احتلت المرأة مكانة كبرى لدى المرتدين، وكانت تملك قيادة الناس، وإدارتهم في ظل ظروف حرجة، وحرب مستعرة، وأمام عدو له قوته الكبرى التي تنتظرهم، ومع ذلك لم يترددوا في تولية هذه المرأة قيادتهم، وزعامتهم؛ للوقوف أمام عدوهم، ولا شك أن خيارات التولية كانت حاضرة أمامهم، لكن قناعتهم بالقدرات القيادية لهذه المرأة حملتهم على توليتها والولاء لها.

حين تنبأ الأسود العنسي[1] عمد إلى امرأة مسلمة اسمها المرزبانة فقتل زوجها ثم ألزمها بالزواج منه، وقد عرفت حاله بعد دخولها عليه، وقد حدثت عن ذلك فقالت: (والله ما خلق الله شخصا هو أبغض إلي منه، فما يقوم لله على حق، ولا ينتهي له عن حرمة)، وبسبب موقفها منه، كان لها دور في قتله، فقد اتفقت مع نفر من ذويها منهم فيروز الديلمي[2] على قتله، وتم لهم ذلك بتسهيلها دخولهم إلى منزله، وهو نائم فأجهز عليه[3].

لقد نجحت هذه المرأة فيما دبرته ضد العنسي، واختصرت على المسلمين جهودا كثيرة كانت ستكلفهم الكثير، لولا مبادرتها في خدمة المسلمين في

---

(١) الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب بن غوث. ابن كثير: البداية والنهاية ٩: ٤٢٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ١ ٢١٠؛ ابن عساكر: تأريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، بيروت ـ دار الفكر ١٤١٥هـ، ٤٩: ١٢؛ يعقوب الفارسي: المعرفة والتاريخ بتحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ٣: ٢٦٢.

(٢) فيروز بن الديلمي ويكنى أبا عبد الله وهو من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن فنفوا عنها الحبشة وغلبوا عليها، وفيروز هو الذى قتل العنسي الأسود ابن كعب الكذاب الذى تنبأ باليمن، فقال رسول الله ﷺ: قتله الرجل الصالح فيروز بن الديلمي، وقد وفد إلى رسول الله ﷺ وروى عنه، وبعضهم يروى عنه فيقول: حدثني الديلمي الحميري وبعضهم يقول عن الديلمي وهو واحد وهو فيروز الديلمي وإنما قيل له الحميرى لنزوله في حمير ومخالفته إياهم وقد مات فيروز في خلافة عثمان، محمد بن جرير الطبري: المنتخب من ذيل المذيل، بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١: ٤٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣: ٢٣١ـ٢٣٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٩: ٤٨٦.

التخلص منه، وهذا يظهر دور المرأة المسلمة أيضا في حروب الردة؛ حيث ساهمت في التخلص من أحد قادتها، وبهذا نرى تعدد أدوار المرأة في واقع المرتدين، وكذلك دور المرأة المسلمة في حروب الردة.

أهم نتائج البحث

من خلال الإعداد للبحث وكتابته تجسدت لي حقائق واضحة أجملها في هذه النقاط:

١ـ كانت الردة موجة عارمة بعد وفاة رسول الله ﷺ حصوصا بين المسلمين الجدد الذين أسلموا عام الوفود، ولم يفهموا حقيقة الإسلامي ولم يتمكن من قلوبهم.

٢ـ قام أبو بكر الصديق ومعه الصحابة رضوان الله عليهم بالقضاء على حركة الردة.

٣ـ كانت هناك ثقافة مشتركة بين المرتدين تمثلت بالمظاهر الآتية:

١ـ لم يتمكن الإسلام من قلوبهم وكان أغلبهم حديثي عهد بإسلام.

٢ـ كان ينتابهم الشعور بعلو مكانتهم وتميزهم على غيرهم، فيأنفون أن يقودهم أناس من غير قبائلهم.

٣ـ كانوا يطمحون إلى الرئاسة ويتوقون إلى الزعامة فوجدوا في الدعاء النبوة مجالا لذلك.

٤ـ منعوا أداء الزكاة حيث يرونها انتقاصا من سيادتهم وولاء لغيرهم.

٥ـ كانوا مشدودين إلى العصبية القبلية أكثر من انشدادهم إلى دين الإسلام.

٦ـ اخترعوا الأكاذيب وافتروا على الله الكذب بادعائهم نزول الوحي عليهم

٧ـ قام بعضهم بمحاكاة القرآن الكريم؛ لتضليل الناس وإقناعهم بصدق دعاواهم.

٨ـ ادعى كثير منهم معرفة بعض الغيب استغفالا لأتباعهم.

٩ـ اتخذ بعضهم الأذان وسيلة لتبليغ الأتباع بتعاليمه .
١٠ـ استخدموا الشعر والنثر كوسائل للتواصل مع مجتمعاتهم .
١١ـ ساد بينهم التمرد على كل قيم الإسلام .
١٢ـ لم يلتزموا بعهود ولا مواثيق ولا أعراف ، وكان بعضهم يقتل الرسل .
١٣ـ بالغوا في الرفع من شأن المرأة وجعلوها قائدة لهم واتبعوها في دعواها النبوة .
١٤ـ كانوا قبل ردتهم يضمرون النفاق ويظهرون الإسلام .

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .
٢. الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور أبو الفتح (المتوفى : ٨٥٢هـ) المستطرف في كل فن مستظرف ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١، ١٤١٩هـ.
٣. ابن أعثم ، أحمد بن محمد بن علي الكوفي ، أبو محمد (المتوفى : نحو ٣١٤هـ) ، الفتوح، دار الأضواء ، بيروت ، ط ١، ١٤١١ ـ ١٩٩٩م.
٤. ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، عز الدين (المتوفى : ٦٣٠هـ) ، أسد الغابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، ط ١، ١٩٩٤م ، ط الفكر ، بيروت ، ١٩٨٩م .
٥. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ، ودار الكتاب العربي ، بتحقيق عبدالسلام تدمري ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .
٦. ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى : ٥٩٧هـ) ، المنتظم في تأريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
٧. ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى : ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١، ١٤١٥م .

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٩. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، بتحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٠. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١١. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى: ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
١٢. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) عيون الأخبار، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.
١٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
١٤. أبو جعفر البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، (المتوفى: ٢٤٥هـ)، المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
١٥. أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، البصائر والذخائر، تحقيق داود القاضي، دار صادر، بيروت، ط ١، ٤٠٨ - ١٩٨٨.
١٦. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (المتوفى: ١٣٩٤هـ) المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي.
١٧. أحمد باوزير، مرويات غزوة بدر، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ١٩٧٨.
١٨. بريغش، محمد حسن، ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأول، مؤسسة الرسالة.
١٩. البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي (المتوفى: ٣١٧هـ)، معجم الصحابة، المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الناشر: مكتبة دار البيان - الكويت الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م).

٢٠. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (المتوفى : ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، مكتبة دار الهلال، بيروت، عام النشر: ١٩٨٨م.
٢١. الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (المتوفى : ٤٢٩هـ) الشكوى والعتاب، تحقيق د. إلهام المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٢. الحازمي الهمداني، زين الدين أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان (المتوفى : ٥٨٤هـ)، الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، بتحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة للترجمة والبحث والنشر، ١٤١٥هـ.
٢٣. حمدي شاهين، الدولة الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، دار القاهرة.
٢٤. الحِميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (المتوفى : ٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، بتحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.
٢٥. د. جواد علي، ، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ص٩٣، ط ٤.
٢٦. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى : ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٧. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
٢٨. الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.
٢٩. زينب الغافلي، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي (المتوفى : ١٣٣٢هـ)، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، ط ١، ١٣١٢هـ.
٣٠. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ) تأريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣١. الصالحي، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى : ٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
٣٢. الطبري، المنتخب من ذيل المذيل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
٣٣. الطبري، محمد بن جرير الآملي، أبو جعفر (المتوفى : ٣١٠هـ) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل

والملوك، وصلة تاريخ الطبري (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى : ٣٦٩هـ) الناشر: دار التراث - بيروت، الطبعة : الثانية ـ ١٣٨٧هـ.

٣٤. الفسوي، يعقوب بن سفيان الفارسي، المعرفة والتاريخ، المحقق : أكرم ضياء العمري الناشر : مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة : الثانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٣٥. المبرد، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى : ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٦. محمد رشيد رضا، أبو بكر أول الخلفاء بتحقيق الشيخ خليل شيحا، دار الكتاب العربي، ط ١٤٢٤هـ.

٣٧. المقدسي، المطهر بن طاهر (المتوفى : نحو ٣٥٥هـ)، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

٣٨. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي (المتوفى : ٢٠٧هـ)، الردة، بتحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ١٤١٠ ـ ١٩٩٠م.

٣٩. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى : ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ط ٢.

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٨٣ - ١٢٩

الإنجازاتُ الحضاريةُ والعِلْمِيَّةُ في عَهْدِ عَضُدِ الدَّوْلَة البُوَيْهِي

(٣٢٨-٣٧٢هـ/ ٩٤٩-٩٨٢م)

محمد طه بن صلاح بن صالح بكري[١]

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد ...

فقد حفل التاريخ الإسلامي بكثير من أسماء الدول والشعوب، الذين خدموا الإسلام خدمات جليلة، على الرغم من أن بعضهم لم يجر في عروقه دم عربي، ومع ذلك قاموا بدور بارز في خدمة الإسلام والمسلمين، لا يقل عن الدور الذي قام به العرب في التاريخ، ومن هذه الدول «البويهيون»[٢]، الذين قاموا بدور كبير

---

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة أم القرى.

(٢) البويهيون: أسرة فارسية تنسب إلى بويه وهو فارس ديلمي ويقال إنه كان صيادًا في بحر قزوين وكان له أبناء ثلاثة هم علي والحسن وأحمد. وقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة القائد الديلمي (ماكان بن كاكي) حتى إذا انتصر عليه مرداويج الزياري صاحب جرجان وطبرستان تحولوا إليه وأيدوه في حروبه فولى عليًا الكرج في الجنوب الشرقي في همذان عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) ولم يلبث أن استولى على فارس وأرجان واتخذ من شيراز مقرًا له وقتل مرداويج سنة (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والري اللتين كانتا تابعتين له واستولى أخواهما على كرمان وظل يتقدم حتى استولى على الأهواز عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٧م) ثم على واسط وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد والجند الأتراك ثائرين على=

في مسيرة الحضارة الإسلامية[١]، فقد شهد العراق والمشرق الإسلامي (إيران) في هذا العصر حضارة راقية قوية الأساس، وافرة الحظ من الفخامة والجمال، شيدت على أصول ثابتة من العلم والمعرفة، حتى أصبحا عنوانا على المدنية العربية والإسلامية[٢].

ظهر بنو بويه الديالمة على مسرح الأحداث التاريخية في أوائل القرن الرابع الهجري في الجزء الغربي من إيران[٣] وأشهر رجال هذه الأسرة الحاكمة ثلاثة رجال

=الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم فوجد أحد الأبواب مفتوحة إلى بغداد فدخلها عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ورحب به الخليفة المستكفي منقذًا، ومخلصًا، ومنحه إمرة الأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدولة، والحسن صاحب بلاد الجبل ركن الدولة، وظل بنو بويه في حكم العراق وأسسوا إمارة وراثية دامت مائة وثلاث عشرة سنة (٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥م) ابن خاوند شاه: روضة الصفا، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، القاهرة - الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨م، ١٨٢.

(١) يعتبر «ابن خلدون» أبرز من تصدى لموضوع الحضارة من المفكرين العرب والمسلمين، إذ يعرفها: بأنها أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، وقد بيّن ابن خلدون أن الحضارة لا تظهر إلا في المدن والقرى وإنها غاية العمران والتفنن في الترف. وقد جاء في القاموس: أن فلانا تحضر، أى تخلق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم. أما الحضارة في اللغة: الإقامة في الحضر، وهى خلاف البادية، وهى مشتقة من الفعل حضر، أى أقام في الحضر. المقدمة ٤٣.

(٢) وفاء محمد على: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، الإسكندرية - المكتب الجامعي الحديث ١٩٩١م، ١٢٧.

(٣) كان إقليم الديلم يخضع في الغالب لسيطرة مجموعة قبائل، وأسر أمراء محليين، كانوا يترأسونهم وكانوا يتمتعون باستقلال كبير، لذلك لعبت الاتجاهات الشعوبية دورا كبيرا في استقلال بعض الأمراء المتغلبين بولاياتهم عن الخلافة العباسية. فمنذ قيام الدولة العباسية واعتماد خلفائها على العناصر الفارسية بصورة كبيرة، أقصيت العناصر العربية بصورة تدريجية عن الوظائف ولاسيما العسكرية، وتبعا لذلك بدأت النزعات القومية الفارسية تطفو على مسرح التاريخ نازعة إلي الاستقلال على النفوذ العباسي، بدعوى أن كل المسلمين أخوة، ثم ما لبث أن تحولت إلي المناداة بأن العرب أقل شأنا من غيرهم فظهرت الشعوبية بوجهها القبيح منادية بعودة دولة العجم، وتكوين كيانات سياسية فارسية. إبراهيم سلمان الكروي: البويهيون والخلافة العباسية، الكويت - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ١٩٨٢م، ٤٦، ٤٧.

هم: عليّ، والحسن، وأحمد أبناء بويه، الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس[١].

وتمتد الفترة البويهية من (٣٣٤ـ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ـ١٠٥٥م) أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، وتعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء من بني العباس هم: المطيع لله، والطائع لله، والقادر بالله، والقائم بأمر الله. وقد اشتهرت هذه الأسرة على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو عليّ بن شجاع بن بويه الذي ولاّه مرداويج الزياري بلاد الكَرَج[٢].

ويبدو أن عليًا كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه، إضافةً إلى الطموح السياسي الذي تحقق له سريعًا، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكّن بفضل مقدرته العسكرية والإدارية وكرمه وحسن معاملته لأتباعه من بناء جيش قوي انتزع به معظم بلاد فارس في خلال فترة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه[٣].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد ـ دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩هـ، ٨: ٢٢، ٢٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٨م، ٢: ٣٥٤ـ٣٥٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٥م، ٤: ٣٦٤.

(٣) كان انتصار «مرداويج بن زيار» على «أسفار بن شيرويه» السبب الأول والمباشر لظهور بني بويه على مسرح الأحداث السياسية من المسلم به أن الدولة البويهية قامت على أكتاف الإمارة الزيارية الديلمية، وذلك عندما حاولت الخلافة العباسية منذ وقت مبكر الوقوف في وجه جميع حركات التمرد العلوية في إقليم المشرق الإسلامي، فاتفقت مع مرداويج بن زيار وأقرته على حكم مناطقه في مقابل الاعتراف بنفوذها، ولكن الظروف لم تساعد الخلافة العباسية على تنفيذ خطتها، فما كاد مرداويج بن زيار يستقر في إقليمه وينال اعتراف الخلافة حتى قصده الديلم من كل ناحية، فلما كثروا وزعهم على الجهات المختلفة، وكان من بينهم «علي بن بويه» الذي أعطاه ولاية الكرج، فبدأ نجمه في الظهور. خليل السامرائي=

وبعد مقتل مرداويج سيطر البويهيون على أصفهان والري وهمذان والكرج وكرمان والأهواز.

لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين إزاء هذه التطورات السياسية والعسكرية؛ لذلك انتهزت فرصة الصراع البويهي ـ الزياري، وحاولت استعادة الأهواز، ولكنها لم تستطع ذلك، وأضحى نزولهم من الأهواز إلى العراق أمرًا ميسورًا، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها[1].

هذا في الوقت الذى كانت الحالة السياسية في العراق مضطربة، وكانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي[2].

ونتيجة لذلك تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حُرِموا منها أو أبعدوا عنها. وأخيرًا مال الخليفة المتقي لله لطلب المساعدة من البويهيين، فدعا الخليفة أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، كما كاتبه بعض القادة للغاية نفسها، فسار إليها في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م)، ودخلها سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي بالله واحتفى به، وخلع عليه وعيّنه أميرًا للأمراء، ولقبه مُعِزّ الدولة، ولقب أخاه عليًّا عماد

=وزميلاه: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ ـ ١٢٥٨م)، الموصل ـ جامعة الموصل ١٩٨٨م، ١٤٠.

(١) ابن مسكويه في التجارب، تحقيق. سيد كسروي، بيروت ـ دار الكتب العلمية ٢٠٠٣م، ٥: ٥٩؛ ابن الأثير: الكامل، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٨م، ٧: ١٦١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٧: ١٦٣.

الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة[١].

وهكذا أسس البويهيون في فارس، والعراق، والأهواز، وكرمان، والرَّيّ، وهمذان، وأصفهان، إمارات وراثية دامت حتى عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وقد أدى نظام الوراثة هذا إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، لكن هذا الاستقرار كانت تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيُّع الأسرة البويهية[٢]. لقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فلما جاءت هذه الدولة ـ وهي متشيعة غالية ـ نما مذهب الشيعة ببغداد[٣].

عضد الدولة

يعد عصر «عضد الدولة» (٣٣٨ـ٣٧٢هـ/ ٩٤٩ـ٩٨٢م) العصر الذهبي للدولة البويهية من الناحية السياسية، حتى درج البعض على تسميته بـ«عصر الأمراء العظام»، فبعد وفاة الأمير «معز الدولة» مرت الدولة البويهية بحالة من

---

(١) ابن خاوند شاه: روضة الصفا، ١٨٢، إبراهيم سلمان الكردي: البويهيون والخلافة العباسية ٦٣.

(٢) حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض، تحقيق د/ مصطفي نجيب فواز، د/ حكمت كشلي فواز، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٥م، ١٨٥.

(٣) على الرغم من تعدد المذاهب الفقهية فى بغداد قبل العصر البويهي، لم تشهد أي اضطرابات أو صراعات مذهبية، لا بين أصحاب مذاهب أهل السنة فيما بينهم، ولا حتى مع المذاهب الدينية الأخرى، بالرغم من وجود جماعات فلسفية صغيرة كانت متوارية عن الأنظار لا أثر لها فى دين أو سياسة ولم يظهر الصراع المذهبي بشكل جلي إلا فى مطلع القرن الرابع الهجري(١٠م)، ذلك عندما اختفت المذاهب الصغرى، وبقيت المذاهب الفقهية الكبرى فى ميدان الخلاف حتى عرف هذا القرن بعصر الصراعات بين السنة والشيعة التي وصلت أوجها فى العصر البويهي حتى نسب بعضهم البعض إلى الكفر والإلحاد. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية، بيروت ـ الدار الجامعية ١٩٨٧م، ٢٨٢، ٢٨٣.

الضعف والانهيار بسبب التنافس على وراثة العرش، مما جعل عهد عضد الدولة وما تلاه حروبًا متصلة، وبذلك ضعفت الدولة حتى انهارت في النهاية سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)[١].

وعضد الدولة هو: أبو شجاع فناخسرو، صاحبالعراقوفارس، ابن السلطان ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، تملكفارسبعد عمهعماد الدولة، ثم كثرت بلاده، واتسعت ممالكه[٢].

وكان عضد الدولة المتوفى سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م) من أعظم الملوك البويهيين، فقد اتسعت دولته حتى شملت «كرمان» و«إقليم فارس» و«الأهواز» و«العراق» و«طبرستان» وطوي تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التي ظهرت في عهد الحكام البويهيين في فارس والعراق، و ألف إمبراطورية كادت تصل في الاتساع إلى إمبراطورية «هارون الرشيد» ـ و كان أول من خوطب بالملك «شاهنشاه» (ملك الملوك) في الإسلام، وأصبح البويهيون بعده يلقبون بهذا اللقب[٣].

قصد عضد الدولة العراق، والتقى ابن عمه عز الدولة بختيار وقتله، وتملك ودانت له الأمم.

وكان بطلا شجاعا مهيبا، نحويا، أديبا عالما، جبارا، عسوفا، شديد الوطأة، فتح كرمان وعمان، هزم الترك في واسط، وظفر بالعراق بعد استيلائه على بغداد سنة ٩٥٥م، غزا جرجان، وطبرستان، عرف برعايته للعلماء وإحسانه على الفقراء، وسار إليه المتنبي ومدحه، وأخذ صلاته.

كان عضد الدولة ملكا فطنا ذا تدبير، استطاع أن يجمع بين الخلافة والملك

---

(١) ابن مسكويه: التجارب، ٥: ٣٦٣.

(٢) ابن خاوندشاه: روضة الصفا ١٩٩.

(٣) ابن مسكويه: التجارب ٥: ٣٦٦.

حيث أمر بأن يقع بينه وبين الطائع بالله الخليفة العباسية وصلة بابنته الكبرى ، فعقد العقد بحضرة الطائع لله ، وبمشهد من أعيان الدولة ، والقضاة على صداق مائة ألف دينار وكان يهدف من ذلك ؛ أن يرزق ولدا ذكرا منها فيولّى العهد وتصير الخلافة في بيت بنى بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية[1] .

الإنجازات الحضارية

بلغت الدولة البويهية شأنًا كبيرًا في عهد عضد الدولة ، وشهدت إنجازات حضارية راقية على يديه ، إلى جانب نجاحه في توحيد مناطق الدولة وجمعها تحت نفوذه ، فبعد دخوله في بغداد بدأ في عمارتها وإعادة ما تهدم من مساجدها وأسواقها ، وأقام الشوارع ، والمتنزهات ، وأصلح الطريق بين مكة والعراق[2] .

ويذكر له أنه أمر بإخراج أموال الصدقات وتسليمها للقضاة والأعيان ، لإعانة من يستحق من الفقراء وذوي الحاجات ، وإعانة العاطلين الذين لا يجدون أعمالًا يقتاتون منها .

وعلى الرغم من أن «عز الدولة بختيار» ابن معز الدولة كان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة ، فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به ، ثم طمع في إقطاعات كبار الحاشية والقواد فتغيروا عليه واضطربوا حتى أرغموه على أن يستجيب لرغباتهم «فضمن لهم جميع ما التمسوه وإزاحة العلل فيه ، ولم يتسع لذلك ولا لبعضه فاضطر إلى مناظرة وزرائه على الاحتيال لهذا المال والنظر في جمعه من أين كان وكيف كان» فلما بلغ الأمر بوزيره أبي الفضل الشيرازي هذا المبلغ ولم تبق له

---

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ٥: ٣٤٥.

(٢) ابن خاوندشاه : روضة الصفا ١٩٩.

حيلة في درهم يأخذه من وجهه عدل إلى طلب الأموال من الوجوه المذمومة التي تقبح الأحدوثة بها وتحرم ولا تحل في شيء من الأديان[١].

أما عضد الدولة بن ركن الدولة (٢٦٧ ـ ٣٧٢) فقد وجد متسعًا من الوقت صرفه في العمل على النهوض بمرافق البلاد بقدر ما فيه من طاقة، فعمد إلى تشجيع القراء والعلماء، وشيد المساجد والبيمارستانات[٢] وغيرها من المنشئات العامة، وأصلح القنوات والآبار فامتلأت بالمياه، كما خصص جزءًا من أموال الدولة للترفيه عن الفقراء[٣].

ومع ذلك لم يكن أبا لرعيته، بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم، فهو كالراعي الذي يحسن العناية بغنمه لينتفع منها بأكبر نصيب، وفي آخر أيامه أحدث رسوما جائرة. وزاد الرسوم القديمة «وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق[٤]».

ومهما يكن فقد كان عضد الدولة أعظم ملوك هذه الأسرة شأنًا، إذ اتسعت الدولة على عهده ووصلت إلى أوج عظمتها وقوتها، بحيث دخلت في حوزته البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان، وهي العراق وفارس والأهواز وبلاد الجبل وجرجان والموصل وديار ربيعة وديار بكر، فلا عجب إذا لقب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام[٥].

---

(١) تجارب الأمم ٦: ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) البيمارستان كلمة فارسية الأصل تعني المستشفى أو دار المرضى، وهي مركبة من كلمتين: «بيمار» وتعني المريض، و«ستان» وتعني الدار، وقد تحولت الكلمة مع مرور الزمن إلى «مارستان» التي لا تزال تطلق الآن على مستشفى الأمراض العقلية. ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥٤، القفطي: إخبار العلماء ٢٤٩ - ٢٥٨، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء٢٤٦ - ٢٥٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة بويه.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١: ٤٧.

(٥) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦: ٢٢٤ وما بعدها.

وفي سنة (٣٦٩هـ/٩٧٩م) أمر عضد الدولة البويهي بعمارة منازل بغداد وأسواقها، وكانت مختلة قد أحرق بعضها وخرب البعض منها فهي تل وابتدأ بالمساجد الجامعة وكانت أيضا في نهاية الخراب فأنفق عليها مالا عظيما وهدم ما كان مستهدما من بنيانها وأعادها علي إحكام وشيدها وأعلاها وفرشها وكساها وتقدم بإدارة أرزاق قوامها ومؤذنيها والأئمة والقراء فيها وإقامة الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء، وكان ذلك كله مهملا لا يفكر فيه[1].

ثم أمر بعمارة ما خرب من مساجد وأرباض[2] مختلة وأعاد وقوفها، وعول هذه المصالح علي عمل ثقات أشرف عليها نقيب العلويين ثم ألزم أرباب العقارات التي احترقت ودثرت في أيام الفتنه أن يعيدوها إلي أفضل أحوالها في العمارة وفي الحسن والزينة فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت ماله ليرتجع منه عند الميسرة ومن بم يوثق منه بذلك أو كان غائبا عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج إليه فعمرت بغداد وعادت أحسن مما كانت»[3].

كما اهتمَّ عضد الدولة بترميم بغداد وإعادة بناء ما تهدم من مساجدها وأسواقها، ووزَّع الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقُرَّاء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد، وأنشأ الحدائق والمنتزهات، وأمر بتنظيف مجاري الأنهار، وبناء الجسور، وحفر الترع والأخاديد، وأقام المسنيات (آلات لتوجيه المياه)، وفتح أقنية جديدة فسال الماء يروي الأرض؛ لكي يمنع الناس من الاستبداد بالأقنية والمياه، ووضع عليها الحرَّاس بحيث لا يعتدي أحد على حق غيره[4].

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥: ٤٥٣.

(٢) أرباض: الربض مأوي الغنم، وغيرها من الدواب، وقيل الربض: جماعة من الشجر الملتف. ابن منظور: لسان العرب ٤: ٣٧، ٣٨.

(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج ٥: ٤٥٤.

(٤) ابن خاوندشاه: روضة الصفا ١٩٩.

كذلك اهتم بإقامة العدل بين الناس والفلاحين، فأبطل الضرائب المزيدة على الفلاحين، ورفع الحيف عنهم، وأجاب شكوى المشتكين، ولم يراعِ بذلك الجند، بل طلب منهم تأدية ما عليهم(١).

ثم إنه نظر في حال المزارعين، فوجد أنهم لا يستطيعون تأدية الضرائب في المواعيد المحددة؛ لأن المحصول كان يأتي بعد هذه المواعيد؛ فأخرها إلى ميعاد سماه (النيروز العضدي)، وهو يأتي في وقتٍ يكون محصول الأرض فيه قد ظهر وبان(٢).

كما أقام قصورًا له، منها قصرٌ في شيراز فيه ثلاثمائة غرفة، وهو قصر عظيم، وفيه خزائن كتب هائلة مفتوحة للعلماء، وأصلح الطرقات وبخاصة طريق العراق ـ مكة، وأذن لوزيره النصراني نصر بن هارون في بناء وترميم الكنائس والأديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم(٣).

كما تمكَّن عضد الدولة البويهي خلال فترة حكمه الطويلة (٣٥ سنة) أن يضمن للدولة العباسية استقرارًا وازدهارًا بفضل المشاريع العمرانية التي قام بها، مثل (السد العظيم) الذي شيَّده عند مدينة شيراز بفارس، وعُرف باسم (باندي أمير) أي سدَّ الأمير، و(سد السهيلة) بالقرب من بلدة النهروان في العراق.

ومن أعماله العمرانية أيضًا المشهد العظيم الذي شيده على قبر علي بن أبي طالب ﷺ بمدينة النجف، والمارستان العضدي الذي بناه في الجانب الغربي من بغداد لعلاج المرضى، وفرغ من بنائه سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة، وأنفق عليه مالًا عظيمًا، يقول عنه ابن خلكان: «وليس في الدنيا مثل ترتيبه، ...

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥: ٤٥٥.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٥٤، ٥٥.
(٣) حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ٢٣٢.

وأعدَّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه»[١].

ويذكر أن عضد الدولة أخر سنة(٣٧٠هـ) : «وأخر افتتاح الخراج إلي الفيروز المعتضدي، وكان يؤخذ سلفا قبل إدراك الغلات وأمضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت عليها الزيادات والتأويلات ووقف علي مظالم المتظلمين وحملوا علي التعديل، ورفعت الجباية علي قوافل الحجيج وزال كل ما يجري عليها من القبائح وضروب العسف، وأقيمت لهم الثواني في مناهل الطريق وأحفرت الآبار واستفيضت الينابيع[٢]. وحملت إلي الكعبة الكسوة ... وأخرج من بيت المال أموالا عظيمة صرفت في هذه الأبواب وفي غيرها من الصدقات علي ذوي الحاجات من أهل الملة وتجاوزهم إلي أهل الذمة ....»[٣].

ولكن أمد هذه الفترة التي سادها الرخاء النسبي والسلام المؤقت لم يطل لأن الدولة بعد وفاته قد عادت إلى التدهور والاضمحلال إذ سرعان ما دب الخلاف والشقاق بين أمراء البيت البويهي حول الملك فنشبت بينهم الحروب وأنهكت قواهم، فزاد من أجل ذلك نفوذ الأتراك وتدخلوا في سياسة الدولة حتى إنهم كانوا يولون سلاطين آل بويه ويعزلونهم، ثم نضبت الموارد وقل المال حتى اضطر جلالة الدولة (٤١٦-٤٣٥) إلى بيع ثيابه وآلاته في الأسواق. فكان ذلك كله من الأسباب التي أضعفتهم وعجلت بملكهم إلى الزوال على يد السلاجقة عام ٤٤٧هـ.

وبالرغم من أن مدة حكم عضد الدولة كانت قصيرة إلا أنها خلَّفت أثرًا كبيرًا، فنشط العلم ونشطت الفلسفة ونشط البحث الديني فازدهرت الحضارة، إلا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والمالية السيئة كان لها بعض الأثر في نمو

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١١٣.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥: ٤٥٥.

(٣) المصدر السابق: ٥: ٤٤٧-٤٤٨

الحضارة وتقدمها . ويمكن أن نقول : إن هذه الحضارة قامت بتأثير أفكار عباقرة ، قدموا مجهودهم للمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وكان للحكام أثرٌ كبير في تشجيعهم ورعايتهم .

تعصب الشيعة ضد أهل السنة

كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها ، وكبح جماح جندهم ، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسئولياتها ، وتجنب إثارة الفتن المذهبية إلا أن ذلك لم يتحقق ؛ لأنهم دخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب ، وقد فكَّر معز الدولة بعد دخوله بغداد وسيطرته على مقاليد الأمور فيها ، في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها ، وتنصيب أحد الزعماء الشيعة الزيديَّة(١) ، وكان بإمكانه تحقيق ذلك ، إلا أنه أحجم بعد استشارة أصحابه ؛ لأن مثل هذا التغيير كان سيعرِّض العالم الإسلامي لهزات عنيفة ، إضافةً إلى زعزعة الحكم البويهي(٢) .

واللافت أن أمر الخلافة ازداد إدبارًا في عهد بني بويه ، وذهبت حرمة الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأمر شيء . فلما ملك عضد الدولة وكان جبارًا طاغية ، ساءت العلاقة بينه وبين الطائع فأمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين ثم حمله على أن

---

(١) كان الحسن بن زيد العلوي قد خرج على الخليفة المستعين بالله العباسي ، وأعلن الثورة عليه في الكوفة ، ولما ضيق عليه العباسيون ، فر متوجها إلي الري لاجئا إليها ، وظل هناك فترة حتى شاءت الظروف أن ينتقل إلي طبرستان ، ويؤسس الدولة الزيدية فيها ، مستغلا بُعدها عن مركز الخلافة ، وعدم استقرار الأوضاع السياسية فيها ، فتطلع الديالمة له ، إذ كانوا يدركون العداء الشديد بينهما ، فكان الحسن بن زيد خير سند للديالمة يستندون عليه في مواجهة العباسيين. إبراهيم الكروي: البويهيون ، ٦٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦: ٣١٥.

يأمر بضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات في اليوم ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، مع أن ذلك كان من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره[١] .

ولو قارنا حالهم مع بني بويه بحالهم مع الأتراك لظهر لنا الفرق كبيرًا بين الحالين ، فقد كانوا - على عهد الأتراك - يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشيء ، ولكن منذ أن تولى معز الدولة إمرة الأمراء في بغداد زال ذلك جميعه[٢] ثم أن ثوار دار الخلافة كانوا قبل بني بويه هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ، أما الآن ، بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يعامل أمام الناس جميعًا معاملة سيئة لا تراعي له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر[٣] .

ومن المحقق أن أهل بغداد قبل الدولة البويهية كانوا على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة غالية ؛ نما مذهب الشيعة ببغداد ، ووجد له من قوة الحكومة أنصارًا ، فقد كُتِب على مساجد بغداد سنة ٣٥١هـ ما صورته : (لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من غصب فاطمة فَدَكًا ، ومن منع من أن يُدفن الحسن عند قبر جَدِّه صلى الله عليه وسلم ، ومن نفى أبا ذر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى) . فأما الخليفة فكان محكومًا عليه ، لا يقدر على المنع ، وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك .

وقد حرص عضد الدولة البويهي على توثيق الروابط بينه وبين الخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر ، وقد أشار ابن تَغري بَرْدِي إلى الرسائل الوُدِّية المتبادلة بين العاهلين في سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م[٤] .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت (د. ت)، ٣: ٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦: ٣١٧.

(٣) الحضارة الإسلامية ١: ٢٤٠.

(٤) النجوم الزاهرة ٤: ١٢٤، ١٢٥.

والجدير ذكره في هذا المجال هو أن رسالة الخليفة الفاطمي قُرِئت في حضرة الخليفة العباسي ، كما أرسلت رسالة عضد الدولة إلى مصر بعلم الخليفة ، فإن دلَّ ذلك على شيء إنما يدل على مدى ضعف الخلفاء العباسيين زمن سيطرة البويهيين ، فقد كانوا رمزًا لا حول لهم ولا قوة .

وقد اعترف الملك البويهي في خطابه للعزيز بإمامة الفاطميين ، وبفضل أهل البيت ، مُظهِرًا طاعته ومحبته له ، وردَّ العزيز بالله على عضد الدولة برسالة كلها شكر وتقدير وامتنان للملك البويهي .

ويرى كثير من المؤرخين بأن بني بويه أذلوا الخلفاء العباسيين وسلبوهم سلطانهم ، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاصهم أحيانًا ، وأن الخلافة فقدت هيبتها وضعف شأنها في عهدهم ، وأن الخليفة أضحى ألعوبة في أيديهم ، يمثِّل رمزًا دينيًّا ليس له من الأمر شيء سوى الاسم فقط ، أما السلطة الفعلية في الدولة فكانت في يد الأمير البويهي[1] .

والواقع أن الدولة البويهية الشيعية لم تكن دولة إسلامية بالمعنى الصحيح ، فهي تخالف عقائد وفكر أهل السُّنَّة مخالفة واضحة ؛ فلذلك بدرت منها أفعال منكرة تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي الصحيح ، وبدرت منهم أعمال منكرة ، وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ، ما أولع به الشيعة من سبِّ بعض الصحابة .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كانت الانقسامات الدينية والمذهبية كثيرا ما تجر البلاد إلى حروب داخلية ، لاسيما بين السنة والشيعة[2] تسفك فيها الدماء ، ومن

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٥٢، ٥٣.

(٢) الشيعة في اللغة هم الأهل والأتباع والأنصار ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة القصص آية «١٥» في قوله تعالي : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ . ويطلق هذا اللفظ في عرف الفقهاء والمتكلمين علي أتباع علي بن أبي طالب وبنيه . ولم يكن التشيع وليد العصر البويهي أو الذى قبله ، وإنما كان نتيجة ظروف وملابسات=

الطبيعي أن يجر ذلك كله إلى فوضي اقتصادية، فلم تكن الثروة موزعة توزيعا عادلا، وقاسي عامة الشعب من البؤس والفقر(١).

الحركة العلمية في عهده

شهد بلاط عضد الدولة نهضة علمية وثقافية كبيرة، فقد انبعث منه الإشعاعات الفكرية فتم في عهده تأليف وتصنيف كثير من الكتب باللغتين الفارسية والعربية، كما أسهم بجهود صادقة في إيواء الشعراء وتشجيعهم واستدراء مديحهم، حيث اشتهر - رغم عدم استقرار الأوضاع السياسية - برعاية العلماء والأدباء بل إن بعض الكتاب والشعراء ارتقى بالنثر الفارسي في عهده، حتى يصفه الثعالبي بقوله: «وكان على ما مكن له في الأرض، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض، وخص به من رفعة الشأن، وأوتى من سعة السلطان، يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويوقر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شعرًا كثيرًا»(٢).

وفى هذه الفترة بلغت الثقافة الإسلامية أوج مجدها، لاسيما بعد أن أصبح «عضد الدولة» أميرا على الدولة البويهية.

=عقائدية وسياسية حدثت عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد أن شاعت فكرة إمامة «علي بن أبى طالب» وأبنائه من فاطمة، وعلقت فى نفوس البعض على مر القرون. البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق: عثمان الخشب، القاهرة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨م، ٦٢.

(١) يعلل ابن خلدون «انحلال البيت بكثرة الترف». ولما كانت الحالة الاجتماعية انعكاسا طبيعيا وصدى للحالة السياسية، كانت الفوضى السياسية مدعاة إلى الانغماس في الترف، ولم يكن همّ علية القوم في ذلك العصر، إلا اغتنام اللذة. والمعروف أن الإفراط في الشهوات يضعف الهمة، ويقصر العمر، ولذلك كان متوسط أعمار الخلفاء فى العصر التركي قصيرا بالقياس إلى من عداهم من اللاحقين. ابن خلدون: المقدمة ٦٣.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ٢: ٢٥٧.

ولاشك أن فترة عضد الدولة كانت فترة زاخرة بفطاحل العلماء والمفكرين مليئة بالحيوية الفكرية ، والبحوث المستفيضة والنشاط الذهني المتوقد ، ونكفى أن نذكر العديد من العلماء أمثال «ابن سينا» «والتوحيدي» و«الهمذاني» و«الخوارزمي» ، و«الثعالبي» وغيرهم من العباقرة والعلماء .

والواقع أن دويلات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت بينها خلافات أحيانًا ، وحروب أحيانًا أخرى ، غير أن هذه الحروب لم تكن من الكثرة بحيث تجعل القرن أكثر من غيره اضطرابًا . فالتمزق السياسي لا يستتبع بالضرورة الضعف في النواحي العلمية ، فقد شهدت عصور التدهور السياسي في أغلب الأحيان ازدهارًا في النواحي الفكرية والعلمية .

فقد ورث القرن الربع الهجري جهود ثلاثة قرون بذلها العلماء في الدرس والتحصيل والإنتاج ، وتعددت ينابيع الثقافة بين ثقافة عربية خالصة ، وثقافة أجنبية ، تتمثل في الكتب التي ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية ، وثقافة تجمع بينهما ، وتتمثل في إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين .

وليس من المستغرب في ذلك العصر أن العلماء العرب قد أبدعوا في أكثر من جانب من مجالات العلوم المختلفة ، فنرى العالم آنذاك قد تبحر في علوم القرآن ، والحديث ، واللغة ، والأدب والتاريخ والجغرافيا ، بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية .

فليس تعدد الدول في البلاد الإسلامية دليلًا على ضعف الأمة وانحلالها(كما يعتقد) بل ربما كان التعدد دليلًا على القوة الكامنة في جوهر الأمة ، فالتعدد السياسي قد يكون مظهرًا من مظاهر التفوق[1] .

---

[1] الدول الإسلامية القائمة آنذاك «السامانية» في بخاري وسمرقند و«الزيارية» في جرجان وطبرستان و«الغزنوية» في خراسان والهند و«الحمدانية» في حلب والموصل و«الإخشيدية» في مصر . وفاء محمد على : الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ١٢٧.

وكان ملوك بنى بويه (حكام ذلك العصر) أنفسهم علماء يشتغلون بالكتب ويهتمون بها ، ويناد مون الأدباء والشعراء : فكان عضد الدولة[١] نفسه شاعرًا مبرزًا حاز إعجاب الصاحب بن عباد[٢] ، كما كان ذواقة للشعر يدل على ذلك قوله يمتدح أشعار الصاحب بن عباد : «لا غرو إذا فاض بحر العلم على لسان الشعراء ينتج مالا عين وقعت على مثله ولا أذن سمعت بشبهه»[٣] وقال في قصيدة للصاحب كذلك : «لو استحق شعر أن يعبد لعذوبة مناهله ، وجلاله قائله لكانت قصيدته هو ...»[٤] .

وألف له أبو إسحاق الصابي كتابه «التاجي» الذي يمتلئ بآثار عضد الدولة ويقول الثعالبي : عن هذا الكتاب : «من أراد أن ينظر في أخبار عضد الدولة ، ويقف على محاسن آثاره ، فليتأمل الكتاب التاجي من تأليف أبي إسحاق الصابي»[٥] .

---

(١) عضد الدولة : عضد الدولة البويهي : أبو شجاع فناخسرو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي على الحسن بن بويه الديلمي ، أول من خوطب بالملك في الإسلام ، وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة ، ودانت له البلاد والعباد ، توفى سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م) . ابن خاوندشاه : روضة الصفا ١٩٠، ١٩١.

(٢) الصاحب بن عباد : يعد الوزير الصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥هـ/٩٩٥م) من أفضل وزراء العهد البويهي ، وقد منحه الأميران مؤيد الدولة ثم فخر الدولة سلطة مطلقة في إدارة شئون البلاد التابعة لهما . وبلغ من علو مكانه الصاحب ابن عباد وتأثيره في سياسة الدولة أن الأمير عضد الدولة كان يقول لجلسائه أنه لا يحسد أحد من الملوك إلا أخاه مؤيد الدولة لتولي الصاحب بن عباد وزارته . ويعد الوزير الصاحب بن عباد من أشهر رجال العلم والأدب في عصره ، يصفه ابن النديم بأنه كان «أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر» . وبلغ من اهتمام هذا الوزير بالعلم والأدب أنه جمع من الكتب ما يحمل على أربعمائة جمل ، وكانت فهارس المكتبة التي أنشأها بمدينة الري في عشر مجلدات . ابن الجوزى : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر أباد ـ دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩هـ ، ٧: ١٢٢؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ١٥٨.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٩١م ، ٢: ٤١٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ٨٠.

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤: ٥٠ـ ٥٤.

(٥) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٣، ٢: ٢٥٧.

وقال ابن الجوزي :[(١)] «وكان عضد الدولة محبًا للعلوم وأهلها فقصده من كل بلد وألفوا له الكتب منها «الإيضاح» في النحو والحجة في القراءات و«الملكي» في الطب «والتاجي» في تاريخ الديلم وغير ذلك . وليس أدل على تقدير عضد الدولة للشعر من أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدلًا من الوزير «ابن بقية» لتقال فيه قصيدة «محمد بن عمران الأنباري» التي يقول فيها :

علو في الحياة وفي الممات   لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا   وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبًا   وكلهم قيام للصلاة[(٢)]

ولا ننس كذلك ابن العميد[(٣)] الذي لم يقاربه أحد من الأدباء في زمانه حتى لقب بالجاحظ الثاني وقد قيل : «بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد»[(٤)] قال عنه الثعالبي :[(٥)] «يضرب به المثل في البلاغة» وكان الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة البويهي من أشهر رجال الأدب في عصره حتى وصفه الثعالبي :[(٦)] «هو صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع

---

(١) المنتظم ٧: ١٣٨.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٣٥م ، ٤: ١٣٠، ١٣١.

(٣) أبو لفضل بن العميد : هو محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بـ «ابن العميد» ، والعميد لقب والده ، لقب بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم ، وكان فيه فضل وأدب . وأما ولده هذا فقد كان وزير ركن الدولة بن بويه الديلمي والد عضد الدولة . وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه حتى سمي بالجاحظ الثاني قال عنه الثعالبي : «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد توفي سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م»). الثعالبى : يتيمة الدهر ٣: ١٨٣. ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥: ١٠٣.

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٣: ٣٣.

(٥) اليتيمة : ٣: ١٨٣.

(٦) المصدر السابق ٣: ١٨٤.

العدل والإحسان» ذكر ابن خلكان :[١] أنه أجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره .

الدور الحضاري لوزراء بني بويه

كان ملوك بني بويه ووزراؤهم وأعيان دولتهم يميلون إلى العلوم ، ويرغبون في نشر المعارف ، وما عسى الواصف أن يصف من الثقافة العقلية في دولة من وزرائها أبو الفضل بن العميد[٢] .

وكذلك الصاحب بن عباد[٣] ،

---

[١] وفيات الأعيان ١: ٧٥.

[٢] أبو الفضل بن العميد : أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد والعميد لقب والده لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم وكان فيه فضل وأدب وأما ولده أبو الفضل هذا فقد كان وزير ركن الدولة أبي على الحسن بن بويه الديلمي والد عضد الدولة وكان متوسعًا في علوم الفلسفة والنجوم وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه وكان يسمى الجاحظ الثاني حتى قال عنه الثعالبي في اليتيمة «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» ، وكان الصاحب بن عباد الوزير المشهور من أتباعه وتوفى سنة (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م). ابن النديم : الفهرست ، ١٤٩؛ الثعالبي : يتيمة الدهر ٣: ١٨٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥: ١٠٣. آدم متز : الحضارة الإسلامية ١: ٣١١.

[٣] ولد الصاحب في إحدى كور فارس باصطخر ، أو بطالقان سنة (٣٢٦ هـ /٩٣٨م) وأخذ العلم والأدب عن والده الذي كان كاتبًا ماهرًا ، ولي الوزارة لركن الدولة البويهي ، وقبل أن يكون وزيرا كان من أهل العلم والفضل ، سمع من علماء بغداد وأصفهان والري ، وروى عنه جماعة من العلماء ، وعني بتربية ابنه ، وتعهده بالتعليم والتثقيف ؛ حتى يكون كاتبا مثله ، يتصل ببلاط الملوك ، ويخلفه في الوزارة . واتصل إسماعيل بن عباد بأبي الفضل بن العميد الوزير المعروف ، وتتلمذ على يديه ، وتدرب على طريقته في الكتابة والقيام بأعمال الوزارة ، وكان دائم الصحبة له حتى لُقّب بالصاحب ، كما تتلمذ على يد العالم الكبير أبي الحسين أحمد بن فارس ، المتوفى سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، وتوثقت بينهما أسباب الصلة والمودة ، حتى إن ابن فارس لمّا ألّف كتابه في فقه اللغة أطلق عليه لقب تلميذه ، فسماه الصاحبي ، وأهداه إليه بعدما أصبح وزيرًا معروفًا . لمزيد من التفاصيل حول شخصية الصاحب انظر : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٣: ١٨٨، ٢٨٦، معجم الأدباء ٦: ١٦٨، ٣١٧، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٢٣٨، ٢٤٠؛=

وأبو محمد المهلبي(١)، وسابور بن أردشير(٢)، مؤسس دار العلم بالكرخ(٣).

ولما كان «بنو بويه» يحبّون العلم والأدب، ويستعينون بالعلماء والكتاب والشعراء في المناصب الكبرى بدولتهم كالوزارة التي تولاها نفر من سدنة العلم وأعلام الأدب والكتابة كأبي الفضل بن العميد الذي وَلِي الوزارة لركن الدولة البويهي سنة (٣٢٨هـ/٩٣٩م) وظل في منصبه ثلاثون عاما، وكان يُضرب به

=إنباه الرواة على أنباه النحاة ١: ٢٣٦ - ٣٨، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١: ٤٤٩ - ٤٥١، تاريخ ابن خلدون ٤: ٤٦٦، تاريخ أبي الفداء ٢: ١٣٠، تاريخ ابن كثير ١١: ٣١٤ - ٣١٧، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١: ٢٢٨ - ٢٣٣، الفهرست، ص ١٩٤، روضات الجنات، ص١٠٤ - ١٠، كشف الظنون، ص ٦١٩، ٩٠١، ١٣٧٦، ١٦٢١. مرآة الجنان ٢: ٤٢١ - ٤٢٤، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ص ٨٦ - ٨٩، معاهد التنصيص ٤: ١١١- ١٣٦، النجوم الزاهرة ٤: ١٦٩ - ١٧١، الكامل في التاريخ ٧: ٤٧١، ٤٧٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣: ١١٣، ١١٦، المنتظم لابن الجوزي ٧: ٧٩، نهاية الأرب ٣: ٠٨ ١: ، أعيان الشيعة - العاملي ١٢: ٢٤٠، النجوم ١: ٧٣: المكتبة الشاملة، معجم المؤلفين ٢: ٢٧٤.

(١) أبو محمد المهلبي: هو أبو الحسن بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم وزير أحمد ابن بويه الديلمي وكان أديبًا مبرزًا وشاعرًا بليغًا فيه نباهة وعلم وأدب. ويصفه الثعالبي بقوله «كان يترسل ترسلًا مليحًا ويقول الشعر قولًا لطيفًا يضرب بحسنه المثل ولا يستحلى مع العسل يغذى الروح ويجلب الروح» توفى سنة (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م). ابن النديم: الفهرست، ص١٤٩. الثعالبي: يتيمة الدهر ٢: ٢٦٥.

(٢) سابور بن أردشير: أبو منصور سابور بن أردشير الملقب بهاء الدولة وزير بهاء الدولة أبي نصير ابن عضد الدولة بن بويه الديلمي كان من أكابر الوزراء وأماثل الرؤساء جمعت فيه الكفاية والدراية وكان بابه محط الشعراء ذكره الثعالبي في اليتيمة وعقد لمداحه بابًا مستقلًا توفى سنة (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) وظلت هذه الدار تؤدي خدماتها للعلم والأدب حتى احترقت إثر دخول السلاجقة بغداد. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨: ٢٢، ٢٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ٣٥٤ - ٣٥٦.

(٣) دار العلم: أسس هذه المكتبة أبو نصر سابور بن أردشير (السالف الذكر) وسميت باسمه وكان تأسيسها عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهارًا رائعًا وذاع صيتها في الآفاق وقصدها الأدباء والعلماء وكان أبو العلاء المعري الفيلسوف الشهير أشهر من قصد بغداد وخاصة لزيارة دار العلم. ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ـ دارا لفكر العربي د. ت، ١١: ٣١٢.

المثل في البلاغة والفصاحة حتى لقب بالجاحظ الثاني ، وقيلت فيه العبارة السائرة : «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد» . والمقصود بعبد الحميد هنا هو «عبد الحميد بن يحيى» كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

وبعد وفاة أبي الفضل ابن العميد خلفه ابنه أبو الفتح في الوزارة ، وكان كاتبا بليغا وسياسيا ماهرا ، ويضاف إليهما الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهي .

وكان هؤلاء الوزراء من أصحاب الكفايات النادرة ، الصاحب بن عباد التحق الصاحب بن عباد بمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهي أمير الري وأصفهان ، وعمل له كاتبا ، وظل مقدما عنده ، ثم ولي له منصب الوزارة في سنة (٣٦٦هـ /٩٧٦م) ، وظل في الوزارة حتى وفاة مؤيد الدولة سنة (٣٧٣هـ /٩٨٣م) ، ثم أقره أخوه «فخر الدولة» على وزارته ، وقد نجح الصاحب في إدارة شئون الدولة وتدبير أمورها على خير وجه ، وجمع إلى جانب ما يتمتع به من ثقافة موفورة وعمل غزير وقدرة عالية على كتابة الرسائل الديوانية - كفاية حربية وموهبة عسكرية ؛ فكان قائدا شجاعا حتى إنه فتح في خلال وزارته خمسين قلعة حصينة ، وكان إداريا عظيما ؛ فظلت الأنظمة الإدارية التي استحدثها تطبق في عهد من خلفه الوزراء .

وبلغ من علوّ مكانته وتأثيره في سياسة الدولة أن الأمير عضد الدولة أعظم أمراء دولة بني بويه كان يقول لجلسائه : إنه لا يحسد أحدا من الملوك إلا أخاه مؤيد الدولة ؛ لتولي الصاحب بن عباد الوزارة له ، وكان الأمير عضد الدولة - الذي كان يحكم العراق وما حولها - يخرج بنفسه لاستقبال الصاحب إذا قدم إليه ؛ فقد خرج في سنة (٣٧٠هـ /٩٨٠م) على رأس كبار رجال دولته إلى خارج مدينة بغداد لاستقبال الصاحب بن عباد وإكرامه .

المدارس والمكتبات

كان مما ساعد على ازدهار النهضة العلمية في عهد عضد الدولة تأسيس المدارس فيه، فقد كانت «نيسابور»[١] أول مدينة فارسية يقام فيها مدرسة، ثم توالى بعد ذلك إنشاء المدارس[٢].

والواقع إلى العصر البويهي هو العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية فبلغت أوج ازدهارها، ويرجع ذلك إلى أن هذه الدولة الفارسية التي قامت في أرض فارسية أول أمرها، لم يكن لها أثر يذكر في الثقافة الفارسية، بل اندفعوا في تأثير الثقافة العربية، إذا كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية، فقد تمكنت اللغة العربية من نفوس العلماء حتى أصبحت لغة الأدباء الفصحاء في تلك البلاد، ولئن ظهرت بعض التأليف باللغة الفارسية في هذه الفترة، إلا أن كبار الكتاب الذين نبغوا خاصة في بلاد المشرق الإسلامي قد كتبوا باللغة العربية، ومعنى ذلك أن العربية قد زاحمت الفارسية في بلادها حتى كادت تحجبها[٣].

ولم تكن الدولة البويهية دولة مركزية تابعة لحاكم واحد، فقد اقتسم أعضاء هذه الأسرة الثلاثة فيما بينهم البلاد التي استولوا عليها، وكان التفوق السياسي ينتقل من شخص إلى آخر[٤].

---

(١) نيسابور: مدينة عظيمة من أهم مدن خراسان، خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى، النسبة إليها نيسابوري. ياقوت: معجم البلدان ٥: ٣٣١.

(٢) تشير النصوص التاريخية إلى أن نيسابور كانت مهدًا للمعاهد العلمية التي عرفت باسم «المدارس» وأن أول مدرسة بنيت بها كانت لأبي إسحاق الإسفرايني، وكذلك المدرسة البيهقية للإمام البيهقي سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م). ويذكر ياقوت أن «ابن حبان البستي» أتخذ من داره مدرسة لأصحابه، معجم البلدان ١: ٤١٧، ٤١٨.

(٣) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني ٢٨؛ بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٦.

(٤) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٥، ١٠٦.

ومع ذلك فقد ساعد هذا النظام على رقي حضارة المدن، وازدياد مراكز الحضارة، فكان كل أمير يجمع في قصره العلماء والشعراء ويجتهد في ترقية حضارة مدينته[١].

وهكذا صار هناك أكثر من عاصمة حضارية يتدفق على كل من الأدباء والعلماء، وانتقلت الحياة العلمية من مراكز الحضارة في بغداد، والبصرة[٢] إلى عواصم حضارية أخرى مثل الري[٣] وأصفهان[٤] وشيراز[٥] وبخارى وجرجان[٦] وطبرستان[٧].

وقد وصف لنا «ابن جبير»[٨] ما تركته بغداد في نفسه عند ذهابه إليها من أحاسيس، حتى اشتهرت في آفاق العالم الإسلامي؛ وأصبح اسمها علما على

---

(١) مصطفى جواد: الثقافة العقلية والحال الاجتماعية في عصر الرئيس أبي علي بن سينا ٥٠٥، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٢، بغداد، ١٩٥٦م.

(٢) البصرة: مدينة عظيمة بالعراق. ياقوت: معجم البلدان ١: ٤٣٠؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ١: ٢٠١.

(٣) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن وهي قصبة بلاد الجبل بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا. ياقوت: معجم البلدان، ٣: ١١٦؛ القزويني: آثار البلاد ٣٧٥.

(٤) أصفهان: مدينة عظيمة من أعلى المدن ومشاهيرها وهي من نواحي الجبل. ياقوت: معجم البلدان ١: ٢٠٦؛ القزويني: آثار البلاد ٢٦٩؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ١: ٨٧.

(٥) شيراز: هي بلد عظيم مشهور وهي قصبة بلاد فارس. ياقوت: معجم البلدان ٣: ٣٨٠.

(٦) جرجان: جرجان: مدينة كبيرة تقع في جنوب شرق بحر الخزر ويحدها جنوبًا إقليم خراسان، وشرقًا إقليم خوارزم، وغربًا بحر الخزر وإقليم طبرستان وهي بلاد كثيرة الأنهار. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٨٠ - ٢٨٥.

(٧) طبرستان: طبرستان: بلاد جبلية تمتاز بالحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها، وهي بلاد معروفة والعجم يقولون «مازندران» وهي بين الري وقومس وبحر الخزر. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٤، ٤٠٣.

(٨) رحلة ابن جبير: ٢٩٩، بيروت - دار ومكتبة الهلال ١٩٨٦، ٢٩٩.

البهجة والأناقة والأنس والسرور، يقول: «وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور في القلب ويبعث النفس دائما على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طربا، وإن كان نازح الدار مغتربا».

وكان طبيعيًا أيضًا أن يشغف البويهيون بالكتب وجمعها، واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة أولها مكتبة «عضد الدولة» التي رآها المقدسي[١] ووصفها بقوله: «حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صُنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها ...» والمكتبة الثانية مكتبة الصاحب والتي كان خازنها ابن مسكويه.. والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد «إذ كان بها من كتب العلم ما يحمل على أربع مائة بعيرًا أو أكثر، ويقال: كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الري عشرة مجلدات»[٢].

وقد أدى هذا كله إلى وجود نتاج كبير من الكتب التى ألفت في هذا العصر والتى تدور في معظمها حول الموضوعات الفقهية، أو في الحديث الشريف، أو في التاريخ الإسلامي، وتراجم الرجال وعلى رأسهم النبى ﷺ وصحابته الكرام[٣].

العلوم الدنيوية (النظرية)

أظل سلطان البويهيين العراق (٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥م) وكان فيهم حب للعلم وأهله، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من كانت له نباهة في علم أو أدب. ففي أيامهم ظهر أفاضل العلماء، وفحول الشعراء والكتاب، ومهرة الفقهاء، والحكماء، والفلاسفة، والأطباء، وكان ملوك بني بويه ووزراؤهم

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ١٩٨٧م، ٣٤١، ٣٦٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١٥٠.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٦٩م، ١: ٢٥٥.

وأعيان دولتهم يميلون إلى العلوم، ويرغبون في نشر المعارف، ففي أيامهم ألفت أمهات الكتب في مختلف العلوم والفنون[١].

وعلى الجملة فقد كان عصرًا حافلًا بالحركات العلمية في شتى مناحي الحياة، وامتاز هذا العصر بأنه احتشد فيه طائفة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال اللغة والبيان قل أن يحتشدوا في عصر واحد[٢].

ولكي نتبين مدى ما وصلت إليه هذه النهضة العلمية الشاملة وزخر به هذا العصر من علماء في مختلف فنون المعرفة، سوف نلقى نظرات عابرة نجول بها في شتى ميادين المعرفة قدر المستطاع، لتتضح الصورة عن

ففي عهد عضد الدولة شهدت العلوم الدنيوية ازدهارًا واسعًا، حيث قرب إليه العلماء، وأكرم وفادتهم، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم بكل مظاهر التكريم والتبجيل، وكان مجلسه منتدى يجتمع فيه الفقهاء والمحدثون والنحاة، والأدباء والشعراء، والأطباء والمهندسون، تدور فيه المناقشات العلمية، وتطرح القضايا على مائدة البحث، يدلي كل منهم بما عنده، وكان عضد الدولة يشترك معهم في هذه المناقشات.

ويحدثنا ابن مسكويه[٣] عن هذا قائلًا: «وأفرد عضد الدولة لأهل الخصوص والحكماء من الفلاسفة موضعًا يقرب من مجلسه وهي الحجرة التي يختص بها الحجاج فكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة وأقيمت لهم رسوم تصل إليهم وكرامات تتصل بهم فعاشت هذه العلوم وكانت مواتًا وتراجع أهلها وكانوا أشتاتًا ورغب الأحداث في التأدب والشيوخ في التأديب

---

(١) وفاء محمد على: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ١٢٧.

(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) التجارب ٥: ٤٤٩.

وانبعثت القرائح ونفقت أسواق الفضل وكانت كاسدة وأخرج من بيت المال أموال عظيمة صرفت في هذه الأبواب» .

أما عن علم الحديث فقد كان أبو الحسن الدارقطني[١] المتوفي سنة (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) من أكبر محدثي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وله كتاب «السنن» و«المختلف والمؤلف» وكتاب «الضعفاء والمتروكين من الرواة» وغير ذلك كثير[٢] .

وكذلك البرقاني[٣] المتوفي سنة (٤٢٥هـ/١٠٣٣م) وله مصنفات مختلفة في الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم[٤] .

ومن كبار المحدثين أيضًا ابن حبان البستي[٥] المتوفي سنة (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) ويشتهر بكتابه «الجرح والتعديل في نقد حملة الحديث»[٦] ، ومن كبار المحدثين

---

(١) الدارقطني : أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي الدارقطني الحافظ المشهور كان عالماً حافظًا فقيهًا على مذهب الشافعي رضي الله عنه وكان متقنًا في علوم كثيرة وإمامًا في علوم القرآن ، والدارقطني نسبة إلى دار قطنة وهي محلة ببغداد . ابن الجوزي : المنتظم ٧: ١٨٣.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٢٩٧.

(٣) البرقاني : أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب أبو بكر الخوارزمي المعروف بالبرقاني كان إمامًا ثقة ورا متقنا مثبتا فهما حافظا للقرآن عارفا بالفقه والنحو. السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، بيروت ـ دار المعرفة د. ت ، ٣: ١٩.

(٤) ابن الأثير : اللباب ١: ١٤٠؛ ابن الجوزي : المنتظم ٨: ٨٠.

(٥) ابن حيان البستي : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعد التميمي البستي صاحب التصانيف وولي قضاء سمرقند وكان من فقهاء الدين عالماً بالنجوم والطب وفنون العلم كان من أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ ومن عقلاء الرجال وكانت الرحلة إليه . السيوطي : طبقات الحفاظ ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٣م ، ٣٧٥، ٣٧٦.

(٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٣: ٩٢٠؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ٣: ١٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية ١١: ٢٩٥.

أيضًا العالم الكبير أبو إسحاق الأسفراييني[1] المتوفي سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) صاحب التصانيف الجليلة وعالم أهل العراق وخراسان[2].

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق والمشرق الإسلامي ينشطان في التفسير، فوجد علماء أمثال علي بن عيسى الرماني[3] المتوفي سنة (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) وله كتب «التفسير الكبير»[4]. ومن التفاسير المهمة في هذا العصر، تفسير النقاش البغدادي[5] المتوفي سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) فقد كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، وقد سمى تفسيره «شفاء الصدور»[6].

وما أن نصل إلى أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى نلتقي

---

(١) أبو إسحاق الأسفراييني: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني الفقيه الشافعي المتكلم الإصولي أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعلم أهل العراق وخراسان. ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٢٨؛ السبكي: طبقات الشافعية ٢: ٣٢١؛ ابن قنفذ: الوفيات ٢٣٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٢٨؛ السبكي: طبقات الشافعية ٢: ٣٢١.

(٣) علي بن عيسى الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المفسر متفننًا في علوم كثيرة في الفقه والقرآن والحو والكلام كثير التصنيف والتأليف. السيوطي: طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة - مكتبة وهبة ١٩٧٦م، ٨١؛ ابن الأثير: اللباب ٢: ٣٧؛ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١٧٦.

(٤) ابن النديم: الفهرست ٢٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١١: ٣١٤.

(٥) النقاش البغدادي: محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون الموصلي ثم البغدادي أبو بكر النقاش المقرئ المفسر إمام أهل العراق في القراءات والتفسير وصنف «شفاء الصدور» و «الإشارة في غريب القرآن»؛ ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة - مكتبة المتنبي ٢: ١١٩؛ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١٤.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٢٩٨؛ ابن الجزري: طبقات القراء ٢: ١١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١١: ٢٤٢.

بالشريف الرضي[١] المتوفي سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) وبتفسيره الذي سماه «حقائق التأويل في متشابه التنزيل»[٢].

وتفسير أبو عبد الرحمن السلمي[٣] المتوفي سنة (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) وسماه «حقائق التفسير»[٤].

وإذا نظرنا إلى الحياة الفقهية بوجه عام في عهد عضد الدولة، فإننا نجد مشاركة كبيرة من الفقهاء، فعلى الرغم من اعتناق الأمراء للمذهب الشيعي، فإننا نرى ظهور كثير من المذاهب الفقهية السنية في دولتهم وبين الرعية، فقد انتشرت هذه المذاهب بين أهل طبرستان، فمنهم ما كان حنفيا أو حنبليا إلى جانب الشافعيين، وكان بعضهم كراميا والبعض الآخر شيعيا.

ولكن من الملاحظ أن المذهب الشافعي ظهر فيه عدد غير قليل من الفقهاء في هذه الدولة، أثروا على الحياة العلمية والثقافية، فمن اعتنق هذا المذهب وتفقه فيه الفقيه: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الشافعي الجرجاني المتوفي سنة ٣٧١هـ.

والفقيه أبو عبد الله محمد بن الحسن إبراهيم الاستراباذي، وقيل: الجرجاني، المعروف بالختن، الذي اشتهر بالفضل والعلم، وله وجوه حسنة في المذهب

---

(١) الشريف الرضي: هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب نقيب الطالبين ببغداد يقول عنه الثعالبي «أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق». الثعالبي: يتيمة الدهر ٣: ١٥٥؛ القفطي: إنباه الرواه ٣: ١١٤.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر د. ت، ٣: ١٨٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢: ٣، ٤.

(٣) أبو عبد الرحمن السلمي: محمد بن الحسين بن موسى أبو عبد الرحمن السلمي كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان صنف لهم «سننا» و «تفسيرا» و «تاريخا» وغير ذلك. الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٤٦.

(٤) ابن الأثير: اللباب ٢: ١٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ١٢.

الشافعي ، سمع عن أبي نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي ، وأقرانه ، وشرح كتاب التلخيص لأبي العباس ابن القاضي ، وتوفي هذا الفقيه الشافعي في جرجان يوم عيد الأضحى سنة ٣٨٦هـ .

كذلك الفقيه «أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور» المعروف بأؤلكاني ، الذي درس الفقه الشافعي على يد أبي حامد الإسفرائيني ، وصنف كتابا في الفقه ، وقد توفي هذا الفقيه في دينور سنة ٤١٨هـ .

ومما يلفت النظر أن فقهاء الشافعية لم يقتصر ظهورهم على بغداد بل ظهر بعضهم في المدن التابعة للدولة البويهية أمثال «أبو المحاسن الروياني» قتيلا بسبب التعصب الشديد لمذهبه في المسجد الجامع بمدينة آمل في سنة ٥٠١هـ .

ومما يجدر ذكره أن فقهاء المذهب الشافعي كانوا يستنكرون تعاليم المذاهب الأخرى ، وكثيرا ما قامت الفتن والمنازعات بين هذه المذاهب .

وقد لمع من هذا العصر كوكبة من علماء اللغة ، نذكر منهم العالم اللغوي الشهير أبو علي الفارسي[١] المتوفي (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) الذي كان إمام وقته في علم النحو ، حتى علت مكانته لدى عضد الدولة البويهي[٢] حتى قال عنه «أنا غلام أبي

---

(١) أبو علي الفارسي : أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي ولد بمدينة فسا واشتغل ببغداد وكان إمام وقته في علم النحو وصحب عضد الدولة ابن بويه وعلت منزلته عنده ومن تصانيفه كتاب «التذكرة» وكتاب «المقصور والممدود» وكتاب «الحجة» . وقال فيه ابن خلكان «وبالجملة فهو أشهر من أن يذكر فضله ويعدد» . القفطي : إنباء الرواة على أبناء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٨٦م ، ١: ٣٠٨؛ ابن الجوزي : المنتظم ٧: ١٣٨؛ ياقوت : معجم الأدباء ٢: ٤١٣؛ ابن كثير : البداية والنهاية ١١: ٣٠٦. ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ٨٠.

(٢) عضد الدولة البويهي : أبو شجاع فناخسرو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي أول من خوطب بالملك في الإسلام وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة ودانت له البلاد والعباد حيث استطاع أن يستولى على العراق من ابن عمه بختيار عام (٦٧هـ/ ٩٧٧م) بعد صراع=

علي الفسوي في النحو»[١] وقد وضع له كتاب «الإيضاح والتكملة في النحو»[٢].

ومن علماء هذا العصر أبو سعيد السيرافي[٣] المتوفي (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) وله كتاب «شرح كتاب سيبويه» و«طبقات النحاة» وكان عالماً باللغة والنحو وله نظرات عميقة دقيقة في النحو العربي[٤].

كذلك اشتهر أبو الفرج علي بن الحسين بن هند الكاتب بالنحو والبلاغة، وله رسائل مدونة وهو من أهل الري، ثم ارتحل إلى جرجان حوالي سنة ٤١٠هـ، حيث أقام في كنف البويهيين وعمل كاتبا بهذه المدينة، وأبو الفرج مشهور بجودة الشعر ونظمه، ومن أشعاره التي أنشدها في مجلس «أبو الفتح ابن أبو علي حمد».

وممن اشتهر كذلك يعلم النحو الأديب أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني وهو أحد أصحاب عبد القاهر الجرجاني النظم فصيح النثر، جيد التصنيف، حسن التأليف، فمن مصنفاته النحوي، وقد اتصف أبو عامر بالخط الحسن، صحيح الضبط رائق، كتاب «البيان في علم القرآن» وكتاب: «عروق الذهب في أشعار العرب» وكتاب «سلوة الغرباء».

=طويل بينهما دام عدة سنوات فأصبح ملكه يضم العراق والمشرق الإسلامي ولم يلبث أن توفى عضد الدولة سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م). ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٥٠ - ٥٤؛ ابن خاوند شاه: روضة الصفا ١٩٠، ١٩١.

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٢: ٤١٣؛ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١٣٨.

(٢) القفطي: إنباء الرواة ١: ٣٠٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١١: ٣٠٧.

(٣) أبو سعيد السيرافي: الحسن بن عبد الله بن المزربان كان عالماً باللغة والنحو والقراءات والحساب وغير ذلك من فنون العلم وكان من أعظم علماء النحو في هذا العصر وأكثرهم آثارًا. الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ١١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٤م، ١١٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١١: ٢٩٤؛ مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني ٣٣.

ومن أشهر النحاة وأهل اللغة في هذا العصر أبو الفتح عثمان جنى الموصلي[١] النحوي المتوفي (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) صاحب المؤلفات الشهيرة في النحو واللغة ، وهو الذي قال عنه الثعالبي «هو القطب في لسان أعرب وإليه انتهت الرياسة والأدب»[٢] .

وكان عضد الدولة يحب الشعر ويتذوقه ، ويغمر الشعراء بكريم عطاياه ، فقصدوا بلاطه ، ويأتي في مقدمتهم أبو الطيب المتنبي الذي خصه بمدائح عظيمة ، وأبو الحسن السلامي أبرز شعراء العراق في ذلك الوقت ، وكان عضد الدولة يقول عنه : «إذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إليَّ ووقف بين يدي» .

ومن عجب أن هذه الدولة الفارسية والتي قامت في بداية أمرها في أرض فارسية لم يكن لها أثر يذكر في الأدب الفارسي وإن كان لها الأثر الأكبر في الأدب العربي فقد عاش في رحابها بديع الزمان الهمذاني[٣] وأبو حيان التوحيدي[٤] بان إن المتنبي[٥] المتوفى سنة (٣٥٤هـ / ٩٦٥م) وقد عليهما ونهل من

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جنى : أبو الفتح بن جنى الموصلي النحوي المشهور كان إمامًا في علم العربية وكان أبوه مملوكًا روميًا ولابن جنى تصانيف كثيرة في النحو والأدب . ابن النديم : الفهرست ٩٥.

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ١: ١٣٧.

(٣) بديع الزمان الهمذاني : هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة وعلى منواله نصح الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى أثره وهو أحد الفصحاء وله الرسائلا لبديعة والنظم المليح وسكن هراة من بلاد خراسان توفى سنة (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م) ياقوت : معجم الأدباء ١: ٢٦٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ١٢٧.

(٤) أبو حيان التوحيدي : هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي كان متفننًا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام ولأبي حيان تصانيف كثيرة من أهمها كتاب «الإمتاع والمؤانسة» وكتاب «الإشارات الإلهية» . ياقوت : معجم الأدباء ٤: ٢٨٧؛ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ٥: ٤٥٣.

(٥) المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور اشتغل بفنون الأدب ومهر فيها قال عنه الثعالبي «نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في=

مورد أبي الفضل بن العميد ومدحه بقصيدته المشهورة التي منها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطلميوس دارس كتبه ... متملكًا متبديًا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الإله نفوسهم والأعصرا

كما حظيت الحركة الأدبية في ذلك العهد بقدر كبير من عناية الوزراء، عن طريق تشجيع الأدباء وإغداق الأموال عليهم لدفعهم إلى الإنتاج حتى أصبحت مجالس بعضهم مقصد لعلماء وأدباء كثيرين.

فقد تقدمت الحياة الأدبية بفضل تشجيع الوزير البويهي أبو الفضل بن العميد، الذي تشبه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والأدباء والشعراء، حتى أنه كان يقضي جزءًا كبيرًا من وقته مشغولًا بهم[١].

وكان هذا الوزير يضرب به المثل في البلاغة، حيث قيل إن الكتابة بدئت بعبد الحميد[٢] وختمت بابن العميد[٣]، وقد بلغ من اهتمام هذا الوزير بالعلم والعلماء أنه أنشأ مكتبة عظيمة، وعين أحد العلماء المشهورين وهو

=صناعة الشعر». الثعالبي: يتيمة الدهر ١: ١٣٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ١٢٠.

(١) ابن النديم: الفهرست ١٤٩؛ الثعالبي: يتيمة الدهر ٣: ١٨٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ١٠٣؛ خواندمير: دستور الوزراء ٢٢٠.

(٢) عبد الحميد الكاتب: عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن مولى بن عامر بن لؤي بن غالب الكاتب البليغ المشهور يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة وكان في كل فن من فنون العلم والأدب إمامًا وكان كاتب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر خلفاء بني أمية وعندما استولى العباسيون على الخلافة من الأمويين سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) قبضوا عليه وقتلوه انتقامًا منه على التعريض بهم في كثير من كتاباته. الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٥م، ١٩٦-١٩٩.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣: ١٨٣؛ ابن النديم: الفهرست ١٤٩.

مسكويه[١] خازنًا عليها[٢].

أما الوزير الصاحب بن عباد فيعد من أشهر رجال الأدب في عصره، ويصفه ابن النديم بأنه «كان أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر»[٣]، ويذكر ابن خلكان «إنه اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره»[٤].

على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد بالأدب والشعر، وأشهر بني بويه في ذلك العصر عضد الدولة المتوفي سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م)، وهو الذي ألف له أبو علي الفارس كتاب «الإيضاح في النحو» و«التكملة في النحو» وقصيدة فحول الشعراء[٥].

ويعد ابن النديم من خير ما خرجت بغداد في هذا العصر، فقد كان وراقًا وعالمًا، وقد ضمن كتابه الفهرست جميع أنواع العلوم، وتحدث عن مصنفيها، وذكر طرفًا من حياتهم، فكان هذا الكتاب أكبر وثيقة إلى ما وصل إليه المسلمون في حياتهم العلمية في ذلك العصر من مختلف العلوم والفنون.

ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم - الذي نص فيه أنه بدء في تأليفه سنة (٣٧٧هـ/٩٨٧م) - وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون

---

(١) مسكويه: أبو علي بن محمد بن يعقوب بن مسكويه عالم مشهور وكان عارفًا بعلوم الأوائل معرفة جيدة اتخذه ابن العميد مشرقًا على مكتبته التي أنشأها بالري يقول عنه الثعالبي في تتمة يتيمة الدهر «هو في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ومن أشهر مؤلفاته كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» توفى سنة (٤٢١هـ/١٠٣٠م). الثعالبي: تتمة يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٣م، ١١٥؛ ياقوت: معجم الأدباء ٢: ٣.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١٥٠.

(٣) ابن الأنباري: نزهة الألباء ٢٣٨؛ خواند مير: دستور الوزراء ٢٢١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٢٢٩.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٥٠ - ٥٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١١: ٢٢٩.

مترجمًا لأصحابها يتبين بجلاء عظيم التراث الذي ترجمه وامتلكه المسلمون من علوم وفلسفة[١].

وكان الذي سهل على ابن النديم قيامه بهذا العمل أنه كان يعمل وراقًا، والوراقون أعرف الناس بالكتب، وأسمائها، لاسيما إذا ما توفر لصاحبها الثقافة والعلم والخبرة، كما توفر لصاحب الفهرست[٢].

ويعتبر الثعالبي[٣] المتوفي ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) أوفر كتاب القرنين الرابع والخامس الهجريين إنتاجًا، ومن أشهر تصانيفه كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» الذي تناول فيه شعراء عصره ومن سبقهم[٤].

أما إذا استعرضنا الحياة الفلسفية وجدناها نشطة نتيجة وأكبر دليل على ذلك هو ظهور فيلسوف الإسلام الأستاذ الرئيس «ابن سينا» الذي عاش طرفًا من القرن الرابع وشطرًا من القرن الخامس (٣٧٠ـ٤٢٨/٩٨٠ـ١٠٣٦م) الذي أحاط بأطراف الفلسفة اليونانية والمنطق وقرأ كتب «إقليدس» و«أرسطو» ومن قبله فيلسوف المسلمين «أبو نصر الفارابي»[٥] الملقب المعلم الثاني صاحب المدينة

---

(١) ياقوت: معجم الأدب ٥: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ص ١٨٠، ترجمة د/ عبد الحليم النجارة ود/ محمد يوسف موسى، دار القلم، ط ١، القاهرة، ١٩٦٢م، ١٨٠.

(٣) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي كان أديبًا فاضلًا صنف كتبًا كثيرة منها «يتيمة الدهر» و«سحر البلاغة» وكتاب «فرائد القلائد» وغير ذلك من الكتب. ابن الأنباري: نزهة الألباء ٢٦٥ - ١٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١٧٨؛ ابن الأنباري: نزهة الألباء ٢٦٥.

(٥) الفارابي: هو أبو النصر محمد بن طرخان الفارابي التركي الحكيم المشهور صاحب التصانيف الشهيرة في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم. كان من أكبر فلاسفة الإسلام ولم يكن فيهم من بلغ مرتبته في فنونه حتى أن الرئيس ابن سينا تخرج على كتبه وانتفع بها انتفاعًا عظيمًا. ابن النديم: الفهرست ٣٢١، البيهقي: حكماء الإسلام ٣٠ - ٣٦.

الفاضلة وغيرها من خيرة كتب الفلسفة[1].

ويدل على ذلك ظهور جماعة إخوان الصفا في البصرة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري (النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي) وهي جماعة سرية لها ميول باطنية سياسية حرصوا على نشرها[2].

وقد وضع أعضاء هذه الجماعة اثنين وخمسين رسالة، تعتبر خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام، وأفردوا لها فهرستا وسموها «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا». وتعتبر من أبرز الموسوعات التي ظهرت في ذلك العصر[3].

ومن أشهر المشتغلين بالفلسفة في العراق يحيى بن عدى النصراني[4] المتوفي سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م) يقول القفطي عنه «انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه[5] وكان كثير الإنتاج بما ينقل من السريانية إلى اللغة العربية[6]. وألف مقالات كثيرة في المنطق والإلهيات[7].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ٥٤، ٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ٢٩٩.

(٢) أبوزيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، القاهرة ـ مكتبة وهبة ١٩٨٨م، ٣٤٣.

(٣) القفطي: إخبار العلماء ٥٨؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٥: ٢٣٢.

(٤) يحيى بن عدي النصراني: يحيى بن عدس بن حميد بن زكريا المنطقي كان حكيمًا كاملًا وهو من تلاميذ الفارابي وله تصانيف كثيرة وكان يشرح كذب أرسطو ويلخص تصانيف أبي نصر الفارابي. البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ٩٧؛ القفطي: إخبار العلماء ٢٣٦، ٢٣٧.

(٥) القفطي: إخبار العلماء ٢٣٧.

(٦) ابن النديم: الفهرست ٣٢٢؛ البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ٩٧.

(٧) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩م، ٣٧١.

ويعد أبو علي بن مسكوية من طبقة الفلاسفة، فقد مكنته صحبته لطبقة الأدباء، فضلًا عن كونه خازنًا لدار الكتب التي أنشأها الوزير ابن العميد، جعله كثير الاطلاع على كثير من الكتب[١].

ويعد ابن سينا من مشاهير فلاسفة العصر، فقد كان من المتفردين بسعة العلم ورجاحة العقل، وكثرة التأليف، ومؤلفاته تزيد على المائة في مختلف العلوم، ومن أشهر كتبه كتاب «القانون في الطب» و«الشفاء في الطب» و «الإشارات في الفلسفة»[٢].

العلوم العقلية

لم يكن جمع العلماء من شتى الأقطار، ولا جمع الكتب من النواحي المتفرقة، وتأسيس المكتبات العامة والخاصة، مما شغل عظماء الدولة فقط، ولم يكن موقف هؤلاء من النهضة الثقافية والعلمية موقفًا سلبيًا، مقتصرًا على الهبات والأعطيات، وجزيل المثويات، بل نرى بعضهم يشارك العلماء علمهم، فعضد الدولة البويهي الذي يعتبر من أشهر سلاطين البويهيين كانت أشهر أعماله التي عملت على نمو وازدهار البحث العلمي، هو إنشاؤه المارستان العضدي (مستشفى بغداد المشهور)، الذي رتب له الأطباء والخدم، ونقل إليه من الأدوية والأشربة، والعقاقير الشيء الكثير، وخصص للمارستان أربعة وعشرين طبيبًا للعمل على راحة المرضى[٣]، والذي يقول عنه ابن خلكان «ليس في الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه»[٤].

---

(١) الثعالبي: تتمة يتيمة الدهر، ١١٥؛ ياقوت: معجم الأدباء ٢: ٣.
(٢) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ١٥٧.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٥٤؛ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١١٣.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٥٤، ٥٥.

ولا شك أن أعظم إنجازات عضد الدولة البويهي إنشاؤه لبيمارستان كبير نسب إليه ، فعرف باسم البيمارستان العضدي ، أقامه سنة (٣٧١هـ/) في الجانب الغربي منبغداد ، وزوده بما يحتاج إليه من الأطباء والممرضين والخدم والطباخين والأدوات والأدوية ، وألحق به بيمارستانًا للمجانين ، وكان يعمل به ما يزيد عن ستين طبيبًا في مختلف الاختصاصات ، استقدم بعضهم عضد الدولة للعمل في البيمارستان من أماكن مختلفة ، ومن هؤلاء الأطباء : جبرائيل بن عبيد الله بختيشوع ، وأبو يعقوب الأهوازي ، وأبو عيسى بقية ، والكحال أبو نصر الرحبي ، وأبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، وكان يتولى رئاسة الأطباء في البيمارستان(١) .

ويعد البيمارستان العضدي واحدا من أشهر المؤسسات العلاجية التي أنشئت في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

وقد درج كثير من الباحثين الذين يؤرخون للحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إلى إضافة البيمارستانات إلى المؤسسات التعليمية ، ولكن الدراسة المتأنية تظهر أن إسهام البيمارستانات في هذا المجال كان ضئيلًا جدًا ، بحيث لم يرد أي ذكر لعالم أو طبيب قد تخرج أو تلقى العلم بداخلها ، خاصة في العصر السلجوقي ، ذلك أن الغاية من إنشاء هذه المؤسسات إنما كان لعلاج المرضى ، وليس لتلقي العلم ، أو إقامة العلماء فيها .

ويصف لنا ابن جبير البيمارستان العضدي عند زيارته لبغداد ، مما يوضح عدم وجود طلبة فيه أو حياة علمية ، حيث يقول «وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه»(٢) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤: ٥٥؛ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١١٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة ١٨٠.

والواقع أنه لم ترد أية معلومات عن بيمارستانات المشرق وظهور حياة علمية بها، ولكن كانت مؤسسات علاجية فقط.

والواقع وإن كانت البيمارستانات لم تكن أماكن مخصصة للتعليم وإنما كانت مخصصة للعلاج خاصة في العراق والمشرق الإسلامية، إلا أن فائدتها العلمية لا تنكر، فحتى لو لم يكن فيها طلاب فإن الأطباء أنفسهم بمداومتهم على علاج المرضى مجال للبحث وزيادة المعلومات، فكثرة الممارسة لأي علم يؤدي إلى إتقان صاحبه له.

ومن المحقق أن تلك البيمارستانات كانت تسير وفق نظام دقيق وترتيب غاية في الإحكام، فهي تنقسم إلى قسمين منفصلين، أحدهما للذكور والآخر للإناث، ويضم كل قسم قاعات فسيحة لمختلف التخصصات الطبية كالأمراض الباطنية، والجراحة، والكحال (الرمد)، والتجبير (العظام).

ولكل قسم من هذه الأقسام مجموعة من الأطباء الاختصاصيين في مختلف فروع الطب يتناوبون العمل فيما بينهم، ويقوم على كل طائفة منهم رئيس لإدارتها وتفقد أحوال المرضى، ويعاون الأطباء مساعدون من الممرضين والمشرفين والخدم يقومون على خدمة المرضى وتقديم الطعام والعلاج لهم.

وإلى جانب هذا النظام الداخلي لعلاج المرضى كان يوجد عيادات خارجية تقوم على خدمة المرضى وعلاجهم مما لا تحتاج حالتهم إلى استبقائهم داخل البيمارستان، فكان الطبيب يجلس على دكة، يكتب لمن يرد عليه من المرضى أوراقًا يعتمدون عليها، ويأخذون بها الأدوية والأشربة من صيدلية البيمارستان ليتابع العلاج في بيته، وهي تعد جزءًا مهمًا من مرافق البيمارستانات يقوم عليها الصيادلة، وتحتوي على أنواع مختلفة من الأدوية والأشربة والمعاجين.

أما في ميدان الرياضة والفلك فقد ضرب أبو القاسم العروف بغلام زحل[1] المتوفي عام (٣٧٦هـ/ ٩٨٦م) بسهم وافر في العلوم الرياضية، فقد كان من أفاضل الحساب والمنجمين، أصحاب الحجج والبراهين، وله يد طولى في هذا الشأن، ولغلام زحل من التصانيف كتاب «أحكام النجوم» وكتاب «التيسيرات والشعاعات الكبير» وكتاب «الجامع الكبير» وغير ذلك من المؤلفات الهامة[2].

كذلك كان أبو منصور البغدادي[3] المتوفي سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) من مشاهير القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في الرياضيات وله فيها مؤلفات كثيرة منها كتاب «التكملة في الحساب».

وفي ميدان الفلك والتنجيم اشتهر عبد الرحمن الصوفي الرازي[4] العالم الفاضل المتوفي سنة (٣٧٦هـ/٩٨٦م) صاحب الملك عضد الدولة بن بويه، ومصنف الكتب الجليلة، ومن تصانيفه كتاب «الكواكب السائرة» وكتاب «الأرجوزة في الكواكب الثابتة» و كتاب «التذكرة»[5].

---

(١) غلام زحل: هو أبو القاسم عبيد الله بن الحسن أبو القاسم المعروف بغلام زحل كان من أعظم الرياضيين الذين لهم الفضل في تقدم هذا العلم ومؤلفاته كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست. ابن النديم: الفهرست ٣٤٢.

(٢) ابن النديم: الفهرست ٣٤٢؛ القفطي: إخبار العلماء ١٥٢.

(٣) أبو منصور البغدادي: هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي كان صاحب عقلية قوية وأعظم عالم عربي في هذا العلم آنذاك حيث ضرب بسهم وافر في هذا العلم. قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ٢٦٢.

(٤) عبد الرحمن الصوفي: هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي مصنف الكتب الجليلة وكان عضد الدولة يقول إذا افتخر بالعلم والمعلمين معلمي في النحو أبو علي الفارسي ومعلمي في حل الزيج الشريف ابن الأعلم ومعلمي في الكواكب وأماكنها وسيرها الصوفي. القفطي: إخبار العلماء ١٥٢، ١٥٣. قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ٢٢٣.

(٥) القفطي: إخبار العلماء ١٥٣؛ وفاء محمد علي: الخلافة العباسية ١٣٦.

وكان أبو الريحان البيروني المتوفي سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ذا مهارة فائقة في علم الفلك، ولم يكن له نظير في زمانه، ومن مؤلفاته المشهورة كتاب «القانون المسعودي» الذي أورد فيه كل المعلومات الخاصة بعلم الفلك، وله كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، وهو دراسة في تقاويم الشعوب القديمة[1] وغير ذلك من المؤلفات القيمة التي لم يتسع المقام لذكرها.

كما ظهر بعض المؤرخين وعلى رأسهم مؤرخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة وهو محمد بن جرير الطبري صاحب كتاب تاريخ الأمم والملوك، والذي صنف كثيرا من الكتب في شتى مجالات العلم والمعرفة، خاصة في التفسير والحديث مثل كتاب «التفسير القرآن ومعانيه وكتاب الذيل والمذيل»، وقد حوت خزانة كتبه على كثير من الكتب، والتي قدرت بحمولة أربعمائة دولة، ولد المؤرخ الطبري في إقليم طبرستان، وتوفي به في حوالي سنة ٣١٠هـ.

ولعل أشهر مؤرخي ذلك العصر هو المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ/٩٥٧م) الذي كان على جانب كبير من الإطلاع العلمي فقد كان رحالة بمعنى الكلمة والذي ابتكر نهجًا خاصًا في كتاباته حيث ربط التاريخ بالجغرافيا، وتلمس العلل وتفسير الحوادث التاريخية على ضوء المؤثرات الطبيعية كالأثر الجوي والزلازل والبراكين والمد والجزر ونحو ذلك مما هو مثبت في كتبه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و «التنبيه والإشراف». ومن أعلام التاريخ أيضًا في ذلك العصر «أبو إسحاق الصابي» صاحب كتاب التاجي الذي كتبه لعضد الدولة البويهي.

وممن نبغ في علم التاريخ المؤرخ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، الذي صنف كتابا في التاريخ سماه «تاريخ أصفهان» إلى جانب العديد من الكتب في علم الحديث، مثل كتاب

---

(١) البيهقي: تارخ حكماء الإسلام ٧٢ - ٧٤؛ ياقوت: معجم الأدباء ٥: ١٢٢.

«حلية الأولياء» وهو من أفضل كتب الحديث، وقد توفي هذا المؤرخ في مدينة أصفهان سنة ٤٣٠هـ.

وزخر هذا العهد بطائفة كبيرة من المؤرخين نذكر منهم مسكويه المتوفي سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) صاحب كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»، الذي تناول فيه الفترة التاريخية التالية لما أرخه الطبري المتوفي سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، ود اهتم بتاريخ الفترة المبكرة من حكم البويهيين[1].

ويعتبر أبو إسحاق بن هلال الصابئ[2] المتوفي سنة (٣٨٤هـ/٩٩٤م) من أشهر مؤرخي القرن الرابع الهجري، وهو صاحب كتاب «التاجي»، في أخبار بني بويه، وقد ألفه تحقيقًا لرغبة عضد الدولة البويهي، وله أيضًا كتاب «رسوم دار الخلافة»، وقد وصفه الثعالبي بقوله «أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البارعة والصناعة»[3].

كذلك عنيت طائفة من المؤرخين بكتب التراجم منها العامة، ومنها الخاصة، بطائفة كالصوفية والفلاسفة، أو الأطباء أو الشعراء والمغنيين، مثل «طبقات الصوفية».. لأبي عبد الرحمن السلمي المتوفي سنة (٤١٢هـ/ ١٠٢١م)[4]. ومن أهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء «كتاب الأغاني»

---

(١) الثعالبي: تتمة يتيمة الدهر ١١٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ١٣٧.

(٢) أبو إسحاق الصابئ: أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن هارون الصابئ الحراني أشهر رجال التاريخ والأدب في هذا العصر ويذكر المؤرخون أن عضد الدولة البويهي أمره أن يضع كتابًا في أخبار بني بويه وقد رفع إلى عضد الدولة أن صديقًا للصابئ دخل عليه يومًا فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل فسأله عما يعمله فقال «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها» فغضب منه عضد الدولة وكاد أن يفتك به. ابن النديم: الفهرست ١٤٩؛ الثعالبي: يتيمة الدهر ٢: ٢٨٧ - ٢٩١.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ٢: ٢٨٧ - ٩١.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٨: ٦؛ ابن الأثير: اللباب ٢: ٢٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب ٣: ١٩٦. ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ١٢؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٤٧.

لأبي الفرج الأصفهاني[١] المتوفي سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) الذي ترجم فيه للنابهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام[٢].

ثم يأتي بعد ذلك الثعالبي الذي يعمل موسوعته الشعرية التي سماها «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية والمشرقية، ومن نبغ فيها من الشعراء، من بلاد الأندلس، حتى أقصى المشرق في إيران[٣].

وكان القرن الرابع الهجري أيضًا غنيًا بكثير من الجغرافيين، ومن جغرافيي هذا العصر الأصطخري الفارسي، الذي ألف كتاب «المسالك والممالك» الذي وصف فيه نتائج مشاهدته في الأقاليم التي زارها، ثم جاء بعده ابن حوقل المتوفي سنة (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) صاحب كتاب «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك» والذي يسمى أيضًا بعنوان «صورة الأرض» وهو من الكتب الجغرافية الهامة التي تصف أحوال البلدان في عصره.

وهكذا حدثت في هذا العصر نهضة علمية شاملة في مختلف العلوم والفنون، لأن الدول التي ظهرت في هذا العصر كان لها تأثير عظيم في الثقافة الإسلامية، فقد كان من بين ملوكها وأمرائها ووزرائها من محبي العلم، الآخذين بأيدي العلماء، لأن العلم - كما هو معروف - لا يزهو ولا يثمر إلا في ظل ملك أو أمير يتعهده ويأخذ بأيدي أصحابه.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شاعرًا أديبًا كاتبًا عالمًا بأخبار الناس وأيامهم قال عنه ابن الجوزي «مثله لا يوثق به ومن تأمل كتاب الأغاني يد فيه كل منكر وقبيح فهو يصرح فيه بما يوجب الفسق ويهون من شرب الخمر وربما حكى عن نفسه ذلك». ابن الجوزي: المنتظم ٧: ٤٤٠؛ ابن النديم: الفهرست ١٢٧.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣: ١٢٧.

(٣) ابن الأنباري: نزهة الألباء ٢٦٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١٧٨.

لذلك زها العلم في هذا العصر ، وأصبح نصراؤه عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدن العالم الإسلامي ، وأخذ الناس يتسابقون في خدمة العلم كما يتسابق ملوكهم في نصرة العلماء.

ومهما يكن من أمر فإن الحياة الحضارية والعلمية كانت حياة فذة زاخرة بالمفكرين والعلماء ، مليئة بالحيوية والازدهار والنشاط الذهني المتوقد ، والحق أن هذا العصر من الصعب في هذه العجالة السريعة أن يستقصي فيه جميع أسماء علمائه وأدبائه ، إذ كان عصرًا مزدهرًا في جميع مجالات العلوم ، فالمطلع على هذه الفترة من الزمن يخيل إليه من كثرة ما يقرأ من أسماء العلماء والأدباء في كل علم وفن ، أنه لم يكن هناك شخص إلا وهو يلم بعلم أو بطائفة من العلوم .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

* ابن الأثير : على بن أبي الكرم (ت ـ٦٣٠هـ) .

١ـ الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية ط ٣، بيروت ، ١٩٨٨م .

* ابن اسفنديار : بهاء الدين محمد بن حين بن أسفنديار (ت ـ٧٥٠هـ)

٢ـ تاريخ طبرستان ، ترجمة : أحمد محمد نادي ، المجلس الأعلى للثقافة ط١ القاهرة ٢٠٠٢م .

* التنوخي : القاضي أبي علي بن محمد (ت ـ٣٨٤هـ)

٣ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق : مصطفي حسنين عبد الهادي ، دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت ٢٠٠٤م .

* الثعالبي : أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري (٤٢٩هـ) .

٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د . مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣م .

* ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (ت ـ ٥٩٧هـ)

٥ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دائرة المعارف العثمانية ، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ .

* حمزة بن الحسن الأصفهاني (المتوفى قبل سنة ٣٦٠هـ)

٦ ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د . ت)

* ابن خاوند شاه : محمد بن خاوند شاه بن محمود (ت ـ٩٠٣هـ) .

٧ـ روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ، ترجمة د . أحمد عبد القادر الشاذلي ، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة ، ١٩٨٨م .

* ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ـ٨٠٨هـ) .

٨ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٠م .

* ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ـ٦٨١هـ) .

٩ـ وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م .

* خليفة بن خياط : أبو عمرو بن أبي هبيرة الليثي العصفري (ت ـ٢٤٠هـ)

١٠ـ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د/ مصطفي نجيب فواز ، د/ حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٩٥م .

* السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ـ٩١١هـ) .
١١ـ تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م .
الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ـ٥٤٨هـ)
١٢ـ الملل والنحل . مؤسسة ناصر للثقافة . ط ١. بيروت . ١٩٨١م .
* الصولي : أبو بكر محمد بن يحيي الصولي (ت ـ٣٣٥هـ) .
١٣ـ أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق عني بنشره ج هيورث . دن . دار المسيرة ط ٣، بيروت ، ١٩٨٣م .
* الطبري : محمد بن جرير الطبري (ت ـ٣١٠هـ) .
١٤ـ تاريخ الأمم والملوك ، دار المعارف ، ط ٤ القاهرة ، ١٩٧٠م .
* ابن العبري (ت ـ٩٨٥هـ) غريغرويوس أبو الفرج بن هارون .
١٥ـ تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ط ١، القاهرة ، ٢٠٠١م .
* القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ـ٦٨١هـ) .
١٦ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤م .
* ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ـ٧٧٤هـ) .
١٧ـ البداية والنهاية في التاريخ ، دار الفكر العربي ، ط ١، القاهرة ، ١٩٣٢م .
* أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردي الأتابكي (ت ـ٨٧٤هـ) .
١٨ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ط ١، القاهرة ، ١٩٣٥م .
* المسعودي : على بن الحسين بن على المسعودي (ت ـ٣٤٦هـ) .
١٩ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، شرح وتقديم د/ مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط ١، بيروت ، ١٩٨٥.
* ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ـ٤٢١هـ) .
٢٠ـ تجارب الأمم . تحقيق : سيد كسروي ، دار الكتب العلمية ط ، ١بيروت ، ٢٠٠٣م .
* المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ـ ٣٨٧هـ) .
٢١ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م .
* ناصر خسرو : ناصر خسرو علوي (ت ـ٤٨١هـ) .
٢٢ـ سفرنامة : ترجمة : د/ يحيي الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م .
* النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ـ٧٣٣هـ) .
٢٣ـ نهاية الأرب في فنون الأدب دار الكتب المصرية القاهرة ٢٠٠٧م .

* ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت -٦٢٦هـ) .
٢٤- معجم الأدباء أو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ، دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت ، ١٩٩١م .
٢٥- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .

ثانيًا : المراجع :

* إبراهيم سلمان الكروي (دكتور)
١- البويهيون والخلافة العباسية دار العروبة للنشر والتوزيع ط١ بيروت ، ١٩٨٢م .
* أحمد السعيد سليمان (دكتور)
٢- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م .
* بدر عبد الرحمن محمد (دكتور)
٣- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة ، مكتبة الأنجلو المصرية ط ١، القاهرة ، ١٩٨٩م .
حسن إبراهيم حسن (دكتور)
٤- تاريخ الإسلام السياسي ، دار الجيل ، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م .
حسن أحمد محمود ، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)
٥- العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي ، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م .
* حسن سلهب (دكتور)
٦- تاريخ العراق في العهد البويهي (دراسة في الحياة الفكرية ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م) دار المحجة البيضاء، ط١ بيروت ٢٠٠٨م .
* حسن منيمنة (دكتور)
٧- تاريخ الدولة البويهية ، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي - مقاطعة فارس - (٣٣٤ -٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م) الدار الجامعية ، بيروت ١٩٨٧م .
* خليل السامرائي (دكتور) وزميلاه : د/طارق فتحي سلطان ، د/ جزيل عبد الجبار الجومرد
٨- تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ - ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ - ١٢٥٨م) طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م .
* عصام عبد الرؤوف الفقي (دكتور)
٩- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٧م .

* كلود كاهن :

١٠- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية ، نقله إلي العربية : د/ بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة ، ط ٣ بيروت ١٩٨٣م ..

* محمود عرفة محمود (دكتور)

١١- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ٢٠٠٨م .

* وفاء محمد على (دكتور)

١٢- الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ، ١٩٩١م .

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ١٣١ - ١٤٩

قَافِلَةُ حَجِّ عُلَماءِ مِصْرَ
في القَرنَيْنِ الثَّامِنِ والتَّاسِعِ للهِجْرَة

أيمن فؤاد سيّد

حَفِلَت المَصَادِرُ المِصْرِيَّةُ بالحَدِيثِ على قَوافِل الحَجِّ المِصْرِيِّ إلى الأراضِي المُقَدَّسَةِ في الحِجَاز، وعلى الأخَصّ ابتِداءً من العَصْرِ الفاطِمِيّ، بالرَّغْمِ من أنَّ أحَدًا من خُلَفَاء الفاطِمِيين في مِصْر (٣٦٢-٥٦٧هـ/ ٩٧٣-١٠٧١م) لم يُؤَدِّ فَرِيضَةَ الحَجِّ رَغْم حِرْصِهِم الشَّدِيد على إقامَةِ الدَّعْوَةِ لهم على مَنابِرِ مَكَّة والمَدِينَةِ قبلَ أنْ يَصِلَ السَّلاجِقَةُ السُّنِّيُّون إلى التَّحَكُّمِ في مَرْكَزِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ العَبَّاسِيَّةِ في بَغْداد في منتصفِ القرنِ الخامسِ الهجريِّ/ الحادي عَشَر الميلادي[1].

ويُحَدِّثُنا صاحِبُ كِتابِ «الذَّخائِر والتُّحَف»، الذي كان موجودًا في مِصْر بين سنتي ٤٥٩ - ٤٦٢هـ/١٠٦٧ - ١٠٧٠م، أنَّ المُنفَقَ على مَوْسِمِ الحَجِّ في هذا الوَقْتِ في كلِّ سنةٍ تُسافِرُ فيه قافِلَةُ الحَجِّ المِصْرِيِّ مئةُ ألْفِ دينارٍ وعشرينَ ألْف دينار، منها ثَمَن الطِّيبِ والخَلُوق والشَّمْع راتِبًا في كلِّ سنة عشرة آلاف دينار، ومنها في نَفَقَةِ الوَفْدِ الواصِلِينَ إلى الحَضْرةِ أربعون ألفَ دينارٍ، ومنها في ثَمَنِ الحِمايات والصَّدَقاتِ وأُجْرَةِ الجِمالِ ومَعُونَةِ مَنْ يَسِير مِنَ العَسْكَرِيَّةِ وأمِير المَوْسِمِ

(١) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، قابله بأصوله وأعدّه للنشر أيمن فؤاد سيد، القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠١٦م، ٢: ٤٠٠ - ٤٠١.

وخَدَمَةِ القافِلَةِ، وحَفْرِ الآبارِ وغير ذلك سبعون ألف دينارٍ.

وكانت النَّفَقَةُ على القافِلَةِ في زَمَنِ الوَزيرِ أبي محمَّد الحَسَنِ بنِ عليّ بن عبد الرَّحمَن اليازُوريِّ (٤٤٢ـ٤٥٠هـ/١٠٥٠ـ١٠٥٨م) قد زادَت في كلِّ سنةٍ وبَلَغَت مئتي ألفِ دينارٍ. ثم أضافَ بعد ذلك: «ولم تَبْلُغ النَّفَقَةُ على المَوْسِمِ مثلَ ذلك في دَوْلَةٍ من الدُّوَلِ»[1].

أمَّا الطَّريقُ الذي كانت تَسْلُكُه قافِلَةُ الحَجِّ في هذا العَصْرِ فيُحَدِّثُنا عنه شَيْخُ مُؤرِّخي مِصْر الإسْلاميَّة تقيُّ الدِّين أحمد بن عليّ المَقْرِيزيُّ، المتوفَّى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، قائِلًا: «ظَلَّ حُجَّاجُ مِصْرَ والمَغْرِبِ زِيادَةً على مِئَتَيْ سَنَةٍ لا يتوجَّهون إلى مَكَّة ـ شَرَّفَها الله ـ إلَّا عن صَحْراءِ عَيْذاب يركَبون النِّيلَ من سَاحِلِ مَدِينَةِ مِصْر الفُسْطَاط إلى قُوص، ثم يركبون الإبِلَ من قُوص ويعبُرون الصَّحْراءَ إلى عَيْذابَ، ثم يركبون في الجِلاب إلى جُدَّةَ سَاحِلِ مَكَّة، وكذلك تُجَّارُ الهِنْدِ واليَمَنِ والحَبَشَةِ يَرِدُون إلى عَيْذابَ ثم يَسْلُكون هذه الصَّحْراء إلى قُوصَ ومنها يَرِدُون مَدِينَة مِصْر».

ثم أضافَ: «ولم تَزَلْ هذه الطَّريقُ مَسْلَكًا للحُجَّاج في ذَهابِهم وإيابِهم زِيادَةً على مئتي سنةٍ من أعْوامِ بضعٍ وخمسينَ وأربعِ مئةٍ إلى أعْوامِ بضعٍ وستِّينَ وستِّ مئة»، أي منذ زَمَنِ الشِّدَّةِ العُظْمَى في مِصْر أيَّامَ الخَلِيفَةِ المُسْتَنْصِر بالله الفاطِميِّ، وانْقِطَاعِ الحَجِّ في البَرِّ إلى أنْ كَسَا السُّلْطَانُ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرسُ البُنْدُقْداريُّ الكَعْبَةَ وعَمِلَ لها مفتاحًا، وهي بِدايَةُ الاحْتِفال بـ «مَوْكِبِ المَحْمَلِ المِصْريِّ» الذي استمرَّ الاحْتِفالُ به سنويًّا إلى منتصفِ القرنِ العشرين. وخَرَجَتْ أوَّلُ قافِلَةِ حَجٍّ

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، قابله بأصوله وأعدّه للنشر أيمن فؤاد سيد، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م، ٢: ٥٩٨، و اتعاظ الحنفا ٢: ٤٠١؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعدّه للنشر حمد الجاسر، الرياض ـ مؤسسة اليمامة ١٩٨٣م، ٢: ١٢١٧ ـ ١٢١٨.

في البَرِّ في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فَقَلَّ سُلُوكُ الحَجِّ لهذه الصَّحْراء، وإنِ اسْتَمَرَّتْ بَضَائِعُ التُّجَّارِ القادِمَة من عَدَنَ تُحْمَلُ من عَيْذابَ إلى قُوصَ ومنها إلى فُسْطاطِ مِصْر شَمالًا، حتى بَطَلَ ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وتَلاشَى أمْرُ قُوصَ من حينئذ. وتُقْطَعُ المَسافَةُ في هذه الصَّحْراء من قُوصَ إلى عَيْذابَ في سبعة عَشَر يومًا، ويُفْقَدُ فيها الماءُ ثَلاثَةَ أيَّام متواليةٍ وتارَةً أربعةَ أيَّام[1].

وقد سَلَكَ هذه الطَّريقَ بالفِعْلِ الرَّحَّالَةُ الأنْدَلُسِيُّ ابن جُبَيْر، أبو الحَسَن محمَّدُ ابنُ أحمدَ بن جُبيرٍ في رِحْلَتِه إلى مَكَّة سنةَ ٥٧٩هـ/١١٨٤م، وقَدَّمَ لنا وَصْفًا شائِقًا عن ما كان يُعانيه الحُجَّاجُ خلالَ الرِّحْلَةِ على الأخَصِّ من أصْحابِ الجِلابِ الذينَ كانوا يَنقِلُونَ الحُجَّاجَ بين عَيْذابَ وجُدَّة[2].

كانت مَواكِبُ الحَجِيجِ تَتوالَى سنويًّا يَسْبِقُها قافِلَةُ المَحْمَلِ[3] منذ زَمَنِ السُّلْطَان الظَّاهِرِ بِيْبَرْسَ البُنْدُقْداريِّ، وقامَ بعضُ سَلاطِينِ المَماليكِ بأداءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ، أتَى على ذِكْرِهِم وذِكْرِ مَواكِبِهم مُؤَرِّخُ مِصْر التَّقِيُّ المَقْريزيّ في رِسالَتِه الجامِعَة «الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْرِ مَنْ حَجَّ مِنَ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ»[4].

---

(١) المقريزي: المواعظ ١: ٥٤٩ ـ ٥٥٠؛ الجزيري: الدرر الفرائد ١: ٤٠٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، بيروت ـ دار صادر ١٩٨٨م، ٣٢ ـ ٥٩؛ وانظر كذلك عطية القوصي: «عَيْذاب ـ جدة طريق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى» في كتاب طُرُق الحج: جُسور التواصل الحضاري بين الشعوب، الرباط ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٢٠٠٧م، ٣١١ـ ٣٤١؛ وانظر عن قُوص وأهَمِّيَتها دراسة جان كلود جارسان JEAN - CLAUDE GARCIN, *Un centre musulman de la Haute Egypte medievale: Qus,* Le Caire - IFAO 1974.

(٣) انظر عن تاريخ المحمل المصري الدراسة المهمة لجاك جوميه J. JOMIER, *Le Mahmal et La caravane egyptienne des pelerins de la Mecque (XIII - XX siecles),* Le Caire - IFAO 1953.

(٤) نشرها جمال الدين الشيال في القَاهِرَة سنة ١٩٥٥م كما نشرها مؤخَّرًا مع ترجمة إنجليزية JO VAN STEENBERGEN وصدرت عن دار نشر بريل بليدن ٢٠١٧م. وذكر الجزيري في كتاب «الدرر=

ولكنْ إلى جانبِ ذلك كانت هناك قَوافِلُ أخرى للحَجيجِ ذات خُصُوصِيَّةٍ اهتمَّ المؤرِّخون بتسْجيلِها هي مَوْكِبُ حَجِّ نِساءِ البَيْتِ المملوكيّ. ففي سنةِ سبعينَ وسبعِ مئةٍ/١٣٦٩م خَرَجَتْ خَوَنْد بَرَكَة خاتُونَ والِدَةُ السُّلْطَان الأشْرَفِ شَعْبَان في تَجَمُّلٍ خارِجٍ عنِ الحَدِّ وفي خِدْمَتِها جَماعَةٌ مِنَ الأُمَراءِ الكِبارِ وعلى مَحَفَّتِها العَصائِبُ السُّلْطَانِيَّةُ والكُوساتُ تَدُقُّ معها، وسارَ مِنْ خَدَمِها من الأُمَراء المُقَدَّمِينَ الأميرُ بَشْتاكُ العُمَرِيُّ رأسُ نَوْبَة والأميرُ بَهادُرُ الجَماليُّ، ومئةُ مملوكٍ من المَماليكِ السُّلْطَانِيَّةِ أرْبابِ الوَظائِفِ. ومن جملةِ ما كان معها قِطَارُ جِمالٍ مُحَمَّلَةٍ مَحائِرَ قد زُرِعَ فيها البَقْلُ والخُضْراواتُ. وعند عَوْدَتِها في سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م خَرَجَ السُّلْطَانُ الأشْرَفُ شَعْبانُ بعَساكِرِهِ إلى لِقائِها في سادس عَشَر المُحَرَّمِ(١).

*
* *

كانتِ الرِّحْلَةُ في طَلَبِ العِلْم (أي عِلْم الحَدِيث) من أهَمِّ خَصَائِص العِلْم الإسْلامي، وكان الغَرَضُ منها تَحْصِيلَ عُلُوِّ الإسْناد أو لِقاءَ الحُفَّاظ ومُذاكَرَتهم، لذلك فقد كَثُرَ ارْتِحالُ العُلَماءِ لهذا الغَرَض منذ القُرُون الأولى للإسْلام.

=الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة» في الباب الذي عقده لذكر من حَجَّ من الأعيان: «وكان بعض المتأخِّرين كالمقريزي تكلَّم على نحو هذا الباب وسمَّاه «الذهب المسبوك في تاريخ من حج من الملوك» وقد اطَّلَعت عليه ونَقَّحْتُ ذلك المسبوك وأضفته مُصَفًّى إلى هذا اللُّجَيْنْ، ومن طالع كتابي هذا فإنه يقول: لا أثر بعد عين» (الدرر الفرائد ٣: ١٦٥٠).

(١) المقريزي: المواعظ ٤: ٦٢٦؛ الجزيري: الدرر الفرائد ٢: ٦٦٤. واهتمَّتْ بمَواكِبِ جِهاتِ سَلاطِينِ المماليكِ ووَصَفَتْها الباحِثَةُ المِصْرِيَّةُ دُورِيس بِهْرِن أبو سيف في مَقالٍ نَشَرَتْهُ بعنوانِ: D. BEHRENS ABOUSEIF, «The Mahmal Tradition and the Pilgrinage of the Ladies of the Mamluk Court», *MSR* I (1997), pp.87-96.

وفي الوَقْتِ نفسه كان مَوْسِمُ الحَجِّ في مَكَّة المُكَرَّمَة فُرْصَةً مُواتِيَةً يَلْتَقِي فيها العُلَماءُ لهذا الغَرَض أو لمُناقَشَةِ قَضايا الإسْلام المختلفة، كما كانت كذلك مُناسَبَةً يبحثون فيها عن الكُتُبِ التي يَحْتاجُون إليها أو يَفْتَقِدُونَها في بِلادِهِم.

وأوَّلُ العُلَماء الذين أدَّوْا فَرِيضَة الحَجّ من مِصْر في نهاية القرن الثَّامِن وفي أثناء القرن التَّاسِع للهجرة/الرَّابع عَشَر والخامس عَشَر للميلاد العَلَّامَة التُّونُسي عبد الرَّحْمَن بن محمَّد بن خَلْدُون (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٣-١٤٠٥م). فعندما وَصَلَ إلى مِصْر لأوَّلِ مرَّة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م أقامَ بالإسْكَنْدَرِيَّة شَهْرًا(شهر شَوَّال من السَّنَة) لتَهْيِئَة أسْبابِ الحَجّ، ولم يُقَدَّرْ له عامَئِذٍ فانتقل إلى القَاهِرَة أوَّلَ ذي القِعْدَة[1] حيث أمْضَى بها الخمس والعشرين عامًا الأخيرة من حياته (٧٨٤-٨٠٨هـ/١٣٨٣-١٤٠٥م)، وشَغِلَ خِلالَها العَدِيدَ من مَناصِب التَّدْرِيس والقَضَاء، وكان قريبًا من سُلْطَانِ عَصْرِه السُّلْطَان الظَّاهِر بَرْقُوق مُؤَسِّس دَوْلَةِ المَماليك الشَّراكِسَة (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٣- ١٣٩٨م).

وفي سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م بعد ثلاث سنوات من عَزْلِه من القَضَاء، عَزَمَ ابن خَلْدُون على قَضَاء فَرِيضَة الحَجّ، يقولُ في سِيرَتِه الذَّاتِيَّة: «فوَدَّعْتُ السُّلْطَانَ والأُمَراءَ وزَوَّدُوا وأعانُوا فوق الكِفايَة، وخَرَجْتُ من القَاهِرَة منتصفَ رَمَضانَ سنة تسعٍ وثمانين [وسبع مئة] إلى مَرْسَى الطُّور بالجانب الشَّرْقي من بَحْرِ السُّوَيْس [وذلك بعد أنْ تراجَعَت مَكانَة ميناء عَيْذاب]، ورَكِبْتُ البَحْرَ من هنالِك عاشِرَ الفِطْرِ ووَصَلْنا إلى اليَنْبُع لشَهْرٍ، فوافَيْنا المَحْمَل، ورافَقْتُهم من هنالك إلى مَكَّة ودَخَلْتُها ثاني ذي الحِجَّة فقَضَيْتُ الفَرِيضَةَ في هذه السَّنَة، ثم عُدْتُ إلى اليَنْبُع فأقَمْتُ به خمسين لَيْلَة حتى تهيَّأ لنا رُكُوبُ البَحْر، ثم سافَرْنا إلى أنْ قارَبْنا مَرْسَى

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، عارضه بأصوله وعَلَّق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م، ٢٥٣.

الطُّور، فاعْتَرَضَتْنا الرِّياحُ فما وَسِعَنا إلَّا قَطْعُ البَحْرِ على جانِبِه الغَرْبِي، ونَزَلْنا بسَاحِلِ القُصَيْر ثم بَذْرَقْنا (أي خُفِرْنا) مع أعْرابِ تلك النَّاحِيَة إلى مَدِينَة قُوص قاعِدَة الصَّعِيد، فأرَحْنا بها أيَّامًا، ثم رَكِبْنا في بَحْرِ النِّيل إلى مِصْر فوَصَلْنا إليها لشَهْرٍ من سَفَرِنا ودَخَلْناها في جُمادَى سنة تسعين، وقَضَيْتُ حَقَّ السُّلْطَانِ في لِقائِه وإعْلامِه بما اجْتَهَدْتُ فيه من الدُّعاء له فتَقَبَّلَ ذلك مني بقَبُولٍ حَسَن، وأقَمْتُ فيما عَهِدْتُ من رِعايَتِه وظِلِّ إحْسَانِه»[1].

وواضحٌ أنَّ ابن خَلْدُون لم تَطُلْ إقامَتُه بالحِجَاز ولم يَسْعَ إلى المُجاوَرَة بمَكَّة واكتفى فقط بأداء الفَرِيضَة، لذلك فإنَّه لم يُحَدِّثْنا عن نَشَاطِه العِلْمِي بالحِجَاز أو مَنْ تَصَادَفَ وُجُودُه هناك من العُلَماء المُسْلِمِين في أثْناء أدائِه الفَرِيضَة. ولكنَّه يُحَدِّثُنا فقط عن مَنِ الْتَقاهُم في أثْناء مُرُورِه بيَنْبُع، فيقول: «وكنتُ لَمَّا نَزَلْتُ باليَنْبُع، لَقِيتُ بهَا الفَقِيهَ الأدِيبَ المُتْقِن، أبا القاسِم بن محمَّد ابن شَيْخ الجَماعَة، وفارِس الأدَباء ومُنْفِق سُوقَ البَلاغَة، أبا إسْحاق إبراهيم السَّاحِليّ المعروف جَدُّه بالطُّوَيْجِن، وقد قَدِمَ حاجًّا، وفي صُحْبَتِه كَتابُ رِسالَةٍ من صاحِبِنا الوَزِير الكَبِير العالِم، كاتِب سِرّ السُّلْطَان ابن الأحْمَر صاحِب غِرْناطَة، الحَظِيّ لدَيْه، أبي عبد الله بن زَمْرَك؛ خاطَبَني فيه بنَظْمٍ ونَثْرٍ، يَتَشَوَّقُ ويُذَكِّر بعُهُودِ الصُّحْبَة»[2].

*
* *

وجاء حَجُّ شَيْخِ مُؤَرِّخي مِصْر الإسْلامِيَّة تَقِيّ الدِّين أحمد بن علي المَقْرِيزِيّ في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م بعد أنِ انْتَهَى من تأْلِيفِ القِسْمِ الأكْبَر من مُؤَلَّفاتِه، وعلى الأخَصِّ مُؤَلَّفه الرَّئِيس «المَواعِظ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»، الذي ألَّفَهُ في

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩.

الفترة بين سنتي ٨١٨ و٨٣٢هـ/١٤١٥ و١٤٢٩م وكذلك مؤلَّفاته التَّارِيخيَّة الأُخرَى «عِقْد جَواهِر الأسْفَاط»، و «اتِّعَاظ الحُـنَفا بأخْبَارِ الأَئِمَّة الخُـلَفا»، والأجزاء الأولى من كتاب «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُـلُوك»، و «المُـقَفَّى الكَبِير»، و رِسَالَة «إغَاثَة الأُمَّة بكَشْفِ الغُمَّة» التي ألَّفَها سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م... إلخ[١].

وَصَلَ المَـقْرِيزِيّ إلى مَكَّة المُشَرَّفة ومعه أهْلُه في جَماعَةٍ كثيرةٍ من قافِلَة الحَجّ المِصْري الذين خَرَجُوا قاصِدِين أداءَ العُمْرَةِ والحَجّ، في يوم الثُّلاثاء ثامِن عَشَر جُمادَى الأولى (الآخِرَة) سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م. وكانت عِدَّةُ أحْمالِ هذه القافِلَة نحو ألْف وخمس مئة حَمْل ومُقَدَّمُهم سَعْد الدِّين إبراهيم بن المُـرَّة ناظِر جُدَّة، وكانت هناك أزْمَةٌ في المياه في العام السَّابِق فوَجَدُوا ما بين الوَجْه وأكْرَه عِدَّةَ مَوْتَى ما بين رِجالٍ ونِساء ممَّن هَلَكَ بالعَطَشِ من الحاج فدُفِنَ منهم نحو الألْف وتُرِكَ ما شاءَ الله، وذلك لأنَّ الحاجَّ إذا وَرَدَ الوَجْه كان تارَةً يجد الماءَ وتارَةً لا يجده. الأمْرُ الذي أدَّى إلى هَلاكِ النَّاسِ في مَوْسِم سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[٢].

وحَجَّ كذلك في هذه السَّنَة القاضي زَيْنُ الدِّين عبد الباسِط بن خَلِيل بن إبراهيم الدِّمَشْقِي صاحِبُ المَدْرَسَة الباسِطِيَّة بخُطِّ الكافُوري بالقَاهِرَة وصُحْبَتُه خَوَنْد جُلْبان زَوْجُ السُّلْطَان الأشْرَف بَرْسِباي وأمّ وَلَدِه في تَجَمُّلٍ كبير[٣].

---

(١) راجع أيمن فؤاد سيد: المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القَاهِرَة ١٩٧٣م، ٤: ٨٥٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أمّ القرى، تحقيق عبد الكريم علي باز، مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى١٩٨٨م، ٤: ٥٥ ـ ٥٦؛ الجزيري: المصدر السابق ١: ٧١٨.

(٣) المقريزي: المصدر السابق ٤: ٨٥٨؛ الجزيري: المصدر السابق ٣: ١٨٧٢.

كما حَفَرَ الأمِيرُ شاهِين الطَّوِيل في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م بِئْرَيْن بمَوْضِعٍ يُقالُ له زاعِم وقِبْقَاب[1]. فاستجدَّ بطريق الحِجَاز في المنزلة المعروفة بعُيُونِ القَصَب بِئْرًا احْتُفِرَت بإشارَة القاضي زَيْن الدِّين عبد الباسِط بن خَلِيل فعَظُمَ النَّفْعُ بها[2].

وجاوَرَ المَقْرِيزِيُّ بمَكَّة نحو خَمْسِ سَنَوات (٨٣٤ - ٨٣٩هـ/١٤٣٠ - ١٤٣٦م) الْتَقَى خِلالَها بالعَدِيدِ من عُلَماء الحِجَاز وبالعُلَماء الذين تَرَدَّدُوا عليه من سَائِر الأَقْطار الإسْلامِيَّة، وتَناقَشَ معهم في كثيرٍ من القَضايا التي كان يَهْتَمُّ بها في ذلك الوَقْت كانت مادَّةً غَنِيَّةً للعَدِيدِ من رَسائِلِه الصَّغِيرَة التي بدأ في تأْلِيفِها، أثناء مجاورته في مَكَّة، يقول:

«وفي شهر رَمَضَان من سنة (٨٣٤هـ مايو ١٤٣١م) ابتدأت في إسْماعِ كِتابِ «إمْتَاع الأَسْماع بما للرَّسُول من الأَنْباء والأَحْوال والحَفَدَة والمَتاع» من أوَّلِ يوم فيه، بقِراءَة المُحَدِّث الفاضِل تَقِيّ الدِّين محمَّد بن محمَّد بن فَهْد الهاشِمِي بالمَسْجِد الحَرَام تجاه المِيزاب، وكان جَمعًا مَوْفُورًا»[3].

وعندما تَرْجَمَ لتقيّ الدِّين محمَّد بن محمَّد بن فَهْد المَكِّي في «دُرَر العُقُودِ الفَرِيدَة» قال: «ولمَّا جاوَرْتُ بمَكَّة، في سنة أرْبَعٍ وثلاثين وثماني مئة، قرأ عليَّ كِتابَ «إمْتَاع الأَسْماع بما للرَّسُول من الأَنْباء والأَحْوال والحَفَدَة والمَتاع» وكَتَبَ منه نُسْخَةً بخَطِّ وَلَدِه عُمَر قبل أنْ أُكْمِلَه، ثم يَسَّرَ الله تعالى بإكْمالِه بعد عَوْدَتي إلى القَاهِرَة»، ثم أضافَ: «وابن فَهْدٍ هذا ووَلَدُه عُمَر هما مُحَدِّثا الحِجَاز وهو ووَلَدُه عُمَر كَثِيرا الاسْتِحْضَار، وأرْجُو أنْ يَبْلُغَ ابْنُه عُمَر في هذا العِلْم مَبْلَغًا عَظِيمًا

---

(١) الجزيري: المصدر السابق ١: ٢٥٠.

(٢) المقريزي: المصدر السابق ٤: ٨٥٩؛ الجزيري: المصدر السابق ١: ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٨٥٨.

لذَكائِه واعْتِنائِه بالجَمْع والسَّماع والقِراءَة بارَكَ الله له فيما آتاه»[١].

ورغم أنَّ المَقْرِيزِيَّ دَخَلَ مَكَّة بعد وَفَاةِ مؤرِّخِها تَقِيِّ الدِّين محمَّد بن أحمد الفاسِي المَكِّي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م إلَّا أنَّه كان قد الْتَقاه بالقَاهِرَة ووَصَفَهُ بأنَّه بَحْرُ عِلْمٍ وكَنْزُ فَوائِد ولم يُخَلِّف بالحِجَاز مثله.

وتَرْجَمَ المَقْرِيزِيُّ في «دُرَر العُقُود الفَرِيدَة» لأبي العَبَّاس أحمد بن محمَّد بن عيسى اللَّجاني الفاسِي المَغْرِبي المالِكِي، المتوفَّى سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، قال: «خَرَجَ إلى الحَجِّ في سنة ثَمانٍ وثلاثين وثماني مئة فأدَّى فَرِيضَة الله وجاوَرَ بمَكَّة فلَقِيَنِي بها سنة تسعٍ وثلاثين ولازَمَنِي وسَمِعَ عليَّ بَعْضَ كِتابِ «إمْتاع الأسْمَاع»، ونِعْمَ الرَّجُل هو»[٢].

واصْطَحب المَقْرِيزِيُّ في مُجاوَرَتِه بمَكَّة عَدَدًا من مؤلَّفاته كان يُضِيفُ إليها ويُعَلِّقُ عليها، من بينها كِتابُ «دُرَر العُقُود الفَرِيدَة»؛ فيُوجَدُ على ظَهْرِيَّة نُسْخَتِه التي كَتَبَها بخَطِّه والمحفوظة الآن بمكتبة غُوطا بألمانيا برقم Ar.270 خَطُّ تِلْمِيذِه عُمَر بن محمَّد بن محمَّد ابن فَهْد المَكِّي مُؤَرَّخٌ سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥ م، ونَصُّه:

«الحمد لله، طالَعَه من أوَّلِه إلى آخِره مستفيدًا منه داعيًا لمؤلِّفِه بالبقاء ودوام الارْتِقاء العبدُ محمد المدعو عمر بن محمد بن فَهْد الهاشِمي المكي سنة ٨٣٩».

وطالَعَ هذه النُّسْخَة نفسها في القَاهِرَة بعد وَفاة المَقْرِيزِي الحافِظُ النَّاقِدُ شَمْسُ الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحْمَن السَّخَاوِي وسَجَّلَ بخَطِّه على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة أيضًا:

«كذا طالَعَهُ واستَفادَ منه محمَّد بن عبد الرَّحْمَن السَّخَاوِي سنة ٨٥٤».

---

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م، ٣: ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه ١: ٢٧٦.

والكِتابُ مَصْدَرٌ مُهِمٌّ من مَصَادِرِ السَّخَاوِي في «الضَّوْءِ اللَّامِع» ويُشِيرُ إلى المُـتَرْجَمِين الذين نَقَلَهُم منه بقوله: «ذَكَرَهُ المَـقْرِيزِيُّ في عُقُودِه».

ومِنَ المُؤَلَّفات التي بدأ المَـقْرِيزِيُّ في تأليفها في أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة كِتابُ «الطُّرْفَة الغَرِيبَة في أخْبَارِ وادِي حَضْرَمَوت العَجِيبَة» حيث يقولُ في مُقَدِّمَتِه: «وبعد فهذه جُمْلَةٌ من أخْبَارِ وادِي حَضْرَمَوْت عَلَّقْتُها بمَكَّة شَرَّفَها الله تعالى أثْناء مُجاوَرَتي بها في عام تسعٍ وثلاثين وثمان مئةتفوق، حَدَّثَني بها ثِقاتُ مَنْ قَدِمَ مَكَّة من أهْلِ حَضْرَمَوْت».

وكذلك كتابُ «الإلْمَام بأخْبَارِ مَنْ مَلَكَ الحَبَش من مُلُوكِ الإسْلام»، يَقُولُ في مُقَدِّمَتِه: «وبعد فهذه جُمْلَةٌ من أخْبارِ الطَّائِفَة القائِمَة بالمِلَّة الإسْلامِيَّة بِبِلادِ الحَبَشَة المُجاهِدِين في سَبِيلِ الله مَنْ كَفَرَ به وصَدَّ لمُرْسَلِيه، تَلَقَّيتُها بمَكَّة شَرَّفَها الله تعالى أيَّامَ مُجاوَرَتِي بها في سنة تسعٍ وثلاثين وثمان مئةتفوق من العارِفِين بأخْبارِهِم».

وقد أعادَ المَـقْرِيزِيُّ كِتابَة هذه الرَّسَائِل بعد عَوْدَتِه إلى القَاهِرَة وكَلَّفَ أحَدَ تَلامِيذِه بنَسْخِها، هو محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله المُظَفَّرِي[1]، ثم قَرَأها وأدْخَلَ عليها تَصْوِيبَات بخَطِّه كما جاءَ في نهاية رِسَالَة «الطُّرْفَة الغَرِيبَة»:

> «تَتَبَّعَهُ مؤلِّفُه أحمد بن علي المقريزي فصَحّ في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثمان مئة».

وفي نهاية «الإلمام بأخْبَارِ مَنْ بأرْضِ الحَبَش مِن مُلُوكِ الإسْلام»:

> «حرَّرَهُ جامِعُه ومُؤَلِّفُه أحمد بن علي المَقْرِيزِي في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثمان مئة فصَحَّ جُهْدَ الطَّاقَة».

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٣-١٣٥٥هـ، ٧: ٧٦.

يَدُلُّ على هذا العَمَلِ الآن مجموعُ رَسَائِل المَـقْرِيزِيّ المحفوظ بمكتبة جامعة لَيْدِن بهُولَنْدا برقم Or.560.

ورُبَّما يكون المَـقْرِيزِيُّ قد كَتَبَ أيضًا مادَّة كِتابِه «الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْرِ مَنْ حَجَّ مِنَ الخُـلَفَاء والمُـلُوك» في أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة، الذي تُوجَدُ منه نُسْخَةٌ ضِمْن المجموع السَّابِق ذِكْرُه جاءَ بآخِرِها بخَطِّ المَـقْرِيزِيّ :

«حَرَّرَهُ جُهْدَ القُدْرَة فصَحَّ مؤلِّفُه أحمد بن علي المَـقْرِيزِيُّ في ذي القعدة سنة ٨٤١» .

وفي أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة كان المَـقْرِيزِيُّ دائِمَ التَّرَدُّد على خَزائِن كُتُبِها فنَسَخَ بخَطِّ يَدِه نُسْخَةً من كِتابِ «مُخْتَلَف القَبائِل ومُؤْتَلِفها» لأبي جَعْفَر محمَّد بن حَبِيب ، المتوفَّى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩ م، وأضافَ المَـقْرِيزِيُّ على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة، وهي تُمَثِّلُ الآن الكِتابَ الأوَّل في المجموع السَّابِق الإشارَة إليه بمَكْتَبَة جامِعَة لَيْدِن :

«أكثر ما فيه من الضَّبْط بالحُـرُوف ليس من الأصْل لكنه معتمَد فثِقْ به» .

وجاءَ في حَرْدِ مَتْن النُّسْخَة :

«تَمَّ كِتابُ مُخْتَلَف القَبائِل ومُؤْتَلِفها ، تأليف أبي جَعْفَر محمَّد بن حَبِيب على يد أحمد بن علي بن عبد القادِر المَـقْرِيزِيّ الشَّافِعِي بمَكَّة المُشَرَّفَة في يوم الأربعاء سابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة تسعٍ وثلاثين وثمان مئة» .

(وعن هذه النُّسْخَة نَشَر فرديناند ويستنفلد WUSTENFILD الكتاب بمدينة غوطا Gotha بألمانيا سنة ١٨٥٠م) .

وسَجَّلَ المَـقْرِيزِيُّ كذلك في كتاب «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُـلُوك» بعض الأحْداث التي شاهَدَها بمَكَّة، من ذلك ما أوْرَدَهُ في حَوادِث سنة سَبْعٍ وثلاثين وثمان مئة :

«وفي لَيْلَةِ الجُمُعَة سادس عشرين جُمادى الأولى وَقَعَ بمَكَّة المُشَرَّفة مَطَرٌ غَزِيرٌ سالَت منه الأَوْدِيَةُ وحَصَلَ منه أمْرٌ مَهُولٌ على مَكَّة، بحيث صارَ الماءُ في المَسْجِدِ الحَرَام مُرْتَفِعًا أرْبَع أذْرُع، فلمَّا أصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ الجُمُعَة ورأوا المَسْجِدَ الحَرَام بَحْرَ ماء، أزالوا عَتَبَة باب إبراهيم، حتَّى خَرَجَ الماءُ من المَسْفَلَة، وبقي بالمَسْجِد طِينٌ في سائِر أرْضِه قَدْرَ نِصْفِ ذِراعٍ في ارْتفاعِه، فانْتُدِبَ عِدَّةٌ من التُّجَّار لإزالَتِه.

وتَهَدَّمَ في الليلة المذكورة دُورٌ كثيرة، يقول المُكْثِرُ زِيادَةً على أَلْفِ دار. ومات تحت الرَّدْم اثنا عشر إنسان، وغَرِقَ ثمانية أنْفُس. ودَلَفَ سَقْفُ الكَعْبَة، فابْتَلَّت الكُسْوَةُ التي بداخِلِها، وامتلأت القَنادِيلُ التي بها ماء. وحَدَثَ عُقَيْب ذلك السَّيْلُ بمَكَّة وأوْدِيَتِها، وبأطْرُق من اليَمَن»[١].

وقد اسْتَدْعَى ذلك إجْراءَ أعْمالِ صِيانَةٍ وتَرْمِيم بالحَرَم أشارَ إليها المَقْرِيزِيُّ في أحْدَاثِ سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، حيث انْتَهَت في شهر رَبِيعِ الأوَّل عِمارَةُ سَقْفِ الكَعْبَة ـ شَرَّفَها الله تعالى ـ على يد سُودُون المُحَمَّدِي، وشُرِعَ في هَدْمِ المَنارَة التي على الباب اليَمَنِي من المَسْجِد الحَرَام، فهُدِمَت وبُنِيَت بِناءً عالِيًا[٢].

كما حُمِلَ في هذه الأيَّام إلى مَكَّة المُشَرَّفة من الرُّخام ما ذَرْعُه سبعون ذِراعًا لمَرَمَّة الحِجْر وشاذِرْوان البَيْت، وحُمِلَ من الجِبْسِ خمسون حملًا لبَياض أرْوِقَة المَسْجِد الحَرَام ومن الحَدِيد عشرة قَناطِير لعَمَلِ مَسامِير وأربعون قِطْعَة خَشَب لشَدِّ أرْوِقَة المَسْجِد الحَرَام[٣].

هذه هي الحَجَّة المشهورة للمَقْرِيزِي التي جاوَرَ فيها بمَكَّة خَمْس سَنَوات بعد أنْ أتَمَّ تأليفَ القِسْم الأكْبَر من مُؤَلَّفاتِه الكَبِيرَة، ولكن من خِلالِ كِتابِه «دُرَر العُقُود

---

(١) المقريزي: السلوك ٤: ٩٠٨ ـ ٩٠٩.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٩٣٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٩٣٦.

الفَرِيدَة» ، الذي يُعَدُّ المَصْدَرَ الوَحِيد الذي نَستطيعُ أنْ نَسْتَخْرِجَ منه سِيرَةً ذاتِيَّةً له ، وعلى الأخَصِّ ما يتعَلَّقُ بمَجْرَى حَياتِه العِلْمِيَّة وبداياتِها، والذي أشارَ فيه إلى مَشَائِخِه الذين أخَذَ عنهم العِلْمَ ومَنْ قَرَأ عليه من التَّلاميذ ومَنْ صَحِبَه أثْناء أدائِه للفَرِيضَة ؛ وأغْلَبُ من تَرْجَمَهُم في هذا الكِتابِ من أقْرانِه وأصْدِقائه . نَعْرِفُ من خِلالِ هذا الكِتابِ أنَّ المَقْرِيزِيَّ غادَرَ مِصرَ لأوَّلِ مَرَّة لأداءِ فَرِيضَة الحَجّ والمُجاورَة بمَكَّة، بين سنتي ٧٨٣ و٧٩٠هـ/١٣٨١ و١٣٨٨م،في مُقْتَبَلِ حياتِه العِلْمِيَّة قبل أنْ يشْرَعَ في التَّأليف والكِتابَة، حيث تَوَجَّه لأدَاءِ الفَرِيضَة في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١ م، يَقُولُ في تَرْجَمَة محمَّد بن أحمد بن حَسَن الحِجَازي : «رَافَقَنا إلى مَكَّة ـ شَرَّفَها الله ـ ذَهابًا وإيابًا ومُجاوَرَةً في سنة ثَلاثٍ وثمانين وسَبْع مئة»(١) . ويقولُ في ترجمة بُرْهان الدِّين إبراهيم بن عليّ بن إبراهيم الشَّامي الواعِظ : «سَمِعْتُ بقِراءَتِه في مَكَّة ـ شَرَّفَها الله وكَرَّمَها ـ أيَّامَ مُجاوَرَتي بها في عام ثلاثَةٍ وثمانين وسَبْع مئة كِتابَ «الشِّفَا بتَعْرِيفِ حُقُوقِ المُصْطَفَى» من تأليف القاضي أبي الفَضْل عِياض ـ رَحِمَهُ الله ـ على أبي السَّعادات سَعْد الدِّين سَعْد الله ابن عُمَر الإسْفَراييني ـ عَفَا الله عنه ـ وجَمِيعَ كِتابِ «الصَّحِيح» من تَخْرِيجِ الإمام أبي الحسين مُسْلِم بن الحَجَّاج ـ رَحْمَةُ الله عليه ـ على الفَقِيه العالم جَمالِ الدِّين إبراهيم بن محمَّد الأمْيُوطِي ـ غَفَرَ الله له ـ بقِراءَة الأمير الفَقِيه بَدْرِ الدِّين حَسَن بن خاصّ بك، وسَمِعْتُ مِيعادَه غير مَرَّة فلم أسْمَع مِيعادًا مثله جَوْدَةَ قِراءَةٍ وحُسْنَ أداءٍ وطِيبَ نَغَمَةٍ وشَجا صَوْتٍ مع الطَّلاوَة والقَبُول ومَلاحَةِ الوَجْه»(٢) .

وأدَّى المَقْرِيزِيُّ كذلك فَرِيضَةَ الحَجّ في سنة سَبْع وثمانين وسَبْع مئة، يقولُ في ترجمة ناصِر الدِّين أبي المعالي محمَّد بن عبد الدَّائم المِيْلَق الشَّافِعي : «ولقد جاوَرْنا مُدَّةً، فلمَّا عَزَمْتُ على الحَجّ في سنة سَبْعٍ وثمانين وثمان مئة زَوَّدَني عندما وادَعْتُه

(١) المقريزي : درر العقود الفريدة ٣: ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٠١، ١٠٦ - ١٠٧، ٢: ٦، ٩٧، ٣٥٥ - ٣٥٦.

بدُعاءٍ جَرَّبْتُ الإجابَة عَقِبَه غير مَرَّة، وهو: «اللَّهُم إنِّي أسْأَلُكَ باسْمِكَ العَظِيم الأعْظَم الكَبِير الأكْبَر، الذي إذا دُعِيت به أجَبْتَ وإذا سُئِلْت به أعْطَيْتَ أنْ تُصَلِّي على محمَّدٍ وآلِه وأنْ تَنْظُرَ إليَّ بعَيْنِ الرِّضَى وتَلْطُفَ في جميع أحْوالي»، وتَسْأَلَ حاجَتَكَ»[1].

وصَحِبَ المَقْرِيزِيُّ كذلك الشَّيْخَ بُرْهانَ الدِّين إبراهيم بن أحمد بن حسين المَوْصِلي المالِكِي، الذي جاوَرَ بمَكَّة نحو ثلاثين سَنَةً حتى ماتَ بها سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٣م، أثْناء مُجاوَرَته بمَكَّة سنة سبعٍ وثمانين وسبع مئة وشاهَدَ منه وَرَعًا ونُسُكًا، وذَكَرَ أنَّه كان يَتَقَوَّتَ من النَّسْخِ للنَّاس بالأُجْرَة، ثم أضافَ: «ثم أهْلَلْتُ أنا وإيَّاه بالحَجِّ جَمِيعًا من المَسْجِدِ الحَرَام في ثامِن ذي الحِجَّة سنة تسعين، وخَرَجْنا مُشَاةً إلى مِنًى، ونَزَلْنا مَسْجِدَ الخَيْف، وسِرْنا من مِنَى مُشاةً حتى نَزَلْنا مَسْجِدَ إبراهيم من نَمِرَة، وصَلَّيْنا وَرَاءَ الإمام الظُّهْرَ والعَصْر، ومَشَيْنا إلى عَرَفَة، ووَقَفْنا حتى أفَضْنا، وبِتْنا بمُزْدَلِفَة حتى وَقَفْنا بعدَ صَلاةِ الصُّبْحِ بالمَشْعَرِ الحَرَام، ثم أفَضْنا إلى مِنَى مُشاةً، فحالَ بيني وبينه ازْدِحامُ النَّاسِ بمِنَى، وكان هذا آخِرَ عَهْدي به، فرَحِمَهُ الله من رَجُلٍ ما كان أكثر تَحَرِّيه في الوَرَعِ وأشَدّه في ذاتِ الله تعالى»[2].

ومن أهَمِّ الذين الْتقاهُم المَقْرِيزِيُّ أثْناء مُجاوَرَتِه الأولى في مَكَّة اللُّغَوِي الكَبِير محمَّد بن يَعْقُوب الفِيرُوزآبادِي صاحِب كِتاب «القامُوس المُحِيط»، المتوفَّى بزَبِيد باليَمَن سنة ٨١٧هـ/١٤١٥م، والذي وَصَفَه المَقْرِيزِيُّ بـ «إمام النَّاسِ في عِلْمِ اللُّغَة»[3]. وخَتَمَ ترجمته له بقوله: «وآخِرُ ما اجْتَمَعْتُ به بمَكَّة سنة تسعين وسبع مئة، وقَرَأْتُ عليه بَعْضَ مُصَنَّفاتِه وناوَلَني كِتابَ «القامُوس» وأجازَ لي رِوايَتَه

---

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة ٣: ١٤٠، وانظر كذلك المواعظ والاعتبار ٤: ١١٦.

(٢) المصدر نفسه ١: ٧٠، وانظر كذلك ١: ٧٥، ١٣٢، ١٧٢، ٢: ٣٥٢، ٣: ٤٥٠، ٥٧٥.

(٣) المصدر نفسه ٣: ١٧٣.

وجَمِيع ما يَجُوزُ له وعنه رِوايَتُه وأفادَني عِدَّةَ فَوائِدَ جَمَّة، رَحِمَهُ الله»(١).

*
* *

أمّا قَرِينُ المَقرِيزِي وجارُه الحافِظُ المُحَدِّثُ شِهَابُ الدِّين أبو الفَضْل أحمد بن عليّ بن حَجَر العَسْقَلاني، المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، الذي وُلِدَ بمِصر العَتِيقَة سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٣م وتَحَوَّلَ إلى القَاهِرَة وسَكَنَها قبل نِهايَة القَرْنِ الثَّامِن الهجري/الرابع عَشَر الميلادي، كان قد رَحَلَ إلى الإسْكَنْدَرِيَّة في أواخِر سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م(٢)، ورَجَعَ منها إلى مِصْر وأقامَ بها إلى يَوْمِ الخَمِيس ثاني عشرين شَوَّال سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م ثم ظَهَرَ منها قاصِدًا أرْضَ الحِجَازِ من البَحْرِ وأدَّى الفَرِيضَة ثم قَصَدَ البِلادَ اليَمَنِيَّة مع صُحْبَةٍ فوَصَلُوها في رَبِيعِ الأوَّل سنة ثمان مئة «فلَقِيَ بتَعِز وزَبِيد وعَدَن والمَهْجَم ووادِي الخَصِيب وغَيْرِها غَيْرَ واحِدٍ»(٣).

ورَجَع ابْنُ حَجَر من اليَمَن صُحْبَة المَحْمَل الذي جَهَّزَه السُّلْطانُ الأشْرَف إسْماعِيل الرَّسُولي صاحِبُ اليَمَن إلى مَكَّة، بعد انْقِطاعٍ دامَ نحو عِشْرِين سنةٍ، مع محمَّد بن عَجْلان بن رُمَيْثَة الحَسَني فرافَقَه ابن حَجَر فسَلِمَ لذلك من العَطَشِ الذي أصابَ أكثرَ الحُجَّاج تلك السَّنَة وهَلَكَ بسَبَبِه أكْثَرُهُم. ووَصَلَ إلى مَكَّة المُشَرَّفَة فحَجَّ في سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م، يقولُ السَّخَاوِي: «وهذه هي حَجَّةُ الإسْلام وهي الثَّالِثَة بل الخامِسَة بالنَّظَرِ لمُجاوَرَتِه مع وَصِيِّه وأبيه .... لأنَّه كان وهو مُراهِقٌ مُجاوِرًا في سنة سِتٍّ وثَمانِين مع وَصِيِّه وقَبْلها وهو طِفلٌ مع والِدِه. ثم حَجَّ

---

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة ٣: ١٧٧.

(٢) السخاوي: المصدر السابق ٢: ٣٦، ٣٧.

(٣) السخاوي: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق حامد عبد المجيد وطه الزيني، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٦م، ١: ٤٨، ٨٦.

أيْضًا في سنة خَمْسٍ وثَمان مئة وكانت الوَقْفَةُ فيها في يوم جُمُعَة فسَمِعَ فيها قائِلًا يقولُ: «لا إله إلَّا الله ماتَ البُلْقِيني». قال: فلمَّا كنت بمِنًى أخْبَرَني صاحِبُنا المُحَدِّثُ الفاضِلُ أبو الفَضْلِ بن حَجَر أنَّه قَدِمَ من القاهِرَة كِتابٌ لشَخْصٍ من تُجَّارِها يُقالُ له ابن سَلام في حادِثَتين طامَّتين: مَوتُ البُلْقِيني وهو أعْظَمُها، ومُحاصَرَةُ النَّصارَى الإسْكَنْدَرِيَّة»(١). وجاوَرَ ابن حَجَر كذلك في سنة سِتٍّ وثماني مئة وسافَرَ منها إلى اليَمَن، وهي المَرَّة الثَّانِيَة؛ ثم حَجَّ أيْضًا في سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م،حيث اجْتَمَعَ به جَماعَةٌ من فُضَلاء مَكَّة وأعْيانِها فقرَؤا عليه وحَمَلُوا عنه بعض تَصانِيفِه وغيرها وأذِنَ لهم بالرِّوايَة عنه. وكانت الحَجَّةُ الأخِيرَة في سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حيث تأخَّرَ في القاهِرَة بعد خُرُوجِ الحَاجِّ عَشْرَةَ أيَّامٍ أو أكثر ثم تَوَجَّه على الرَّواحِل هو وصِهْرُه القاضِي مُحِبُّ الدِّين محمَّد بن عُثْمان بن سُلَيْمان بن الأشْقَر وقَرِيبُه الزَّيْني شَعْبان فأدْرَكوا الرَّكْبَ بالقُرْبِ من الحَوْراء فرافَقَهُم إلى مَكَّة؛ وكانت الوَقْفَةُ الجُمُعَة فحَجُّوا ثم عادُوا صُحْبَتَهُم. وأقامَ ابن حَجَر في هذه المَرَّة في المَدْرَسَة الأفْضِلِيَّة أنْزَلَه بها قاضِي مَكَّة المُحِبُّ بن ظَهِيرَة(٢). و أخَذَ عنه في هذه الحَجَّة جَماعَةٌ من فُضَلاء مَكَّة وأعْيانِها «المُسَلْسَل بالأوَّلِيَّة» وبَعْضًا من تَرْجَمَة البُخَارِي التي ذَكَرَها في مُقَدِّمَةِ شَرْحِه وذلك بمَجْلِس عبد الله بن عَبَّاس ـ رَضِيَ الله عنهما ـ بالسَّبيل المنسوب لجَقْمَق المُلاصِق لبِئْر زَمْزَم من المَسْجِدِ الحَرام وهو تِجاه الحَجَرِ الأسْوَد(٣).

---

(١) السخاوي: المصدر السابق ١: ٨٩.

(٢) المصدر نفسه ١: ٩١.

(٣) المصدر نفسه ١: ٩٣.

*
* *

ولم يُسَافِر تِلْمِيذُه الحافِظُ شَمْسُ الدِّين أبو الخَيْر محمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد السَّخَاوي الأصْل القاهِري المَوْلِد الشَّافِعِي المَذْهَب نَزِيل الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْن خارِج مِصْر إلَّا بعد وَفاةِ شَيْخِه ـ السَّابِق الإشارَة إليه ـ الحافِظ شِهابِ الدِّين أحمد ابن عليّ بن محمَّد المعروف بابن حَجَر العَسْقَلاني سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

وقد جاوَرَ السَّخَاوي بمَكَّة أرْبَعَ مَرَّات[1] حيث سافَرَ لأداءِ فَرِيضَةِ الحَجّ أوَّلَ مَرَّة في أوائِل جُمادَى الآخِرَة سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وكان يَصْطَحِبُ معه والِدَتَه. فخَرَجَ من مِصْر مارًّا بالطُّور ومنه رَكِبَ إلى يَنْبُع ثم إلى جُدَّة حتى وَصَلَ مَكَّة في أوائل شَعْبان من هذه السَّنَة فأقامَ بها إلى أنْ أدَّى فَرِيضَةَ الحَجّ.

وخلال هذه الفترة تَعَرَّفَ السَّخَاوِي على النَّجْم عُمَر بن محمَّد بن فَهْد، الذي أعانَه على الوُصُول إلى خَزَائِن الكُتُب المَكِّيَّة والتَّعَرُّف على كِبارِ الشُّيُوخ والعُلَماء.

يقولُ السَّخَاوِي إنَّه قَرَأ في خَلالِ هذه المُدَّة من الكُتُبِ الكِبار والأجْزاء القِصَار ما لم يَتَهَيَّأ لغيره من الغُرَباء ولا من غيرهم في مثل هذه المُدَّة، وقرأ داخِلَ البَيْتِ المُعَظَّم وبالحِجْر وعُلُوّ غارِ ثَوْرٍ وجَبَلَ حِرَاء وأبي قُبَيْس وبكثير من المَشَاهِد المأثُورَة بمَكَّة وظاهِرِها كالجِعِرَّانَة ومِنًى ومَسْجِد الخَيْف على خَلْقٍ كأبي الفَتْح المَرَاغِي والبُرْهَان الزَّمْزَمِي والتَّقِيّ بن فَهْد والزَّيْن الأمْيُوطِي والشِّهاب الشَّوائِطِي وأبي السَّعادات بن ظَهِيرَة وأبي حامِد بن الضِّيَاء، وزِيادَةٍ على ثلاثين نَفْسًا سوى مَنْ أجازَ له فيها وهم أضْعافُ ذلك.

(١) اعتمدت في خبر السخاوي على الترجمة الذاتية Autobiography التي كتبها لنفسه في جمادى الثانية سنة ٨٩٩هـ/ أبريل سنة ١٤٩٤م وأوردها في الضوء اللامع ٨: ٢ ـ ٣٢ ولَخَّصَها عنه ابن العماد في شذرات الذهب ٨: ١٥ ـ ١٧.

وبعد انْفِصالِه عن مَكَّة وهو في طريق عَوْدَتِه إلى القَاهِرَة قَرَأ في المَدِينَة الشَّرِيفَة تجاه الحُجْرَة النَّبَوِيَّة على البَدْرِ عبد الله بن فَرْحُون وعلى الشِّهاب أحمد ابن النُّور المَحَلِّي وأبي الفَرَج المَراغِي، ثم في يَنْبُع وعَقَبَة أيْلَة وقبل ذلك برَابِغ وخليص.

وكانت رِحْلَتُهُ الثانية إلى مَكَّة في سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م، حيث تَوَجَّه بصُحْبَة عِيالِه وأكبر إخْوَتِه ووالداه للحَجّ، وحَدَّثَ وهو هناك بأشياء من تَصَانِيفِه وغيرها وأقرأ «ألْفِيَّة الحَدِيث» تقسيمًا وغالِب شَرْحِها لناظِمِها و«النُّخبة» وشَرْحها، وأمْلَى مَجالِس، كُلُّ ذلك بالمَسْجِد الحَرَام. وتَوَجَّه لزيارة ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ بالطَّائِف يرافقه في ذلك صاحِبُه النَّجْمُ ابن فَهْد فسَمِعَ من هناك بعض الأجْزاء.

ثم حَجَّ مَرَّةً ثالثة في سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٨م وجاوَرَ سنة ٨٨٦هـ/١٤٨٩م، ثم سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، وأقامَ فيها ثلاثة أشهر بالمَـدِينَة النَّبَوِيَّة. ثم عاوَدَ الحَجَّ في سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، وجاوَرَ سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م، وسنة ٨٩٤هـ/١٤٨٩م؛ وحَجَّ كذلك في سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م، وجاوَرَ إلى أثناء سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م، فتوجَّه إلى المَـدِينَة النَّبَوِيَّة وأقام بها أشْهُرًا وصامَ رَمَضَان بها، ثم عادَ إلى مَكَّة في شَوَّال. ويُضِيفُ بعد ذلك في ترجمته الذَّاتِيَّة، «وهو الآن في جُمادَى الثَّانية من التي تليها بها خُتِم له بخير»، الأمْرُ الذي يُفِيدُ أنَّه كتب ترجمته الذَّاتِيَّة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م.

وقد حَمَلَ النَّاسُ من أهْلِ مَكَّة والمَدِينَة والقادِمِين عليهما عنه الكثيرَ جدًّا رِوايَةً ودِرايَةً، وحَصَّلُوا من تَصانِيفِه جُمْلَةً، وسُئِلَ في الإمْلاءِ هناك فما وافَق، وإنْ كان أمْلَى بالمَـدِينَة النَّبَوِيَّة شيئًا لأُناسٍ مخصوصين.

وظَلَّ السَّخَاوِي في مُجاوَرَته الخامِسَة بمَكَّة يُحَدِّثُ ويُقْرِئ حتى سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م، حيث توجَّه إلى المَدِينَة فوَصَلَها في مساء يوم الاثنين التاسع عشر من

ذي الحِجَّة فاستقرَّ بها بالمَدْرَسَة الزَّيْنِيَّة تجاه باب الرَّحْمَة يُحَدِّثُ ويُقْرِئُ حتى وافاهُ الأَجَلُ يوم الأَحَد الثَّامِن والعشرين من شَعْبان سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، ودُفِنَ بالبَقِيع بجِوار مَشْهَدِ الإمام مالِك .

وسَجَّلَ السَّخَاوِي رِحْلَتَه إلى الحِجَاز وما أَخَذَهُ عن عُلَمائِها أو أفادَ به طُلَّابَها في كِتابِه «الرِّحْلَة المَكِّيَّة»، وهو كِتابٌ لم يَصِل إلينا .

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ١٥١ - ١٧٧

آراءٌ جَدِيدَةٌ حَوْلَ الصِّراعِ المُـرَابِطِي - المُـوَحِّدِي من خِلالِ «الرِّسَالَةِ المَنظُومَة» لابن تُومَرت

عودة حسان عواد أبو شيخة(*)

ملخص البحث

يتناول البحث مناقشة الصراع المرابطي - الموحدي من خلال «الرسالة المنظمة» لابن تومرت بطريقة جديدة بين الدراسات البحثية ، ولما كانت التجربة المذهبية السياسية الموحدية فريدة من نوعها على مستوى العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا ، جعلها أحد المفكرين معلمًا تاريخيًا ، لهذا ارتأينا الخوض في خطاب الداعي الأسطورة للدولة المهدي بن تومرت . فناقشنا وتساءلنا ، ما هي أهدافه وطموحاته من خلال لغة خطابه؟ باعتبار أن اللغة تشكل الإنتاج الفكري والأدبي والسياسي ، وفيما تمثلت آليات الخطاب؟

Summary

The research deals with the discussion of the Almoravid-Almohad conflict through the "structured message" of Ibn Tumart in a new way between research studies. Since

(*) أستاذ مساعد - قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة عين شمس.

the monotheistic political experience of Almohadism is unique in the Islamic world, it is a historical landmark. Of the state Mahdi Ben Tomart. We discussed and asked, what are his goals and ambitions through the language of his speech? As language is the production of intellectual, literary and political, while the mechanisms of speech?

مقــدمة

كانت علاقة الدين بالسياسة في الدولة الإسلامية منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا من القضايا التي أثارت إشكالات وجدلًا واسعًا بين مختلف الكتاب والمؤرخين الذين عنوا بتاريخ الأمة الإسلامية بين مؤيدا لوجود الصلة بين الطرفين والنافي لها مع غلبة الرأي الأول.

يعد تناول فكرة الصراع المرابطي ـ الموحدي من خلال «الرسالة المنظمة» لابن تومرت جديدة بين الدراسات البحثية، ولما كانت التجربة المذهبية السياسية الموحدية فريدة من نوعها على مستوى العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا، جعلها أحد المفكرين معلمًا تاريخيًا[١]، لهذا ارتأينا الخوض في خطاب الداعي الأسطورة للدولة المهدي بن تومرت. فما هي أهدافه وطموحاته من خلال لغة خطابه؟ باعتبار أن اللغة تشكل الإنتاج الفكري والأدبي والسياسي، وفيما تمثلت آليات الخطاب؟

قبل الخوض في الخطاب لا بد أن نتطرق لتعريف مختصر لشخص المهدي بن تومرت ولمساره العلمي.

---

(١) مالك بن بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تعريب عبد الصبور شاهين، الجزائر ـ دار الفكر الجزائر ١٩٨٦م، ٢٤ ـ ٣٦ ـ ١٦٩.

١ـ التعريف بابن تومرت

يتفق المؤرخون على أن اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن، وأن ولادته كانت بمنطقة السوس[١]، وهي البيئة التي ولد وتربى فيها ابن تومرت، بيئة جبلية، وكان يسكنها في القرن الخامس قبائل بربرية تنتمي أغلبها إلى قبيلة مصمودة المعروفة بشدة البأس وقوة الشكيمة مع عصبية مستحكمة، ويغلب عليهم الجفاء والغلظة في العشرة. واشتهرت أسرته بالعلم والمكانة الدينية، وقال المراكشي عن أسرته: «قوم يعرفون بايسر غينن، وهم الشرفاء، بلسان المصامدة»[٢].

وهو من قبيلة هرغة المصمودية البربرية، واختلف المؤرخون في نسبة بين النسب البربري والعربي المرفوع إلى آل البيت. فنفت بعض المصادر المشرقية النسب الثاني[٣]، في حين أورد ابن خلكان النسب لآل البيت دون تأكيد أو نفي، وختم ذكر النسب بعبارة «الله أعلم»[٤].

في حين أكدت النسب لآل البيت المصادر الموالية للدولة الموحدية[٥] وأزاح ابن خلدون نوعا ما اللبس بهذا الخصوص؛ إذ أشار إلى أصله من هرغة إحدى بطون

(١) ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط١ ـ بيروت، ١٩٩٠م، ٧٤. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط ٢، تونس ـ المكتبة العتيقة، ١٩٦٦م، ٤.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: خليل عمران المنصور، بيروت ـ دار الكتاب العلمية، ٢٠٠٨م، ٤٥.

(٣) الحنبلي ابن عماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت بدون تاريخ، ٤: ٧٠.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان في أبناء ابناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ـ دار صادر، ١٩٩٤م، ١: ٦٥.

(٥) أمثال صاحب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية. تحقيق: سهيل زكان عبد القادر زمامه، الدار البيضاء ـ دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩م، ١٠٣؛ ابن القطان: نظم الجمان، ٨٧ ـ ٨٨. =

المصامدة، ثم يعلق وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه من آل البيت، وأورد شجرة النسب التي انتهت إلى إدريس الأكبر بالمغرب الذي تفرق ولده بالسوس بين هرغة من مصمودة[١]. حفظ القرآن الكريم، ودرس مبادئ العلوم الإسلامية ببلده في صباه، ولقب «بآسفو»[٢] وهو لقب بالبربرية ومعناه الضياء، وهذا لملازمته إيقاد القناديل ليلا بالمساجد لقراءة القرآن والصلاة[٣].

وإن كانت سنة وفاة المهدي بن تومرت متفق عليها في المصادر التاريخية وهي ٥٢٤هـ/١١٢٩م إثر جراح أصابته في موقعة البحيرة ضد المرابطين[٤] فإن الاختلاف ورد حول سنة الولادة[٥].

١-١ سنة الولادة

أشار بعض المؤرخون إلى أن عمر المهدي بن تومرت عند وفاته «نحو من خمسين سنة[٦]». وجاء عند صاحب مفاخر البربر أنه «توفي المهدي وهو ابن خمسين (كذا) سنة»[٧]. أما عن سنة الولادة فذكر ابن خلكان أو ولادته كانت

=وأشار من جهته عبد الواحد المراكشي رغم موالاته للسلطة ذكر نسبة المتصل بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب دون تأكيد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٢٦؛ BASSET, HENRI, *Ibn toumert, Chef d'Etat*, Paris, 1925, p.75.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت - دار ابن حزم ٢٠٠٣م، ٢: ٢٥٠٠.

(٢) ابن القطان: المصدر السابق، ٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ٩٠، ابن خلدون: المصدر السابق، ٢٥٠٠.

(٤) تراجع الحادثة عند ابن القطان: المصدر السابق، ١٦٧، عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ١٣٦- ١٣٧، وغيرها من المصادر كابن خلدون.

(5) NIKOS KOKOSALAKIS, *«Legitimation Power and Religion in Modern Society»*, Sociological Analysis, vol. 46, no.4, 1985, p.39.

(٦) ابن القطان: المصدر السابق، ١٢٣.

(٧) المصدر نفسه، ١٢٣.

«يوم عشوراء سنة خمسين وثمانين وأربعمائة»[١]. وأورد الزركشي أن الإمام ولد سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[٢] وأكد ابن قنفد أنه: «ولد بهرغة سنة إحدى وسبعين وأربعمائة»[٣]، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن عمره عند وفاته ما بين الخمسين والخمسة والخمسين سنة، فإن تاريخ ميلاده يكون ما بين ٤٦٩هـ و٤٧٤هـ/ ١٠٧٦ ـ ١٠٨١م[٤].

٢.١ رحلته العلمية

ما إن نتطرق لنقطة من حياة الداعية المهدي بن تومرت، إلا ونجد فيها اختلافا بين المؤرخين، فقد عرف تاريخ بداية رحلته العلمية هو الآخر اختلافا، ولأن المجال لا يسعنا بالوقوف عندها بالتفصيل نكتفي بأخذ الرأي المرجح، والمتمثل في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م أو سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وهذا الترجيح استند على رواية ابن القطان الوحيدة التي أشار فيها إلى أن رحلته استغرقت ١٤ عاما[٥]، معتمدا هو الآخر على شهادة أخته لما ذكرت أن غيابه عنهم دام ١٥ سنة في طلب العلم[٦]. في حين متفق على تاريخ رجوعه لبلده الذي كان سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ١٢٣.

(٢) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ٤.

(٣) ابن قنفد القسطنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي، النيفر عبد المجيد التركي، تونس ـ دار التونسية للنشر، ١٩٦٨م، ٩٩.

(٤) عبد المجيد النجان: المهدي بن تومرت، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م، ٣٢.

(٥) ابن القطان: المصدر السابق، ٦٢.

(٦) المصدر نفسه، ١٦٧.

(7) COAKLEY, MATHEW: *«On the Value of Political Legitimacy»*. Polities Philosophy Economics, vol.10, no.4, November 2011, 82.

أما عن وجهته تشير أقدم رواية إلى أن «الإمام المهدي ﷺ جاز البحر إلى الأندلس طالبا للعلم ووصل قرطبة»[١]، ونقل عنه ذلك ابن خلدون[٢]. بيد أن المصادر لم تفصل في أمره، وهو بالأندلس، مما يعني أنه لم يطل المقام به هناك باستثناء إشارة إلى أنه قرأ على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)[٣]. ولا يستبعد أحد الباحثين تأثره بجملة من التيارات المذهبية والفكرية التي كانت رائجة بالأندلس أمثال المدرسة الحزمية الظاهرية في الفقه والعقيدة[٤].

ومن الأندلس توجه إلى المشرق الإسلامي بدء بالإسكندرية[٥]، وفيها التقى بأبي بكر الطرطوشي وأخذ عنه (٥٢١هـ/١١٢٧م)، والراجع أن اللقاء كان في طريق الرجعة، حيث استقر بالمدينة بضعة أشهر من سنة ٥١١هـ/١١١٧م[٦].

وكانت مكة من المدن التي زارها مع أن إحدى المصادر تشير إلى أنها كانت في نهاية رحلته من العلم، إذ حج ومنها رجع إلى بلاد المغرب، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «فحج من هناك وعاد إلى المغرب»[٧]. في حين أكد ابن خلدون عكس

---

(١) ابن القطان: المصدر السابق، ٦٢.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ٢٥٠٠.

(٣) ابن قنفد القسنطيني: المصدر السابق، ١٠٠.

(٤) العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، بيروت ـ المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ٢٠٠٧م، ٣٠٥.

(٥) تختلف الروايات عن خط سيره إلى الإسكندرية، تشير بعضها أنه انتقل من الأندلس إلى المهدية كمحطة ومنها إلى الإسكندرية. ابن قنفد: المصدر السابق، ١٠٠؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٠، وأكد التجاني، أنه مر بجزيرة جربة، إذ وجد له ذكر في المسجد الذي أقام به أيام الرحلة، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس ـ الدار العربية للكتاب ٢٠٠٥م، ٥٦.

(٦) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ٨٦.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، راجعه محمد يوسف الدقاق، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، مج ٩: ١٩٦.

ذلك بقوله: «.... ثم أجاز من الإسكندرية وحج ودخل العراق ...»[١].

ومن مكة توجه نحو الشام والعراق، وتجدر الإشارة إلى أن عبد الواحد المراكشي كان الوحيد من بين المصادر التي أرخت للدولة الموحدية من أشار إلى دخوله الشام، ولم يكن ذلك بأسلوب التأكيد بقوله: «وقيل أنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فالله أعلم»[٢].

وليس من المستبعد أن يكون قد زارها أثناء ذهابه من مكة إلى العراق، وقد اتخذ بغداد مستقرا له لطلب العلم لسنوات عديدة، وبالتالي كان للحياة الفكرية والتوجهات المذهبية بالعراق حصة الأسد في تكوين شخص وفكر ابن تومرت العلمي[٣].

وبعد أن أمضى ابن تومرت رحلته العلمية لأكثر من عشر سنوات، عاد إلى بلاد المغرب حاملًا معه المشروع العقائدي الجديد لأهل المغرب عامة، ومن خلال أغلب النصوص التي تعرضت للتأريخ لابن تومرت يتبين لنا في ميزان نقد ابن تومرت، بعض الأمور التالية:

١. قد يتفق كتاب التاريخ على الثناء في الجوانب العبادية عند ابن تومرت، والزهد في الحياة الدنيا ـ فيما يظهر للناس ـ.

٢. يظهر من خلال شخصيته القوة في تغيير المنكر باليد، والتأكيد على أن حكم دولة المرابطين ليست متساهلة فقط في المنكرات، بل هي راعية لها.

٣. الحرص على إظهار الجوانب التعبدية للأتباع، وإلزامهم بذلك.

٤. يتميز ابن تومرت بقوة حجة البيان، والقدرة على استمالة العقول، وتغيير الأفكار والمناهج.

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ٢٥٠٠.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ١٢٧.

(٣) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ٧١.

٥. سعة علومه واطلاعه المتنوع على العلوم والمعارف، ساعده ذلك على كسب تعاطف الولاة وإمالة العامة نحوه.

٦. تتفق أقوال العلماء في ابن تومرت أنه صاحب همة عالية، وصبر فريد، ويسلك أشد الطرق التربوية في تربية الأتباع والمريدين.

٣-١ مؤلفاته

قبل الخوض في تحديد طبيعة الخطاب عند المهدي بين تومرت، رأينا من الضروري الوقوف على مؤلفاته وتحديد طبيعتها، فقد خلف لنا مجموعة من الآثار المكتوبة، تنوعت بين الكتب والرسائل الفقهية والوعظية منها ذات اتجاه سياسي.

ما يهمنا من آثاره هو مجموع الرسائل التي جمعت في مصنف واحد وهو «أعز ما يطلب المنسوب إليه، وأصبح معتقد وشائع أنه كتاب واحد من تأليفه؛ في حين هو مجموعة من مؤلفاته ورسائله مختلفة المواضيع متباينة المنهج[1]، في الأصول والفقه والتوحيد والحديث والسياسة والجهاد، يتضح ذلك في ما جاء على غلاف المخطوط كعنوان للتعريف به، سفر فيه جميع تعاليق الإمام المعصوم، المهدي المعلوم ﷺ مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد بن عبد المؤمن بن علي أدم الله تأييدهم ...»[2].

جمع في هذا المصنف رسائل في أصول الدين، وهي أكثر مؤلفاته آخذة جل اهتمامه، كما شمل مسائل عديدة في العقيدة وخلاصتها، وضعها في رسالة أسماها المرشدة وهي رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز الصفحتين، فيها عرض موجز لمسائل العقيدة خال من البراهين[3]، ورسائل في التوحيد، وهو أهم ما ألف حتى

---

(١) المرجع نفسه، ١٤٦.

(٢) المهدي بن تومرت، أعز ما يطلب، تحقيق: عمار طالبي، الجزائر - وزارة الثقافة ٢٠٠٧م، ٢٩.

(٣) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ١٥٠.

اشتق اسم مذهبه منها وسمى أتباعه بالموحدين وتعتبر أساس دعوة الموحدين، ومنها رسالة في توحيد الباري، ورسالة في أن التوحيد أساس الدين، وكتاب في التوحيد باللسان البربري[١]، ويضاف إليها رسالة في العبادة، كما ضم كتاب أعز ما يطلب في العلم وشروطه وطرقه، وكتاب في الإمامة.

ألف كذلك المهدي بن تومرت في الفقه وأصوله، اشتمل مجموعة من الرسائل، وجمعت كذلك في الكتاب المذكور آنفا رسالة في الصلاة، كتاب في الطهارة، كتاب الغلول، كتاب الجهاد، كتاب تحريم الخمر، وشمل رسائل في الدعوة والموعظة، كرسالة في تسبيح الباري سبحانه وتعالى، خطبة الوداع، رسالة من المهدي إلى أتباعه يحثهم على الجهاد، رسالة إلى علي بن يوسف بن تاشفين[٢].

ما يلاحظ جليا على مجموع الرسائل المجموعة في سفر أعز ما يطلب، ذات طابع ديني مذهبي محض، لكن لم يمنع ذلك من كتابة الداعية لرسائل ذات طابع دعوي ديني سياسي. وما يهمنا بعد رصد مؤلفاته بالكتاب الجزء الأخير منه والمتمثل في مجموع الدعوة والواعظ، ومنها رسالة المهدي المعروفة بالرسالة المنظمة، لمعرفة ما إذا كانت خطاب ديني أم سياسي خاصة وأنه فقيه بالدرجة الأولى.

٢ـ خصائص وفحوى الخطاب (الرسالة المنظمة)[٣]

هي رسالة كتبها إلى أتباعه الذين سماهم (بجماعة أهل التوحيد) وفيها حث على الجهاد، وبيان لأخطاء المرابطين في العقيدة والسلوك، والخطاب غير مؤرخ

---

(١) رسائل موحدية، تحقيق: أحمد عزاوي، ط ١، القنيطرة ـ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٩٥م، ج ١: الهامش رقم ٥، ص ٤٤.

(2) William Al-Sharif: *The Dearest Quest: A Biography of Ibn Tumart*, lulu, London, 2010, p.87.

(٣) وردت الرسالة في كتاب أعز ما يطلب، ٢٥٧ ـ ٢٦٤، وفي مجموع رسائل موحدية، ١: ٤٤ ـ ٤٩.

من قبل صاحبه ، لكن يبدو أنه لم يكن إلا بعد بيعته ، وإعلانه المهدوية ؛ إذ يشير عبد الواحد المراكشي أن المهدي بن تومرت لم يكن طالبا للملك إلا بعد إعلانه أنه المهدي(١) .

كان ذلك بعد سلسلة من التمهيدات لذلك المعتقد بأنه المهدي بدأها بإيراده أحاديث الفتن(٢) ، بما يُعرب عن فساد الزّمان واختلال الأمر ، حتّى إذا استقرّ في أذهان النّاس أنّ ما أنبأت به النّصوص مطابق لما يعيشونه في الواقع ، لوّح لهم بالمخرج من الأوضاع المتردّية التي آل إليها الحال ، وليس ذلك سوى المهدي الذي «سيملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورًا»(٣) . ويسوق أحاديث «المهدي المنتظر» بما لا يدع مجالا للشّكّ في أنّها تنطبق على شخصه(٤) .

وكان ذلك بمثابة إعلان المهدية لابن تومرت ، وأن مواصفات المهدي المنتظر متحققة فيه ، وعن أثرها على أتباعه ، قال ابن القطان : «فكل هذه مما جاء به الإمام المهدي مما يشهد بصدق ما أتى به ، وسعة علمه وعصمته ، فكل هذه العلامات التي ناطها بالقوم الذين تولى تغيير ما أتوا به ، دالة على أشراط الساعة ، وأنه هو الإمام المهدي المنتظر الموعود ، وهذا أمر قد وضح بيانه ، وصح برهانه وسطع ضياؤه ، وارتفع سناؤه»(٥) .

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ١٣٢.

(٢) أنور محمود زناتي : التوظيف السياسي للأَخلاق في الصّراع المُرَابِطي ـ المُوَحِّدِي (٥١٤ ـ ٥٢٤هـ/١١٢٠ ـ ١١٣٠م) ، مؤتمر السياسي في بلاد الإسلام : الفكر ، الأنماط ، الأماكن في الفترة من ٨ـ١٠ أكتوبر ٢٠١٥م ، تونس ـ مخبر النخب والمعارف والمؤسسات الثقافية في المتوسط في كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة ٢٠١٥م ، ٢٨٨.

(٣) ابن تُوْمَرْت : أعزّ ما يطلب ، ٢٩٣، ٢٩٤.

(٤) أنور محمود زناتي : التوظيف السياسي للأَخلاق في الصّراع المُرَابِطي ـ المُوَحِّدِي ، المرجع السابق ، ٢٨٨.

(٥) ابن القطّان : نظم الجُمَانْ ، ١٠٠.

وكانت بيعته : «إما في سنة أربعة عشر على قول أو في سنة خمس عشر على قول»[١] . وذكر في أحداث سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م[٢] ، وبالتالي تاريخ هذا الخطاب كان ما بين ٥١٤ ـ إلى ٥١٦هـ ، وقبل ٥١٧هـ باعتبار التاريخ الأخير هو أول مواجهة عسكرية حقيقية بين أتباعه والجيش المرابطي[٣] .

وجه المهدي خطابه إلى جماعة الموحدين من قبائل مصمودة عصبيته التي التفت حول دعوته ومذهبه وفحوى الرسالة تمثل في :

١ـ إظهار سبب توجيه الرسالة والمتمثل في الالتفاف ومناصرة دعوة التوحيد ضد المرابطين .

٢ـ إظهار فضل الجهاد بأدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

٣ـ إظهار فضل الشهادة بأدلة من القرآن والسنة النبوية الشريفة ، وهذا لتشجيع أتباعه على مقاتلة المرابطين .

٤ـ أظهر وركز فيها على تلبيسات المرابطون لمنع الناس على إتباع الدعوة الموحدية .

٥ـ التأكيد على سوء السياسة المالية للسلطة المرابطية .

٦ـ الإشارة إلى محاربة وتعذيب وقتل المرابطون للمخلصين لدينهم .

٧ـ تكفير المرابطون .

٨ـ ختم الرسالة بتوصية أتباعه بأخذ حظهم من الجهاد .

وبناء على مضمون الرسالة يظهر واضحا أن خطابه لم يكن دينيا محضا على الرغم من أنه فقيه بالدرجة الأولى[٤] .

---

(١) ابن القطان : المصدر السابق، ١٢٣.

(٢) ابن القطان : المصدر السابق، ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ١٣٠ ـ ١٣١.

(4) RACHID BOUROUIBA, *Ibn Tumart, Société Nationale d'Edition et de Diffusion,* Algier, 1982, p.34.

لقد كانت العلاقات السائدة في تلك الفترة علاقات غالب ومغلوب[1]، ونميل إلى أن المهدي بن تومرت رجع وفي نيته العمل السياسي ولم يفصح عنه مباشرة، وإنما بالتدرج مستغلًا الفرص لإظهار ذلك، مع أن بعض الروايات تستبعد ذلك، وإنما النية في مباشرة العمل السياسي كانت متأخرة، بل هناك من اعتبره وليدة المناظرة التي أجراها مع فقيه البلاط المرابطي مالك بن وهيب[2]، والتي كادت أن تؤدى به إلى السجن. حيث تمت مناصحة أمير المسلمين بضرورة حبسه، إلا أن بعض وزرائه قال: «يقبح بالملك أن يبكي من وعظه، ثم يسيء إليه في مجلسه، وأن يظهر خوفك، وأنت سلطان، من رجل فقير، فأخذته نخوة، وصرفه»[3].

ويستمر ابن تومرت ساعيًا في دعوته، ومصطفيًا من يراه صالحًا في قبول مبادئه، منتقلًا من مكان إلى مكان، ومتخذًا رسالة التعليم والوعظ وإنكار المنكر، منابر لدعوته، ومذكرًا بفساد آخر الزمان، مما يدل على قرب ظهور المهدي.

فكان الحدث سببًا في إرساله إلى قبائل مصمودة طالبًا التحضير لمواجهة المرابطين[4]، كما اعتبر حدث المبايعة بين قبائل المصامدة[5] سببًا في التحول في نشاطه من ديني إلى سياسي[6].

---

(١) أنور محمود زناتي: التوظيف السياسي للأَخلاق في الصّراع المُرَابِطي ـ المُوَحِّدِي، المرجع السابق، ٢٨٤.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ـ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤٠٩هـ، ١٩: ٥٣٩.

(٤) روجي لي تورنو: حركة الموحدين في المغرب في القرنين ١٢ ـ ١٣م. تعريف أمين الطيبي، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس ١٩٩٨م، ٢٨.

(٥) ابن القطان: المصدر السابق، ٨٧؛ البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، الجزائر ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٦م، ٥٢.

(٦) روجي لي تورنو: المرجع السابق، ٣١.

ولم يكن فقهاء المُرَابِطين ـ على كثرتهم ـ لم يكن لهم نشاط دعائيٌ مضادٌ يكافئ نشاط ابْنِ تُوْمَرْت ؛ فبمجرد وصوله إلى مَرَّاكُش ، حتّى بدأ نشاطه الدعائي ، وتفوّق ابن تومرت على فقهاء دولة المرابطين تفوقًا ملحوظًا[1] .

ونكاد نجزم أن فحوى خطابه في الرسالة المنظمة وغيرها من الرسائل والخطابات الشفوية هي سياسة محضة ، والنية كانت مبيتة ، يتجلى ذلك باعتبار جملة من القرائن التاريخية ، من بينها تلقيه بذور الفكر السياسي في رحلته بالمشرق الإسلامي ، وغير مستبعد أن فكرة الانقلاب السياسي على المرابطين قد تخمرت بذهنه وهو هنالك ؛ بحيث اكتسب فكر واسع في الأفق السياسي[2] ؛ إذ كانت الخلافة الفاطمية تعرف حالة من الضعف والتمزق ، ونفس حالة كانت تعرفها الخلافة العباسية ، فخبر بعيوب الأنظمة السياسية التي تميزت بالظلم والفساد وبواقع مجتمعاتها وأوضاعها المزرية[3] .

ويضاف إلى هذا الواقع عاملًا آخرًا لا يقل أهمية ، والمتمثل في الحصيلة الفكرية التي جناها من الرحلة ، فقد التقى «جلة العلماء .... وفحول النظار»[4] وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي إذا ما سلمنا برواية اللقاء[5] الذي عرف بثورته الفكرية على التقليد ومحاربة البدع . ونفس الاتجاه الفكري كان عليه أبا بكر الطرطوشي

---

(١) أنور محمود زناتي : دور الفقهاء في الأندلس خلال عصر المرابطين ، رسالة دكتوراه ، كلية البنات للآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠١٤م ، ٢٢٢.

(٢) محمد زنيبر : المغرب في العصر الوسيط ، الدولة ــ المدينة ــ الاقتصاد ، الدار البيضاء ـ مطبعة النجاح الجديدة ١٩٩٩م ، ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) عبد المجيد النجار : المرجع السابق ، ١١١.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ٢: ٢٥٥٠.

(٥) يكاد يؤكد عبد الحميد النجار الرواية معتمدا على جملة من المقارنات والمقاربات ، المرجع السابق ، ١٨٢.

الذي التقى به في مصر في خط الرجعة[١]. فاستفاد من لقائهما بملكة النقد، وغرسا فيه روح الثورة على مظاهر الجمود الفكري والتقليد، ثم لا ننسى أن الطرطوشي كان فقيها متبحرا في السياسة الشرعية، فألف فيها كتاب «سراج الملوك».

وعليه لا يستبعد تأثره به، وبالتالي ما إن وصل بلده حتى كان متوفر على زاد علمي كبير، وروح ثائرة ضد الفساد الاجتماعي الذي كان نتيجة الفساد السياسي، وتجربة كبيرة في ممارسة الدعوة والتغيير[٢].

ولم يكن خط العودة ذو شأن قليل في تكوينه السياسي؛ إذ أكسبه الخط الساحلي حنكة سياسية، بحيث احتك بحكام الإسكندرية والمهدية وبجاية. ومن خلالها تعلم كيف يترجم عقيدته الدينية إلى دعوة سياسية[٣].

وكذلك من القرائن الدالة على التوجه السياسي لابن تومرت نجد خطابه ــ الرسالة المنظمة ــ كان مبنيا على تشريع العنف والغزو تحت غطاء الجهاد وتنظيمه، ومحاولة صياغته بأدلة شرعية[٤] كقوله: «إن الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تنجي من عذاب أليم». فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[٥] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٦].

كما كان موقفه النظري واضحًا تمامًا بشأن الأوضاع الاقتصادية لأفراد المجتمع المرابطي كقوله: «... وتمادوا على الفساد في الأرض... وعلى هلاك الحرث

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ١٢٧.

(٢) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ١٠٦.

(٣) أنور محمود زناتي: التوظيف السياسي للأخلاق في الصّراع المُرَابِطي - المُوَحِّدِي، ٢٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ٢٨٤.

(٥) الآية ١٠، سورة الصف.

(٦) الآية، ١٢، سورة الصف، مقتطف من الرسالة المنظمة، رسائل موحدية، ١: ٤٥.

والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم وخراب ديارهم... واستباحوا أكل أموال اليتامى والأرامل...»[(١)].

كما أشار إلى ظلم السلطة لأفراد مجتمعها في دينها بقوله: «.... من أعظم أباطيلهم أن من رأوه تاب إلى الله وأناب إلى الخير، واشتغل بتعليم فرائضه وما يلزمه من توحيده وغير ذلك مما يصلح به صلاته.... فكل من رأوه على هذه الصفة رموه على قوس العداوة بسهام الغل عدوانًا وظلمًا وقالوا له ضللت وخرجت من الدين. ونسبوه إلى البدعة ليسدوا بذلك باب التوبة...»[(٢)].

واعتبر التابعين للسلطة مجسمين بل كفارًا بقوله: «...فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر»[(٣)] ثم «فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار، ومن قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد»[(٤)]، وبالتالي كان المهدي بن تومرت فقيه سياسي كما سماه أحد الباحثين[(٥)].

ما يلاحظ على هذا الخطاب أنه جاء في خطين متوازيين، خط تربوي ديني، وخط سياسي ثوري، واضعًا أسس دعاية قوية ناجحة، مبنية على قواعد التلقين وقوانين التدرج في الإدلاء بالحقيقة حسب موهبة واستعداد المتلقي، فنجح في نشر دعوته[(٦)]، لهذا تميز في خطاباته كانت كتابية أو شفوية بقوة الإقناع؛ إذ كانت بلاغته قادرة على الاستحكام والتغلغل في نفوس مستمعيه[(٧)].

---

(١) مقتطف من الرسالة المنظمة، الخطاب المعنى بالدراسة، رسائل موحدية، ١: ٤٧.

(٢) مقتطف من الخطاب، رسائل موحدية، ١: ٤٧.

(٣) مقتطف من الخطاب، رسائل موحدية، ١: ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) مقتطف من الخطاب، أعز ما يطلب، ٢٦٤.

(٥) محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، الرباط، جذور للنشر ٢٠٠٦م،، ٢٠٠٦، ٢١.

(٦) عبد الله العروي: المرجع السابق، ٣٠٧.

(٧) بوجي لي تورنو: المرجع السابق، ٣٣.

وإن كان نجاحه في إقناع تابعيه من المصامدة نتيجة قوة بلاغته وعقيدته الصارمة[١]، فإن العامل السياسي المتمثل في العداء العرقي القديم بين صنهاجة ومصمودة أهمية كبرى في تلقيه استجابة عصبيته، وبالتالي عرف بن تومرت كيف يستغل الإطار التفاعلي والتواصلي الذي تندرج فيه الأبعاد الزمانية والمكانية، أي الجو النفسي للمتلقيين، إضافة إلى العلاقة الرابطة بين العناصر الثلاثة، صاحب الخطاب والمتلقي والسلطة القائمة.

هذا ولم يخل خطابه المعني بالدراسة من مميزات الخطاب الديني إلى جانب الخطاب السياسي، إذ تبين أنه توفرت فيه شروط الخطابين، فمن مميزات الخطاب الديني أن له أصول عقائدية وقواعد تشريعية، ويتسم بالثبات والموضوعية والمبدئية، وواضح الغايات والمقاصد، لأن ابن تومرت استوحى ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حتى يكسب خطابه قوة ومصداقية، كما دعا في خطابه إلى تجديد لفهم تعاليم الإسلام وليس تجديد لأمر الدين كله[٢].

ويظهر المغزى والهدف السياسي أكثر في خطابه لما تعرض للواقع الاجتماعي والديني والمالي المجتمع المرابطي، مشيرا إلى السياسة المنهجية في ذلك من قبل السلطة، ولا يتسنى تداول الواقع المعاش إلا في مثل هذا النوع من الخطاب[٣].

هذا وقد احتوى خطاب ابن تومرت الثنائية المتعارضة كالحق والباطل والخير والشر كقوله: «... تعاونكم على إظهار الحق واجتماعكم على إخماد الباطل

---

(١) المرجع نفسه، ٣٣.

(2) Coicaud, Jean-Marc, *Legitimacy and Polities: A Contribution to the Study of Political Right and Political Responsibility,* edited and translated by David Ames Curtis Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2002, p.126.

(3) Goldziher, Ignaz, *Mohammed Ibn Toumert et la théologie de l'Islam, dans le nord de l'Afrique au XIe sécles,* Alger: imprimerie orientale Pierre Fontana, 1903, p.57.

والضلال»(١)، وقوله: «... فجمعوا بينهم المودة والرحمة، وجعلوا بينهم وبين عدوهم الشدة والغلظة»(٢) وهذا لأنه كان يرى أن خلاص الأمة الإسلامية لا تكون إلا بالعمل السياسي المعتمد على مراجعة إيديولوجية جذرية بالعودة إلى مصادر الإسلام الصحيحة(٣).

ولم يخل خطابه كذلك من الدلالات اللغوية، وثرائه بتعابير اليقين بالنصر والجزاء الحسن عند الله عز وجل كقوله في ختام خطابه: «واعلموا أن الله لا يخلف وعده، ولا بد أن ينصر الحق كما وعد، ويبطل الباطل كما وعد، فخذوا حظكم من الجهاد على الحق ونصره، فحزب الله هم الغالبون ...»(٤) وبذلك ربط العديد من العناصر اللغوية بالعوامل الخارجية(٥).

وبناء على ما تقدم، هل جاز لنا طرح السؤال التالي: هل المهدي بن تومرت طالب ملك اتخذ من الدين وسيلة؟

كان وقوف الفقيه إلى جانب السلطان بغية ترشيده ومنعه من الزيغ قاعدة شبه ثابتة في تاريخ الدولة الإسلامية، ولأن الثاني لم يشأ أن يتجاوز دور الأول حدود منح التزكية المطلوبة، والبحث عن مسوغات وتبريرات مشروعة لتصرفاته(٦)،

---

(١) مأخوذ من الخطاب، رسائل موحدية، ١: ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ٤٧.

(٣) محمد زنيبر: المرجع السابق، ١٤٤.

(٤) مأخوذ من الخطاب، رسائل موحدية، ١: ٤٩.

(٥) خلص بنفيست في إطار دراسة شروط إنتاج الخطاب وفهم آليات توظيف اللغة إلى نظرية المقاربة التلفيظية في الخطاب.

CHAROLLES M., *Combettes B, «Contribution pour une histoire recente d'analyse de discours»,* in «Lanbgure francaise» N 121, Feyrier, Larousse, 1999.

(٦) سعيد بنسعيد: الخطاب الأشعري، مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، بيروت ـ دار المنتخب العربي ١٩٩٢م، ٢٦٠.

ارتأى الفقيه تأسيس سلطة علمية منافسة للسلطة السياسية التي استأثر بها الحاكم[١]، مستغلا ممارسة السياسة بواسطة مفاهيم دينية[٢]، فقام «بإعادة تأصيل المفاهيم الشرعية وتوحيدها وتقنين وتحديد فهم مقاصدها»[٣] ومع ذلك لم يستطع تبوأ وظيفة سياسية في شكل سلطة قيادية محورية، بل كانت النتيجة اكتفاء باستتباع صاحب السلطة السياسية لصاحب السلطة العلمية[٤].

تجربة الفقيه في الإطار السياسي الآنفة الذكر، ما كان المهدي بن تومرت ليرضى بها على نفسه، ويكتفي بالتوجيه الفقهي والإرشاد للسلطان، لهذا لم يكتف بالوعظ المجمل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل رأى من الضروري الربط بين الجانب المعرفي والواقع والجانب النظري والعلمي[٥]. فرغبته لم تتوقف عند تحصيل العلم بل كانت ترمي إلى تجديد الاسلام، الأمر الذي حتم عليه الالتزام الفكري والالتزام السياسي[٦].

وهو الأمر الذي عبر عنه ابن خلدون بقوله: «وأفاد علما واسعا، وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده»[٧] لهذا اجتهد منذ البداية بالبحث عن منهاج سياسي، فكان طول مقامه بملالة يوحي بفكرة العمل السياسي؛ إذ أطال بها

---

(١) لخضر بولطيف: الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي، الجزائر ـ منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ٢٠٠٥، ١٨.

(٢) محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٥م، ٥٧.

(٣) عبد المجيد الصغير: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، بيروت ـ دار المنتخب العربي ١٩٩٤م، ١٥٤.

(٤) لخضر بولطيف: المرجع السابق، ١٩.

(٥) محمد زنيبر: المرجع السابق، ١٥٩.

(٦) المرجع نفسه، ١٤٩.

(٧) ابن خلدون: المصدر السابق، ٢٥٠٠.

الوعظ والإصلاح، وهنالك التقى الرجال وتخير منهم الأكفاء، يعول عليهم في مشروعه الديني والسياسي[١].

هذا وعمل على استكمال معالم مشروعه السياسي أساسه وجوب الإمامة، مرتكزة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعنها قال: «ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب قيام الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة»[٢]، ويعطيها المغزى السياسي بقوله: «معنها الإتباع والاقتداء»، والسمع والطاعة والتسليم والامتثال الأمر واجتناب النهي، والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير»[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن الخطاب المعني بالدراسة لم يكن إلا بعد إعلانه للمهدوية، واعتبرت هذه الأخيرة وسيلة هامة في التعبير عن المعارضة السياسية للنظام القائم[٤]. مع أنه لم يتلقب بهذا اللقب صراحة في رسائله[٥].

الإشكال الذي يطرح في هذا الصدد، هل كان بالفعل يؤمن بمهدويته أم تبناها لضرورة سياسية؟ لا يستبعد أن يكون تبناها لهدف سياسي، خاصة وأن هذه الأخيرة ارتكزت في مضمونها الإيديولوجي على الثورة الشاملة ضد الوضع القائم، كما شكلت في العالم الإسلامي الطور النهائي لمعارضة سرية، بل التفجير الثوري المتجه نحو الاستيلاء على الحكم، وأن سلطتها مستمدة من إرادة الله[٦].

---

(١) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ١١١.

(٢) المهدي بن تومرت: المصدر السابق، ٢٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ١٣٢.

(٤) محمد زنيبر: المرجع السابق، ١٣٢.

(٥) عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ٢٤٤.

(٦) محمد زنيبر: المرجع السابق، ١٥٨ ـ ١٥٩.

لهذا شمل خطابه الدعوة إلى الإصلاح الديني والدنيوي ، وأوضح أنه لا يتسنى ذلك إلا بالجهاد وإسقاط النظام القائم ، وبالتالي بدأ حركته بالوعظ ثم تحول رسميًا إلى زعيم حركة دينية سياسية منظمة .

ويكون بهذا خرج عن النظرية والقاعدة الذي أثبتها عالم الاجتماع ابن خلدون «في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها»[1] ؛ وأوضح السبب في ذلك ، فطريقة التفكير ومعالجة الوضع تختلف بين العالم والسياسي ، فالعلماء «معتادون على النظر الفكري والغوص على المعاني ... ليحكم عليها بأمر على العموم ، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ... ويقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها ، بما اعتادوه من القياس الفقهي ، فما تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن .... والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية ...»[2] ، وعليه لما نتتبع السير العلمي والفكري وربطه بواقع المغرب المرابطي نجده جمع بين وظيفة الرجلين معا .

وبناء على ما تقدم نخلص إلى أن :

ـ استطاع المهدي بن تومرت أن يقدم في خطابه لأتباعه على أن النظام المرابطي جهاز متسلط ومستغل وفاسد في الجانب الديني والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي ، فلقي تجاوب من أغلبية ناقمة على الحكم المرابطي ، وكان الجانب الاجتماعي أكثر من غيره في إكساب الثورة الموحدية عمقها وفعاليتها .

ـ اتبع أسلوبًا مبنيًا على التدرج في الدعوة الدينية ثم السياسية بعيدًا عن التهور والارتجال ، فوصل إلى مبتغاه السياسي دون التصريح به علنا ، مع البقاء ظاهريًا في

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ١: ٤٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ٤٥١.

الميدان العلمي الديني. فتمكن عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على خلق تيار جديد في المجتمع ينشد التغيير.

ـ قام مشروعه على دعائم سياسية المجملة في المضمون العقدي، الذي تستلهم منه الثورة كافة مقوماتها، ومضمون منهجي يرسم الطريق الذي تصاغ به الأحكام الشرعية في مختلف جوانب الحياة، ومضمون سياسي واجتماعي يبين الطريق الذي تطبق به تلك الأحكام في المجتمع.

ـ حمل خطابه مجموعة من المعايير الاجتماعية والأخلاقية، فالأمر والنهي والوعد وغيرها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن أن تصدر دون الخضوع لمعايير حددتها الأخلاق والقيم الاجتماعية والدينية والثقافية.

ـ تتلخص قدرته ونجاحه في عملية التبليغ باستعماله السوي لقدراته الخطابية، واكتسابه أدوات ووسائل كلامية والتحكم فيه، إضافة إلى قواعد اختيار السياق اللفظي، وتكيفيها مع الواقع بتوظيفه ما توفر له من إيديولوجية والثقافة من عناصر السلطة والقوة.

ـ شذ المهدي بن تومرت عن القاعدة؛ إذ انتقل من العلم إلى العمل فخالف علماء عصره في أن يكون عونًا للسلطة أو عالمًا منعزلًا مغمورًا بين العامة.

ـ ويكفينا دليلًا على أن ابن تومرت ذو طموح سياسي بالدرجة الأولى أكثر منه مذهبي، وهو فرض التوحيد أو علم الكلام على عامة الناس، لأن هذا الأخير هو المجال الذي يلتقي فيه الدين بالسياسة، وهو الطريق الذي يدخل منه العوام إلى السياسة والاشتغال بها، وهو الأمر الذي رفضه ابن رشد.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمّد الشّيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) :

١ـ الكامل في التّاريخ، تحقيق : د. مُحمّد يُوسُف الدقاق، بَيْرُوت : دار الكتب العِلْمِيّة، ١٩٩٨م.

الإِدْرِيسي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد الحسني السّبتي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م) :

٢ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق : د. محمّد حاج صادق، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعيّة، ١٩٨٣م.

البَيْذق، أبو بكر بن علي الصّنهاجي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) :

٣ـ أخبار المهدي بن تُوْمَرْت، تحقيق : د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر : المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ١٩٨٦م.

ابن تُوْمَرْت، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الهرغي السّوسي (ت ٥٢٤هـ/١١٣٠م) :

٤ـ أعزّ ما يُطلب، تحقيق : د. عمّار طالبي، الجزائر : المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ١٩٨٥م.

٥ـ الرّسالة المنظّمة، تحقيق : د. عمّار طالبي ؛ نشرها مع رسالة ثانية لعبد المؤمن بعنوان : «رسالتان موحّديّتان»، ضمن أعمال المؤتمر الأوّل لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ديسمبر ١٩٧٤، تونس : الجامعة التّونسيّة، ١٩٧٩م.

ابن حَزْم، أبو مُحمّد علي بن أَحْمَدُ (ت ت٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) :

٦ـ رسائل ابن حَزْم الأَنْدَلُسي، تَحْقِيق : د. إِحْسَان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بَيْرُوت ١٩٨٠م.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرّحمن بن محمّد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) :

١ـ كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، بَيْرُوت : دار الكتب العلميّة، ١٩٩٢م.

٢ـ المقدّمة، تحقيق : د. درويش الجويدي، بَيْرُوت : المكتبة العصريّة، ١٩٩٥م.

ابن خَلِّكَان، أبو العبّاس أحمد بن محمّد البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

٣ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق : د. إحسان عبّاس، بَيْرُوت : دار صادر، ١٩٧٨ـ٧٧م.

ابن دِحْيَة، أبو الخطّاب عمر بن حسن الكلبي السّبتي (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م):

٤ـ المُطْرِب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: د. إبراهيم الأبياري وآخران، بَيْرُوت: دار العلم للجميع، ١٩٥٥م.

الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أَحْمَدُ بن عُثْمَان:

٧ـ سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ.

ابن رُشْد، أبو الوليد مُحَمَّد بن أَحْمَدُ (ت٥٨٤هـ/١١٨٩م):

٨ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تَحْقِيق: مُحَمَّد عمارة، دار المعارف، الْقَاهِرَة، ١٩٨٩م.

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (حي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م):

٩ـ الأنيس المُطْرِب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: د. عبد الوهّاب بن منصور، الرِّبَاط: دار المنصور، ١٩٧٣م.

ابن سَعِيد، علي بن مُوْسَى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):

١٠ـ المُغْرِب في حلي المَغْرِب، تحقيق: د. شوقي ضيف، الْقَاهِرَة: دار المعارف، ، ١٩٩٥م.

الشّاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللّخمي الغرناطي (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م):

١١ـ الاعتصام، نشر: أحمد عبد الشّافي، بَيْرُوت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٥م.

الطّرطوشي، أبو بكر محمّد بن الوليد القرشي الفهري (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م):

١٢ـ كتاب الحوادث والبدع، تحقيق: د. علي بن حسن الحلبي، الرّياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٦م.

ابن عبد البرّ، أبو عمر يوسف بن عبد الله النّمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م):

١٣ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، بَيْرُوت: دار الكتب العلميّة، ١٩٧٨م.

ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمّد بن محمّد المرّاكشي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م):

١٤ـ الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة: السّفر الأوّل، تحقيق: د. محمدّ بن شريفة، بَيْرُوت: دار الثّقافة، د.ت.، جزءان.

عَبْدِ الوَاحِدِ المَرّاكُشي، أبو محمّد بن علي التّميمي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م):

١٥ـ المُعْجِب فِي تَلْخِيصِ أَخْبَارِ المَغْرِب، تحقيق: د.محمّد زينهم محمّد عزب، طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٩٤م.

ابن عبدون، أبو عبد الله محمّد بن أحمد التّجيبي الإشبيلي (ق ٦ هـ/١٢م):
١٦- رسالة في القضاء والحسبة، القَاهِرَة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار، ١٩٥٥م.
ابن عِذَارِي، أبو العبّاس أحمد بن محمّد المَرّاكُشي (حي سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م):
١٧- البيَان المُغْرِب في أخبار الأَنْدَلُس والمَغْرِب:
أ - الأجزاء الثّلاثة الأولى، تحقيق: كولان وبروفنسال، بَيْرُوت: دار الثّقافة، ١٩٨٣.
ب - الجزء الرّابع: قسم المرابطين، تحقيق: د. إحسان عبّاس، بَيْرُوت: دار الثّقافة، ١٩٨٣.
ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م):
١٨- العواصم من القواصم، تحقيق: د. عمّار طالبي، الجزائر: الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ١٩٨١م.
ابن العريف، أَحْمَدُ بن مُحَمَّد بن مُوْسَى بن عطاء الله الصنهاجي، (ت ٥٣٦هـ/ ١١٤١م):
١٩- مفتاح السعادة وتَحْقِيق طريق السعادة، تحقيق: د. عصمت عبد اللطيف دندش، بَيْرُوت: دار الغرب الإِسْلامي، ١٩٩٣م.
ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الصّالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):
٢٠- شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، بَيْرُوت: دار الآفاق الجديدة، د.ت.
ابن القطّان، أبو محمّد حسن بن علي الكتامي (حي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م):
٢١- نظم الجُمَانْ في أخبار الزَّمَان، تحقيق: د. محمود علي مكّي، بَيْرُوت: دار الغرب الإِسْلامي، ١٩٩٠م.
الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (ت ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م):
٢٢- التنبيه على سبيل السعادة، تحقيق: جعفر آل ياسين، دار المناهل، بَيْرُوت، ١٩٩٢م.
ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التّميمي الدِمَشْقي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م):
٢٣- ذيل تاريخ دِمَشْق، تحقيق: د. سهيل زكّار، دِمَشْق: دار حسّان، ١٩٨٣م.
مجهول (حي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م):
٢٤- الحلل الموشّية في ذكر الأخبار المَرّاكُشية، تحقيق: د. سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، الدّار البيضاء: دار الرّشاد الحديثة، ١٩٧٩م.

ثانيًا : المراجع العربية

علي ، الإدريسي :

٢٥ـ موقع حركة الموحدين الأولى في الصراع المذهبي ، ضمن كتاب ، الصراع المَذْهَبي ببلاد المَغْرِب ، تنسيق : د. حسن حافظي علوي (تنسيق) الرِّبَاط : منشورات كلِّيَة الآدَاب ، ٢٠٠٩م .

إسماعيل ، محمود :

٢٦ـ سوسيولوجيا الفكر الإسْلامي ، الخلفيّة السّوسيو ـ تاريخيّة ، الْقَاهِرَة : سينا للنّشر ، ١٩٩٢.

٢٧ـ فكرة التّاريخ بين الإسلام والماركسيّة ، الْقَاهِرَة : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٨.

بولطيف ، لخضر :

٢٨ـ فُقَهَاء المالِكيَّة والتّجربة السِّيَاسِية الموحّديّة في الْغَرْب الإِسْلامي ، فيرجينيا : منشورات المعهد العالمي للفكر الإِسْلامي ، ٢٠٠٩م .

بوتشيش ، إبراهيم القادري :

٢٩ـ إضاءات حول تراث الْغَرْب الإِسْلامي وتاريخه الاقتصادي والاجْتِمَاعِي ، بَيْرُوت : دار الطليعة ، ٢٠٠٢م .

الحداد ، حميد :

٣٠ـ السلطة والعنف في الغرب الإسلامي ، دِمشق : محاكاة للدراسات والنشر ، ٢٠١١م .

عبد الحميد ، سعد زغلول :

٣١ـ محمّد بن تُوْمَرْت وحركة التّجديد في المغرب والأَنْدَلُس ، بَيْرُوت : دار الأحد ، ١٩٧٣.

علاّم ، عبد الله علي :

٣٢ـ الدّعوة الموحّديّة بالمغرب ، الْقَاهِرَة : دار المعرفة ، ١٩٦٤م .

٣٣ـ الدَّوْلَة الموحّديّة في عهد عبد المؤمن بن علي ، الْقَاهِرَة : دار المعارف ، ١٩٧١.

فتحة ، محمد :

٣٤ـ الموحدون والمالكية ، ضمن كتاب ، الصراع المَذْهَبي ببلاد المَغْرِب ، تنسيق : د. حسن حافظي علوي ، الرِّبَاط : منشورات كلِّيَة الآدَاب ، ٢٠٠٩م .

المغراوي ، محمد :

٣٥ـ الموحدون والمذهب الظاهري ، ضمن كتاب ، الصراع المَذْهَبي ببلاد المَغْرِب ، تنسيق : د. حسن حافظي علوي ، الرِّبَاط : منشورات كلِّيَة الآدَاب ، ٢٠٠٩م .

ثالثًا : المراجع المعرّبة :

بالنثيا ، آنخل جنثالث :

٣٦ـ تاريخ الفكر الأَنْدَلُسي ، ترجمة : د. حسين مؤنس ، الْقَاهِرَة : مكتبة الثّقافة الدّينيّة ، ١٩٥٥.

بروكلمان ، كارل :

٣٧ـ تاريخ الشّعوب الإِسْلامية ، ترجمة : د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبّكي ، بَيْرُوت : دار العلم للملايين ، ١٩٨١.

جوليان ، شارل أندري :

٣٨ـ تاريخ إفريقيا الشّماليّة ، ترجمة : د. محمّد مزالي والبشير بن سلامة ، تونس : الدّار التّونسيّة للنّشر ، ١٩٨٣م .

رابعًا : الدوريّات والمؤتمرات .

زناتي ، أنور محمود :

٣٩ـ التوظيف السياسي للأَخلاق في الصّراع المُرَابِطي ـ المُوَحِّدي (٥١٤ ـ ٥٢٤هـ/١١٢٠م ـ ١١٣٠م) ، مؤتمر السياسي في بلاد الإسلام : الفكر ، الأنماط ، الأماكن في الفترة من ٨ـ١٠ أكتوبر ٢٠١٥م ، مخبر النخب والمعارف والمؤسسات الثقافية في المتوسط في كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة ، تونس ، ٢٠١٥م .

حمادي ، عمر :

٤٠ـ «حول مرور ابن تُوْمَرْت بالأَنْدَلُس في طريقه إلى المشرق» ، تونس : مجلّة دراسات أندلسيّة ، العدد ٦ ، ١٩٩١م .

الجراري ، عباس :

٤١ـ «الموحدون ـ ثورة سياسيّة ومذهبيّة» ـ الرِّبَاط : مجلّة المناهل ، العدد ١ ، ١٩٧٤م .

المريني ، عبد الحق :

٤٢ـ هل ابن تومرت صاحب إصلاح ودعوة أم طالب ملك ودولة ؟ مجلة التاريخ العربي ، العدد ٦٢ ، الرِّبَاط : ٢٠١٣م .

خامسًا : الرسائل العلمية :

٤٣ـ دور الفقهاء في الأندلس خلال عصر المرابطين ، رسالة دكتوراه ، كلية البنات للآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠١٤م .

سادسًا : المراجع الأجنبية :

AYOOB, MOHAMMED:

44- *The Many Faces of Political Islam: Religion and Politics in the Muslim World,* Singapore: NUS Press, 2008.

BASSET, HENRI:

45- *Ibn toumert, Chef d'Etat,* Paris, 1925.

COICAUD, JEAN-MARC:

46- Legitimacy and Polities: *A Contribution to the Study of Political Right and Political Responsibility,* edited and translated by David Ames Curtis (Cambridge, UK: Cambridge University Press), 2002.

COAKLEY, MATHEW:

47- *On the Value of Political Legitimacy «Polities Philosophy Economics»,* vol. 10, no.4, November 2011.

GOLDZIHER, IGNAZ:

48- *Mohammed Ibn Toumert et la théologie de l'Islam, dans le nord de l'Afrique au XIe sécles,* Alger: imprimerie orientale Pierre Fontana, 1903.

NIKOS KOKOSALALIS:

49- *Legitimation Power and Religion in Modern Society,* Sociological Analysis, vol.46, no.4 ,1985.

MERQUIOR, JOSE:

50- Rousseau and Weber: *Two Studies in the Theory of Legitimacy,* London; Boston; Henley : Routledge and Kegan Paul, 1980.

PIERSON, CHRISTOPHER:

51- *The Modern State.* London; New York: Routledge, 2004.

URVOY, DOMINIQUE:

52- *La pensee d'Ibn Tumart,* B. E. O, XXVII, 1974.

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ١٧٩ ـ ٢٠٤

السُّلْطَةُ والدِّينُ في العَصْرِ المَرِينِي بالمَغْرِبِ الأقْصَى
(٦٦٨-٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٤م)

داليا عبد الهادي طلبة

نجح المَرِينِيُّون[١] في تأسيس دولتهم (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) بالمغرب بالأقصى على أنقاض المُوَحِّدين. تلك الدولة التي لم تستند إلى فكر ديني كسابقتيها المرابطية والموحدية، كما لم تكن تعتمد على نسب ديني مثل دولة الأشراف الأدارسة ولم تدعه مثل بني عبد الواد، ولم تدع الخلافة مثل الدولة الحفصية، واعتمدت على قوتها العسكرية وكان شعارها رعاية مصالح الناس في بلاد المغرب وتحقيق الأمن والأمان لهم بعد أن فشل الموحدون في تحقيقهم في أواخر دولتهم، لذلك تحمل

---

(١) بنو مرين بفتح الميم وكسر الراء من أقوى بيوتات زنانة تعددت منازلهم قبل دخولهم المغرب الأقصى بين إفريقية والزاب وسجلماسة. وقد ساعدوا الموحدين على تأسيس دولتهم واشتركوا معهم في المعارك التي خاضوها في بلاد المغرب والأندلس، وبعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب (٦٠٩هـ/١٢١٢م) انتقلوا إلى المغرب الأقصى عام ٦١٠هـ/١٢١٣م تحت قيادة عبد الحق بن محيو، ونجحوا في نشر الأمن و الأمان وشرعوا في تقليص نفوذ الموحدين في المغرب ودخلوا معهم في معارك كبيرة حتى قضوا عليهم وأسسوا دولتهم (٦٦٨هـ/١٢٦٩م). ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت، الدار البيضاء ـ دار الثقافة ١٩٨٥م، ٢٦٦، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، الرباط ـ المطبعة الملكية ١٩٩٩م، ٣٦٤-٣٧٥؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغرا، الجزائر ـ الشركة الوطنية ١٩٨١م، مجهول: جمع تواريخ مدينة فاس، بالرم ـ مطبعة برنارد وبرزي ١٨٧٨م، ٤٨؛ محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي في العصر المريني، الكويت ـ دار القلم ١٩٨٧م، ٧ـ ١٠.

المرينيون عبء الإصلاح وتحقيق الاستقرار، وفي هذا الشأن يروي ابن عذاري أنه بقيام بني مرين «صلحت ببلاد المغرب الأحوال وتهذبت من الفتن والأهوال»[١]، حيث انتقلت الدولة من البداوة إلى الحضارة ونصبت نفسها لإقرار الأمن ونشر العلم[٢]، وحققوا ازدهارًا في شتى المجالات العسكرية والاقتصادية والحضارية؛ فإلى المرينيين ترجع معظم التقاليد المغربية والحضارية[٣].

ومن أجل استمرار الدولة استغلت الدين بشكل آخر حيث قامت باللعب مع تيارين هما الفقهاء والمتصوفة فعملت على ضمهما لصفها واستخدامهما أداة لفرض سياستها لما لهما من تقدير واحترام لدى الناس، ودور فعال في تشكيل الرأي العام في تلك الفترة؛ لذا كانت للدولة المرينية سياستها مع كل تيار.

المرينيون والفقهاء

كان للفقهاء مكانة كبرى ودور مؤثر في حياة المجتمعات الإسلامية؛ فهم حفظة كتاب الله ـ عز وجل ـ والعالمون بأمور الدين، والمنوط بهم أمور الإفتاء ومراقبة تنفيذ الأمور الشرعية في نواحي الحياة المختلفة، إضافة إلى إسهاماتهم في الحياة الفكرية، لذلك كان للفقهاء سلطة قوية على كافة طبقات المجتمع في العالم الإسلامي بشكل عام، وعلى المغرب بشكل خاص. وقد فهم المرينيون تلك

---

(١) البيان المغرب (قسم الموحدين)، ٤٠٦.

(٢) محمد الفاسي: التعريف بالمغرب، ٤٦، دراسات مغربية من وحي البينة، عيون المقالات، الدار البيضاء،، ١٩٩٩، ٤٧؛ الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، ٩؛ انطونيو توروموكا سلفا: بنو نصر في غرناطة وبنو مرين في المغرب، ترجمة إسحاق عبيد (ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ٨٠-٨٧، ٨٤.

(٣) الفاسي: دراسات مغربية، ١١؛ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب، الإسكندرية ـ مؤسسة شباب الجامعة ٢٠٠٠م، ٢١٤؛ انطونيو توروموكا سلفا: المرجع السابق، ٨٤.

الحقيقة لذلك عملوا على استيعاب الفقهاء بشتى الطرق والوسائل تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، وأخرى بالعقاب.

فقد عملت الدولة المرينية منذ قيامها على أن يستعيد المذهب المالكي ـ وهو المذهب السائد لدى المغاربة ـ مكانته التي كان عليها قبل الموحدين، وأبدى سلاطين بني مرين مظاهر الحفاوة والتكريم لفقهائه أحياءً وأمواتًا فعلى سبيل المثال قام السلطان أبو عنان (٧٥٢ـ٧٥٩هـ/ ١٣٥١ـ١٣٥٨م)[١] بتجديد ضريح دارس بن إسماعيل (ت٣٥٧هـ/ ٩٦٧م)، وهو من أوائل من أدخلوا المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى[٢].

كذلك عمل السلاطين المرينيون على تقديم الفقهاء في مجالسهم[٣]، ومن الفقهاء الذين كانوا في مجالس السلاطين الفقيه أبو عبد الله الرندي (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)[٤]، والفقيه محمد بن عبد الله الندرومي (ت ٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[٥]،

---

(١) أبو عنان المتوكل على الله فارس أخر ملوك بني مرين العظام، استعاد نفوذ بني مرين في المغرب الأوسط وأسس عديدًا من المباني، قتله وزيره الحسن بن عمر الفودودي. عنه انظر: ابن الأحمر: أعلام المغرب والأندلس وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمي الزمان تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٦م، ٦٩-٧٠؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس ـ المكتبة العتيقة ١٩٦٦م، ٨٢-٩٠.

(٢) الكتاني سلوه الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبدالله الكامل الكتاني وآخرين، الدار البيضاء ـ دار الثقافة ٢٠٠٤، ٢: ١٩٨.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ٤٠٢، ٤٠٧

(٤) أبو عبد الله الرندي من أهل فاس، كان حافظًا للمذهب، قائمًا به إمامًا في العربية لازم السلطان أبي الحسن المريني حتى فتح تلمسان وتوفى في وباء عام (٧٤٠ه/١٣٣٩م). ابن مرزوق: المصدر السابق، ٢٦١، وذكر ابن القاضي أن وفاته كانت عام (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) جذوة الاقتباس، الرباط ـ دار المنصور للطباعة ١٩٧٣، ١: ٢٢٨.

(٥) محمد بن عبد الله بن عبد النور الندرومي أبو عبد الله الفقيه قاضي فاس وقاضي عسكر أبي الحسن المريني. قال عنه ابن خلدون أنه كان مبرزًا في الفقه على مذهب مالك، تفقه بالأخوين ابني الإمام، ولما=

والفقيه محمد بن على بن الرزاق الجزولي (ت ٧٥٨هـ/١٣٥٧)[١]، والفقيه محمد بن محمد الفشتالي (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م)[٢]، كما حرص عدد من السلاطين المرينيين على اصطحاب الفقهاء معهم في الحملات والحروب[٣]، كما فعل السلطان أبو الحسن المريني[٤] الذي اصطحب عدد من الفقهاء في حملاته الحربية إلى تِلِمْسَان[٥] منهم محمد الرندي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) وحملته إلى

=فتح أبو الحسن تلمسان، ورفع منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى، وكان يستكثر من العلماء ويعمر بهم في مجلسه، طلب منهما أن يختارا له من أصحابهما من ينطقه في فقهاء مجلسه، فأشار عليه بابن عبد النور هذا فأدناه وولاه قضاء العسكر، وتوفى في وباء (٧٤٩هـ/١٣٤٨م). ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، بيروت ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩م، ٤٦ـ٤٧؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١: ٣٠١؛ التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشره عبد المجيد عبد الله، طرابلس ـ منشورات كلية الدعوة الإسلامية ١٩٨٥، ٤١٩.

(١) محمد بن علي بن الرزاق الجزولي نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، ورحل إلى تونس فلقى القاضين ابن عبد الرفيع وأبا عبد الله النفزاوي وطبقتهما، أخذ عنهم وتفقه عليهم، ورجع إلى المغرب ولازم أكابر المشايخ إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن المريني قضاء فاس، وظل به حتى عزله بالفقيه المقري، ثم لما جمع شيوخ العلم لتحقيق بمجسه والإفادة منه استدعاه معهم فلم يزل كذلك حتى وفاته. ابن الأحمر: نثير الجمان، ٣٥٥ـ٣٥٦؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ٦٨؛ التنبكتي: المصدر السابق، ٤١٩.

(٢) محمد بن محمد الفشتالي كان مفرط في الوقار قدمه أبو عنان بحضرته واختصه واشتمل عليه وعرف حقه. ابن القاضي: المصدر السابق، ١: ٢٣٤؛ ابن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه عبد المجيد خيالي، بيروت ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ١ـ ٢٣٩.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ٤٣٣.

(٤) أبو الحسن علي بن يعقوب المريني له جهود عسكرية كبرى في المغرب الأوسط والأندلس واهتم بالعلوم والآداب وله عديدًا من المنشآت الدينية والعسكرية والعلمية عنه انظر: ـ ابن مرزوق: المصدر السابق، ٩٢، ٥٠٠، ابن الأحمر: نثير الجمان، ٦٧ـ٦٨، المقري: نفح الطبيب، تحقيق مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ٨: ٣٤٨، مجهول: تواريخ فاس، ٥١ـ ٥٢.

(٥) قام السلطان أبو الحسن بعدد من الحملات الحربية على تلمسان بالمغرب الأوسط في إطار سياسيته التوسعية بدأت بحملته عام (٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، حتى فتحها عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م). الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ٨٩، الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، ١٢٢، ١١٣.

إفريقية (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) التي تعرض فيها أسطوله للغرق ومات فيها عدد كبير من الفقهاء[١] منهم الفقيه محمد السطي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)[٢]، والفقيه محمد ابن الصباغ الخزرجي[٣]. وكذلك فعل ابنه أبو عنان في حملته على بِجَاية[٤].

وقد عين المرينيون الفقهاء في المناصب الكبرى مثل: الكتابة، والحجابة والخراج، إضافة إلى تقليدهم القضاء والخطط الدينية وتعيينهم في وظائف التدريس، فمن الفقهاء من تولى الكتابة مثل الفقيه محمد بن سعود الخزاعي (ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)[٥] الذي عمل مع السلطان أبي عنان وابنه السعيد، وعمه

---

(١) كان السلطان أبو الحسن المريني في حملة حربية إلى إفريقية لاستعادة نفوذه بها، ثم حدثت تطورات في إفريقية بدأت تقضي على انتصاراته، كما تأزم الوضع في المغرب الأقصى، مما دفعه للعودة في أسطوله الذي يبلغ ستمائة سفينة، وقد تعرض هذا الأسطول لعاصفة شديدة حطمته، وغرق عدد كبير من العلماء والفقهاء الذين اصطحبهم معه، ونجا السلطان نفسه بأعجوبة. الزركشي: المصدر السابق ٨٩، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء ـ دار الكتاب ١٩٥٤م، ٣: ١٧٠- ١٧١؛ الحريري: المرجع السابق، ١٢٢-١٢٣.

(٢) محمد بن علي السطي أخذ عن الزوريلي وغيره، من فقهاء المذهب المالكي البارزين، وكانت له مكانة عند السلطان أبي الحسن المريني. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١: ٢٢٨.

(٣) محمد بن محمد بن الصباغ الخزرجي المكناسي الفقيه المحدث، كان مبرزا في المعقول والمنقول، اخذ العلوم عن مشيخة فاس. نفس المصدر، ١: ٣٠١.

(٤) النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد ابن شقرون، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م، ٢٥٢؛ بجاية: بالكسر وتخفيف الجيم مدينة على ساحل البحر المتوسط بين إفريقية والمغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ـ دار صادر ١٩٨٤م، ٢: ٣٣٩.

(٥) محمد بن سعود الخزاعي هو أبو الحسن على لقب بذي الوزارتين محمد بن المسعود الخزاعي التلمساني المولد الفاسي الوفاة من أعلام الفقهاء الفضلاء والأدباء، ولي القضاء في الأندلس ثم ارتحل إلى المغرب الأوسط حيث تولى الكتابة لبني زيان، وانتقل إلى المغرب الأقصى. ابن الأحمر: نثير الجمان، ٢٤٩-٢٥٢، ابن القاضي: المصدر السابق، ٢: ٤٨٩.

السلطان أبي سالم من بعده وتولى الكتابة وديوان العسكر[١]، والفقيه أحمد بن يحيى الخزرجي (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)[٢]، والفقيه محمد بن رضوان النجاري (ت٨٦٨هـ/١٤٦٤م)[٣]، ومن الفقهاء من تولى الحجابة مثل محمد بن عبد بن أبي عبد الله مدين(٧١٠هـ/١٣١٠)[٤]، كما تولى عدد من الفقهاء ولاية الخراج مثل محمد بن عبد الله بن أبي عبد الله مدين[٥]، كذلك هناك من أُرسل من الفقهاء بجانب عمله في سفارات باسم السلاطين مثل الفقيه إبراهيم التسولي التازي (ت بعد ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)[٦]، والفقيه محمد بن محمد الفشتالي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)، الذي تولى قضاء فاس وأُرسل إلى الأندلس في أكثر من سفارة[٧]، والفقيه القباب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)[٨]، الذي تولى القضاء والفتيا،

---

(١) ابن خلدون: التعريف ٤٤-٤٥.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنان الأنصاري الخزرجي ولد بمدينة مكناسة، وتولى الكتابة لأكثر من سلطان مريني منهم أبي عنان المريني، والسعيد بالله يحيى أبو بكر، والمستعين بالله أبو سالم، وأبو فارس عبد العزيز، والمستنصر بالله أبو العباس. ابن الأحمر: نثير الجمان، ٣١٤-٣١٥، ابن خلدون: المصدر السابق، ٤٦.

(٣) محمد بن يوسف بن رضوان النجاري تولى الكتابة، وكان من أهل فاس. ابن القاضي: المصدر السابق، ١: ٢٤٠.

(٤) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن مدين كان والده من المقربين لدى بني مرين، وعمل بالحجابة ورياسة الكتاب لدى عدد من سلاطين بني مرين حتى وفاته عام (٧١٠هـ/١٣١٠ م). ابن الأحمر: نثير الجمان، ٢٥٦-٢٥٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ٤٠.

(٥) ابن مرزوق: المسند ٣٧٧.

(٦) إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي، يكنى أبا سالم ويعرف أبي يحيى، من أهل تازا، كان مشاركًا في الفقه، متبحرًا فيه له تقاييد على المدونة، . ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، نشره محمد عبد الله عنان، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٧٥م، ١: ٣٧٢، ٣٧٣، ابن مخلوف: شجرة النور، ١: ٣١٦-٣١٧.

(٧) ابن القاضي: المصدر السابق، ١: ٢٣٤.

(٨) أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن المعروف بالقباب، اشتهر بالصلاح والزهد، وهو=

وكلف بسفارة إلى غرناطة من قبل السلطان أبي سالم المريني .

وأجزل السلاطين المرينيون للفقهاء العطايا والهدايا ، فعلى سبيل المثال يذكر ابن الأحمر أن الفقيه أبا عبد الله بن أبي مدين كانت «عطاياه من خمسين دينارًا ذهبًا ، إلى مائة مثلها ، إلى أكثر من ذلك»[١] .

كذلك اتجهت الدولة المرينية إلى إنشاء المدارس في خطوة منها لفرض الرقابة على التعليم وتسييسه ، فهي من جانب تراقب المواد التي تدرس وتعين الأساتذة وفق أهوائها ، ومن جانب أخر تضمن ولاء الخريجين وتعينهم في الوظائف المختلفة في الدولة مثل : القضاء ، والخطابة ، والإمامة ، والإفتاء في عاصمة الدولة وأقاليمها وبذلك تضمن الولاء التام لها وعدم الخروج عليها[٢] . فمن الجدير بالذكر أن القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي شهد أوسع عملية لبناء مدراس الدولة[٣] ؛ ففي فاس على سبيل المثال أنشئت المدرسة البيضاء ومدرسة الصهريج بعدوة الأندلسيين عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)[٤] ، ومدرسة العطارين عام (٧٢٣هـ/

=من أبرز علماء عصره ، وله فتاوي مشهورة نقلها عنه البرزلي والونشريسي . ابن قنفذ : أنس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي ، وأدولف فور ، الرباط ـ المركز الجامعي للبحث العلمي ١٩٦٥م ، ٣٧٢؛ الحضرمي السلسل العذب والمنهل الأحلي ، تحقيق محمد الفاسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج ١٠ ، مايو ١٩٦٤م ، ٨٥، التنبكتي : الابتهاج ، ١٠٢-١٠٣؛ ابن مخلوف : شجرة النور ، ١: ٣٣٨-٣٣٩.

(١) ابن الأحمر : نثير الجمان ، ٢٥٧.

(٢) محمد شقير ، تطور الدولة في المغرب (إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة في القرن ١٣ ق م إلى ٢٠م) ، الدار البيضاء ـ إفريقيا الشرق ٢٠٠٢م ، ١٨٢-١٨٣؛ TERRASSE, *Histore du Maroc,* Casablanca, 1952, p.53.

(٣) إبراهيم حركات : مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم القرن ٩/ ١٥، الدار البيضاء ـ دار الرشاد الحديثة ٢٠٠٠م ، ١: ٢٩.

(٤) السلاوي : الاستقصا ، ٣: ١١١، حركات : المرجع السابق ، ١: ٢٩، والذي بناهما السلطان أبو سعيد . ابن مرزوق : المسند ، ٤٠٥.

١٣٢٣م)[١]، والمدرسة المصباحية[٢] والمدرسة البوعنانية[٣]. كما أنشئت المدارس في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى مثل تَازَا[٤] ومَكْنَاس[٥] وأَسَفِي[٦] ومراكش التي تميزت مدرستها بحسن والوضع وإتقان الصنعة[٧].

ومن جانب أخر اتخذت الدولة المرينية إجراءات عقابية ضد من يخرج من الفقهاء على سياستها أو عن هوى سلاطينها، تنوعت بين العزل والسجن، والمصادرة والنفي والقتل.

فلقد كانت علاقة الدولة بالفقهاء متأرجحة وفق هواها وحسب مصالح السلطان وهذا ما لخصه ابن الخطيب عندما تحدث عن محنة الفقيه إبراهيم التسولي

---

(١) بناها السلطان أبو سعيد بإزاء جامع القرويين بفاس. السلاوي: الاستقصا، ٣: ١١٢.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق، ٤٠٦، وهي التي بناها أبو الحسن المريني، وتعرف بالمصباحية، نسبة لأبي الحسن مصباح أول من درس بها. (نفس المصدر والصفحة).

(٣) تلك المدرسة التي بناها السلطان أبو عنان المريني عام (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) وكانت تعد قمة الفن المريني ووصفت بالعجيبة، عنها انظر: ابن بطوطة: تحفة النظار ابن بطوطة: تحفة النظار في عجائب الأمصار، نشره طلال حرب، بيروت ـ دار الكتب العلمية ٦٨٣؛ الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ٣٢٥.

(٤) تَازَا مدينة قديمة أسسها الأفارقة تبعد عن فاس خمسين ميلًا وعن البحر المتوسط سبعة أميال، ويعتبرها الحميري الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره إحسان عباس، بيروت ـ مكتبة لبنان، ١٢٨.

(٥) مِكْنَاسَة أو مَكْنَاس بكسر أوله، وسكون ثانيه، ونون وبعد الألف سين مهملة مدينة في المغرب أسستها قبيلة مكناسة تقع في الطريق بين سلا وفاس وتبعد عن فاس أربعين ميلًا وتكثر بها الثمار وأكثرها الزيتون لذلك يطلق عليها مكناسة الزيتون. ياقوت: معجم البلدان، ٥: ١٨٠؛ الحميري: المصدر السابق، ٥٤٤.

(٦) بفتحين وكسر الفاء بلدة من بلاد المغرب الأقصى تطل على المحيط الأطلنطي. ياقوت: المصدر السابق، ١: ١٨٠.

(٧) ابن مرزوق: المصدر السابق، ٤٠٦؛ ابن بطوطة: المصدر السابق، ٦٨٣؛ الحريري: المرجع السابق، ٣٢٤-٣٢٥.

التازي، حيث ذكر أنه «امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسايل، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضايعًا، لا في راحة دينا، ولا في نصيب آخرة ..... هذه سنة الله فيمن خدم الملوك، ملتفتًا إلى ما يعطونه لا إلى ما يأخذونه من عمره وراحته»(١)، ومن ذلك النوع من الفقهاء الفقيه ابن مرزوق الخطيب (٧٨١هـ/ ١٣٧٩م)(٢) الذي كان قريبًا من السلطان أبي الحسن ثم ابنه السلطان أبي عنان الذي جعله في مجلسه يقرأ بين يديه، واستعمله في بعض المهام والسفارات، ثم سخط عليه في أعقاب ثورة أهل قُسَنطِينِية(٣)، وأمر بسجنه ومصادرة أمواله، وأمر بقتله ثم عفا عنه وأطلقه(٤)، وفي عهد السلطان أبي سالم قربه منه «وجعل زمام الأمور بيده»(٥)، ثم نقم عليه وسجنه، وأطلقه فرحل إلى المغرب الأوسط(٦).

كما كان هناك من عُزل من الفقهاء من منصبه لاتخاذه موقفًا يختلف عن موقف الدولة، فعلى سبيل المثال عزل السلطان أبو الحسن قاضي طنجة محمد بن المليق لاتخاذه موقفًا من الإمام الغزالي والمتصوفة مخالفًا لموقف الدولة التي كانت تميل إلى المتصوفة، وعندما غير هذا القاضي موقفه من الإمام الغزالي والمتصوفة أعاده مرة أخرى إلى منصبه(٧).

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار، ١: ٣٧٢.

(٢) محمد بن أحمد عبد الله بن مرزوق العجيسي التلمساني ينتمي لأسرة علمية، كان فقيهًا ومحدثًا ومن أشهر علماء زمانه وله عديد من المؤلفات. ابن الخطيب: الإحاطة، ٣: ١٠٣؛ المقري: نفح الطيب، ٧: ٢٢٢، ابن مخلوف: شجرة النور، ١: ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) قُسَنطِينِية بضم أوله، وفتح ثانيه ثم نون، وكسر الطاء، وياء مثناة، وهي قلعة كبيرة جدًا حصينة من حدود إفريقية. ياقوت: معجم البلدان، ٤: ٣٤٩.

(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١: ٢٢٦؛ المقري: المصدر السابق ٧: ٣٨٢.

(٥) ابن خلدون: التعريف، ٥٥.

(٦) نفس المصدر، ٥٠- ٥٦.

(٧) ابن مرزوق: المسند، ٣٠٧-٣٠٨.

كما عزل الفقيه المقري (الجد)[١] من القضاء بعد أن كان مقربًا من السلطان أبي عنان، ثم أرسله في سفارة إلى الأندلس فامتنع عن الرجوع، حتى تشفع له سلطان بني الأحمر، فعاد إلى فاس عاطلًا من الجراية والولاية على حد تعبير ابن خلدون، ثم زاد الأمر سوءًا حينما اقتيد إلى مجلس القضاء بشكل لا يليق حتى ينفذ فيه حكم القاضي، ثم عفا عنه السلطان بعد ذلك وولاه قضاء العسكر[٢]، ويبدو أن سبب محنة القاضي المقري أنه فعل من الأمور ما اعتبرها السلطان خروجًا عن الطاعة[٣].

كما قامت الدولة المرينية بنفي من خالفها من الفقهاء في بعض الأحيان مثلما فعل السلطان يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/ ١٢٥٨-١٢٨٦م) عندما نفي عددًا من الفقهاء عن مدينة فاس بعد أن علم أن الطلبة يريدون القيام عليه[٤]. ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى قتل من عارض الدولة من الفقهاء، فقد أمر السلطان أبو الربيع سليمان أبي عامر (٧٠٨-٧١٠هـ/ ١٣٠٨-١٣١٠م) بقتل حاجبه الفقيه عبد الله بن أبي مدين لتهمة ثبت براءته منها فيما بعد[٥]، كما قتل

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر التلمساني (المتوفى ٧٥٩هـ/١٣٥٧م) كان من أكابر العلماء عصره، فكان محققًا في التفسير واللغة والفقه والتاريخ والحديث كما كان شاعرًا، وله عديد من المؤلفات، أخذ العلم بتلمسان ثم انتقل إلى فاس واتصل بالسلطان أبي عنان، ولم يكن تأخذه في الحق لومة لائم، وهو الجد الأكبر للمقري صاحب نفح الطيب. ابن الخطيب: الإحاطة، ٢: ١٩١-٢٠٠؛ ابن خلدون: التعريف، ٥٩-٦٠، ١٥٤-١٦٤؛ التنبكتي: الابتهاج، ٤٢٠-٤٢٧؛ المقري: المصدر السابق، ٧: ١٩٥-٢٠٨.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ٦٣-٦٤؛ المقري: المصدر السابق، ٧: ٢٠٠-٢٠٦.

(٣) محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب، منشورات بكلية الآداب والعلوم، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ١٣٩.

(٤) البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد إعراب، الرباط - المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م، ١١١، الكتاني: السلوة، ٣: ١٧٨.

(٥) ابن القاضي: المصدر السابق، ٢: ٤٣٨.

أشياع السلطان أبي الحسن الفقيه محمد السلاوي لأمور يعتبها عليه السلطان[1]. وقُتل الفقيه محمد أبو عميرة (٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م) ضربًا السياط بناء على أمر السلطان أحمد بن سالم (٧٨٩-٧٩٦هـ/ ١٣٨٧-١٣٩٤م)[2].

ويبدو أن الدولة المرينية قد نجحت في تلك السياسية إلى حد بعيد في فترة قوتها، حيث لم يكن للمعارضة تيار كبير بين الفقهاء، فاختاروا في غالبيتهم مذهبًا توافقيًا يجمع بين الاندماج في توجهات الدولة، والعمل من مواقعهم على مراقبة أعمالها، ومحاولة تصحيح ما اعوج منها. بينما ظل جزء من هؤلاء الفقهاء يمثل تيار المعارضة، وظل يقاوم محاولات الدولة لإخضاع الفقهاء، وكانوا لا يخافون في الحق لومة لائم.

ويظهر النوع الأول من الفقهاء في موقفهم من بعض القضايا مثل الضرائب حيث عرض الونشريسي لأرائهم حولها، فيذكر أنهم اتفقوا على أن هذه الضرائب غير مقررة في الشرع، وهي بالرغم من ثقلها وعجز التجار عن دفعها مرة واحدة إلا أنهم حاولوا إيجاد المبرر لها حيث ذكروا أن صاحب المخزن (الدولة) بفرضه للضرائب كأنه يقول بلسان حاله إنك أيها المشتري قد اشتريت سلعة تربح فيها، وأنا أحميك بجيشي وسيفي من الأيدي العوادي؛ فأعطني نصيبًا أعطنى نصيبا من ذلك الربح، أقيم به سيوفًا تحميك»[3]، كما فرقوا بين الضرائب المفروضة على المشتري للتجارة وبين المشتري لغير ذلك، الذي كان في كثير من الأحيان تخفف عنه[4].

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ٦٢، فتحة النوازل، ١٣٩.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، ١: ٢٣٧.

(٣) الونشريسي: المعيار المعرب الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه محمد حجي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥، ٥: ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) نفس المصدر، والجزء، ٣٢٦.

وهناك عديد من الأمثلة التي توضح نجاح الدولة في استخدام الفقهاء لخدمة مصالحها وأحيانًا إجبارهم على إصدار الفتاوى التي تحقق أهدافها ومنها :

ـ استصدار السلطان أبو عنان فتوى من بعض الفقهاء بقتل السلطان أبي سعيد سلطان بني عبد الواد بعد أن قبض عليه باعتباره من أهل الحرابة(١) .

ـ استصدار السلطان أبو العباس أحمد المستنصر (٧٧٦ـ٧٨٦هـ/ ١٣٧٤ـ١٣٨٤م) فتوى من عدد من الفقهاء بقتل لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) بسبب بعض أقواله وكتاباته التي اعتبرت خروجًا عن العقيدة ومروقًا عن الدين ، ولم يكن ذلك في الحقيقة إلا لسبب سياسي بحت ، وهو أن التخلص من ابن الخطيب كان جزءًا من المصالحة بين السلطان المريني والسلطان محمد الخامس سلطان بني الأحمر في غرناطة(٢) .

كما استغلت الدولة موقف بعض الفقهاء من فئات معينة لتحقيق أغراضها مثل استخدامها لموقف الفقيه المقري الجد من مزاور(٣) الشرفاء (نقيب الأشراف) عندما

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، القاهرة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٧م ، ٧: ٢٨٨؛ السلاوي : الاستقصا ، ٣: ١٨٢ـ١٨٣. وكان السلطان أبو عنان قد قام بمهاجمة بني عبد الواد عام (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) لاسترجاع ما استولوا عليه من أملاك الدولة المرينية ، وانتصر عليهم وقبض على سلطانهم أبي سعيد. السلاوي : الاستقصا ، ٣: ١٨٢ـ١٨٣.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ٧: ٣٤٠؛ المقري : المصدر السابق ، ٧: ١٠٧.

(٣) مزاور كلمة تعني في العرف المغربي الابن البكر أو رئيس فرقة ثم تطورت واستعلمت بمعنى الحاجب ، ورئيس الجند ونقيب الأشراف (عبد الكبير الكتاني) : بيوتات فاس ، زهر الأس في بيوتات أصول فاس ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب بيوتات أهل فاس ، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني ، الدار البيضاء ـ مطبعة النجاح الجديدة ٢٠٠٢ ، ٢: ٩٠ هامش ١ ، للمحقق علي أحمد : من الاصطلاحات التاريخية والحضارية الأندلسية والمغربية في العصور الوسطى ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٦٣ ، ٦٤ ، ١٩٩٨م ، ١٤١ـ ١٨١ ، ١٦٩.

اعتبر نسبه مظنون فيه ولو صح نسبه لأجلسه مكان السلطان، ويبدو أن هذا الكلام جاء موافقًا لهوى السلطان أبي عنان ومن بعده من السلاطين الذين بدأوا في اتخاذ إجراءات من شأنها أضعاف الأشراف ومنها المصادرات التي تعرض لها البعض وأحيانًا الحبس مستغلين الفقهاء في إصدار عدد من الفتاوى التي تتعلق بصحة نسب عدد من الأشراف، وإخراج عديد منهم من دائرة الشرف حتى يتخلصوا من معارضته لهم[١].

ومن النوع الثاني: وقف عدد من الفقهاء للسلاطين المرينين في كثير من الأمور، منها موقف الفقيه عبد العزيز القوري (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م)[٢] من الضرائب التي فرضها السلطان أبي الحسن المريني عندما طلب منه الخروج مع عامل الزكاة فقال له: «أما تستحي من الله تعالى؟ تأخذ لقبًا من ألقاب الشريعة، وتضعها على مغرم من المغارم!» مما أغضب السلطان وضربه بالسكين التي كان يحبسها في يده، على عادته وهي في غمدها، واضطر الوزير لإخراج الفقيه من المجلس اتقاء لغضب السلطان[٣]، كما اصدر بعض الفقهاء عدد من الفتاوى ضد السلاطين منها على سبيل المثال: اعتبر بعض الفقهاء السلاطين مدينين لبيت مال المسلمين لأنهم استولوا على أموال المسلمين وتصرفوا فيها وفقًا لأهوائهم وذلك في «أبنية الدور العالية والمراكب النفيسة والأطعمة الطيبة، وإعطاء الأصدقاء من الأموال وغير ذلك من التصرفات المنهي عنها شرعًا»[٤]، كما أفتى أبو راشد

---

(١) ابن خلدون: التعريف، ، ٦٦. وعن هذه القضايا انظر الونشريسي: المعيار، ٢: ٤٨٥.

(٢) أبو فارس عبد العزيز بن حمد القوري الفاسي، الفقيه العلامة أخذ عن أبي الحسن الصغير وأبي عمران العبدوسي وله تقييد على المدونة. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢: ٤٥١؛ ابن مخلوف: شجرة النور، ١: ٣١٨.

(٣) ابن قنفذ: أنس الفقير، ٢٤؛ التنبكتي: الابتهاج، ٢٧٠.

(٤) الونشريسي: المعيار، ٢٧: ٤٧٢.

الوليدي أحد فقهاء العصر في كتابه الحلال والحرام «أن أموال السلاطين في عصره كلها أو أكثرها حرام»[١]. وعلى هذا أيضا أفتى أبو الربيع سليمان الأنفاسي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)[٢] بأن أموال السلاطين ليست لهم، بل ملكًا لبيت مال المسلمين[٣]، كما أن هناك عديدًا من الفتاوى التي أبطلت ما حبسه السلاطين من أوقاف للسبب السالف الذكر.

ويبدو أن تيار المعارضة من قبل الفقهاء ظل يعلو خاصة في العصر المريني الثاني عندما بدأت الدولة في الضعف حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة بإصدار الفقيه القَوْري[٤] مفتي فاس فتوى بجواز الخروج على السلطان عبد الحق أخر سلاطين بني مرين تحت ضغط شعبي على خلفية ما حدث من وزيره اليهودي شاويل الذي استدعى امرأة شريفة من أهل فاس في قضية، وأغلظ عليها القول ثم أمر بضربها بالسياط، وكلما استغاثت برسول الله ﷺ زاد في ضربها[٥]. وعندما علم الناس بهذه الواقعة بادروا إلى خطيب جامع القرويين، الذي خرج إلى الشوارع صائحًا «من لا يقم لله فلا مروءة ولا دين» ثم أعقبه بقوله الجهاد

---

(١) راشد الوليدي: الحلال والحرام، تحقيق عبد الرحمن العمراني الإدريسي، الرباط ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٩٩٠م، ٣٠٦.

(٢) أبو الربيع سليمان بن عمر الأنفاسي كان من أكابر العلماء والفقهاء توفى عام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وهو ابن أبي الحجاج يوسف بن عمر الذي سيأتي ذكره. ابن مخلوف: المصدر السابق، ١: ٣٣٦.

(٣) الونشريسي: المصدر السابق، ٧: ٣٠٥ـ٣١٠.

(٤) وهو محمد بن قاسم القوري (المتوفى ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧م) كان مفتي فاس، وبحر في استحضار النوازل وعده الونشريسي من شيوخه عنه: التنبكتي: المصدر السابق، ٥٤٨، ٥٤٩.

(٥) عبد الباسط بن خليل: الروض الباسم: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، نشره برنشيفك *Deux Récits de Voyage Inédits en Afrique du Nord ou XV eLavoes Editurs,* Paris 1936, p.52-53؛ عبد الكبير الكتاني: بيوتات فاس، ٢: ١٨١؛ السلاوي: الاستقصا، ٤: ٩٩؛ الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، ١٨٦.

الجهاد»[١]، حتى اجتمع الناس واتجهوا إلى بيت محمد بن عمران الجوطي[٢] مزوار الشرفاء وطلبوا من القَوْري أن يفتهم فامتنع واعتذر حتى ضغطوا عليه قائلين «نريد منك أن تفتينا وإلا أرحنا الدنيا منك لأنك عالم لم تعمل بعلمك إلى غير ذلك من الكلمات فلم يسعه إلا كتابة خطة بجواز قتل اليهود ثم بجواز القيام عليهم بل وعلى السلطان»[٣]؛ مما جعل الناس يتجهون إلى حارة اليهود ويقتلون من فيها، ثم انتظروا قدوم السلطان عبد الحق بن أبي سعيد (٨٢٣-٨٦٩هـ/ ١٤٢٠-١٤٦٥م) الذي كان خارج فاس وأخذوه بالحيلة ثم ذبحوه عام (٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م)، وبايعوا الشريف الجوطي لتنتهي بذلك الدولة المرينية[٤].

المرينيون والمتصوفة

برز التصوف بوصفه تيارًا دينيًا واجتماعيًا في المغرب منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وظل يقوي من خلال الأربطة والزوايا المنتشرة في بلاد المغرب الأقصى. وقد تمتع المتصوفة بمكانة كبرى داخل المجتمع المغربي، حيث أقبل عليهم الناس واعتقدوا في كراماتهم، لما رأوه من المتصوفة من ورع وتقوى، ولما قدموه من معونة للأهالي سواء لرفع ظلم الحكام، وحماية مظلومين،

---

(١) عبد الباسط بن خليل: المصدر السابق، ٥٢.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي الجوطي ينتسب إلى الأشراف العمرانيين بفاس كان ذا جاه، وبعد عزله(٨٧٥هـ/١٤٤٠م) انتقل بأسرته إلى تونس. ابن القاضي: المصدر السابق، ١: ٢١١؛ عبد الكبير الكتاني: بيوتات فاس، ٢: ١٨٢، والجوطي نسبة إلى جوطة وهي قرية على نهر سبو في العدوة الجنوبية.

(٣) عبد الباسط بن خليل: المصدر السابق، ٥٣.

(٤) نفس المصدر ٥٣-٥٦؛ السلاوي: الاستقصا، ٤: ٩٩-١٠٠؛ عبد الكبير الكتاني: المرجع السابق، ٢: ١٨٢؛ الكتاني: السلوة، ٢: ٩٠؛ الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، ١٨٦-١٨٧؛ ARENAL, *the Revolution of Fas Fas in 869/1465 and The Death of the Sultan Abd Al Haqq Al-Marini,* London, Vol. XII, Part1, 1978, p.42, 43-66.

أو من الرعاية الاجتماعية لأبناء الطبقة الدنيا وإيواء الفقراء وأبناء السبيل، ومحاولاتهم حل النزاعات الناشئة بين القبائل[١] وما قدموه لمواجهة ما عانوه من أزمات وكوارث، وقد أدركت الدولة المرينية تلك المكانة، لذا اعتنت الدولة المرينية منذ قيامها بالمتصوفة وأبدت الاحترام والتقدير لأقطاب التصوف[٢]، كما حرص بعض سلاطينها على الظهور بمظهر الصلاح والزهد، ونسبوا لجدهم عبد الحق مؤسس الدولة الكرامات[٣]، كما عملت الدولة على استمالة الحركة الصوفية واحتوائها والتقرب إلى المتصوفة، فحرص السلاطين على زيارة أضرحة المتصوفة مثلما فعل السلطان أبو سعيد عثمان الذي حرص على زيارة قبر الصوفي أبي يعقوب الأشقر[٤]، والسلطان أبو عنان الذي حرص على زيارة قبر الولي أبي زكرياء الزواوي[٥]، كما تقربوا للمتصوفة وطلبوا مقابلتهم في كثير من الأحيان[٦]، وعملوا على إشراكهم فيما تقبل عليه الدولة من أعمال فعلى سبيل المثال اصطحب السلطان أبو سعيد عثمان (٧١٠ ـ٧٣٢هـ/ ١٣١٠-١٣٣١م) المتصوفة معه في توزيعه الصدقات وصلاة الاستسقاء أثناء القحط الذي أصاب البلاد (٧٠١هـ/١٣٠٩م)[٧]، كما أمر السلطان أبو يعقوب

---

(١) عبد الطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلا، ١٩٨٩م، ٢٧٠.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ٥٢٧، ٣٨٩؛ الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، العبادي: دراسات في تاريخ المغرب، ٢١٤، ٣٥٦.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ٣٧٣.

(٤) نفس المصدر، ٥٢٧.

(٥) النميري: فيض العباب، ٢٦٧.

(٦) ابن مرزوق: المسند، ١٥٦-١٥٨؛ ابن قنفذ: انس الفقير، ٧٤.

(٧) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ٥٢٦؛ السلاوي: الاستقصا، ٣: ١٧٨.

يوسف (٦٨٥-٧٠٦هـ/ ١٢٨٦-١٣٠٦م) بمشاركة المتصوفة في ركب الحج المغربي(١).

وعمل السلطان أبو عنان على التقرب للمتصوفة واستقبالهم في مجالسه ومنهم الصوفي أبو عبد الله اليجري(٢)، وأبو عبد الله محمد الحلفاوي (ت٧٥٨هـ)(٣) الذي كان يقدره السلطان أبي عنان «ويعنيه على الأخذ على أيدي المعتدين المرتكبين ما نهى عنه الدين»(٤)، كما عظم السلطان عبد العزيز المريني الشيخ عبد العزيز الصنهاجي، وكان يزور، ولا يرد له أمر(٥).

وتظهر مظاهر اهتمام الدولة المرينية بالمتصوفة في إنشائها للزوايا، ومنها الزاويتين اللتين أنشأهما أبو الحسن المريني بمكناس(٦)، كذلك أقام أبو عنان المريني عددًا من الزوايا(٧) أشهرها زاوية النساك بسَلا(٨)، والزاوية المتوكلية(٩) بفاس الجديدة، كما أجرى الجرايات على الزوايا والمقيمين بها سواء من الصوفية أو العاملين بها(١٠). وأنشأ السلطان أبو سالم المريني (٧٦٠-٧٦٢هـ/ ١٣٥٨-١٣٦٠م)

---

(١) فتحة: النوازل، ١٨٠. (٢) النميري: المصدر السابق، ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) أبو عبد الله محمد بن موسى الحلفاوي من مدينة أشبيلية، نزل فاس، كان مشهورًا بصلاحه، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، كثير الصدقات. الحضرمي: السلسل العذب، ٥٥.

(٤) نفس المصدر، ٥٥.

(٥) ابن قنفذ: المصدر السابق، ٨٤.

(٦) فتحة: المرجع السابق، ١٨٠.

(٧) ابن بطوطة: تحفة لنظار، ٦٧١، السلاوي: المصدر السابق ٣: ٢٠٦.

(٨) النميري: المصدر السابق، ٢٠٦؛ سلا مدينة بالمغرب الأقصى على المحيط الأطلنطي، وتقع جنوب غرب مدينة مراكش. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣: ٢٣١.

(٩) أنشئت هذه الزاوية على وادي حمص بفاس الجديدة، وكانت من أشهر الزوايا، ووصفت بأنها أعجوبة المشرق والمغرب، عنها. النميري: المصدر السابق، ٢٠٦.

(١٠) نفس المصدر، ٢١٣؛ الحضرمي: المصدر السابق، ٤٠.

زاوية القراء شرقي جامع القرويين وأجرى عليها الجرايات[١]. ووفرت الدولة احتياجات الزوايا ومرتبات القائمين عليها[٢]، وحرص السلاطين المرينيون من خلال بنائهم الزوايا على أمرين: الأول احتواء المتصوفة وإخضاع الزوايا للدولة، وذلك منذ عهد أبي عنان المريني؛ الذي عَيّن مقدمًا للزاوية[٣]، وكان هذا الأمر مستحدثًا في المغرب ولم يحدث من قبل[٤]، والثاني اكتساب مزيد من الشعبية بين الناس[٥]، كما أظهرت الدولة الاهتمام بأحوال المتصوفة وبذلت لهم العطاء وأجرت الجرايات عليهم[٦]. في محاولة منها للتوجيه التصوف لخدمة سياستها.

ومع ذلك لم تنجح هذه السياسية في كثير من الأحيان، فنجد من المتصوفة من كان يضع شروطًا مقابل السماح للسلطان بمقابلته[٧]، ومنهم من قابل السلاطين بالصد والامتناع، فقد رفض ابن عاشر (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)[٨] مقابلة السلطان أبي عنان رغم محاولات الأخير المستمرة للقائه[٩]، وكذلك فعل أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي (ت٧٦١هـ/ ١٣٥٩)[١٠] مع السلطان أبي فارس

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١: ٧٤.

(٢) النميري: المصدر السابق، ٢١٣.

(٣) نفس المصدر، ٢١٥.

(٤) فتحة: المرجع السابق، ١٨٣.

(٥) عبد الطيف الشاذلي: المرجع السابق، ١٧٤.

(٦) الحضرمي: المصدر السابق، ٣٩.

(٧) الحريري: المرجع السابق، ٣٥٦.

(٨) أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر السلوي من أعلام التصوف في عصره، أصله من شمينية، ثم انتقل إلى الجزيرة الخضراء، ثم حج وعاد إلى المغرب فأقام مدة بفاس، ثم رحل إلى مكناسة، ثم انتقل إلى سلا. الحضرمي: السلسل العذب، ٣٩-٤٥.

(٩) ابن قنفذ: أنس الفقير، ٩.

(١٠) أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي كان صالحًا عالمًا محققًا عابدًا، إمام جامع القرويين بفاس،=

عبد العزيز (٧٦٧-٧٧٤هـ/ ١٣٦٤-١٣٧٢م) عندما رفض مقابلته رغم إلحاح السلطان وإرساله في طلبه أكثر من مرة، وصار ابنه أبوالربيع على نهج والده في رفضه لمقابلة السلطان عبد العزيز[١]. كما واجه بعض السلاطين النقد من المتصوفة، فعندما لقي السلطان أبو يعقوب (٦٥٦-٦٨٥هـ/ ١٢٥٨-١٢٨٦م) الشيخ إسحاق ابن مطهر الورياغلي (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[٢] في جامع القرويين؛ وطلب منه النصح وسأله عن ثلاثة مسائل فأجابه بأنه «لا فائدة لك في السؤال فإنك لا تعمل بالجواب»[٣]، ولقد استمر الورياغلي في نقده للسلطان في أكثر من مناسبة حتى ضاق به وأمر بطرده من فاس[٤].

ومن الجدير بالذكر أن المتصوفة في العصر المريني لم يقوموا بثورات ضد الدولة واكتفوا بالابتعاد عنها في نوع من الرفض للأوضاع السياسية. وهم في ذلك انقسموا إلى قسمين: الأول انقطع للعبادة وترك الدنيا[٥]. والثاني شارك في المجتمع المغربي ومنهم من تولى الخطط الدينية مثل أبي الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي (ت ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م) الذي تولى إمامة جامع القرويين[٦]، والقَبّاب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، الذي تولى القضاء والفتيا، وابن عباد الرندي (ت ٧٩٢هـ/

=وله أوارد ومجالس لقراءة العلم والتصوف، ثم ترك الإمامة وانقطع للعلم. التنبكتي: الابتهاج، ٦٢٨؛ ابن مخلوف: شجرة النور، ١: ٣٣٥.

(١) ابن قنفذ: المصدر السابق، ٧٥.

(٢) أبو إبراهيم اسحاق بن يحيى بن مطهر الورياغلي ويعرف بالأعرج كان إماما بجامع الشطة بفاس، وكان من كان وليًا صالحا كما كان فقيهًا. البادسي: المقصد، ١١٠؛ الكتاني: السلوة: ٣: ١٧٧-١٨٧.

(٣) البادسي: المصدر السابق، ١١١.

(٤) الكتاني: المرجع السابق، ٣: ١٧٨.

(٥) حركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء - دار الرشاد الحديثة ١٩٨٤م، ٢: ١٨٧.

(٦) التنبكتي: المصدر السابق، ٦٢٧.

١٣٩٠م)[١] الذي تولى الخطابة بجامع القرويين[٢].

وقد اهتم المتصوفة بأمور الناس وتدخلوا لحل مشاكلهم لدى السلطان مثلما فعل الشيخ أبوطاهر بن العلام الذي تدخل لدى الوزير الوطاسي لرفع ظلم وقع من ابنه يحيى على بعض الناس، كما لجأ إليه بعض شيوخ الريف لرفع الظلم الذي وقع على بعض الضعفاء من أهلهم[٣]، كذلك تدخل أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي والقباب لدى وزير فاس الذي أراد فرض ضرائب على رباع فاس وديارها[٤]. وبعث ابن عباد الرندي بثلاثة رسائل إلى السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن في الرسالتين الأولى والثانية ينصح ابن عباد السلطان، ويستعرض فيها ما أصاب الناس من مظالم وتعسف من جباة الضرائب في التعرض للمسافرين وفرض ضرائب غير شرعية على التجار، وطالبه برفع هذه الضرائب والمظالم عن الناس[٥]. والرسالة الثالثة تتعلق بجامع سلا، وما تعرض له من إهمال بسبب عدم انضباط أحد الخطباء، وطلب من السلطان أن يولي أمور الصلاة في هذا المسجد لمن يستحقها من أهل الفقه والصلاح[٦]. كما أرسل الرندي رسالة إلى أحد وزراء

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الشيخ إبراهيم الرندي النفزي المعروف بابن عباد الرندي، أصله من رندة بالأندلس، وهو من ذوي البيوتات الأصيلة، ثم رحل إلى المشرق، ولقى العلماء، كان شيخ العلماء والزهاد في عصره أخذ عن والده، وعن أبي عمران الفاسي، وله عديد من المؤلفات في الفقه والتصوف منها شرح الحكم العطائية ورسائله. ابن الخطيب: الإحاطة، ٣: ٢٥٢، ابن قنفذ: المصدر السابق، ٧٩-٨٠.

(٢) ابن قنفذ: نفس المصدر، ٨٠؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١: ٣١٥؛ الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ٣٥٦.

(٣) البادسي: المصدر السابق، ٩٠.

(٤) التنبكتي: المصدر السابق، ٦٢٨.

(٥) رشيد السلامي: رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي (ضمن منتوعات محمد حجي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ٥٠٣

(٦) رشيد السلامي: رسائل سياسية، ٥٠٤.

السلطان يطلب منه العمل على تقديم النصيحة للسلطان والمشورة الحسنة، ومعاونته على تدبير شئون البلاد، ومراعاة حرمته ووجوب طاعته[١].

كما سد المتصوفة الفراغ الذي تركه غياب سلطة الدولة المرينية في البوادي وبعض المناطق الجبلية عندما عجزت الدولة عن فرض الأمن، وتمزق المغرب الأقصى بين القوى السياسية وتُركت تلك المناطق دون أي سلطة[٢]. كما حملوا عبء الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي في أواخر الدولة المرينية. حيث نجح المتصوفة في جمع الناس حولهم من أجل الجهاد[٣]؛ مستغلين كل الوسائل الممكنة لجمع الناس؛ حتى انتشرت في هذا العصر العصر «التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا ونظم الشعراء والأدباء فنثروا»[٤]. وكانت الطريقة الجزولية أكثر الطرق الصوفية تحملًا لعبء الجهاد وكان للإمام الجزولي (ت٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م)[٥] دور كبير في تجميع الناس والتفافهم حوله؛ إذ كون جيشًا من المريدين والمجاهدين[٦].

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) حركات: المرجع السابق، ٢: ١٨٧؛ عبد الطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع ١٩٨٩م، ١٧٥، ٢٧-٢٧٣.

(٣) محمد الفاسي: التعريف بالمغرب، ٤٨؛ حركات: المرجع السابق، ٢: ٨٥؛ ARENAL, *the Revolution of Fas,* p.44, TERRASSE, *Histoire du Maroc,* p.106.

(٤) السلاوي: الاستقصا، ٤: ١١٢.

(٥) الجزولي أبو عبد الله محمد بن سليمان عبد الرحمن بن أبي بكر الذي ينسب إلى قبيلة جزولة، تلقى تعليمه في الحساب والعربية والفقه الذي صار علمًا به وقيل أنه كان يحفظ فرعي ابن الحاجب وله عديد من المؤلفات أشهرها دلائل الخيرات(انظر ترجمته في: - التنبكتي: الابتهاج، ٥٤٥؛ ابن مخلوف: شجرة النور الزكية، ١: ٣٨٠، ٣٨١.

(٦) الفاسي الفهري: مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب، تحقيق محمد حمزة الكتاني، الدار البيضاء - مركز الثقافة المغربي، بيروت - دار ابن حزم ٢٠٠٨م، ٤١١.

ومما سبق يتضح أن الدولة المرينية نجحت في سياستها تجاه الفقهاء والمتصوفة إلى حد بعيد في العصر المريني الأول حيث كانت قوتها ، ولكن في العصر المريني الثاني عندما بدأت الدولة المرينية تسير نحو الضعف ، أصبحت سياستها تجاه الفقهاء والمتصوفة تتأرجح بين النجاح والإخفاق ، حتى انتهى الأمر بنمو التيارين ، وسقطت الدولة المرينية على خلفية فتوى من أحد الفقهاء أشعلت الثورة ضدها وأودت بحياة السلطان عبد الحق أخر سلاطين بني مرين ، أما المتصوفة فقد قوى تيارهم ، وخرج منهم عدد من الحركات الإصلاحية ، وتولوا الجهاد في الثغور والبوادي وسدوا فراغ السلطة المرينية في تلك المناطق ، وفي النهاية ساعدوا الأشراف على تولي الحكم في المغرب الأقصى بدلًا من المرينيين.

المصادر والمراجع

أولًا : المصادر

ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الغرناطي ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) :

* أعلام المغرب والأندلس وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمي الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٦م.
* روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب منصور، الرباط، ط ٣، ٢٠٠٣م.

البادسي (عبد الحق بن إسماعيل البادسي ق ٨هـ/١٤م) :

* المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد إعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت٧٩٩هـ/١٣٦٩م) :

* تحفة النظار في عجائب الأمصار، نشره طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

التنبكتي (أحمد بابا بن أحمد بن عمر ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) :

* نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشره عبد المجيد عبد الله، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٨٥.

ابن الحاج النميري (أبو القاسم برهان الدين إبراهيم ت بعد ٧٧٤هـ/١٣٧٤م) :

* فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلي قسطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

الحضرمي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) :

* السلسل العذب والمنهل الأحلي، تحقيق محمد الفاسي، (مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٠، مايو ١٩٦٤م.

الحميري (محمد بن عبد المنعم، عاش في ق٧ هـ/١٣م) :

* الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٤٨م

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن خلدون ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) :

* التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩م
* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

ابن الخطيب : (لسان الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد السلماني ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) :
* الإحاطة في أخبار غرناطة ، نشره محمدعبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٥م .
ابن أبي زرع : (علي بن عبد الله بن أبي زرع ت بعد ٧٤١هـ/١٣٤٠م) :
* الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط ٢، ١٩٩٩م .
الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ق ٩هـ) :
* تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦
السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، ت١٣١٩ هـ /١٨٩٧م) :
* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .
عبد الباسط بن خليل (عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي الحنفي ت٩٢٠هـ/١٥١٤م) :
* الروض الباسم : الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، نشره برنشيفك *Deux Récits de Voyage Inédits en Afrique du Nord ou XV eLavoes Editurs,* Paris 1936.
ابن عذاري المراكشي (كان حيًا ٧١٢هـ/١٣١٢م) :
* البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥م .
الفاسي الفهري أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري (ت ٩٨٨هـ/١٠٥٢م) :
* مرآة المحاسن مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب ، تحقيق محمد حمزة الكتاني ، مركز الثقافة المغربي ، الدار البيضاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، ٢٠٠٨ م .
ابن القاضي المكناسي (أحمد بن محمد بن أبي العافية ، ت ١٠٢٥هـ/ ١٧٩٠م) :
* جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ١٩٧٣م .
ابن قنفذ (أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني ت٨١٠هـ/١٤٠٨م) :
* أنس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي ، وأدولف فور ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٥م .
مجهول :
* جمع تواريخ مدينة فاس ، مطبعة برنارد ويرزي ، بالرم ، ١٨٧٨م .

ابن مخلوف (محمد بن محمد بن عمر بن قاسم ت ١٣٦٠هـ/) :
* شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢م.
ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن مرزق العجيسي ت ٧٨١هـ/١٣٧٩م) :
* المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيوس بيغرا، الشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٨١م.
المقري (أحمد بن بن محمد المقري التلمساني، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١ م) :
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د.مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م) :
* المعيار المعرب الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله، ت ٦٢٠هـ/١٢٢٨م) :
* معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.

ثانيًا : المراجع العربية

* إبراهيم حركات (دكتور) : المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٨٤م.
* ـــــ : مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم القرن ٩/ ١٥، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
* أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م
* انطونيو تورموكا سلفا : بنو نصر في غرناطة وبنو مرين في المغرب، ترجمة إسحاق عبيد (ابن خلدون : البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص٨٠-٨٧)
* رشيد السلامي : رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي (ضمن منتوعات محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص٥٠٣
* عبد الكبير بن هاشم الكتاني : زهر الأس في بيوتات أصول فاس ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب بيوتات أهل فاس لمحمد بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.

* عبد الطيف الشاذلي : التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري ، منشورات جامعة الحسن الثاني ، سلا ، ١٩٨٩م .

* محمد شقير (دكتور) : تطور الدولة في المغرب (إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة في القرن ١٣ ق م إلى ٢٠م) ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء، ٢٠٠٢

* محمد الفاسي : التعريف بالمغرب ، ص ٤٦، دراسات مغربية من وحي البينة ، عيون المقالات ، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٩٩م .-

* محمد فتحه (دكتور) : النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ/١٢-١٥م) ، منشورات بكلية الآداب والعلوم ، جامعة الحسن الثاني ، الدار البيضاء ، ١٩٩٩.

* محمد عيسي الحريري : تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي في العصر المريني ، دار القلم ، الكويت ، ط ٢، ١٩٨٧م .

* محمد بن محمد بن جعفر الكتاني : سلوه الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرون ، دار الثقافة ، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية

* MERCEDES GARCIA ARENAL, *the Revolution of Fas in 869/1465 and The Death of the Sultan Abd Al Haqq Al-Marini,* London, Vol. XII, Part 1, 1978, p.43-66.

* TERRASSE, *Histore du Maroc,* Casablanca, 1952.

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٢٠٥ - ٢٤٨

دَوْرُ الطَّائِف في الأَحدَاثِ السِّياسِيَّة في إقْلِيم الحِجَاز خِلال فَتْـرَة الحُـكْم العُثْماني الثَّاني

(١٢٥٦-١٣٣٤هـ/ ١٨٤٠-١٩١٦م)

عبد الرحمن بن سعد العرابي*

مستخلص

يتناول البحث دور مدينة الطائف في مجريات الأحداث التي شهدها إقليم الحجاز خلال فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم والممتدة ما بين أعوام (١٢٥٦- ١٣٣٤هـ الموافق ١٨٤٠- ١٩١٦م) والتي كان لها تأثير كبير على الإقليم وأهله.

كان للطائف خلال تلك الفترة دورًا مؤثرًا يُقارب إلى حد كبير دور مكة المكرمة العاصمة الإدارية للإقليم، خاصة بعد أن أصبحت العاصمة الصيفية للحجاز إثر إصدار الدولة العثمانية لقانون الولاية الذي حول إقليم الحجاز إلى إقليم عثماني كامل يشرف على إدارته والي عثماني برتبة باشا إلى جانب أمير مكة من الأشراف، وكان كلاهما يقيمان خلال فترة الصيف في الطائف ويتخذونها مركزًا لهم.

من أهم الأحداث التي سيتطرق لها البحث الخلاف الذي وقع بين أمير مكة الشريف عبد المطلب بن غالب وبين والي الحجاز العثماني كامل باشا وذلك في عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م، إضافة إلى حادثة نفي السلطان

* قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز.

عبد الحميد الثاني للوزير الأعظم مدحت باشا إلى مدينة الطائف وسجنه فيها ثم وفاته في السجن مما دفع معارضي عبد الحميد إلى اتهامه بتدبير مقتل الباشا .

كذلك يتناول البحث مشاركة الطائف في الثورة العربية الكبرى التي أطلقها الشريف الحسين بن علي من مكة المكرمة في نهاية العهد العثماني في عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م حين حاصر أهالي الطائف من الثوار للحامية العثمانية فيها ، واستسلام الوالي العثماني لهم لتواجده في الطائف آنذاك .

ويستعرض البحث اعتمادًا على المصادر والمراجع التاريخية الخاصة بتلك الفترة تأثيرات تلك الأحداث على مجريات التطورات السياسية التي شهدها الحجاز والتي انتهت باستقلاله كلية عن الدولة العثمانية .

Abstract

The study focused on the political developments which took place in the Hejaz region during the period of the second Ottoman Rule (1256-1334 A. H./ 1840-1916 A.D) and the role of Taif on them.

Taif was transferred into a summer capital of the Hejaz according to the Vilayet Law of 1864 A. D. Both the Shareef of Makkah and the Ottoman Vali resided in Taif during the summer.

The three major political incident which the study focused on are the conflict between Shareef Abdulmutalib B. Ghalib and the Ottoman Vali of the Hejaz Kamil Pasha in 1272 A. H. /1856 A. D. as well as the exile and imprisonment of the Grand Vazir Midhat Pasha by Sultan Abdulhameed II, in 1294 A. H. /1877 A. D. The third one the participation of Taif in the Arab Revolt of 1916 A. D. where the Ottoman garrison was besieged and the Ottoman Vali was surrounded to the revolutionaries at the end of Ottoman rule in 1334 A. D. /1916 A. D.

تمهـــيد

في عام ١٨٦٤م/١٢٨٠هـ صدرت إرادة عثمانية سلطانية باعتماد قانون الولاية (Vilalet Law) كنتيجة لجهود كل من الصدر الأعظم فؤاد باشا والوزير مدحت باشا وذلك لتنظيم الولايات العثمانية بما يتوافق مع التوجه العام السائد أنذاك في الدولة العثمانية لعهد التنظيمات الخيرية. وبقانون الولاية ألغي النظام الإداري القديم الذي ينظم أقاليم الدولة والمعروف باسم نظام الإيالة.

حسب قانون الولاية كانت كل ولاية تقسم إلى عدة صناجق أو ألوية وكل صنجق أو لواء إلى أقضية والأقضية إلى قرى. ثم بعد ذلك وفي عامي ١٨٦٧م/١٢٨٣هـ - ١٨٧١م/١٢٨٧هـ تم إجراء تعديلات على القانون أضيفت إلى وحدات الولاية وحدة إدارية صغرى تسمى ناحية[1].

طبقت الدولة العثمانية نظام الولاية لعام ١٨٦٤م على إقليم الحجاز تطبيقًا كاملًا، بحيث تحول الحجاز إلى ولاية عثمانية مثله مثل بقية الولايات العثمانية الأخرى نتيجة لعودة السيطرة العثمانية على الإقليم بعد خروج قوات محمد علي باشا منه في عام ١٨٤٠م/١٢٥٥هـ. وحسب القانون قسم الإقليم إلى...... وأ....... ونواح بحيث أصبحت مكة المكرمة مركز الولاية الإداري والمدينة المنورة وجدة صناجن ومدن ينبع والليث والوجه والعقبة اقضية أما مدن الطائف ورابغ وأم لحج وخيبر والعلا فأصبحت نواح[2].

كانت الطائف العاصمة الصيفية للحجاز حيث يلجأ لها سكان مكة المكرمة في فصل الصيف هربًا من حر الصيف وكان العثمانيون وأمراء مكة المكرمة من

---

(1) Saleh Muhammad Al-Amr, *The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1914*, Riyad Univ. Press, Riyad, March 1978, pp.55-66.

(2) *Ibid*, pp.69, 71.

الأشراف يتقاسمون السلطة المحلية والقضاء والدخل الحكومي في الطائف[١].

وبحسب سالنامة ولاية الحجاز العثمانية لسنة ١٣٠٦هـ والتي تصدرها الولاية كتقويم سنوي رسمي للحجاز، فإن ناحية الطائف كان لها مدير هو تيمور أفندي ونائبًا هو محمد حسن أفندي وتضم إدارتها كاتب، ومأمور بريد، وتلغراف، وكان للناحية مجلس يتكون من خمسة أعضاء بما فيهم المحتسب وهم على النحو التالي: سليمان بن عوض أفندي، ويسلم بصفر أفندي، وحسن أفندي، ومحمد منة أفندي، والمحتسب شحاتة آغا. وكان عدد سكان الطائف الذكور والإناث (١٥٠٠) نفس وبها قشلة واحدة (ثكنة عسكرية)[٢].

ووصف الرحالة النمساوي جون لويس بوركهارت الطائف عند زيارته لها في شهر رمضان من عام ١٢٣٠هـ/ أغسطس ١٨١٤م، بأنها «عبارة عن مربع غير متناسق محيطه لا يزيد عن مسافة تستغرق خمسًا وثلاثين دقيقة من السير السريع ويحيط به سور وخندق وللسور ثلاثة أبواب ويحميه عدد من الأبراج ولكنه أقل متانة من أسوار جدة والمدينة وينبع، ويبلغ سمكه في أماكن عدة أكثر من ثمان عشر بوصة. وفي غرب الطائف تقع القلعة على مكان صخري مرتفع وتشكل جزءًا من السور وقد بناها الشريف غالب (بن مساعد)»[٣].

ويصف محمد صادق باشا أمين «صرة» المحمل المصري مدينة الطائف عند زيارته لها في شهر رمضان من عام ١٣٠٠هـ/ مايو ١٨٨٣م بقوله: «وبلدة الطائف محاطة بسور من لبن داخله (٤٠٠) منزل و (٢٠٠) دكان وستة جوامع

---

(1) WILLIAM OCHSENWALD, Religion, *Society and The State in Arabia, The Hijaz Under Ottoman Control,* 1840-1908, Ohio State Univ. Press, Columbus 1984, pp.23-29.

(٢) حجاز ولايتي سالنامه سي، سنة ١٣٠٦هـ، دفعة ٤، مكة المكرمة، ٢١٩.

(٣) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي، ود. عبد الرحمن الشيخ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٩٢م، ٨٢.

وسبعة مساجد ودائرة للحكومة ومنزل للمدير (مدير الناحية) وقشلة للعساكرو قلعة لحبس أهل الجارئم حبس بها مدحت باشا ورفاقه وعدد أهاليها من ذكور وإناث (أي الطائف) (٢٠٠٠) نفس»[١].

والطائف التي نتحدث عنها هنا في بحثنا هذا وفي فترة الحكم العثماني الثاني لإقليم الحجاز إنما هي المدينة التي تقع داخل السور والتي كانت تتكون من ثلاثة حارات فقط هي حارة فوق وتقع خلف القلعة العثمانية التي أشار لها بوركهارت ومحمد صادق باشا والتي عرفت بين أهالي الطائف بقلعة باب الريع. ثم حارة أسفل وتقع خلف باب الحزم أحد أبواب الطائف الثلاثة. ثم حارة السليمانية وهي على مقربة من مسجد ابن العباس. وكانت أوسع تلك الحارات وأكثرها سكانًا حارة أسفل ثم حارة فوق ثم حارة السليمانية وقد تضررت تلك الحارات أيام الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين في عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م والتي سوف يأتي الحديث عنها في آخر هذا البحث. وكانت الطائف تقع داخل السور يحدها شمالًا منطقة شبرا و العقيق وجنوبًا منطقتي شهار وحوايا، وشرقًا وادي وج وجبل البازم وغربًا القشلة وضاحيتي قروة والسلامة، وأبواب السور الثالث هو باب الحزم وهو الباب الشمالي والموصل إلى شبرا وباب الريع وهو الباب الغربي الموصل إلى السلامة والمثناه وباب ابن العباس بجوار مسجد ابن العباس ويقع على الجهة الجنوبية الشرقية من الطائف[٢].

---

(١) محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير محمد همام فكري، بيروت - بدر للنشر ١٩٩٩م، ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) عيسى علوي القصير: الطائف القديم داخل السور في القرن الرابع عشر الهجري، الطائف ١٤٣٤هـ، ٦٦-٦٨.

الخلاف بين أمير مكة المكرمة ووالي الحجاز في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م

شاركت الطائف بقوة في الخلاف الذي ساد بين أمير مكة المكرمة الشريف عبد المطلب بن غالب ووالي الحجاز العثماني كامل باشا والذي حدث في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م.

وكان أصل الخلاف بين الاثنين معارضة أمير مكة المكرمة للإدارة الثنائية التي أحدثتها الدولة العثمانية في إقليم الحجاز خلال فترة ما عرف بفترة الحكم العثماني الثاني بعد إجلاء قوات محمد علي باشا عن الحجاز في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م. وتمثلت تلك الثنائية في تداخل الصلاحيات ما بين أمير مكة المكرمة والوالي العثماني للحجاز(١)، وهو ما خلق منافسة بين الاثنين وكثيرًا ما كانت تتحول إلى إشتباكات مسلحة يستخدم فيها كل طرف ما لديه من قوة ورجال. وهو ما حدث فعليًا مع الشريف عبد المطلب ذاته في صراعه مع سلطات كامل باشا والي الحجاز ومن قبله الواليان أقة باشا وعزت باشا اللذين عزلتهما الحكومة العثمانية استرضاءًا للشريف(٢).

وحسب صلاحيات كل من الأمير والوالي، فإن الدولة العثمانية جعلت الإشراف على الجيش وجمارك جدة من صلاحيات الوالي، بينما كانت إدارة المدن من اختصاص الأمير، وحتى عندما أعادت الدولة العثمانية النظر في الاختصاصات والصلاحيات مرة أخرى وذلك في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، تقاسم الأمير والوالي مسؤولية أمن الطرق وشؤون القبائل وإدارة المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة وكأن الدولة وضعت بذلك أسسًا خصبة للمنافسة

---

(1) OCHSENWALD, *op.cit.*, p.131.

(٢) عبد الله محمد الغازي: إفادة الأنام، تحقيق د. عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي ١٤٣٠هـ، ٤: ٨٩-٩٠.

وسوء الفهم والاضطراب بعدم التحديد الواضح لمهام كل وظيفة من الاثنين(١) .

وكما تروي المصادر المكية بداية الخلاف بين الشريف عبد المطلب وكامل باشا ، بأن العلاقة بينهما كانت ودية عند بداية وصول كامل باشا إلى الحجاز ، وذلك في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م لتولي مهام الوالي حيث قابله الشريف عبد المطلب ورحب واحتفل به وأصبحت بينهما محبة وألفة وهي استمرار لما كانا عليه حين كان الشريف عبد المطلب يقيم في استانبول قبل توليه إمارة مكة المكرمة(٢) . غير أن تلك العلاقة لم تدم طويلًا وذلك حينما نمى إلى علم الشريف عبد المطلب بأن كامل باشا ينوي القبض عليه عندما دعاه إلى حضور استعراض للعساكر النظامية العثمانية المقيمة في مكة المكرمة في منطقة الأبطح فغادر عبد المطلب مكان الاستعراض ، وكأنه يود قضاء الحاجة غير أنه لم يعد وتوجه إلى مدينة الطائف . وزادت العداوة بين الاثنين أكثر مما كانت مع كل من أقة باشا وعزت باشا(٣) .

كان الشريف عبد المطلب يتهم السيد إسحاق بن عقيل شيخ السادة في مكة المكرمة بصنع وتأجيج العداوة بينه وبين ولاة الحجاز العثمانيين ، لأنه أي السيد إسحاق من المؤيدين والمحبين للشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة السابق ومنافس عبد المطلب على الإمارة(٤) .

كما أن الشريف عبد المطلب كان يرى في قرب التواصل بين السيد إسحاق والولاة العثمانيين ومحبتهم له تهديدًا له ولصلاحياته ، ولهذا عزم على وضع حد

---

(1) OCHSENWALD, *op.cit.*, pp.33-34.

(٢) أحمد زيني دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ١٣٠٥هـ ، ٣١٦ ، الغازي : مرجع سابق ، ٤: ٩١.

(٣) دحلان : نفس المرجع والصفحة ؛ الغازي : نفس المرجع والصفحة .

(٤) دحلان : مرجع سابق ، ٣١٧ ، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩١.

لذلك فأمر وهو لا يزال في الطائف عددًا من جنوده من فرقة البياشة بالنزول إلى مكة المكرمة والقبض على السيد إسحاق وإحضاره إلى الطائف وهو ما تم فعليًا حينما قبض الجنود على السيد إسحاق بعد مباغتتهم له في منزله واقتادوه خفية إلى الطائف عن طريق الحسينية ، حتى لا يتمكن كامل باشا من حمايته أو منعهم من أخذه سجينًا[١] إلى الطائف . وعندما وصلوا إلى الطائف سعوا إلى إهانته بأن أركبوه حمارًا أسودًا قصيرًا وكان السيد إسحاق طويلًا وذا هيبة ، فطافوا به أسواق الطائف ثم حبسوه في القلعة الموجودة بمحلة المثناه[٢] والتي كانت تشرف على دار الشريف عبد المطلب وبعد ليلتين أخرجوا السيد إسحاق من القلعة ميتًا وقيل أنهم قتلوه خنقًا[٣] .

ولما بلغ الخبر كامل باشا أرسل مدير الحرم المكي رمزي أفندي إلى العاصمة استانبول طالبًا خلع الشريف عبد المطلب من أمارة مكة المكرمة[٤] ، وكان ذلك في نهاية عام ١٢٧١هـ/١٨٥٥م .

يبدو أن لجوء الشريف عبد المطلب إلى الطائف منذ بداية ظهور بوادر خلاف بينه وبين كامل باشا كان بسبب اعتباره أنه سيكون في مأمين أكثر كون الطائف حصينة بموقعها الجبلي وصعوبة الوصول إليها فيما لو لجأ كامل باشا إلى قوات عسكرية كبيرة ، إضافة إلى إمكانية تجنيد قبائل الطائف وضواحيها إلى جانبه

---

(١) قيل أن سبب سجن السيد إسحاق هو مطالبة الشريف له بمبالغ مالية ، انظر وثيقة B. O. A, Ird. Dah، أرشيف رئاسة الوزراء العثماني ، إدارة ، داخلية ، من كتاب «سنان معروف أغلو» ، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية ، بيروت ، دار الساقي ٢٠٠٢م، ٢١- ٢٢.

(٢) المثناه كانت من ضواحي الطائف وهي اليوم واحدة من أحيائها الكبري ، معجم معالم الحجاز ، ٨: ٢٢.

(٣) دحلان : مرجع سابق، ٣١٧، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩٢-٩٣.

(4) OCHSENWALD, *Ibid*, p.137.

خاصة وأن القبائل كانوا دائمًا ما يشاركون في دعم إحدى القوى في الإقليم ضد أخرى حيث تمتلئ بطون المصادر الملكية مثل دحلان، والغازي، والسباعي بتفصيل ذلك.

هذا الحدس من الشريف عبد المطلب اتضح عندما وجهت السلطة العثمانية المركزية في استانبول الفريق رشيد باشا[1] عضو المجلس الحربي العثماني لتحري الأوضاع السياسية في الحجاز تحت غطاء مراجعة الأوضاع العسكرية[2].

وقد شاع بين أهالي الحجاز بعد وصول رشيد باشا إلى جدة في شهر صفر من عام ١٢٧٢هـ/ أكتوبر ١٨٥٥م، أن قدومه يهدف إلى القبض على الشريف عبد المطلب وإقامة الشريف عبدالله بن ناصر من آل عون «قائم مقام» نيابة عن الشريف محمد بن عون إلى حين وصول الأخير إلى مكة المكرمة لتولي إمارتها[3]. لذا لجأ الشريف عبد المطلب إلى قبائل الطائف فجمعهم وأعلمهم بأنه يود حماية مكة المكرمة وأهلها من أي مكروه أو ضرر يصيبهم من كامل باشا وأعوانه[4].

توجه عبد المطلب بقبائل الطائف إلى مكة المكرمة، وكانت الأخبار قد وصلت إلى كامل باشا فأقام الشريف عبدالله بن ناصر قائم مقام نيابة عن أمير مكة المكرمة المرتقب، الشريف محمد بن عون، وأرسل للشريف عبد المطلب يخبره بعزله عن الإمارة وأن الدولة العثمانية عينت الشريف محمد بن عون أميرًا. هذا في الوقت

---

(١) تسميه المصادر المكية راشد باشا.

(2) OCHSENWALD, *Ibid*, p.138.

(٣) دحلان: مرجع سابق، ٣١٧، الغازي، مرجع سابق، ٤: ٩٣.

(٤) دحلان: المرجع نفسه، ٣١٨، الغازي: المرجع نفسه، ٤: ٩٤.

الذي أمر فيه كامل باشا حامية مكة المكرمة من العساكر العثمانية أخذ استعداداتها تحت قيادة قائدها القمندان(١) أويس باشا(٢).

رفض الشريف عبد المطلب مضمون رسالة كامل باشا مؤكدًا أنه لا يزال الأمير وكان قد وصل إلى داره التي بمكة المكرمة في حي القرارة(٣) فعقد اجتماعًا حضره عدد من الأشراف والعلماء والسادة وأعيان مكة المكرمة وقال لهم: «أني أنما جئت بالقبائل لحمايتكم ونصرة الدين»، فعقدوا العقود فيما بينهم على النصرة وصار أهل حارات مكة المكرمة حاملين السلاح ويقيمون دوريات أمنية (يعسون) خلال فترات الليل في طرقات مكة المكرمة(٤) احترازًا من وصول قوات مؤيدة لكامل باشا.

لم يقبل كامل باشا بما فعله الشريف عبد المطلب فقد كان مصرًا على تنحيته من الإمارة بأي ثمن خاصة وأنه أي كامل باشا وبصفته واليًا على الحجاز وقائدًا عامًا للحاميات العثمانية في الإقليم ولديه قوة عسكرية لا يستهان بها، حيث كانت حامية جدة لوحدها تقدر بـ (٢٠٠٠) جندي وعدد (٧٠٠) جندي آخر في حامية مكة المكرمة(٥) فسير من جدة قوة كبيرة الي مكة المكرمة لإخراج عبد المطلب منها الذي لم تشفع له جمعه لما يقارب الـ (٢٠٠٠) رجلًا من قبائل الطائف، وتأييد قبائل هذيل وعتيبة فانهزم أمام القوة العثمانية في ثلاث مرات

---

(١) كلمة تركية تعني رتبة عسكرية «مقدم» المؤلف.

(٢) دحلان: المرجع السابق، ٣١٨، الغازي: المرجع السابق، ٤: ٩٤.

(٣) كان أحد أحياء مكة المكرمة الملاصقة للحرم و يقع تحديدًا في الجهة الشمالية منه، البلادي: مرجع سابق، ٧: ١٠٥، وقد أزيل الحي كاملًا لصالح توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز الحالية (الباحث).

(٤) دحلان: المرجع السابق، ٣١٨، الغازي: المرجع السابق، ٤: ٩٤.

(5) OCHSENWALD, *Ibid.*, pp.138-139.

متتالية،وتكبدت قواته خسائر بشرية كبيرة وقد ساهم في نصر كامل باشا وقواته انضمام الشريف عبدالله بن ناصر وعدد كبير من الأشراف إلى القوة المعارضة لعبد المطلب حيث أسهم الشريف عبدالله في ابتعاد بعض مناصري عبد المطلب عنه حينما أغراهم بالمال من كساوى وعطايا دراهم(١) .

لم يجد الشريف عبد المطلب بدًا من الإقرار بهزيمته فخرج من مكة المكرمة ولجأ إلى الطائف للمرة الثانية ، وهو يظهر عزمه على التوجه منها إلى العاصمة العثمانية استانبول ، وكان ذلك في نهاية شهر ربيع الأول من عام ١٢٧٢هـ/ مارس١٨٥٦م(٢) ، وهو ما مكنّ القوة العثمانية بقيادة رشيد باشا من الدخول إلى مكة المكرمة وبمعيتها الشريف عبدالله بن ناصر يقود قوة سلاح المدفعية وفرقة المشاة وحرس الإمارة من فرقة البياشة ورجال قبيلة هذيل وتمت قراءة الفرمان السلطاني الخاص بتعيين الشريف محمد بن عون أميرًا لمكة المكرمة والشريف عبدالله بن ناصر قائمقام الأمير لحين وصوله إلى مكة المكرمة(٣) .

بعد وصول عبد المطلب إلى الطائف وهو كما تذكر بعض المصادر عازم على التوجه إلى استانبول والقبول بخلعه من الإمارة(٤) حسّن له بعض أهالي الطائف جمع القبائل من الطائف ومن ضواحيها واستعادة حكمه مرة أخرى فراقت له الفكرة وراسل قبائل بني سعد وغامد وزهران وثقيف وسفيان وأغراهم بالمال فتمكن بهم من الاستيلاء على قلعة الطائف العسكرية التي كانت تقيم بها حامية عثمانية وأخرج الحامية منها وسمح لهم دون أذى التوجه إلى مكة المكرمة(٥) .

(١) دحلان : مرجع سابق ، ٣١٨.

(٢) المرجع نفسه ، ٣١٨-٣١٩.

(3) OCHSENWALD, *Ibid.*, p.139.

(٤) دحلان : المرجع السابق ، ٣١٩، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩٦.

(٥) دحلان : المرجع نفسه ، ٣١٩، الغازي : مرجع سابق ، ٤: ٩٧.

كان انضمام قبائل الطائف إلى جانب عبد المطلب قد أعاد له الأمل في إمكانية عودته إلى حكم الإمارة خاصة وأن عدد تلك القبائل كان كبيرًا وإن لم تذكر المصادر عددها، فأمر عليهم الشريف حسين بن منصور الشنبري من أشراف الشنابرة في ضواحي الطائف وأرسلهم إلى مكة المكرمة لإخراج القوة العثمانية منها وخلع نيابة الشريف عبدالله بن ناصر. لكن تلك القوة رغم كبر حجمها إلا أنها انهزمت أكثر من مرة عند عرفات بعد مقابلة القوة العثمانية وبمساندة الشريف عبدالله بن ناصر والقبائل الحجازية الأخري التي كانت إلى جانب خصوم عبد المطلب. تمكنت قوات كامل باشا والشريف عبدالله من هزيمة قوة الطائف حتي أن الأخير تكبدت خسائر كبري في الأشخاص فقد قتل منهم الكثير وعرضت رؤوس القتلى في مكة المكرمة للاعتبار وكان ذلك في اليوم الثامن من شعبان من عام ١٢٧٢هـ/ ٨ أغسطس ١٨٥٦م وقد تزامن ذلك مع وصول أمير مكة المكرمة الجديد الشريف محمد بن عون إلى ميناء جدة قادمًا من استانبول[١].

لم ينتهي الأمر عند ذلك فالشريف عبد المطلب لا زال متحصنًا في الطائف ومعه قبائلها العديدة تناصره فرأى الأمير الجديد الشريف محمد بن عون أنه لا بد من مهاجمة الطائف وكسر قوتها كونها القاعدة التي يلجأ إليها الشريف عبد المطلب وإنهاء مقاومتها بقبائلها و بقلعتها وإخراج عبد المطلب أو القبض عليه، فجمع الشريف محمد قواته ومعها الحامية العثمانية فلما قرب من الطائف أرسل إلى عبد المطلب يطلب منه التسليم بالأمر الواقع والقبول بخلعه من الإمارة مقابل إعطائه الأمان[٢]. لم يغر عرض محمد بن عون الشريف عبد المطلب وظن أن

---

(١) دحلان: المرجع السابق، ٣١٩، الغازي: المرجع السابق، ٤: ٩٨-٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ٣٢٠.

وجوده بالطائف حصانة له وأن مناصرة قبائلها له قوة يمكنه بها رد اعتباره وهزيمة خصومه فرفض العرض وتحصن بالطائف واستعد للقتال وأمر أهلها بحمل السلاح وكانت معه قبائل هذيل وثقيف وسفيان لكن ذلك لم يشفع له حينما لجأ خصمه الشريف محمد إلى استمالة تلك القبائل بالمال من كساوى ودراهم وأجواخ وشيلان ووعدهم بالأمان فلجأت بعضها إليه وتفرقت عن معسكر عبد المطلب[1].

وصلت القوة التي يقودها الشريف محمد بن عون إلى مشارف الطائف وإلى منطقة العقيق أحد أحياء مدينة الطائف في أيامنا هذه في شمالها الشرقي وفرضت حصارها على الطائف ولم يكن قد تبقى إلى جانب الشريف عبد المطلب سوى الحاضرة من أهل الطائف وعدد قليل من الأشراف بقيادة الشريف حسين بن منصور الشنبري فلما اشتد الحصار عليهم وبدأت معاناة أهالي الطائف لجأ عدد منهم إلى الشريف محمد بن عون طالبين الأمان لهم ولمدينتهم مقابل مساعدته بفتح أبواب سور الطائف وهو ما حدث فعليًا فقد أمّنهم الشريف محمد وقاموا هم بفتح باب السور المعروف باسم باب الحزم القريب من حي العقيق حيث كانت قوة الشريف محمد بن عون تعسكر[2].

دخل الشريف محمد بن عون إلى الطائف وحاصر الشريف عبد المطلب في داره إلى أن تم تسليمه والقبض عليه، وذلك في ١٧ رمضان من عام ١٢٧٢هـ/ ٢٢ مايو ١٨٥٦م بعدها تم أنزاله إلى جدة ومنها أرسل مخفورًا إلى استانبول حيث تم العفو عنه من قبل الحكومة العثمانية. وبذلك تم النصر للسلطة العثمانية. «وكان سقوط الطائف كما يذكر المؤرخ الأمريكي المعاصر وليم أوكسنولد، و إلقاءالقبض

---

(١) المرجع السابق، ٣٢٠، الغازي: المرجع السابق، ٤: ٩٨-٩٩.

(٢) دحلان: المرجع السابق، ٣٢٠.

على عبد المطلب في ٢٢مايو بعد سبعة أشهر تمردًا ضد أوامر الدولة العثمانية وليس ضد شرعيتها[١]» .

وبسقوط الطائف ومقاومتها كما تذكر المصادر المكية فإن الناس اطمأنوا و زالت الفتنة و أصبحت الطرق آمنة[٢] .

نفي وسجن ووفاة مدحت باشا (١٢٩٨ـ١٣٠١هـ/ ١٨٨١ـ١٨٨٤م)

شهدت مدينة الطائف في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي واحدًا من أهم الأحداث الداخلية في الدولة العثمانية وهو سجن أحمد شفيق مدحت باشا (١٢٣٨ـ١٣٠١هـ/١٨٢٢ـ١٨٨٤م) الصدر الأعظم السابق وأبو الدستور العثماني وأحد أهم رجالات الدولة العثمانية أنذاك ، فهو كما يصفه مؤرخ الدولة العثمانية المعاصر الأشهر الأمريكي البروفيسور ستانفورد شو بأنه يشبه مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية وأحد أعظم رجالات عهد التنظيمات العثمانية وصاحب الرؤية والجرأة والذي كانت لديه الحماسة العالية لإحداث إصلاحات كبرى سواءً في أنظمة الأقاليم العثمانية أو داخل الحكومة المركزية في استانبول[٣] .

كان مدحت باشا الشخصية الأكثر تأثيرًا في عهد التنظيمات التي ساهمت بشكل كبير في إصدار الدستور «المشروطية» العثماني في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) كما كان له دور كبير في خلع السلطان عبد العزيز (١٢٧٧ـ١٢٩٣/ ١٨٦١ـ ١٨٧٦م) والسلطان مراد الخامس (١٢٥٣هـ ٣ أشهر/ ١٨٧٦م)

---

(1) OCHSENWALD, *Ibid.*, p.139.

(٢) دحلان : المرجع السابق ، ٣٢٠، الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٩٩.

(3) STANFORD SHAW, EZEL SHAW, *History of The Ottoman Empire and Modern Turkey,* Cambridge Univ. Press 1977, Vo.2 pp.66, 181, 216-217.

وتنصيب السلطان عبد الحميد الثاني سلطانًا[١] .

في بداية تولي عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم كان يبدي تقديره لمدحت باشا لأنه كما يقول السلطان نفسه في مذكراته : «اكتسب تقديرنا جميعًا بحسن إدارته وقد عينته في منصب الصدارة العظمى لأنه كان محل ثقة العموم وقد كانت الأمة تزعم أنها قد وصلت إلى رشدها»[٢] . غير أن ذلك تغير فجأة وتحول مدحت باشا إلى عدو رئيس للسلطان ، لأن الأخير ظن أن مدحت باشا يسعى إلى الإطاحة به وإعادة السلطان مراد إلى السلطة وأنه أي مدحت باشا يسعى إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية (الخلافة) من السلطنة العثمانية بحيث لا يكون السلطان خليفة كل المسلمين في المعمورة بل سلطانًا فقط على الأمة العثمانية[٣] . كما أن السلطان عبد الحميد ذكر صراحة في مذكراته : «أنه وجد مدحت باشا ينصب من نفسه ومنذ اليوم الأول آمرًا عليّ ووصيًا وكان في معاملته معي بعيدًا عن المشروطية وأقرب إلى الاستبداد»[٤] . وفي موقع آخر من مذكراته يرى السلطان عبد الحميد الثاني أن مدحت باشا رغم أنه كان واليًا جيدًا إلا أن إدارته السياسية كانت خاطئة وأنه كان كثير الاختلاط بالذين كان السلطان نفسه ووزرائه يرتابون منهم ، إضافة إلى «أن الإشاعات والأراجيف والتي كانت تشكك في السلطان الشرقي والأحكام الدستورية الشرقية تخرج من فم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره[٥]» .

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقي ، بيروت ـ دار النفائس ١٩٨١م ، ٥٧٥-٥٧٧، ٥٨٤-٥٨٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم وترجمة د.محمد حرب ، دمشق ـ دار القلم ١٩٩١م ، ٧٠-٧٣.

(٣) المحامي : المرجع السابق، ٥٩٣.

(٤) حرب : المرجع السابق، ٧٦.

(٥) المرجع نفسه، ٧٥.

لهذه الأسباب مجتمعة قرر السلطان عبد الحميد الثاني عزل مدحت باشا من الصدارة العظمى ونفيه إلى خارج حدود الدولةالعثمانية وذلك في ٢١ محرم ١٢٩٤هـ/ ٥ فبراير ١٨٧٧م استنادًا إلى المادة (١١٣) من القانون العثماني الأساسي الذي يمنح السلطان حق نفي من يرى أنه ثبت عليهم أنهم أخلوا بالأمن[١] .

وقد ذكر مدحت باشا ذاته في مذكراته أن أحد أسباب عزله من الوزارة ونفيه إلى أوروبا هو : « أن أحد الجواسيس سمع ضابطًا يقول لرفيقه في إحدى المقاهي أني سأكون رئيس جمهورية و لهذا قدم عمر فوزي باشا ناظر الضابطة جورنالين للسلطان وقع عليهما بخاتمه لإبعادي خارج البلاد »[٢] .

لم يطل منفى مدحت باشا في أوربا بل عفا عنه السلطان عبد الحميد بعد أقل من عام وخصص له مبلغًا ماليًا شهريًا قدره (٢٠٠) ليرة وأمر أن تكون إقامته في جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك في غرة شهر شوال من عام ١٢٩٥م. وبعد إقامة لم تطل أكثر من شهرين في الجزيرة أوكل السلطان لمدحت ولاية سوريا. وبعد سنتين من ولايته في سوريا نقله السلطان إلى ولاية أزمير واليا لها[٣] .

لم تستمر العلاقة الودية بين السلطان عبد الحميد الثاني ومدحت باشا كثيرًا، فلقد كان السلطان يرى في بقاء مدحت في مناصب رفيعة في الدولة تهديدًا له ولحكمه وفي المقابل لم يكن مدحت يطمئن إلى سكوت السلطان عنه وإبقائه في مناصب رسمية رفيعة خاصة وأن محاولات مدحت باشا لإعادة العمل بالدستور

---

(١) المحامي : المرجع السابق، ٥٩٣.

(٢) يوسف كمال بك ، ود . صديق الدملوجي : مدحت باشا ، حياته ، مذكراته ، محاكمته ، بيروت ـ الدار العربية للموسوعات ٢٠٠٢م، ٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ٤٨ـ٤٩، ٥٧.

العثماني الذي سبق للسلطان أن عطله، لم تهدأ فأدى كل ذلك إلى قطع العلاقة كلية بين الاثنين والقبض على مدحت باشا ومحاكمته(١).

وقد أشار السلطان عبد الحميد في مذكراته إلى الأسباب التي دعته إلى عزل ومحاكمة مدحت باشا بقوله: «مدحت باشا كان واليًا جيدًا، ولكن إدارته السياسية كانت خطأ، كان كثير الاختلاط بهؤلاء الذين كان السلطان والوزراء يرتابون منهم، وكانت الإشاعات والأراجيف التي تشكك ليس في سلطان شرقي فحسب بل وفي أكثر حكام الشرق دستورية تخرج من فم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره». ثم يشير إلى جانب آخر في تخوفه من مدحت باشا بقوله: «باشتراك مدحت في عملية خلع عمي السلطان عبد العزيز انتقل بذلك من مصاف رجال الحكم إلى عداد الثوار ولا يستطيع أي حاكم أن يثق في رجل اشترك في عملية خلع حاكم حتى ولو كان الحاكم الجديد خصم للحاكم القديم»(٢).

ولإيجاد المبررات اللازمة لإبعاد مدحت باشا فقد الصقت به تهمة المشاركة في مقتل السلطان عبد العزيز والتي قام بها مصطفى آغا واثنين من أعوانه بإيعاز من الداماد محمود جلال الدين باشا ونوري باشا بعلم وتدبير من مدحت باشا نفسه(٣).

تعددت آراء المؤرخين حول حقيقة الأسباب التي دفعت السلطان عبد الحميد واتهامه لمدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز ومن ثم القبض على مدحت باشا ومحاكمته فمنهم من أرجع ذلك إلى تخوف السلطان من مدحت باشا وآخرون

---

(1) SHAW, *Ibid*, vol.2, p.216.

(٢) حرب: المرجع السابق، ٧٥-٧٦.

(٣) أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، بغداد - مكتبة دار الأنبار ١٩٨٧م، ١٨٢-١٨٣.

يرون أنه كان ضروريًا التخلص من مدحت لأنه أصبح بلوى مسلطة على رأس الدولة وأنه كان ما يزال يهدد الدولة بواسطة انكلترا»[١] .

كان السلطان عبد الحميد مقتنعًا بأن السلطان عبد العزيز لم يمت منتحرًا كما يقال بل مات مقتولًا وأن تقرير الطبيب الشرعي لم يكن واضحًا بل به من الثغرات ما يمكن التشكيك في نتائجه فلن يستطيع كما يقول السلطان عبد الحميد «المنتحر قطع شرايين ذراعيه الاثنين وقد لفت ذلك انتباه الأطباء في ذلك الوقت»[٢] .

يروي مدحت باشا ليلة القبض عليه بقوله : «بينما كنت مشغولًا في أعمالي الرسمية أخبرت بأن ضابطًا برتبة رئيس أول واسمه حسن بك من حرس السلطان عبد الحميد قد وصل إلى أزمير وأنه مكلف من السلطان بالقبض عليَ وأن لديه فوجًا من العساكر النظامية وفوجين من عساكر الرديف وقد حاصروا منزلي ليلًا فتسللت من باب سري واتجهت إلى القنصلية الفرنسية طالبًا الحماية»[٣] . وكان ذلك في ليلة ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ (١٦ مارس ١٨٨١م) .

لم يطل مقام مدحت باشا في القنصلية الفرنسية فقد أبلغت وزارة الخارجية الفرنسية قنصلها في أزمير بأنه ليس هناك حاجة إلى امتناع تسليم مدحت باشا إلى حكومته طالما أنه،بحسب قولها أنه أي مدحت لا يمانع ذلك، وبعد ليلتين فقط أمضاهما مدحت باشا في القنصلية الفرنسية حضر اللواء حلمي باشا وتسلمه وقاده مخفورًا إلى القشلة (الثكنة) العسكرية ومن هناك نقله وزير العدل جودت باشا إلى استانبول عن طريق البحر حيث وصلها ليلة ٢٢ مارس[٤] .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ـ منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ١٩٩٠م ، ٢: ١٢٧.

(٢) حرب : المرجع السابق ، ٨٨.

(٣) حتاته : المرجع السابق ، ٨٥ـ٨٦، محمد علي : المرجع السابق ، ١٨١.

(٤) حتاته : المرجع السابق ، ٨٨، محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٢.

بعد وصول مدحت باشا إلى استانبول في ليلة ٢٣/٢٢ مارس أمر السلطان عبد الحميد الثاني ببدء التحقيق معه بحجة تسببه في مقتل السلطان عبد العزيز، وذلك بعد أكثر من خمس سنوات من وفاة السلطان عبد العزيز فتشكلت هيئة تحقيق برئاسة أعدى أعداء مدحت باشا سرور أفندي وعضوية كل من المدعي العام العثماني لطيف بك ومصاحب السلطان عبد الحميد راغب بك وثلاثة محققين من وزارة العدلية استمرت في عملها اثنى عشر يومًا وصفت مدحت باشا بأنه كان يرمي إلى إلصاق جريمة مقتل السلطان عبد العزيز بالسلطان مراد الخامس، كما إتهمته بمسؤوليته في مقتل السلطان عبد العزيز وسعيه إلى تغيير شكل الدولة وإقامة حكم جمهوري»[1].

وبعد أن اكتمل التحقيق أبلغ راغب باشا مدحت باشا وخمسة عشر متهمًا آخر من ذكور وإناث[2] بلائحة الاتهام والتي وصفها مدحت باشا: «بأنها أشبه برواية جنائية مُثلت على مسرح العدالة وأنها لا تعدو أن تكون مجموعة من المفتريات والأكاذيب حافلة بالتغيير والتحريف والشطب والزيادة والنقصان وأنها تتضمن واحدًا وستين تحريفًا وأكذوبة»[3].

بدأت المحكمة أعمالها يوم الاثنين ٢٧ يونيو ١٨٨١م الموافق ٣٠ رجب ١٢٩٨هـ في قصر مالطة وهو جزء من قصر يلديز الذي كان سجنًا لكافة المتهمين وقد عرفت المحاكمة باسم محكمة يلديز. واستمرت المحاكمة لمدة ثلاثة أيام فقط برئاسة سروري باشا وخرستو فوريدي أفندي الرئيس الثاني للمحكمة وعضوية توفيق أفندي وأمين أفندي وحسين بك والأرمني قفور أفندي[4].

---

(١) لتفصيل أكثر عن التحقيق وأسئلة اللجنة، حتاته: المرجع السابق ٨٩-١٠١.

(٢) لمعرفة أسمائهم يرجع إلى، محمد علي: المرجع السابق١٨٠- ١٨١.

(٣) حتاته: المرجع السابق، ١٠١.

(٤) المرجع نفسه، ١٠٥-١٠٦.

خلصت أعمال المحاكمة إلى إصدار أحكام بإعدام كل من مدحت باشا والداماد[١] محمود جلال الدين باشا صهر السلطان عبد الحميد والداماد نوري باشا وهو أيضًا صهر للسلطان (كلاهما كانا متزوجين من أختين من أخوات السلطان عبد الحميد الثاني) وأشخاص آخرين ليسو بذات أهمية هؤلاء الثلاثة ثم استبدلت أحكام الإعدام على الثلاثة إلى السجن المؤبد مدى الحياة في قلعة الطائف في الحجاز[٢].

وأن استبدال حكم الإعدام بالسجن المؤبد كان بأمر مباشر من السلطان عبد الحميد الثاني الذي يصف ذلك نصًا بقوله: «أخذت علمًا بسير المحاكمة ونتيجتها أأعفو عن مدحت باشا لاشتراكه في قتل عميّ السلطان عبد العزيز ولكني لا أستطيع العفو عن وزير وصدر أعظم عثماني يتعاون مع دولة أجنبية لا بد أن موقفه أثناء القبض عليه ورغبته اللجوء إلى القنصلية الإنجليزية جعلاه يفصح بوضوح عمن يثق به وعمن يخدمه. ومع كل ذلك فإني تذكرت خدماته التي قدمها للدولة أثناء ما كان واليًا وخففت حكم الإعدام الصادر ضده إلى السجن»[٣].

كان اختيار الطائف لسجن مدحت باشا ورفاقه من قبل السلطان عبد الحميد الثاني ربما يعود إلى أسباب عدة منها بعد الطائف عن العاصمة استانبول وهو ما يجعل السلطان وحكومته في أمان من محاولة تهريب مدحت أو تأثير مدحت على مؤيديه وكبار رجالات الحكومة، إضافة إلى حصانة الطائف ووجود حامية

---

(١) داماد لقب الصهر والنسب والمتزوج من ابنة السلطان وكان في العادة من كبار رجال الدولة العثمانية، سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض ـ مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ، ١٠٩.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ٢: ١٢٧.

(٣) حرب: المرجع السابق، ١١١-١١٢.

عثمانية كبيرة تبلغ (٣٠٠٠) جندي كونها أي الطائف كانت أحد المراكز العسكرية الرئيسية للحكم العثماني في إقليم الحجاز إبان فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم[1] . كما أن اختيار الطائف قد يبعد أي تهم قد توجه للسلطان فيما لو مات أو قتل مدحت باشا ورفاقه كون الطائف بعيدة جدًا عن مركز إقامة السلطان وصعبة التواصل مع العاصمة .

وصل مدحت باشا ورفاقه المحكومين إلى الطائف في بداية شهر رمضان من عام ١٢٩٩هـ/ ٨ يوليو ١٨٨١م وسجنوا في قلعتها الرئيسية الواقعة في منطقة باب الريع .

وقد استمرت مدة بقاء مدحت باشا في سجنه في الطائف ثلاث سنوات ؛ التفها الغموض وسرت عنها شائعات وأقاويل وقصص خيالية وبأسلوب روايات ومغامرات وكلها تتمحور حول كيفية التخلص من مدحت باشا ورفاقه مرة بدس السم له في الحليب الذي يشربه ، ومرة في الطعام الذي يتناوله ، ومرة برشوة خادمه المكلف بخدمته في السجن بترك الباب مواربًا للحراس ليتمكنوا من الدخول علي مدحت ليلًا وقتله[2] .

كما أن بعض المصادر التاريخية المعاصرة تميل إلى تصديق الأخبار التي ترددت أنذاك من أن إنجلترا حاولت إنقاذ مدحت باشا من سجنه في الطائف وتهريبه إلى أوربا بأرسالها طرادًا حربيًا إلى مياه جدة مهمته إنقاذ مدحت باشا ورفيقه الدماد محمود باشا وأنه تم القبض في الطائف على شخص إنجليزي متنكر بزي عربي كان مبعوثًا من إنجلترا لإنقاذ الاثنين[3] .

---

(1) AL-AMR, *Ibid.*, pp.91-93.

(٢) محمد علي : المرجع السابق، ١٨٧.

(٣) أوزتونا : المرجع السابق، ٢: ١٢٩.

لكن ومن خلال مذكرات كل من السلطان عبد الحميد الثاني والتي ترجمها وحققها الدكتور محمد حرب ومذكرات مدحت باشا التي كتبها إبان فترة سجنه في الطائف وتم تسريبها إلى أهله وترجمها وحققها يوسف حتاته وصديق الدملوجي، فيتضح أن فترة سجن مدحت باشا شهدت فترات تجاذب ما بينه وبين السلطة العثمانية المركزية في استانبول والسلطة العثمانية في الحجاز سواء المتمثلة في شخص والي الحجاز عثمان نوري باشا أو شريف مكة المكرمة الشريف عبد المطلب بن غالب. من ذلك ما يرويه مدحت باشا عند بداية وصوله إلى سجن الطائف حيث يقول نصًا: «وكتب المابين[١] إلى الشريف وإلى الوالي أمرًا قال لهما فيه أن هؤلاء قد نفوا والمابين يخشى فرارهم فلا تغفلوا أمر مراقبتهم، فأمر الشريف بوضع قيود الحديد في أرجل رفاقنا ثم أمر برفعها فأُخذت لأن مرضهم قد اشتد وسدوا النوافذ بالحديد»[٢].

مذكرات مدحت باشا مليئة بالوصف الدقيق للمعاناة التي وجدها في سجنه والمعاملة التي كان يلقاها من حراسه ومن السلطة العثمانية ومن ذلك التضييق عليه وعلى رفاقه في استلام الرسائل البريدية أو المبالغ النقدية المرسلة لهم من أسرهم أو التدخل في طعامهم وشرابهم والتي وصلت إلى محاولة تسميمهم من قبل والي الحجاز الذي كان يهدف الي نيل مكافأة دنيوية.

حتى في مرضه يقول مدحت باشا أن السلطان العثماني وسجانيه لم يقدموا له العناية أو الرعاية التي يحتاجها مما أدى إلى اشتداد حالة المرض حتى أصبحت

---

(١) المابين هو القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين جناح الحريم وما بين الدوائر الخارجية وهو المكان الذي كان يقضي فيه السلطان يومه وترفع إليه فيه القضايا من قبل الصدر الأعظم ليأمر بما يراه، صابان، مرجع سابق، ١٩٨.

(٢) حتاته: المرجع السابق، ١٢٢.

خراجًا أوصله إلى «براثن الموت» وأنه كان يتمنى الموت لأنه كما يراه فيه لذة مفارقة الحياة(١).

في ليلة ١٠-١١ من شهر رجب سنة ١٣٠١هـ الموافق ٦-٧ مارس ١٨٨٤م وبعد ثلاث سنوات سجن توفى مدحت باشا من ورم خبيث في جنبه يحتمل أن يكون سرطانًا حسب رواية السلطات العثمانية أو خنقًا حسب رواية آخرين منهم رفقائه في السجن كشيخ الإسلام السابق خيري أفندي وفخري بك(٢)، وكان قد خنق معه أيضًا الدماد محمود باشا وقد صادرت السلطة العثمانية أموال مدحت باشا وباعتها في السوق بعد أن نهب الموظفون منها ما نهبوا(٣).

وأن موت مدحت باشا بتلك الطريقة الغامضة تحول إلى اتهام ضد السلطان عبد الحميد الثاني من كل أنصار مدحت ومن جماعة العثمانيين الأحرار الذين نجحوا بعد ذلك في إسقاط السلطان نفسه من الحكم وإعادة العمل بالدستور، كما أن دول أجنبية أخرى بما فيها إنجلترا شككت في الرواية الرسمية للسلطات العثمانية حول موت مدحت باشا وهو ما دفع السلطان إلى نفي الاتهام خاصة بعد عزله من السلطة. ففي مذكراته المنشورة يقول: «يدّعون أن مدحت باشا ومحمود باشا خنقا ذات ليلة في سجون قلعة الطائف بأيدي ضباط وجنود معروفين بالاسم. وحتى لو كان هذا صحيحًا فليس لي دخل فيه بل ولا أرضي عنه»(٤).

كما أن السلطان وفي محاولة نفي اتهامه بمقتل مدحت باشا يسعى إلى إسقاطها على أمير مكة المكرمة الشريف عبد المطلب الذي يصفه بأنه كان من

---

(١) المرجع نفسه، ١٢٧، ١٣٢-١٣٣.
(٢) محمد علي: المرجع السابق، ١٨٧-١٨٨.
(٣) حتاته: المرجع السابق، ١٣٦.
(٤) حرب: المرجع السابق، ٩١.

أعدى أعداء مدحت باشا ومحمود باشا وأن الشريف عندما أمر بوضع الحديد في أرجل الإثنين فإن السلطان هو الذي أمر برفعه وأن ذلك كان سببًا في عزل الشريف من إمارة مكة المكرمة بواسطة والي الحجاز عثمان نوري باشا . بل ويروي السلطان رواية على لسان الشريف عبد المطلب يقول فيها أن عبد المطلب أرسل إليه يخبره بمحاولة حدثت من بعض الأجانب تهدف إلى تهريب مدحت باشا ومحمود باشا إلى مصر وأن الشريف عبد المطلب منع ذلك وقد أبلغ السلطان واليه على الحجاز بالتنبه إلى الأمر مع عدم إيذاء المتهمين أو الضغط عليهم مراعاة لما تقتضيه الإنسانية . ويختم السلطان قوله نافيًا أي علاقة له بموت أو مقتل مدحت باشا . أعود فأكرر أني كتبت هذه الأسطر ليس من أجل ذاتي وإنما من أجل حماية اسمي من هجاء غير عادل[١] .

وعودة إلى موت مدحت باشا ؛ فما ورد في مذكراته هو أو ما نقلته مصادر تاريخية عن الكيفية التي مات بها فالشك لا زال قائمًا حول إن كان موتة موتًا طبيعيًا أم أنه خنق هو ورفيقه محمود باشا من قبل الحراس المكلفين بسجنهم في قلعة الطائف، وإن كان يبدو أن ما تذكره بعض المصادر المعاصرة من أن مدحت باشا ورفيقه ماتا مقتولين لكن ليس بأمر السلطان عبد الحميد ذاته بل من قبل السلطات العثمانية في إقليم الحجاز التي خشيت من تهريب إنجلترا ، لهما خاصة بعد أن علم السلطان عبد الحميد بذلك وأرسل برقية شديدة اللهجة إلى والي الحجاز عثمان نوري باشا يحذره بأنه لن يقبل منه أي عذر فيما لو أن مدحت باشا نجح في الهروب من سجنه والخروج من الطائف ، فأقدم الوالي على اغتيال مدحت باشا لكي ينهي المسألة من أساسها ويتخلص من عتاب السلطان إن نجح مدحت باشا في الهرب بمعاونه إنجلترا[٢]، أكثر قربًا من الحقيقة .

---

(١) المرجع نفسه ، ٩١-٩٢.

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٩.

نفي وسجن مدحت باشا ومقتله في قلعة الطائف جعل الطائف أنذاك في قلب الأحداث سواءً داخل الدولة العثمانية أو خارجها فمدحت باشا كان أحد أهم وأعظم رجالات الدولة العثمانية في فترة التنظيمات وهو الذي أعد وأخرج الدستور العثماني في عام ١٨٧٦م ، وهو ما يطلق عليه العثمانيون وغيرهم أبو الدستور وقد تحول مع الزمن إلى أيقونة للأحرار العثمانيين ولمعارضي السلطان عبد الحميد الثاني[١] ولمن أتى بعدهم والذين نجحوا في إسقاط حكم الأخير وإعادة العمل بالدستور فيما عرف بالمشروطية الثانية .

مشاركة الطائف في أحداث الثورة العربية الكبرى

في فجر يوم السبت التاسع من شهر شعبان عام ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ يونيو ١٩١٦م أطلق الشريف الحسين بن علي أمير مكة المكرمة رصاصة إعلان الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ، فأعلنت في مكة المكرمة والطائف وجدة وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز[٢] . وهاجمت القوات العربية الثكنات العسكرية العثمانية في كامل أنحاء وأحياء مكة المكرمة ومنها التي في حارة جرول وقلعة أجياد ومركزي الحميدية والصفا وحاصروا الجنود العثمانيين داخلها وقطعوا عنهم كل إمدادات ووسائل الاتصال من هاتف وبرقيات مطالبين الأتراك بالخروج من الثكنات والتسليم لجنود الثورة[٣] . وسقطت قاعدة جرول في اليوم التاسع للثورة وأُسر فيها ألف ومائتا جندي وضابط تركي ، وأما قلعة أجياد فقد هوجمت وأخذت عنوة بعد تجرؤ قائدها اليوزباشي (النقيب) كامل أفندي على ضربه البيت الحرام[٤] .

---

(١) أوزتونا : المرجع السابق ، ١٢٨.

(٢) عبد الله بن الحسين (الملك) : الآثار الكاملة ، عمان ـ الدار المتحدة للنشر ١٩٨٥م ، ١١٦.

(٣) الغازي : المرجع السابق ، ٢٩٥-٢٩٦؛ أحمد السباعي : تاريخ مكة ، الرياض ـ الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ ، ٢: ٦٨١.

(٤) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ص ١١٧.

كما بدأت المناوشات والاشتباكات بين القوات العربية التابعة للشريف الحسين في بقية مدن الحجاز ومنها المدينة المنورة وكانت القوات التي تحاصر المدينة المنورة تحت قيادة ابنيّ الحسين الشريف فيصل والشريف علي كما كان الابن الثالث الشريف عبدالله يقود القوة العربية التي تحاصر القوات التركية في مدينة الطائف. ولم تسلم مدينة جدة أيضًا حيث حاصرتها القوات العربية بمساعدة ثلاث بوارج بريطانية قامت بضرب تحصينات الحامية التركية وقد ساهم ذلك تسريع تسليم الحامية التركية بعد ثلاثة أيام فقط من بدء الاشتباكات[١].

كانت قيام الثورة العربية وتحت قيادة الحسين كنتيجة لعوامل عدة فصلها المؤرخون[٢] في تسجيل إرهاصاتها وبدايات انطلاقة شرارتها الأولى، لكن ما يهمنا في هذا المقام هو أن ما دفع الشريف الحسين إلى الثورة ومهاجمة العثمانيين إنما هو سياسة الاتحاديين الذين كانوا يسيطرون على كل مقدرات وشؤون الحكم في العاصمة العثمانية استانبول الذين سعوا إلى الضغط على الشريف الحسين لعدم اتفاقه معهم في سياساتهم العدائية ضد العرب بل إنهم سعوا إلى عزله من وقت مبكر خاصة بعد إصدار قانون الولايات الجديد الصادر عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ) عندما عينوا وهيب باشا واليًا على الحجاز وهو المعروف بصرامته وشدة تحمسه لمبادئ جمعية الاتحاد والترقي وجمعوا له السلطتين التنفيذية والإدارية وتزويده بعدد من القوات مع تعليمات بإضعاف ما للشريف الحسين أمير مكة المكرمة أنذاك من نفوذ والقبض عليه إن استدعى الأمر إضافة إلى إلغاء الامتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للحجاز[٣].

---

(١) السباعي: المرجع السابق، ٢: ٦٨٢.

(٢) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، القاهرة - مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٤م.

(٣) وهيم طالب محمد: تاريخ الحجاز السياسي، ١٩١٦-١٩٢٥م، بيروت - الدار العربية للموسوعات ٢٠٠٧م، ٣١.

وفيما يتعلق بالطائف ودورها فلقد كان لها دورًا محوريًا في أحداث الثورة العربية منذ إرهاصاتها المبكرة، حيث كانت المراسلات الأولى التي تتم بين الشريف الحسين وبريطانيا تتم من الطائف حين أرسل السيد رونالد ستورز أحد موظفي القنصلية البريطانية في القاهرة رسالة إلى الشريف عبدالله بن الحسين في الطائف يعرض فيها استعداد بريطانيا العظمى إمداده ووالده الشريف حسين بكل ما هم في حاجة إليه لإعلان استقلال العرب استقلالًا تامًا عن الدولة العثمانية وكان ذلك في ١٩١٤/١١/١م الموافق ١٣٣٢/١٢/١٢هـ، وبعدها بشهر عاد السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر إلى إرسال رسالة أخرى يؤكد فيها استعداد بريطانيا لمساعدة العرب لنيل الاستقلال[1]، وكلا الرسالتين كانتا موجهتين إلى الشريف عبدالله لعرضهما على والده الشريف الحسين بن علي وهما في الطائف.

كما أن الطائف كانت مقر لما عرف باسم «مؤتمر الطائف» وهو المؤتمر الذي عقده الشريف الحسين في شهر محرم١٣٣٤هـ/ ديسمبر ١٩١٥م بحضور أبنائه فيصل وعبد الله وعلي وبعض المقربين إليه لتدارس الأوضاع في ظل الوعود البريطانية وسياسة الاتحاديين الأتراك العدائية ومطالب القوميين العرب في بلاد الشام، وكانت قرارات المؤتمر كما يلي:

١) إعلان الثورة على العثمانيين بالتعاون مع الإنكليز على شروط يتفق عليهامع الأخيرين.

٢) يعود الأمير فيصل إلى دمشق لإكمال مباحثاته مع القوميين العرب وللاتفاق على التفاصيل.

---

(١) هنادي يوسف غوانمة: المملكة الهاشمية الحجازية، عمان ـ دار الفكر للنشر والتوزيع ١٩٨٩م، ٥٥ـ٥٦.

٣) يتولى الأمير عبدالله تنظيم القبائل في مكة المكرمة والطائف .

٤) يتولى الأمير علي تنظيم القبائل حول المدينة المنورة .

٥) يبدأ الشريف الحسين مباحثاته مع الإنكليز في مصر تمهيدًا للوصول إلى الاتفاق النهائي[١] .

قام الأمير عبدالله بمهامه التي أوكلها إليه مؤتمر الطائف فأخذ يكمل استعداداته في الطائف بتنظيم قبائلها وكان ذلك بعلم ومشاهدة الوالي العثماني للحجاز الفريق غالب باشا الذي لم يكن يدرك رغم شكه أن ذلك إنما هو استعداد لأحداث جلل ستغير الكثير من الواقع القائم آنذاك[٢] . وقد استخدم الأمير عبدالله معه أسلوب التعمية حينما أعلمه بأنه ما قدم إلى الطائف بقواته العربية إلا من أجل تأديب قبيلة البقوم ، وقد كان أمير الطائف من قبل الشريف الحسين بن علي الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر ويساعده الشريف حسين الجودي من الأشراف ذوي جود الله[٣] .

بدأت مشاركة الطائف في الاشتباكات الفعلية في الثورة العربية بعد إعلان الشريف الحسين لها في مكة المكرمة وكانت القوات العربية تحت قيادة الأمير عبد الله ابن الحسين حين خرج من داخل الطائف إلى خارجها حيث معسكره في منطقة القديرة إحدى ضواحي الطائف آنذاك وحي من أحيائها في أيامنا هذه لغرض حصار شامل عليها وعلى الثكنات العسكرية التي كان يقيم فيها الجنود الأتراك وذلك في اليوم الثاني لإعلان الثورة في مكة المكرمة أي في العاشر من شهر شعبان ١٣٣٤هـ .

---

(١) أمين سعيد : المرجع السابق ، ٥٧، هنادي : المرجع السابق ، ٦٢، وهيم طالب : المرجع السابق ، ٤٩- ٥١.

(٢) وهيم طالب : المرجع السابق ، ٥٧.

(٣) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١١٧- ١١٨.

كانت قوات الأمير عبد الله تتكون من (٧٠) هجانًا عقليًا يرافقونه وأقام ثلاثة من القبائل أقامها على النحو التالي : قبائل بني سعد من عتيبة وكان رئيسهم الشيخ تركي بن هليل في الشمال الغربي من الطائف ويدخل فيه الشرق والقسم الجنوبي وهو مؤلّف من قبائل عوف وثمالة وبني سفيان وهذيل والقسم الثالث وهو الغربي ومؤلف من قبائل قريش وطويرق والنمور[١] .

في ليلة السبت الحادي عشر من شهر شعبان ابتدأ هجوم القوات العربية من الجبهة الشمالية والتي كان يديرها الأمير عبدالله شخصيًا فقامت القوة العربية بقطع وسائل الاتصال البرقية عن الطائف وكانت القوات التركية قد أحكمت تحصين سور الطائف وحفروا خندقًا متهجًا من الشرق إلى الغرب إلى منطقة معشي ثم ينحرف جنوبًا إلى هضبة أم السكارى في منطقة قروة ثم يتجه شرقًا بمحاذاة برج غلفة بالقرب من باب الريع ويتجه إلى الشمال ليوازي وادي وج ويستمر غربًا حتى يتصل بطرفه الآخر محكمًا مناعة السور[٢] . فخرجت بعض القوات التركية إلى جبال أم الشيع والمداهن وشرقرن في شمالي الطائف وهضبة أم السكارى في الغرب منها[٣] .

كان هجوم القوات العربية عنيفًا فقد قدمت البواردية الخواص وهم الرماة يتقدمهم راقي بن عفار ومن معه من فرع الثبتة الجوازي والقشمة الغشاشمة والروانية وبنو سعد وآمرهم جميعًا الشريف سلطان بن راجح حيث عاد المهاجمون بأسرى وغنائم[٤] .

---

(١) الغازي : المرجع السابق، ٤: ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق، ١٢١.

(٣) الغازي : المرجع السابق، ٤: ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق، ١٢١.

وعلى مدى ثلاثة أشهر استمرت المناوشات والاشتباكات والمفاوضات ما بين الطرفين فبعد أيام من بدء القتال وصلت للقوات العربية إمدادات جديدة من الأسلحة والمتمثلة في عدد من البنادق في الوقت الذي تمكنت فيه القوات التركية من الاستيلاء على منطقة الشهداء وهي إحدى أحياء الطائف الكبرى في أيامنا هذه وتقع في الجنوب الشرقي من الطائف ولم تتمكن القوات العربية بقيادة الشيخ فاجر بن شليويح الروقي من عتيبة من إخراجهم من المنطقة بسهولة إلا بعد أن قتلت منهم (٤٨) جنديًا وفي مكان أخر من الطائف تمكنت قوات من قبائل هذيل الطلحات وآل حجة من بني سفيان من إخراج الترك من هضبة أم السكارى بعد أن قضوا على حاميتها بأكملها حيث لم ينجُ منها أحد ، واستولت القوات العربية على مدفعين من أسلحة القوات التركية مما أدى إلى انسحاب قوة تركية أخرى كانت مرابطة في جبال أم الشيع والمداحين وشرقرق فاستولت عليها القوات العربية[1] .

لم يفت ذلك في عضد القوات التركية بل ردت مدفعيتهم بقوة على المهاجمين ، فلم يتمكن قبائل بنو سعد من تحقيق أهدافهم في الجهة الشمالية من الطائف ، فاضطروا إلى التراجع إلى نواح منطقة شبرا . كما تمكنت القوات التركية من إحراق قصور إمارة مكة المكرمة السبعة . وبعد أن طال القتال أمر الأمير عبدالله بعد تهدئته لقواته مما حققته القوات التركية ، أمر بالهجوم على الجهة الجنوبية والجهة الغربية ، وكان على رأس قوة تلك الجهات الشريف فهد بن شاكر ، ومعه عشائر النمور وهديل وبني سفيان ولما بدأ سلاح الطرفين ينفذ تخوف الأمير عبدالله بن انسحاب القوات التركية إلى مكة المكرمة عن طريق جبل كرا أمر الشريف فهد بقطع طريق كرا[2] .

---

(١) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١٢٣. الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٣١٠.

(٢) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١٢١- ١٢٢.

ثم تواصلت إمدادات السلاح تتدفق إلى القوات العربية حيث وصلها في النصف الثاني من شهر رمضان ستة مدافع وستة رشاشات وفي شهر شوال وصلها مدفع ضخم من طراز (هاوترز) وهو ما مكنها في العاشر من شهر ذو القعدة من إجبار القائد التركي للحامية العثمانية إلى التسليم والقبول بالشروط التي وضعتها القوات العربية على أن يخرج هو ومن معه من الضباط وكانوا قرابة الخمسين ضابطًا حيث لجأوا إلى منطقة شبرا إحدى ضواحي الطائف أنذاك وهي من أحيائها في وقتنا الحاضر وفي القلب منها[1] .

بعد ذلك قامت القوات العربية بمهاجمة الثكنة العسكرية التركية الرئيسية في الطائف وهي ثكنة (قشلة) حصينة مربعة الشكل مساحتها حوالي (٢٥٠) متر في الطول و(٢٥٠) مترًا في العرض وهي متصلة بخنادق عميقة وفي مرتفع في أعلاها من جهة منطقة باب الريع من الجهة الجنوبية[2] قلعة ذات أبراج أربعة وعليها أربعة مدافع من طراز (كروب) فاضطر قائد القوات التركية الفريق غالب باشا إلى التسليم فأرسل رسالة إلى الأمير عبدالله يقول فيها :

(إلى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبدالله بن الحسين أنه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء ولذلك أرجو قبول هيئة منّا لنتذاكر معكم في معاملة التسليم والتسلم وفق الحرب الدولية أو تتكرموا بإرسال هيئة منكم إلينا . بإمضاء قومندان القوة العثمانية المحصورة ، الفريق غالب باشا)[3] .

---

(١) الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٣١٠-٣١١.

(٢) شاهدها الباحث في صغره وشبابه ولم يتم هدمها حتى وقت قريب جدًا في عهد الملك خالد بن عبد العزيز (١٣٩٥-١٤٠٢هـ) في عام ١٣٩٧هـ حيث استبدلت القشلة والقلعة بما يعرف بمجمع الوزارات وهي مباني لفروع الوزارات عند قدومهم للطائف في فصل الصيف .

(٣) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١٢٤-١٢٥.

فجاوبه الأمير عبدالله بالموافقة، ثم أرسل غالب باشا القائد سليمان بك ورئيس أركان الحرب ناظم بك وأمير الاي حيدر بك[١]، فحضروا إلى قصر الشريف فتن بن محسن في الميساء وكان يرأس الهيئة العربية المفاوضة القائد سعيد المدفعي ومعه الرئيس (النقيب) فؤاد والملازم أحمد حلمي فتقرر التسليم على الشروط التالية:

١ـ يخرج الوالي والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشي[٢] في تلك الليلة إلى قصر شبرا.

٢ـ تترك الطوابير (الفرق) تحت قيادة الرؤساء اليوزباشيه[٣] والملازمين الأولين والملازمين الثانين.

٣ـ تتراجع تلك الطوابير في منتصف الليل إلى الثكنة الكبرى وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية بقيادة الأشراف فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودي لتحتل الأبواب وتؤمن السلام والأمن العام.

٤ـ مع الفجر يتقدم القائد التركي سعيد بك ومن معه ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع فتودع في مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر.

٥ـ تتكفل القيادة العربية بالإعاشة والتموين.

٦ـ تصرف للهيئة المستسلمة مرتبات ثلاثة أشهر.

٧ـ تُنتظر الأوامر بالتوجه إلى الجهة المقتضية للقوة المستسلمة.

---

(١) بالتركي (ميرآلاي) وتعني منصب عسكري استخدم لرئيس الفوج وهو ما يوازي لقب «عقيد» في الوقت الراهن. د. سهيل صابان: المعجم الموسوعي، ٢٢٠.

(٢) معناه: رأس الألف، وهي رتبة عسكرية عثمانية، ومازالت تستخدم في تركيا الآن، استعملت في الجيوش العربية ثم استبدلت بها رتبة المقدم. صابان، مرجع سابق، ٦٦.

(٣) أصحاب الرتب العسكرية (نقيب). المؤلف.

وفي اليوم التالي أي (١١) ذو القعدة من عام ١٣٣٤هـ/ ٩ سبتمبر ١٩١٦م جرى إنزال العلم العثماني عن القلعة ورفع بديلًا عنه العلم العربي[١].

كانت القوة التركية تتكون من ثلاثة آلاف جندي مقيمين في عدد من الثكنات والقلاع والحصون منها الثكنة الكبرى التي تحدثنا عنها وهي الواقعة بين غرب الطائف إضافة إلى قلاع أصغر متناثرة على جهات الطائف الأربع منها حصن قائم على جبل ابن منديل من الجهة الجنوبية ولا يبعد عن قلعة باب الريع سوى (٢٥) مترًا وعليه مدفع وحامية من الجند ثم برج آخر ليس ببعيد عنه عليه مدفع وعدد من الجنود ويسمى برج (غلفة) مهمته حماية الجهة الجنوبية من الطائف ثم منزل يسمى (بيت البخاري) وبه عدد (٢٠٠) جندي تركي إضافة إلى بيت آخر داخل بستان وبه (٢٠٠) جندي وبيت الشيخ درويش العجيمي وهو بغرب برج غلفة وبداخله ما لا يقل عن (٥٠) جنديًا. وكان قائد القوات التركية الوالي والقومندان الفريق غالب باشا والي الحجاز العثماني، يساعده كل من الميرلاي أحمد بك والبكباشي سليمان بك[٢].

كما استخدم الأتراك أسطح مسجد عبدالله بن عباس والعديد من المنازل المجاورة للمسجد كمتاريس وأقاموا بها عددًا من جنودهم منها منازل الدباغ وعبد الرحمن الوزندار وابن محمود والشريف عبدالله بن محمد. وفي منطقة باب الحزم كانت للأتراك ثكنتان عسكريتان كما حولوا ضاحيتي قروة والسلامة وهما الآن من أحياء الطائف الكبرى، إلى حصون عسكرية كذلك الأمر في أحياء معشي والعقيق وكانت كل تلك الأماكن محمية بالجنود والمدافع وكلها استسلمت للقوات العربية بعد أن قُتل منهم (٧٠٠) جندي وجرح (٣٠٠) جندي

---

(١) عبد الله بن الحسين: المرجع السابق، ١٢٤-١٢٥.

(٢) عبد الله بن الحسين: المرجع نفسه، ١١٧-١١٨.

أخر واستسلم الباقون وعددهم (٢٠٠٠) جندي و(٥٠) ضابطًا وقائدهم برتبة جنرال أركان حرب[١].

لم يعامل الأمير عبدالله وقواته العربية من أهالي وقبائل الطائف المستسلمين من الجنود الأتراك بغير حفظ ما كان بينهم من علاقات ودية قبل بدء الثورة وتغير الأحوال بين العرب والترك فلم يحرروا الجنود لا من سيوفهم ولا من مسدساتهم وحموا أسرهم وعوائلهم ولم يزد فعلهم معهم على إرسالهم أسرى إلى مكة المكرمة ومنها إلى جدة إلى معسكر الأسر[٢].

سقوط الطائف في يد القوات العربية كان أحد الأسباب التي أدت إلى زيادة الضغط على القوات التركية المحَاصَرَة في المدينة المنورة، والتي كانت قد أبدت مقاومة عنيفة للقوات العربية التي يقودها الأميرين فيصل وعلي نجلي الحسين. فقد أتت الأوامر للأمير عبدالله وهو يحاصر الطائف بأن يسرع في دخولها ليتم تحويله مع قواته إلى المدينة المنورة بمساندة أخويه في حصار القوات التركية المتمترسة داخلها. وذلك ما حدث فعلًا فبعد أن استسلمت الحامية التركية في الطائف توجه الأمير عبد الله إلى المدينة المنورة وتحت قيادته وبرفقته الجيش الشرقي العربي[٣].

مما سبق يتضح أن الطائف لعبت أدوارًا هامة في مسيرة الأحداث السياسية التي شهدتها ولاية الحجاز في فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم والممتدة مابين أعوام ١٢٥٦-١٣٣٤هـ/١٨٤٠-١٩١٦م خاصة وأن الطائف كانت تمثل العاصمة الصيفية للإقليم بإقامة كل من أمير مكة المكرمة والوالي العثماني فيها إضافة الي

---

(١) المرجع نفسه، ٤: ٣١٣-٣١٤.

(٢) المرجع نفسه: ٤: ٣١١.

(٣) المرجع نفسه، ٤: ١٢٤-١٢٨، ١٣٣.

موقعها الجغرافي المميز وحصانتها ووجود حامية عسكرية عثمانية كبري بها. فالشريف عبد المطلب وفي كل تفاصيل نزاعه مع الوالي العثماني كامل باشا اتخذ من الطائف قاعدة رئيسية له سواءً في تحصنه بها أو في تجنيد قبائلها. كما أن السلطان عبد الحميد الثاني وهو يسعي إلى إبعاد ألد أعدائه وأكثرهم خطورة علي حكمه الوزير الأعظم مدحت باشا لم يري أفضل من الطائف منفىً وسجنًا آمنًا. ولم تكن مشاركة الطائف في الثورة العربية هامشية بل كانت محورية وأساسية انطلقت منها الاتصالات الأولية والمراسلات والاستعدادات التي ساهمت بشكل كبير في نجاح الثورة وإخراج العثمانيين ليس من الحجاز فقط بل ومن المشرق العربي بأكمله.

المراجع

أولًا: المراجع العربية

أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة: ١٩٣٤م.

أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، مكتبة دار الأنبار، بغداد، ١٩٨٧م.

أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٩٠م.

جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي، ود. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

داغستاني، د.عبد المجيد إسماعيل. الطائف، مدينة في مرحلة انتقال وتحول، وزارة الإعلام، الإعلام الخارجي، جدة: ١٩٨١م

دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥.

الحسين، عبدالله (الملك)، الآثار الكاملة، الدار المتحدة للنشر،عمان: الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

أغلو، سنان معروف، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٢م.

الغازي، عبدالله محمد، إفادة الأنام، تحقيق د. عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ١٤٣٠هـ.

غوانمة، هنادي يوسف، المملكة الهاشمية الحجازية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن: ١٩٨٩م.

القصير، عيسى علوي، الطائف القديم داخل السور في القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الثانية، الطائف، ١٤٣٤هـ.

المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م.

محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير محمد همام فكري، بدر للنشر، بيروت: ١٩٩٩م.

محمد، وهيم طالب، تاريخ الحجاز السياسي، ١٩١٦-١٩٢٥م، الدار العربية للموسوعات، بيروت: ٢٠٠٧م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

SALEH MUHAMMAD AL-AMR, *The Hijaz Under Othoman Rule 1869-1914,* Riyad Univ. Press, Riyad, March 1978.

WILLIAM OCHSENWALD, *Religion, Society and The State in Arabia, The Hijaz Under Ottoman Control, 1840-1908,* Ohio State Univ. Press, Columbus 1984.

STANFORD SHAW, *Ezel Shaw, History of The Ottoman Empire and Modern Turkey,* Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1977.

الملاحق

ملحق (١)

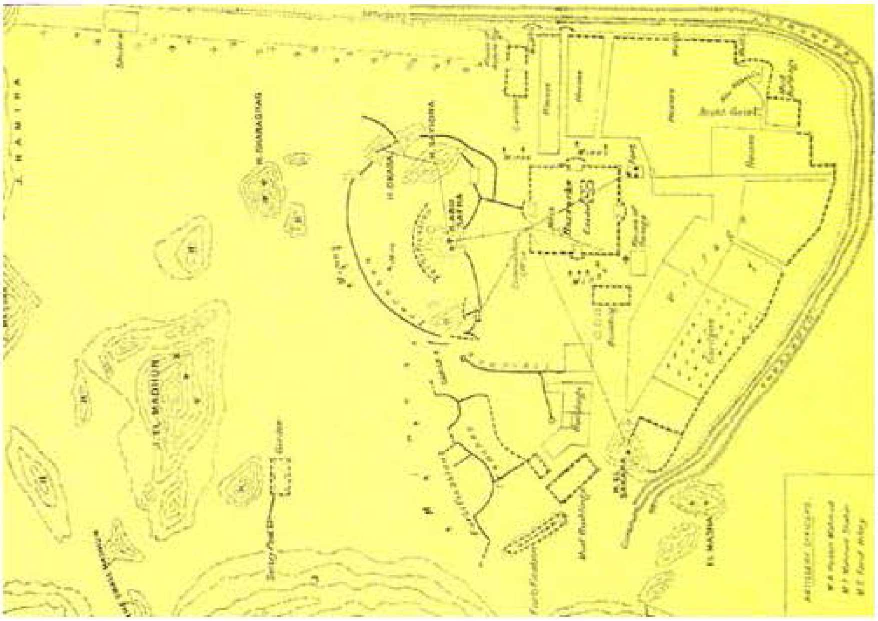

خارطة ترجع إلى عام ١٩١٦، تبين توزيع مدينة الطائف خلال العهد العثماني

من كتاب الطائف، د. عبد المجيد الداغستاني

ملحق (٢)

الواجهة الغربية لقلعة باب الريع (هدمت) عام ١٣١٨هـ (مجموعة عائلة مدحت باشا)
من كتاب الطائف، د. عبد المجيد الداغستاني

ملحق (٣)

البرج الجنوبي الشرقي وسور الطائف (الجميع هدم) في الخمسينات من القرن الرابع عشر الهجري
من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير

ملحق (٤)

سور الطائف من جهة شبرا
أرشيف أمانة محافظة الطائف الإلكتروني

ملحق (٥)

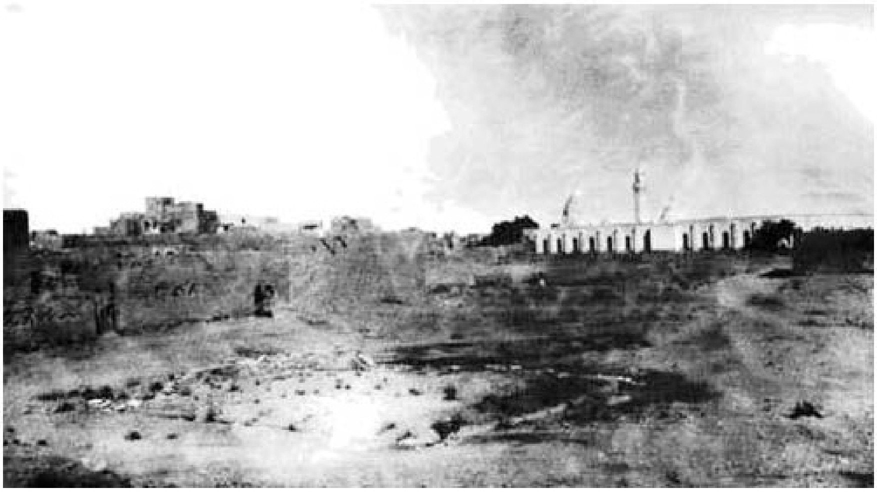

سور الطائف من جهة مسجد ابن العباس
أرشيف أمانة محافظة الطائف الإليكتروني

ملحق (٦)

قصر شبرا من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير

ملحق (٧)

برج غلفة، من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٢٤٩ – ٢٦٥

موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨–١٨٠١م)

كاترين وجيه

بعد معاهدة كامبوفورميو بقيت بريطانيا وحدها في الحرب ضد فرنسا، وبدت المحافظة على السلام القاري أمرًا صعبًا. وما حققته فرنسا في ذلك الوقت من انتصارات قضى بسرعة على كل فرص الهدوء النسبي في العلاقات الدولية[١]، ولأن قوة بريطانيا المتمثلة بتجارتها الواسعة وسيطرتها على البحار، وقفت حائلًا أمام فرنسا فكان عليها أن تفكر في تحقيق انتصار عليها[٢].

ولما كانت مسألة قيام فرنسا بتوجيه ضربة عسكرية للبريطانيين في عقر دارهم، أمر أحاطته صعوبات بالغة في حينه[٣]، في مقدمتها عدم القدرة على تجهيز أسطول

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ١٩٥٥م، القاهرة، ١: ٧٠.

(2) *Ordre de l empereur napoleon iii, correspondence de napoleon I,* tome xxix, paris, mdccc lxix, p.433-434.

(٣) قررت حكومة الإدارة الفرنسية في السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٧٩٧م، إنشاء «جيش انجلترا»، إذ جمعت له ما يقرب من خمسين ألف رجلًا قرب ميناء بريست الفرنسي، وكان هذا الجيش تحت قيادة بونابرت، الذي تقرر قيامه بغزو مباشر للجزر البريطانية. وبعد أن وصلت الاستعدادات الفرنسية الهادفة إلى غزو بريطانيا إلى نهايتها قرر نابليون، وبعد عودته من جولة تفتيشية قام بها على الشواطئ المواجهة للسواحل البريطانية للمدة بين (الثامن – الثالث والعشرين) من فبراير ١٧٩٨م، التخلي عن فكرة غزو بريطانيا، لاستحالة ذلك الغزو، بعد أن اكتشف مدى صعوبة الإنزال في تلك المناطق نظرًا لتفوق الأسطول البريطاني الكبير للمزيد انظر: LEFEBVRE GEORGE: *The French Revolution From*

بحري يفوق الأسطول البريطاني أو يتفوق عليه ، وعلاوة على ذلك غزو انجلترا يتطلب استخدام القوى الرئيسية لفرنسا(١) ، وهذا ما أوضحه بونابرت في رسالة موجهة إلى حكومة الإدارة في ١٣ أبريل عام ١٧٩٨م «حسب موقعنا فإننا يجب أن نخوض ضد الإنجليز حربًا مضمونة ولدينا القدرة على ذلك ، سواء كنا في حالة حرب أو حالة سلم فإنه يلزم لنا من ٤٠ إلى ٥٠ مليون فرنك لإعادة قواتنا البحرية» لقد كان يدرك مدى ضعف البحرية الفرنسية مقارنة بالبحرية البريطانية(٢) فمنذ عام ١٧٩٦م انشغلت بريطانيا انشغالاً تامًا بالتحصينات البحرية(٣) ، كما سحبوا أسطولهم المرابط في البحر المتوسط في العام نفسه(٤) بالإضافة إلى وجود أسطول بريطاني كبير في بحر المانش ساهم في إفشال أي محاولة إنزال فرنسية ، فهناك تقرير رفعه بونابرت إلى حكومة الإدارة في ٢٥ فبراير عام ١٧٩٨م قال فيه : «مهما كانت الجهود التي سنبذلها ، فإننا لن نستطيع الحصول من الآن وإلى عدة سنوات مقبلة على التفوق على إنجلترا في البحار. ولذا فإن النزول على شواطئ بريطانيا دون أن نكون أسياد البحر يعد عملية خطرة ، لا بل من أصعب العمليات التي

1793 To 1799, Columbia University Press, London & New York 1964, p.218.

(1) Parliamentary Debates: *House of Commons, Official Report,* Series1, HC Deb22 November 1803 vol 113, col .20; Silvera Alain, *«Egypt and the French Revolution, 1798-1801», In: Revue française d'histoire d'outre-mer,* tome 69, N2574, etrimestre 1982, p.307.

(2) *La Campagne d'Egypte et l'Avenement (1798-1799),* vol1, letter 2390.

للاطلاع على نص الوثيقة انظر للملاحق رقم (٤) .

(3) Anderson: *The Eastern Question 1774-1923, AStudy in international Relations,* New York 1966, p.25.

(٤) إبراهيم سعيد البيضاني: العلاقات البريطانية ـ الفرنسية ١٧٩٨-١٨١٥م وتأثيرها في الولايات المتحدة ، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، العدد ٦، جامعة تكريت ، (بغداد ، ٢٠٠١م) ، ٩٨.

يمكن القيام بها . واقترح بدلا من ذلك إما مهاجمة هانوفر ، أو احتلال مصر»[1] ، ولما كانت مسألة ضرب بريطانيا من خلال أيرلندا قد جربها الفرنسيون في عام ١٧٩٦م وباءت بالفشل فقد آمن الفرنسيون بأنه لا مفر من غزو مصر ، وقد عبر بونابرت لتاليران Talleyrand[2] عن ذلك بقوله : «لن نبقى طويلًا حتى ندرك أنه لأجل تدمير انجلترا علينا أن نمتلك مصر» فبرأيه يجب الذهاب إلى الشرق ، فأوربا ليس فيها الكثير لتعطيه ، وأن المجد العظيم الذي يمكن أن تظفر به فرنسا يكمن هناك[3] وعليه أخذت حكومة الإدارة مقترح بونابرت على محمل الجد ، ووافقت على فكرة غزو مصر[4] .

ومما رجح كفة غزو مصر في نظر الفرنسيين ، وجود بعض العوامل المساعدة لإنجاح الحملة ، منها محاولة الاستفادة من الثورة الإيرلندية بتقديم الوعود والمساعدات للثوار الإيرلنديين حتى تنشغل بريطانيا بنفسها وقت تحرك الحملة ، ومنها أيضًا أن القوة البحرية البريطانية في مياه الهند الشرقية بقيادة الأميرال راينر Raynar كانت ضعيفة جدًا وقتذاك ، حتى لم يكن في ذلك الموقع سفينة واحدة تحت اليد يمكن أن تقوم بأعمال المراقبة لأي تحرك قد يقوم به بونابرت تجاه مصر[5] .

---

(1) *La Campagne d'Egypte et l'Avenement (1798-1799),* op. cit., letter 2215.

(٢) تاليران (١٧٥٤م - ١٨٣٨م) سياسي وأسقف فرنسي ، بعد تأسيس حكومة الإدارة أصبح وزيرًا للخارجية خلال العامين ١٧٩٧م - ١٧٩٩م ، ثم ساعد نابليون في إنقلاب (برومير) فأصبح وزيرًا للخارجية مرة ثانية من أوائل سنة ١٧٩٩م - ١٨٠٧م ، مثل فرنسا في مؤتمر فيينا ، وأعتزل السياسة منذ سبتمبر ١٨١٥م . للمزيد انظر : آلان بالمر ، موسوعة التاريخ الحديث ، ترجمة سوسن فيصل ، بغداد ، ١٩٩٢م ، ٢: ٣١٨-٣٢٠.

(3) JOSEPH MCCABE: *Talleyrand a biographical study,* Hutchinson and co. London 1906, p.168.

(4) PLATT NATHANIEL and DRUMMOND MURIEL JEAN: *Our World through the Ages 1961,* pp.336-337.

(5) *Historical Record Of The Fourth or Royal Irish Regiment of Dragoon Guards*

لذا انتهز بونابرت وتاليران الفرصة، لضرب بريطانيا في مستعمراتها وطرق مواصلاتها[١]، عوضا عن ضربها في عقر دارها، وبناء على ما تقدم، عقدت حكومة الإدارة اجتماعات مكثفة ابتداء من مطلع مارس ١٧٩٨م حتى الثاني عشر من أبريل[٢]، حيث اتخذت قرارها النهائي الذي أخرج فكرة الحملة على مصر من مرحلة الدراسة إلى حيز العمل والتنفيذ فعهدت بقيادة الحملة التي سمتها بـ(جيش الشرق) إلى بونابرت[٣].

وهكذا اتفقت وجهة نظر حكومة الإدارة مع وجهة نظر بونابرت في الهدف لكنها اختلفت في الغرض.

---

containing an account of the formation of the regiment in 1685 and of its Subsequent services to 1838, Longman, Orme and Co., London, 1839, pp.34-35.

(١) هناك التقرير الذي قدمه تاليران في الثالث من فبراير ١٧٩٨م، وصفه المؤرخون بأنه يحتل مكانة كبيرة في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، إذ احتوى على مجمل تخطيطات الحملة، ومما ورد فيه أن قيام الفرنسيين باحتلال مصر، يسبب انقلابًا عظيمًا في التجارة الأوربية، وسيكون ضربة لبريطانيا بصورة خاصة، حيث ستتحطم تجارتها في الهند، وفي موضع آخر من التقرير أكد تاليران أن مصر يمكن أن تقدم إضافة إلى ذلك التسهيلات اللازمة لطرد البريطانيين من الهند، من خلال إرسال قوة مؤلفة من خمسة عشر ألف مقاتل من القاهرة عن طريق السويس، كما توقع تاليران في تقريره أن رد الفعل العثماني لن يكون ذا تأثيرًا، ذلك أن العثمانيين سوف يترددون طويلًا قبل إعلان الحرب على فرنسا لمشاكلهم الكثيرة لاسيما في البلقان، أما عن قدرة المماليك في المقاومة فقال: إن فتح هذه البلاد لن يكلف الفرنسيين قطرة دم واحدة وتناول التقرير مواضيع مهمة أخرى تمثلت بشكاوى التجار الفرنسيين، ووسائل تنفيذ الحملة، ومزايا احتلال مصر للمزيد انظر: فهد عويد عبد البعيجي: سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية (١٧٩٨م - ١٨٠٩م)، ماجستير بكلية التربية جامعة بابل ٢٠٠٧م، ٧٥-٧٦.

(2) GEORGES HARDY, *Histoire de la colonization francaise,* paris 1943, p.124.

يوسف سعد يوسف، نابليون بونابرت، القاهرة - المركز العربي الحديث ١٩٨٨، ص ٢٦.

(3) THOMSON DAVID, *Europe Since Napoleon,* ed2, London 1962, p.27; CARTER THOMAS, *war Medals of the British Army and How They were won,* Norie and Wilson, London 1893, pp.59-60.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه من أين مولت فرنسا هذه الحملة في وقت كانت فرنسا تتأجج بنيران الثورة وما أحدثته من اضطرابات على الصعيد الداخلى والخارجى ربما استطاع بونابرت جمع إما الأموال اللازمة لتكاليف الحملة فقد أمكن تدبيرها بالقيام بغارة خاطفة ومفاجئة على سويسرا[١] ـ أو استولى على أسطول جمهورية البندقية لتتجمع في يده قوة بحرية تواجه قوة انجلترا في البحر المتوسط وخلال ستة وسبعين يومًا من العمل المضني، وتحت أقصى الظروف صعوبة وبدرجة رائعة من السرية تم اختيار الفريق المشارك في الحملة سواء على مستوى المشاة أو البحرية، أو الجهاز المدني حتى أصبحت الحملة جاهزة[٢].

ولا شك أن النزاع بين بريطانيا وفرنسا كان هو المحرك الأول للحملة الفرنسية فقد ألقى بونابرت بيانًا على الجيش في ١٢ يوليو عام ١٧٩٨م قائلًا: «أيها الجنود ستقومون بغزوة سيكون لها أبلغ الأثر على الحضارة وتجارة العالم وستكون أكبر

= هناك رسالة من بونابرت إلى شيرير وزير الحربية في ٩ يناير عام ١٧٩٨م تنص على اهتمام بونابرت بتنظيم الجيش الموجة إلى الشرق للاطلاع على هذه الرسالة انظر ملحق رقم (٥).

(١) كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد انتشرت في بعض أجزاء سويسرا، واخذ أهلها يتألبون على الحكومة ويظهرون ميلهم إلى فرنسا. بعد أن كانت بلادهم في حياد تام، فانتهزت فرنسا فرصة نشوب الفتنة فيها وعزمت في أواخر عام ١٧٩٧م على احتلالها، لتكون منها جمهورية شبيهة بالجمهوريات التي أوجدتها على بعض حدودها الأخرى. ولتستولي على الكنوز العظيمة في برن وغيرها من المدن السويسرية والتي كانت فرنسا في حاجة ماسة إليها لدعم عملياتها العسكرية ضد بريطانيا. فلم تلبث الجيوش الفرنسية أن أخضعت سويسرا وحولتها إلى جمهورية أطلق عليها «الجمهورية الهلفيتية». ووضع لها في سنة ١٨٠٠م القانون النظامي. للمزيد انظر:

GUILLON EDOUARD, *Napoleon et la Suisse(1803-1815), d'apres les documents inedits des affaires etrangeres,* librairie plon, Paris 1910, pp.25-35.

(٢) ريمون فلاوز: مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، ترجمة: سيد أحمد على الناصري. تقديم: يونان لبيب رزق، القاهرة ـ المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠م، ٢٨؛ محمد فرج: النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية، القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر، ١٢.

ضربة توجه لانجلترا ، في انتظار أن تقضوا عليها بالضربة القاصمة ، ستكون المسيرة شاقة وستخوضون العديد من المعارك وسيكون النصر حليفنا لأن الأقدار في صالحنا ...»[١] .

وعلى الجانب الآخر فإن بريطانيا في ذلك الوقت لم يكن التهديد بغزو محتمل من جانب فرنسا يلقى تاثيرًا كبيرًا على الحياة اليومية ، وإذا كان هناك ما يشغل الناس في إنجلترا فهو ما كان يحدث في الأسطول إذ أن أعمال التمرد والشغب التي اندلعت في منطقة سبيتهيد Spithead كانت سيئة للغاية ، بل لم يكد يمر شهر على حدوثها حتى اندلعت موجة من تمرد شاملة في منطقة نور Nore فإن ذلك أقنع الأجانب المقيمين الذين عاصروا هذه الأحداث في إنجلترا بأن الثورة الإنجليزية على وشك الحدوث[٢] .

ومما يجدر ذكره أنّ بعض أعضاء الحكومة البريطانية أخذوا يتكهنون بناءً على الأخبار التي تسربت ووصلت إلى لندن عن الحملة[٣] قبل انطلاقها ومنهم وزير الحرب هنري دانداس Dandas الذي أوضح في مذكرة مطولة أرسلها إلى وزير الخارجية اللورد جرينفيل Lord Grenville في الثالث عشر من يونيو ١٧٩٨م ، جاء

---

(١) جوزيف ماري مواريه : مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر ، ترجمة : كاميليا صبحي ، باريس - بياريلفون ١٩٨٤م ، ٢٦ للاطلاع على نص هذا البيان انظر إلى ملحق رقم (٦) .

(٢) ريمون فلاوز : مرجع سابق ، ٣٠.

(٣) أنذرت صحف لندن أن الاستعدادات الفرنسية في مواءنها على القنال قد وصلت إلى درجة عالية من الاستعداد والتأهب كما أن عميلًا سريًا شاهد الجنرال بونابرت على الطريق بين فورنس furnes ودنكرك ، وأبلغ آخر عن بناء قوارب واسعة الحجم في برست Brest، ومن ثم فإن الحملة لم تكن مستبعدة تمامًا وبعدها بقليل أنهالت التقارير بأن فرنسا تخطط لعملية في الجنوب على نطاق واسع ، كما أن أحد ضباط الأسطول البريطاني الذي انتهت به مغامراته الطائشة أن يصبح سجين حرب في باريس نجح في توصيل رسالة تفيد بأن حكومة الإدارة قد وضعت عيونها على مصر للمزيد . انظر : ريمون فلاوز : مرجع سابق ، ٣٢.

فيها بأن هناك أربعة اتجاهات محتملة يستطيع بونابرت الزحف عبرها إلى الهند وكان دونداس يعتقد بأن العثمانيين والروس لن يسمحوا بمرور جيش بونابرت عن طريق البحر الأسود[١].

كانت إنجلترا تدرك أهمية موقع مصر الجغرافي بالنسبة لتجارتها[٢] فقد حرصت على مراقبة الشواطىء الفرنسية الشمالية والجنوبية لمراقبة النشاط الفرنسي، لذا كان للموقف البريطاني ردود أفعال سريعة لمواجهة التحرك الفرنسي إلى مصر فاتخذت الكثير من الإجراءات لمواجهة الخطر الفرنسي، فالحملة كانت بمثابة ناقوس الخطر الذي نبهها إلى ما يحيق بمصالحها الحيوية في الشرق من أخطار، بل لمست بريطانيا عمليا مدى التهديد الذي يمكن أن توجهه فرنسا لمناطق نفوذها ومصالحها إذا وقعت مصر وطريق البحر الأحمر في قبضة فرنسا وهى الدولة المنافسة لبريطانيا بصورة رئيسية[٣].

فقد ذكرت صحيفة كوريه دى ليجيبت Le Courier de l'Egypt في عددها الرابع رسالة عثر عليها بعد تدمير سفينة حربية بريطانية بالقرب من مالطة، موجه

---

(١) فهد عويد عبد البعيجي: مرجع سابق، ٨٠؛ ريمون فلاور: المرجع نفسه، ٣٢.

(٢) كانت مصر تمثل ممرًا استراتيجيًا بين بريطانيا ومستعمراتها في أفريقيا وآسيا خاصة مع درة التاج الهند حتى قبل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م إذ كانت السفن البريطانية الحربية والتجارية على حد سواء تصلا البحر المتوسط ثم تسلك بورسعيد مرورًا ببعض البحيرات والمستنقعات في وادي السويس، ثم يتم نقل أجزاء السفن وحمولتها على ظهور الأبل إلى البحر الأحمر، وهناك يتم تركيب السفن وتحميلها بحمولتها، ثم تواصل رحلتها إلى الهند وجنوب شرق آسيا وبالعكس. انظر إلى: لينوار تشامبرز رايت: سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر (١٨٣٠ - ١٩١٤م)، ترجمة فاطمة علم الدين، القاهرة - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٧م، ٥٢.

(3) An American, the campaigns of napoleon buonaparte embracing the events of his unexampled military career from the siege of Toulon to the battle of waterloo also the period from his abdication of the throne to his final imprisonment and death on the rock of st, *Helena previous to which an account of the french revolution, Charles Gaylord, Boston 1840, p.98.*

إلى أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني تكشف عن أهمية موارد مصر الاقتصادية في أعين البريطانيين، وتذكر الرسالة التي كتبت بعد وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بوقت قليل إن غزو مصر لا يمكن لأى مواطن بريطاني أن يتأمله ويتأمل نتائجه الوخيمة دون أن يتحرك الدم في عروقه، ماذا هل تصبح هذه البقعة من العالم للفرنسيين؟ هذه البلاد وجيرانها التي تغذي الأمبراطورية العثمانية بأثرها من الكتان والسكر يسيطر عليها بحاجتها أعداؤنا فهم سيمتلكون أكثر مما يوجد منها في جميع جزرنا[١].

كما كانت الصحيفة الإنجليزية (الصن sun) ترى أن ما يحدث في الشرق الأوسط هو أمر حيوي يمس بقاء واستمرار التجارة مع الهند، ومن ثم فهو مهم للغاية، في تلك الفترة التي كانت بريطانيا تمر فيها بأزمة إقتصادية[٢].

لذا تلقى نلسون Nelson[٣] قائد الأسطول البريطاني أمرًا من الحكومة البريطانية بأن يراقب الأسطول الفرنسي يقوى ويشد قبضته في البحر المتوسط، ولكن لسوء

=أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس: سياسة فرنسا واستراتيجيتها في البحر الأحمر إبان الحملة الفرنسية على مصر، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣٢ (٢٠٠٤م) ١٤٧.

(١) مجله المؤرخ المصري: دراسات وبحوث تاريخية، ج ٢، رئيس التحرير: رؤوف عباس حامد، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٨٨م، ٢٤٠-٢٤١.

(2) DUPUY P., *Le 18 Brumaire en Grande-Bretagne: Le témoignage de la presse et de la caricature. In: Annales historiques de la Révolution française, n318-1999, p.775; observations on lord castlereaghs speech of the 19thof july 1804 and on the state of the east india companys affairs,* j. BUDD, *at the crown and mitre,* London 1805, pp.10-12.

(٣) الأدميرال هوراشيو نلسون: ولد في سبتمبر ١٧٥٨م، وتعلم فنون البحرية بسن مبكرة، عين وكيل أميرال في العام ١٧٩٧م، وأوكلت له في يوليو ١٧٩٨م مهمة الاستيلاء على جزيرة تنريف الأسبانية، إلا أنه فشل في احتلالها، فأوكلت له على أثر ذلك مهمة تعقب الأسطول الفرنسي وتدميره في خليج أبي قير في أغسطس ١٧٩٨م وقتل عام ١٨٠٥م في معركة الطرف الأغر البحرية للمزيد. انظر:=

الحظ هبت عاصفة شديدة فرقت السفن الإنجليزية، وأخرت سير الحملة الفرنسية يومًا كاملًا فسبق بذلك الفرنسيين الإنجليز إلى مالطة[١]، واستولوا عليها وحينما وصلها الإنجليز كان الفرنسيون قد غادروها، وتأكد الإنجليز من ذلك فتركت القوات الفرنسية آثارها الحربية في المدينة، فتوقع نلسون أن الحملة الفرنسية متجهة إلى الإسكندرية، فشد الرحال إليها فلم يجد أحدًا وانتظر ثلاثة أيام في مياه الإسكندرية دون جدوى، فلما رفض السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية مد الأسطول البريطاني بالماء والغذاء، أسرع نلسون إلى سوريا ثم صقلية بحثًا عن الأسطول الفرنسي[٢].

وعندما وصلت إلى نلسون أخبار تفيد بأن الأسطول الفرنسي متجه إلى مصر أسرع إلى مصر حتى يحاول أن يمنع وصول الأسطول اليها، ويعرقل بونابرت إلى الساحل[٣] إلا أنه وصل متأخرًا فلم يجد سوى الأسطول الفرنسي الراسي في خليج أبو قير، فوصل نلسون إلى الإسكندرية في الحادي والثلاثين من يوليو ١٧٩٨م، وهاجم الأسطول الفرنسي الراسي في خليج أبى قير الذي كان تحت قيادة الأدميرال برويس[٤]، وتمت عملية تدمير ذلك الأسطول.

=وال ديورانت: عصر نابليون (تاريخ الحضارة الأوربية من ١٧٨٩-١٨١٤م)، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الكتاب الثالث (بريطانيا ١٧٨٩-١٨١٢م)، أبو ظبي - المجمع الثقافي ٢٠٠٢م، ٣٠٨.

(١) مالطة: جزيرة مالطة من جزيرتين هما مالطة وجوز في البحر المتوسط وتقعان بين ليبيا وجزيرة صقلية وكان يحكمها فرسان القديس يوحنا Saint John عام ١٥٣٠م، وظلت تحت سيطرتهم حتى عام ١٧٩٨م عندما تمكن بونابرت من السيطرة على الجزيرة، ثم تمكن البريطانيون من السيطرة على الجزيرة عام ١٨٠٠م، وأصبحت منذ ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية البريطانية وبموجب معاهدة أميان تقرر إعادة الجزيرة إلى فرسان القديس يوحنا. للمزيد انظر: آلان بالمر، مرجع السابق، ٢: ٧٩.

(٢) يوسف سعد يوسف: عظماء من العالم (نابليون بونابرت)، القاهرة - المركز العربي الحديث ١٩٨٨م، ٢٧.

(٣) للاطلاع على خريطة الحملة الفرنسية على مصر انظر الملحق رقم (٧).

(٤) كان ميناء الإسكندرية غير ملائم للأسطول الفرنسي، فقام الأدميرال برويس بنقل الأسطول=

وكان لهذه المعركة آثار سلبية كبيرة حيث أصابت البحرية الفرنسية في مقتل، وقضت على آمال فرنسا في بسط سيادتها على البحر المتوسط[1] فاستطاعت إنجلترا أن تلحق أولى الضربات التي أنزلتها بهذه الحملة، وفي الوقت نفسه أصبح جيش فرنسا في مصر منذ ذلك الحين وإلى أن تم جلاؤه تحت رحمة إنجلترا بعد أن فرضت حصارها على الشواطىء المصرية وقطعت الصلات بينه وبين فرنسا[2].

فقد أرسل رئيس مجلس العموم البريطاني خطاب تهنئة إلى جلالة الملك البريطاني جورج الثالث لانتصار الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون في موقعة أبي قير البحرية في ٢٤ أكتوبر عام ١٧٩٨م جاء فيه «أحر التهاني على النصر الذي يشكل أهمية قصوى الذي حصلنا عليه في الفترة الأخيرة في نهر النيل، من قبل أسطول صاحب الجلالة تحت قيادة الأميرال هوراشيو السير نيلسون، على الأسطول الفرنسي، فهو حدث مجيد لهذه الأمة ولم يسبق له مثيل في التاريخ الإنجليزى البحري الذي عكس الشجاعة والانضباط للضباط البحرية على عدونا اللدود»[3].

=إلى خليج أبي قير قرب مصب فرع رشيد لنهر النيل، من أجل توفير حراسة أفضل للجيش الفرنسي في مصر للمزيد. انظر:

FITCHETT W. H: *How England Saved Europe (The Story of The Great War 1793-1815)*, vol 2, New edition, London 1909, p.74; MARSHALL H.E, *hrough Europe with Napoleon,* Frederick A .stokes company, new York, p.66.

(1) correspondence de napoleon I, *op. cit.,* pp.559-561.

وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم: ترجمة محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٦٦، ١٥٥٦.

(2) parliamentary Debates: *House of Commons,* Official Report, Series1, HC Deb 29 February 1804 vol 1, 572, col 582.

(3) *The London Gazette,* Issue 15074 23 october 1798, p.1012.

للاطلاع على نصوص الخطابات المقدمة إلى ملك جورج الثالث. انظر إلى ملحق رقم (٨).

فقد سمحت الحملة الفرنسية لبريطانيا بأن تكون قريبة من الدولة العثمانية وقيصر روسيا فسعت لدى الباب العالي من أجل تأليبه على فرنسا من خلال إظهار الأهداف الحقيقية لفرنسا من وراء إرسال الحملة إلى مصر[١] ، فهناك فرمان من الوالي العثماني آنذاك إلى سكان العريش وشعب مصر يمكن تلخيصه في إبطال مزاعم بونابرت بأن الحملة جاءت إلى مصر بأمر من الباب العالي ، وأن السلطان العثماني يتعاون مع الإنجليز لإخراج هذه الحملة من مصر، وتحرير الشعب المصري[٢] ، كما أرسلت الدولة العثمانية فرمانًا إلى أحمد الجزار جاء في مضمونه تحصين عكا ، وإحضار كل ما يلزم للحصار ، وجمع ما يحتاج إليه الوقت والحال وعين العساكر ومنع الوارد والصادر بحرًا من مصر لأنه كان خائفًا جدًا من شر الحملة الفرنسية[٣] .

فقد ظل الباب العالي يتمسك بالحياد منذ قيام الثورة الفرنسية ولم يبد بأى آراء حول الوضع الأوروبي تجاه فرنسا ، ولم يشارك الدول المتحالفة في الثورة المضادة للثورة الفرنسية فعندما اقتحمت فرنسا مصر التي تعتبر أهم ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وما نتج عن ذلك من غضب حليفتها وصديقتها بريطانيا بادرت بأخذ زمام المبادرة في طرد الفرنسيين من مصر، وإعلان الحرب على فرنسا[٤] .

---

(١) سليم البستاني : تاريخ فرنسا الحديث ، بيروت ١٨٨٤م ، ١٨٢.

(2) *Imperial Decree, promulgated at the Porte on Saturday 1,* st September The London Gazette, Issue 1507423, october 1798, p.1009.

للاطلاع على نص هذا الفرمان . انظر إلى ملحق رقم (٩) .

(٣) أحمد حيدر الشهابي : قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت ، تحقيق : عبد العزيز جمال الدين ، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٨م ، ١٥٤.

(4) *The London Gazette,* Issue 1507423, october 1798, pp..1007-1008.

في غضون ذلك، كان بونابرت في مصر قد انقطعت عنه أخبار فرنسا لمدة طويلة من يوليو ١٧٩٨ إلى فبراير ١٧٩٩م، وانصب تفكيره على الخطر المباشر الذي يتهدده، وعلى الرغم من موقفه الخطير، إلا أنه قرر أن يستبق الهجوم الذي ينتظره من الشمال، إذ كانت الدولة العثمانية تستعد لاستعادة مصر، بمساعدة من الأسطول البريطاني[١]، فقرر بونابرت أخذ زمام المبادرة والإسراع بغزو سوريا لتدمير الجيش العثماني المتجمع هناك في ٢١ يناير عام ١٧٩٩م[٢].

وفي الوقت نفسه نشطت بريطانيا دبلوماسيًا عن طريق مندوبها في إسطنبول (السير سبنسر سميث) كما أرسلت أخاه السير سدني سميث[٣] أحد خبرائها بالشئون العثمانية إلى هناك لمساعدة أخيه في دفع الدولة العثمانية إلى إعلان الحرب على فرنسا وإلى تجهيز الجيوش والأساطيل لطرد حملتها من مصر، وحرصت

---

(١) صورة فرمان من الدولة العثمانية إلى قائد الأسطول الإنجليزي سميث حتى يتعاون معه ضد الفرنساوية ويزودوه باحتياجاته من المؤن فقالت: «إلى جميع المدن من السلطان سليم خان يخبر بالاتحاد الذي بين الإنجليز والإسلام على الفرنساوية اللئام»، للمزيد انظر: عبد العزيز جمال الدين، مرجع سابق، ١٤١-١٤٢.

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة - دار الكتب ١٩٩٨م، ١٠٥-١٣٩.

(٣) وليام سيدني سميث: عسكري بريطاني، انضم إلى البحرية الملكية البريطانية في عام ١٧٧٧م، شارك في حرب الاستقلال الأمريكية، في عام ١٧٩٠م حصل على تصريح للعمل في البحرية الملكية السويدية، كان له دور إيجابي في الحملات العسكرية البحرية التي حدثت في البحر المتوسط لمواجهة التوسع الفرنسي في الشرق بقيادة نابليون بونابرت، تمت ترقيته إلى رتبة أميرال عام ١٧٩٨م. ثم انضم للأسطول البريطاني في طولون، ولما أجبر البريطانيين على الانسحاب من طولون تطوع لإحراق السفن الفرنسية فأحرقها وقبض عليه وسجن في التامبل عامين وتمكن بعدها من الهرب وتوفي عام ١٨٤٠م. للمزيد انظر: عبد العزيز جمال الدين: مرجع سابق، ١٤٢؛ GODECHOT JACQUES and HYSLOP BEATRICE FAND DOWD DAVID L, *The Napoleonic Era in Europe*, U. S. A 1971. pp..365-366؛ محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط ١٠، بيروت، ٢٠٠٦م، ٣٧٥.

بريطانيا كذلك على إرسال بعثة من الخبراء العسكريين لإعداد الجيش العثماني للزحف على مصر(١) .

سافر سيدني سميث إلى عكا لتنسيق المخططات العسكرية مع حاكم عكا(٢) ، حيث ساهم الأسطول الإنجليزي في مساندة أحمد باشا الجزار(٣) أثناء حصار بونابرت له وكان وجود هذا الأسطول أمام السواحل السورية من أهم أسباب فشل الحملة الفرنسية على بلاد الشام في يونيو عام ١٧٩٩م(٤) .

بينما كان بونابرت يواجه الإنجليز المتحالفين مع العثمانيين في سوريا(٥) كانت هناك سفن إنجليزية أخرى تشن هجومًا على ميناء الإسكندرية(٦) .

---

(١) سيد مصطفي سالم : نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، صنعاء - مركز الدراسات اليمنية ١٩٨٩م، ٦٤؛ طالب عبد الغني جار الله : حصار نابليون لعكا دراسة تاريخية، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية : المجلد ١٠ العدد ١ عام ٢٠١٥م، ١٣٣.

(٢) ربما أن قصد بونابرت لعكا نابع من أنها موقع أساسي للدفاع عن مصر، كما كانت مقر أحمد الجزار وأشد تحصينا وحراسة من المدن التي أخضعها للمزيد. انظر: جوزيف ماري مواريه : مرجع سابق، ٩٢.

(٣) ولد أحمد باشا الجزار في البوسنة في البلقان ودخل البحرية العثمانية ثم ذهب إلى مصر وعينه على بك الكبير جلادًا ثم أخذ لقب الجزار، ثم توجه إلى الشام وبتقديمه خدمات لظاهر العمر كوفئ بتعينه حاكما على صيدا، ومن ثم حاكمًا على عكا. للمزيد انظر: أحمد حيدر الشهابي : مرجع سابق، ١١-١٩.

(4) Louise Creighton: *A First History of France*, Longmans, Green and co., London 1901, p.262.

(٥) ربما قصد بونابرت من غزو سوريا هو الوصول إلى اسطنبول والبلقان ثم القضاء على النمسا والعودة إلى فرنسا عن طريق أوربا أو اعتقاد بونابرت أن السيطرة على سوريا يحرم الأسطول البريطاني من قواعد تموينية في شرق المتوسط وأي انتصار يعطيه مركزًا قويًا ضروريًا لمتابعة مشاريعة أو على الأقل مركزًا أفضل للتفاوض مع الباب العالي وانجلترا. انظر إلى : محمد نور الدين : الجزار ونابليون والمسألة الشرقية، التاريخ العربي، ١٠٩.

(٦) جوزيف ماري مواريه : مرجع سابق، ١٠١.

وكانت سياسة بريطانيا إزاء الصراع العثماني ـ الفرنسي قائمة على أساس أن يأخذ العثمانيون وحدهم مهمة تحطيم القوات الفرنسية الموجودة في مصر، بينما يكرس البريطانيون جهودهم لتقديم مساعدات ثانوية للعثمانيين للتخفيف من الضغط الواقع عليهم، وكذلك محاصرة القوات الفرنسية في مصر، وكان من أبرز منظري هذا الرأي وليم بت[١].

وفي هذه اللحظة علم بونابرت من أحد الإنجليز في الإسكندرية بعد ثمانية شهور من ابتعاده عن فرنسا أنها مشتبكة في حرب مع نابلي وسردينيا، وأن مورو وأوجرو منافساه يتوليان قيادة جيش فرنسا، وأن طبول الحرب تدق في أوروبا، وليس هناك من يستطيع أن ينقذ فرنسا[٢]، لذا عاد بونابرت إلى فرنسا سرًا التي وصلها في أكتوبر ١٧٩٩م، واستطاع بسهولة الإطاحة بحكومة الإدارة في فرنسا (إنقلاب برومير) في التاسع من نوفمبر ١٧٩٩م[٣] التي كانت تحكم باسم الثورة،

---

(١) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، ب ت، ٣٩٣.

(٢) يوسف سعد يوسف: مرجع سابق، ٣٣.

(٣) كانت حكومة الإدارة التي بلغ عهدها بالحكم الخمس سنوات، قد فشلت فشلًا ذريعًا في تحقيق الأمن والاستقرار، فضلًا عن التدهور الاقتصادي المتزايد، وانتشار البطالة وارتفاع الأسعار. فأخذت الأنظار تتجه صوب بونابرت صاحب الانتصارات الكثيرة في الشرق والغرب. وأخذ بعض ساسة الثورة الفرنسيين يساعدوه للوصول إلى الحكم. ومنهم سييز (كاهن سابق) وتاليران وفوشيه. وفي الاجتماع الذي عقده مجلس الشيوخ في ٨ نوفمبر عام ١٧٩٩م، حدثت ضجة كبيرة فيه، فطلب سييز أن يجتمع المجلسان، في ضاحية سان كلو، وعندما اجتمع المجلسان في يوم ٩ نوفمبر (برومير)، بقيادة لوسيان شقيق بونابرت ورئيس مجلس الخمسمائة، إقرار وضع سلطة البلاد في يد لقناصل ثلاثة يحلون محل حكومة الإدارة. ووافق مجلس الشيوخ على هذا التدبير، وهذا التغير هو الذي يعرف باسم انقلاب برومير ورحب الفرنسيون بهذا التغيير. وتم وضع دستور جديد للبلاد عرف بدستور سنة ١٧٩٩م وضع السلطة التنفيذية في يد ثلاثة قناصل، وعهد لبونابرت بمركز القنصل أول، والقنصلان الآخران هما لوبران lebrun وكامباسيريه cambaceres. للمزيد انظر: EDOUARD DRIAULT, *Napoleon Pensees Pour L'action,* Presses Universitaires De France Paris 1943, pp.15-16; AUGSTE DIDE: *la*

وجعل نفسه القنصل الأول والقائد الأوحد في فرنسا في نهاية عام ١٧٩٩م . وهذا مؤشر على نهاية العهد الثوري في فرنسا[١] وعلق الملك جورج الثالث على هذا التطور السياسي الخطير في فرنسا في رسالة كتبها إلى أسقف ووكستر Worcester مؤرخة في أول يوم من عام ١٨٠٠م قائلا : «أعرف بأنكم رافضين التغيرات السياسية ، إلا أن الإطاحة الوقحة بالجمهورية الفرنسية الضخمة من قبل مغامر كورسيكي (بونابرت) ، وجعل نفسه جهة تشرع القوانين ، وتقوم بتنفيذ قراراته هي مواضيع لابد أن تثير استغرابكم ، وأن الأمر لا يحتاج بصيرة عميقة بل مجرد الحس المشترك العام يجعل الجميع يعرفون بان السلوك المتهور لبونابرت لا يمكن أن يستمر طويلًا»[٢] .

كما تناولت الصحف البريطانية مثل (الترو بريتون True Briton - مورننج كرونيكل Morning Chronicle - التايمز Times) في ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٩م هذا الحادث باهتمام بالغ وتتبعت حركة بونابرت ووصوله إلى باريس وكانت تبحث وراء الأسباب التي دفعته إلى ترك جيشه في مصر وعودته دون إحراز أى نتائج[٣] .

أما جورج كانِنْج Canning[٤] وآخرين في إنجلترا ، فقد كانوا يعتبرون أن مجئ

---

revolution francaise revue historique: tome premier, paris 1881, (document inedit sur le 18 brumaire) pp53-54; HERBERT FISHER, Napoleon, ed 3, Williams and norgate, London 1915, p.77.

(1) L. HENRY LECOMTE, *Napoleon et le monde dramatique, etude nouvelle d, après des documents inedits, h .daragon,* paris 1912, pp.10-11 An American, *op. cit.,* 1840, p.114.

(2) WILLSON, BECKLES, *George III as man monarch and statesman,* Ballantyne Hanson & Co., London 1907, p.483.

(3) DUPUY, *op. cit.,* p.774.

(٤) جورج كاننج : رجل دولة بريطاني ولد في العاصمة لندن تخرج من مدرسة إيتون (Eton) الخاصة=

بونابرت يمثل مرحلة انتظار، وأن هناك إمكانية لاستعادة وشيكة لعرش الملكية، وأما اللورد جرانفيل Grenville في خطاب كتبه لويجهام Wickham لصديقه، أنه يتوقع أن عودة بونابرت لفرنسا ما هى سوى «الارتماء في أحضان الملكيين»(١).

وقد عبر عن ذلك الوضع السفير السويدي بقوله: إن فرنسا تكاد تفعل المستحيل لمساعدة بونابرت، فالأهالي (ما عدا طبقة قليلة من الفوضويين) ملوا الثورة وتعبوا من أهوالها وأخطائها إلى درجة أصبحوا يعتقدون معها أن كل تغيير يحدث لابد وأن يكون في صالحهم، وحتى الملكيين فإنهم رغم اختلاف نظرتهم يخلصون لبونابرت، لأنهم يعتقدون أنه ينوي إعادة النظام القديم بصورة تدريجية(٢).

وفي ذلك الوقت، كان التحالف الأوربي الثاني بدأ بالتجمع، وأصبح عمليا بعد أن قام وليم بت بتحفيز روسيا والنمسا ونابولي والبرتغال والدولة العثمانية للالتحاق ببريطانيا، وتشكيل التحالف الثاني. وقام هذا التحالف بالهجوم على الجمهورية من كل جانب، وإن عملية التوسع الثوري كانت مسئولة عن هذا الهجوم مثلما كان بونابرت مسئولا عنه أيضًا(٣).

وفي الختام لم يحقق بونابرت أى من أهداف الحملة التي جاء بها، وترك قيادة الجيش إلى كليبر Kleber(٤) ثم تولاها بعد ذلك مينو Menou الذي اضطر في

=وكلية كرايست تشرتش. كان من أنصار بت خلال فترة الثورة (١٨٠٤-١٨٠٦م) أصبح وزيرًا للخارجية من عام (١٨٠٧-١٨٠٩م) وكان كانتغ معروفًا بلباقته في صياغة الحديث، وكان بارعًا في توجيه سياسة بلاده الخارجية. للمزيد انظر: بالمر، آلان، مرجع سابق، ١٥٣-١٥٤.

(1) DUPUY, *op. cit.*, p.778.

(٢) جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة على المزرقي، عمان - الأهلية لنشر والتوزيع ٢٠٠٦، ٣٩٣.

(3) MCCABE, *op. cit.*, pp.168-169.

(٤) كليبر kleber: قائد فرنسي ولد في ستراسبورج خدم في صفوف الجيش الفرنسي في إقليم فائدية ثم=

النهاية إلى عقد صلح مع الدولة العثمانية[١] ومغادرة البلاد المصرية وانتهت الحملة الفرنسية على مصر، بعد أن ظلت ما يقرب من ثلاث سنوات عانى فيها الشعب المصري من معارك وحروب واستنزاف خيرات بلاده[٢].

أما انتصار الإنجليز والدولة العثمانية على فرنسا وجيوشها، فقد أعطى الفرصة لاستعادة الدولة العثمانية نفوذها في المشرق العربي، وإستعادة إنجلترا لهيمنتها ولسيطرتها البحرية في البحر المتوسط، وظهرت أمام أوروبا بأنها الدولة القوية التي تقف في وجه الثورة الفرنسية وبونابرت[٣].

ففي حقيقة الأمر لم تكن الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م إلا فصلًا جديدًا وخطيرًا من فصول تاريخ الصراع الدولي الأوربي الطويل والمرير على بؤر المصالح ومناطق النفوذ في العديد من أنحاء العالم، كما كانت هذه الحملة فاتحة لفصول أخرى من ذات الطبيعة ولذات الأهداف مع الأخذ في الاعتبار بالفوارق البسيطة في الشكل والأدوات.

=في مصر نصبه نابليون على قيادة الجيش الفرنسي هناك وعندما عاد نابليون سرًا إلى باريس قتل على يد المناضل العربي سليمان الحلبي في القاهرة.

(١) نصر محمد عبد المعز: في الفكر السياسي العربي والمجتمع، الإسكندرية - دار نشر للثقافة ١٩٦٩م، ٣٢٠.

(2) Morris William Oconnor: *Napoleon warrior and ruler and the military supremacy of revolutionary france*, London 1900, p.69.

(٣) زكي مبارك: مولاي سليمان الثورة ونابليون بونابرت، ٦٠.

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٢٦٧ - ٣٠٢

طاقَمُ مَكْتَب الأَمير مُحَمَّد عَلِي تَوْفِيق بمُتْحف قَصْرِ المَنْيَل بالقَاهِرَة «دِراسَةٌ فَنِّيَّةٌ مُقَارَنَة»

شادية الدسوقي عبد العزيز كشك*
مي جلال عبد الباقي عبد السلام**

يتكون طاقم مكتب الأمير محمد علي توفيق[١] (١٢٩٢-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٥-١٩٥٤م) المحفوظ بمتحف قصر المنيل[٢]

---

* أستاذ الآثار والفنون الإسلامية ورئيس قسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار - جامعة القاهرة.
** معيد بكلية الآثار - قسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار - جامعة القاهرة.

(١) الأمير محمد علي ولد في القاهرة عام ١٨٧٥م، وهو أصغر الذكور بين أبناء الخديو توفيق، وشقيق الخديو عباس حلمي الثاني، وكان وصيا على العرش ما بين وفاة الملك فؤاد الأول وجلوس ابن عمه الملك فاروق على عرش مملكة مصر لحين إكماله السن القانونية بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٣٦م، ثم أصبح وليا للعهد إلى أن أنجب فاروق ابنه الأمير أحمد فؤاد الثاني. كان يأمل أكثر من مرة أن يتولى حكم مصر بعد وفاة الملك فؤاد الأول بحكم أن الملك فاروق الأول كان صغير السن ولكن بحكمة الملكة نازلي لم يستطع فعل ذلك، كان مولعا باقتناء الخيول العربية الأصيلة، وكان كثير الترحال، عُرف بشدة تدينه، نال ثقافات عربية وأجنبية، وكان محبا للفنون خاصة الإسلامية منها، توفي خارج مصر سنة ١٩٥٤م ودُفن بمقابر العائلة في الدراسة، قصره بمنطقة المنيل يضم العديد من التحف الفنية المختلفة، وبعد مصادرة أملاك وثروات أسرة محمد علي عام ١٩٥٣م تم تحويل القصر إلى متحف. عن أكمل الدين إحسان أوغلي: الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، ترجمة صالح سعداوي، تقديم رجب طيب أردوغان، القاهرة - دار الشروق ٢٠٠١م، ٥٦-٥٧.

(٢) قصر الأمير محمد علي بالمنيل أو قصر المنيل يعد تحفة معمارية ذات قيمة كبيرة، يقع بالمنيل وهو=

بجزيرة الروضة[١] بالقاهرة من صندوق خشبي كبير مصنوع من خشب الأبنوس

=حي يقع بجزيرة الروضة النيلية في القاهرة . تحيط به حدائق غنائه ، ولا يزال يحتفظ بطرازه المتأثر بالعمارة المغربية رُغم مرور الوقت . ويُستخدم اليوم كمتحف ، وقد اختار الأمير محمد علي باشا هذه الأرض التي أقام عليها قصره عام ١٩٠١م، وقد أنشأ الأمير قصره الفريد هذا إحياء للعمارة الإسلامية التي عشقها فبنى أول الأمر قصرًا للإقامة ثم أكمل بعد ذلك باقي سرايا القصر ، يشتمل القصر على سراي الاستقبال وبرج الساعة والسبيل والمسجد ومتحف الصيد وسراي العرش والمتحف الخاص والقاعة الذهبية وحديقة تعد في حد ذاتها فريدة من نوعها ، وقد أقام في قصره قاعة للعرش بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدني من تحقيق الحلم الذي ظل يراوده لسنوات على أن يصبح ملكًا على مصر، وقد قام الأمير بنفسه بوضع التصميمات الهندسية والزخرفية ، وأشرف بالتالي علي كل خطوات التنفيذ ، وقام بتنفيذ البناء المعلم محمد عفيفي كما هو مدون على لوحة حجرية أعلى مدخل القصر ، ويشغل القصر مساحة شاسعة تبلغ حوالى ٦١٧١١ مترًا مربعًا منها خمسة آلاف متر هي مساحة المباني ، وحوالي ٣٤ ألف متر للحدائق وحوالي ٢٢٧١١ مترًا عبارة عن طرق داخلية ، وهو يشبه بأبراجه وأسواره العالية قلعة حصينة من قلاع العصور الوسطى ، ويغلب الطراز المغربي على تصميم هذا القصر في عقوده وأعمدته ، كما يكسو جدرانه القاشاني البديع ، وتزينه الآيات القرآنية الكريمة ، بالإضافة إلى أنه يحتفظ بالكثير من التحف الفنية وذلك لأن الأمير محمد علي أوصى أن يكون قصره متحفا للفنون الإسلامية بعد وفاته . عن كامل حسين زيان ـ كوثر أبو الفتوح الليثي : دليل متحف قصر المنيل، القاهرة ـ الهيئة العامة لشئون الطباعة الأميرية ١٩٧٩م، ٢.

(١) جزيرة الروضة : جزيرة كبيرة تقع على النيل يواجه طرفها الشمالي حي جاردن سيتي، والطرف الجنوبي أمام مصر القديمة ، يربطها بير جاردن سيتي كوبري المنيل وببر مصر القديمة كوبرى الملك الصالح وكوبرى الجيزة (عباس سابقًا) ، أما كوبري الجامعة فيوصل الجزيرة بالجيزة أمام جامعة القاهرة ، بدأت أهمية الجزيرة حربيًا منذ الفتح العربي حيث سيطر عليها زعماء الروم عند محاصرتهم للحصن وأقاموا داخل أسوارها المحيطة بها ، وعندما باءت محاولات الصلح بين العرب والمقوقس بالفشل استولى عليها العرب وقام عمرو بن العاص بدك أسوارها وبقيت على هذا الحال حتى قام أحمد بن طولون سنة ٨٧٦م بإعادة بناء أسوارها وحصونها وشيد فيها القصور ودار لصناعة السفن وديوان الجهاد . أما عن تسمية الجزيرة بالروضة فيرجع إلى قيام الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ببناء بستان في نهاية الجزيرة من الناحية الشمالية سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م فأطلق عليها منذ ذلك الحين جزيرة الروضة ، وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب عرفت الجزيرة بقلعة المقياس وقلعة الروضة وقلعة الجزيرة ، وفي القرن الـ١٣هـ/ ١٩م سكن الجزيرة الأعيان والأمراء وبنى فيها الكثير من القصور مثل قصر المانسترلي . عن عبد الرحمن زكي : موسوعة القاهرة في ألف عام ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧م، ٩٥-٩٦.

يحتوي بداخله على مجموعة متنوعة من الأدوات الكتابية تتمثل في محبرة ـ علبة دبابيس ـ مسطرة ـ مَقَطّ ـ مقص ـ ختم ـ فتاحة أظرف ـ ٤ أقلام ـ مجموعة دفاتر وأظرف ورقية .

وقد وقع اختياري على هذه الطاقم لدراسته وذلك لعدة أسباب منها كون هذا الطاقم متميزًا بتصميمه الفريد وتنوع وظائفه حيث أنه يستخدم لحفظ الأدوات الكتابية وأيضًا كمكتب للكتابة عليه ، هذا بالإضافة إلى صنعه من مادة خام عالية الجودة وهي خشب الأبنوس، وأيضًا لتنوع العناصر الزخرفية المنفذة عليه كالزخارف النباتية والهندسية والكتابية وكذلك تنوع الطرق الصناعية المنفذ بها هذه العناصر مثل طريقة البرشمة ـ اللحام ـ التلبيس ، وكذلك الطرق الزخرفية مثل الحفر المتعدد المستويات والتمويه بالمينا المتعددة الألوان .

هذا بالإضافة إلى أن الدراسات والأبحاث التي اهتمت بدراسة الأدوات الكتابية والأطقم المكتبية التي ترجع إلى عصر أسرة محمد علي بشكل عام تعد قليلة وخاصة طاقم مكتب الأمير محمد علي (موضوع البحث) ، الذي سبق نشره فقط ولم تسبق دراسته .

أما عن الهدف من الدراسة فهو دراسة الشكل العام لهذا الطاقم مع تحليل العناصر الزخرفية المنفذة عليه بالإضافة إلى إلقاء الضوء على الطرق الصناعية التي استخدمت في صناعته مع الطرق المتنوعة لأحداث هذه الزخارف وذلك من خلال المنهج المتبع في الدراسة وهو الوصف والتحليل والمقارنة من حيث الشكل والمضمون .

وينقسم البحث إلى عدة محاور

أولًا : الدراسة الوصفية : يتم فيها دراسة طاقم مكتب الأمير محمد علي من حيث الشكل العام مع وصفه بأسلوب علمي دقيق .

ثانيًا : الدراسة التحليلية : يتم فيها تحليل العناصر الزخرفية التي ظهرت علي الطاقم وتأصيلها ومقارنتها مع النماذج المعاصرة .

ثالثًا : خاتمة البحث وأهم النتائج .

رابعًا: هوامش البحث.

خامسًا: الأشكال التوضيحية واللوحات الفنية.

أولًا: الدراسة الوصفية

يتكون طاقم مكتب الأمير محمد علي المحفوظ بمتحف قصر المنيل برقم سجل ١٥١ من :

صندوق خشب مربع الشكل مقاساته (من الخارج) الطول : ٤٠سم ، العرض : ٤٠سم ، الارتفاع : ٧سم ، و(من الداخل) الطول : ٤٠سم ، العرض : ٧٢سم ـ أثناء فتح الصندوق ـ .

وصف الصندوق من الخارج (أبعاده الطول :٤٠سم ، العرض: ٤٠سم ، الارتفاع : ٧سم) ـ (لوحة ١-٢).

مربع الشكل مكسو بطبقة من الجلد ذو اللون البني الفاتح يزين سطحه العلوي زخارف نباتية وهندسية تنحصر داخل جامتين دائريتين وإطارين يتخذا الشكل المربع .

الزخارف المحصورة بين الإطارين المربعين (لوحات ٣:٥) : يزين أطراف الصندوق الخارجية إطاران متداخلان كل منهما مصمم على هيئة مربع مصنوع من النحاس الأصفر ، يحصر الإطارين فيما بينهما زخارف نباتية محورة وهندسية مصنوعة من البرونز(١) والنحاس الأصفر ومزخرفة بطريقة المينا المحجوزة ، تتمثل الزخارف

---

(١) البرونز : نوع من فلز النحاس المختلط بالقصدير ، أحسن أنواعه سبائك النحاس المحتوية على نسبة=

الهندسية في أشكال مربعات يتوسطها أشكال سداسية الأضلاع يكتنفها من الجانبين مثلثين صغيرين ، يزين هذه الأشكال زخارف نباتية محورة منفذة بأسلوب الركوكو ، أما هن الزخارف النباتية المحصورة بين هذه الأشكال الهندسية فهى عبارة عن حليات برونزية مصممة على هيئة أفرع نباتية متمأوجة ينبثق منها الأوراق النباتية المحورة المنفذة بأسلوب الركوكو الأوروبى .

الزخارف المحصورة بين الإطار المربع الداخلي والدائرة الخارجية (لوحة ٣) : يزين المنطقة المحصورة بين الإطار المربع الداخلي والجامة الدائرية الخارجية زخارف نباتية مصنوعة من النحاس الأصفر عبارة عن أفرع نباتية متمأوجة ومتداخلة ينبثق منها أوراق نباتية محورة منفذة بأسلوب الركوكو، وتنحصر هذه الزخارف داخل إطارين مصممين على هيئة مستطيل ضلعه الأيمن مقوس الشكل .

الزخارف المحصورة بين الجامتين الدائريتين (لوحة ٥) : يزين المنطقة المحصورة بين الجامتين الدائريتين زخارف نباتية محورة مصنوعة من البرونز عبارة عن أفرع نباتية متمأوجة ومتداخلة ينبثق منها أوراق نباتية محورة .

الزخارف المحصورة داخل الجامة الدائرية الداخلية (لوحة ٤): يزين منتصف الجامة الدائرية الداخلية شعار الأمير محمد علي المكون من حرفي الـ"MT" بالإفرنجية منفذة بشكل متداخل (إشارة إلى الأمير محمد علي توفيق) مصنوع من النحاس الأصفر ومزين بطريقة المينا المحجوزة Cloisonné Enamel بالألوان الأبيض والأحمر .

=١٠٪ من القصدير ، يتواجد هذا المعدن في المناطق التي يكثر فيها وجود خام النحاس ، يتميز البرونز بصلابته الشديدة ولونه الأصفر المائل للحمرة . عن أولكر أرغين صوى : تطور فن المعادن الإسلامي منذ البداية حتى نهاية العصر السلجوقي ، ترجمة وتقديم وتعليق : الصفصافي أحمد القطوري، ط ١، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م ، ٧٧-٧٩.

كما يعلو هذين الحرفين حلية زخرفية مصنوعة من النحاس الأصفر مصممة على هيئة التاج الملكي ومزينة بالمينا البيضاء والحمراء والخضراء.

الصندوق من الداخل (أبعاده الطول : ٤٠سم ، العرض : ٧٢سم) ـ (لوحة ٩-١٠) : ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول : (لوحة ١١) مستطيل الشكل يضم مجموعة أدوات كتابية جميعها مصنوع من خشب الأبنوس ومزينة من أعلاها بحليتين زخرفيتين على هيئة حرفي "MT" والتاج الملكي ، وهذه الأدوات كالتالى :

الأقلام ـ تتراوح أطوالها ما بين ١٨ : ١٤سم ـ (لوحة ١٢) : يضم هذا القسم عدد أربعة أقلام منهم قلمان ينتهيان بريشتين معدنيتين أحدهما مفقودة ، وقلمين يضمان خزانين لأسنان الرصاص ، والأقلام جميعها مصنوعة من خشب الأبنوس ومزينة في أعلاها بحرفي "MT" والتاج الملكي.

المقط (لوحة ١٣) ـ الطول ٢٠سم ـ العرض ٣سم ـ: مصمم على هيئة مستطيل ضلعيه الجانبيين مستقيمين ، وطرفيه مقوسين ، يزين الطرف العلوي للمقط حليتان زخرفيتان مصنوعتان من النحاس الأصفر ، الأولى عبارة عن حرفي "MT" بالإفرنجية يزينه المينا البيضاء والحمراء ، ويعلو هذه الحلية التاج الملكي المصنوع أيضًا من النحاس الأصفر والمزين بالمينا الحمراء والبيضاء .

المسطرة (أبعادها : الطول ٢٢,٥سم ـ العرض ٢,٥سم) (لوحة ١٣) : مصنوعة من خشب الأبنوس ومصممة على هيئة مستطيل ، يزين طرفها العلوي حليتان زخرفيتان على هيئة حرفي "MT" والتاج الملكي .

المقص (الطول ٢١سم ـ العرض ١,٥سم) ـ (لوحة ١٣) ـ: مصنوع من الحديد ، مقبضه من خشب الأبنوس يتخذ الشكل الدائري ، المقص ساذج خالي تمامًا من الزخارف .

الختم (الأبعاد : الطول ٨سم، قطر الختامة : ٣سم) ـ (لوحة ١٤) ـ: مقبضه مصنوع من خشب الأبنوس ويتخذ الشكل الأسطواني الذي يتسع في أعلاه، يزين الختم كباقي أدوات الطاقم حليتان زخرفيتان الأولى على هيئة حرفي "MT" والثانية على هيئة التاج الملكي.

مثبت بالطرف السفلى حلية معدنية مصنوعة من الحديد سطحها العلوي بيضاوي الشكل يزينه بطريقة الحفر البارز حرفي "MT" والتاج الملكي.

المطواة (فتاحة الأظرف) الأبعاد : الطول : ٩,٥سم ـ (لوحة ١٥) ـ: مقبضها أسطواني الشكل يتسع عند الطرف العلوى مصنوع من خشب الأبنوس يزين طرفه العلوي حرفي "MT" والتاج الملكي، أما عن النصل فهو حديدي مقوس الشكل صغير الحجم خالى من الزخارف، مثبت بالقرب من الطرف العلوي للمقبض بمسمار قلاووظ.

القسم الثانى (لوحة ١٦): القسم الثاني من الصندوق مستطيل الشكل وهو مخصص للكتابة عليه، كما أنه مغطى بطبقة من الجلد الملون بالألوان الأحمر والأبيض، ويشتمل هذا القسم على محبرة وعلبة دبابيس، المحبرة بدنها كروي منتفخ ولها غطاء مستدير من النحاس الأصفر يعلوه غطاء آخر خشبي مربع مغطى بطبقة من الجلد ومزين بحرفي "MT" والتاج الملكي، أما عن علبة الدبابيس فهي مصنوعة من الخشب مربعة الشكل يغلق عليها غطاء خشبى مربع مماثل لغطاء المحبرة الخارجي.

القسم الثالث (لوحة ١٨): يمثل غطاء الصندوق من الداخل، مصمم على هيئة مربع مقسم إلى مجموعة جيوب أو حافظات خاصة بحفظ الأظرف والدفاتر الورقية التي تتخذ الشكل المستطيل.

ثانيًا : الدراسة التحليلية المقارنة

الشكل العام (أشكال ١ـ٢)

يعد طاقم مكتب الأمير محمد علي المحفوظ بمتحف قصر المنيل من أنواع الأطقم المكتبية المحفوظة داخل صناديق خشبية كبيرة تحوى داخلها مكونات الطاقم وهى الأقلام ـ المسطرة ـ الختم ـ المقط ـ علبة الدبابيس ـ المحبرة ومجموعة الدفاتر (أشكال ٧:١٠) ، وعند مقارنة هذا الطاقم بمجموعة الأطقم المكتبية التي ترجع إلى عصر الأسرة العلوية (١٢٢٠ـ١٣٧١هـ/ ١٨٠٥ـ١٩٥٢م) نجد أنه متميز في الشكل والتصميم حيث أن الكثير من هذه الأطقم جاء مكونًا من صينية (مفقودة أحيانًا) تحمل مكونات الطاقم المتمثلة في ثلاث محابر ومرملة ومسقاة ، ومن أمثلة هذا الشكل مجموعة أطقم مكتبية محفوظة بمتحف قصر المنيل بأرقام سجلات (٩٨ ـ ١٢٦ ـ ٩٢ ـ ١١٢) ، والبعض الآخر جاء عبارة عن علبة أو صندوق مقسمة من الداخل إلى عدة تجويفات توضع بداخلها مكونات الطاقم ، وقد صمم بهذا مجموعة أطقم مكتبية ترجع إلى الملك فاروق[1] (١٩٣٦ـ١٩٥٢م/

---

(١) الملك فاروق بن الملك فؤاد الأول بن الخديو إسماعيل بن إبرهيم بن محمد علي باشا ، ولد في القاهرة وتعلم بها وبفرنسا وانجلترا ، نودي به ملكا على مصر بعد وفاة والده الملك فؤاد في عام ١٩٣٦م ، وكان في السابعة عشر من عمره ، ولم يتول السلطة الدستورية إلا بعد أن أتم الثامنة عشر من عمره ، تم في عهد الملك فاروق تنفيذ معاهدة ١٩٣٦م حيث انحصر الوجود الاستعماري في منطقة القناة ، احتفل بإنزال العلم البريطاني من مواقع وجوده بالقاهرة والقلعة عام ١٩٤٨م ، أرغمت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م الملك فاروق على التنازل عن العرش لابنه الأمير أحمد فؤاد ومغادرة الأراضي المصرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٢م وصدر أمرا ملكيا بذلك ، وتم إلغاء النظام الملكي وإعلان النظلم الجمهوري، وبذلك انتهت أسرة محمد علي التي ظلت تحكم لمدة قرن ونصف تقريبا ، مكث بعد ذلك فاروق في روما عاصمة إيطاليا إلى أن توفي وكان قد أوصى قبل وفاته أن يُدفن في المدينة المنورة . عن خير الدين الزركلي : الأعلام ، ط ٦، بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٤٨م ، ٥: ١٢٨ـ١٢٩. أيضًا : شحاتة عيسى إبرهيم : القاهرة ـ دار الهلال ٢٠٠١م ، ٢٨٥. وأيضًا : زاهي حواس وآخرون : متحف المجوهرات الملكية ، ط ٢، القاهرة ـ مطابع المجلس الأعلى للآثار ٢٠٠٢م ، ١٠.

١٣٥٥-١٣٧٢هـ) محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية ـ لم تنشر من قبل ـ أحدها مكون من صندوق يحوي محبرتين ـ نتيجة ـ نشافة ـ فرشاه ـ ريشة مستندة على حامل ، وآخر من فتاحة أظرف وخمس عدسات مكبرة ، وثالث من سكين فاتح خطابات وختم وقلم ذو ريشة معدنية .

كما أنه هناك بعض الأطقم التي تتشابه مع طاقم الأمير محمد علي ـ موضوع البحث ـ في الشكل العام وهو طاقم الأمير سعيد طوسون[1] المحفوظ بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية و المكون من صندوق خشبي مقسم إلى قسمين يحتويان على ثلاث محابر ـ مرملة ـ مصمغة ـ مقص ـ مقط ـ مدية.

الأقلام (شكل ٧)

يُعد القلم من أهم أدوات الكتابة على الإطلاق فهو أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبةً إذ هو المُباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ـ

---

[1] ينتمي النبيل سعيد طوسون ووالده الأمير عمر طوسون إلى إحدى فروع أسرة محمد علي الشهيرة وهو فرع طوسون الذي ينقسم بدوره إلى فرعين : الأول هو فرع الأمير محمد طوسون ابن محمد علي باشا ، والذي اندثر مبكرا قبل بداية القرن الـ١٤هـ/ ٢٠م ، والثاني فرع الأمير محمد طوسون حفيد محمد علي باشا وابن الخديو سعيد والي مصر ، والأمير محمد طوسون حفيد محمد علي باشا عاش في الفترة من (١٢٦٨-١٢٩٣هـ/ ١٨٥١-١٨٧٦م) عني والده بتربيته وتعليمه ، فبرع في العلوم الابتدائية ، وبعض اللغات ، ثم مارس الفنون الحربية ، وقلد نظارتي الأوقاف والمعارف وحسن فيها وأصلح ، وتولى نظارة الحربية مدة من الزمن ، وتوفي في ريعان شبابه سنة ١٢٩٣هـ، ودفن بالإسكندرية، والذي تبقى من هذا الفرع ويعيش في مصر هم النبلاء محمد حسين طوسون ، وفي باريس حسن سعيد طوسون وشقيقه عزيز، كما يعيش معهم في باريس ابنة عمهم النبيلة ملك بيير طوسون وابن عمهم النبيل توفيق محمد طوسون ، وفي باريس يعيش النبيل محمد حسن طوسون مع ابنتيه كريمة وياسمين ، في عقدهما الثالث الآن ، ولم ينجب ذكورا ، ويأتي لزيارة القاهرة من حين لآخر ، بعد إعادة الجنسية المصرية له ولعدد كبير من أفراد أسرة محمد علي في عهد الرئيس الراحل أنور السادات ، بعدما كانت سحبت منهم بعد الثورة.

عن : http://faroukmisr.net/r

أي كالآلات المساعدة(١) ـ ، يُنطق القَلَم بفتح القاف واللام وهو آلة الكتابة والجمع أقلام وقِلام(٢) ، يُطلق علي القلم هذا الاسم لتقليمه وتسويته كما يقلم الظفر ، وكل عمود يقطع ويحز رأسه ويقلّم فهو قلم ، لذلك سميت السهام أقلامًا(٣) كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾(٤) ، ويُذكر أن القلم سُمى قلمًا لأنه مأخوذ من القلام ، والقلام شجر ضعيف رخو ، فلما ضارعه القلم في الضعف صار قلمًا(٥) ، ويذكر البغدادي أن القلم هو كل قصبة قطع منها قطعة فالقطعة هي القلم ، وكل عود نُجِرَ من رأسه بعلامة فهو قلم(٦) .

ويطلق على القلم أيضًا اليَرَاع والأرقم والمِرقَم والملقاط وابن الزنجية(٧) والإسمر(٨) ، ويذكر القلقشندي أن الأقلام سميت بذلك لاستقامتها كالقداح فسميت بالقداح أو الأقداح(٩) ، كما يسمى القلم أيضا بالمذبر/ المزبر بالذال أو

---

(١) محمود عباس حمودة : تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط ، القاهرة ـ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٤م ، ٦١.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : «رسالة الخط والقلم» ، تحقيق هلال ناجي ، مجلة المورد ، مجلد ١٩ ـ عدد ١، (١٩٩٠م) ، ١٣.

(٣) محمد ابن احمد الزفتأوي : «منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة» ، مجلة المورد ، المجلد ١٥، العدد ٤، العراق ، ١٩٨٦م، ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .

(٥) خير الله سعيد : وراقو بغداد في العصر العباسي ، ط ١، الرياض ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ٢٠٠٠، ٥٨.

(٦) أبى القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي : «الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها» ، تحقيق هلال ناجي ، مجلة المورد ، المجلد الثاني، العدد الثاني، ١٩٧٣م ، ٤٩.

(٧) المقصود بالزنجية المحبرة لسواد مدادها .

(٨) اليراع : هو القضيب المجوف المثقب الذي يكتب به إذا بري . عن : محمد عبد الستار عثمان : «دور المسلمين في صناعة الأقلام» ، مجلة الدارة ، السنة الحادية عشر ـ العدد الأول (١٩٨٥م(، ٤٦.

(٩) أبو العباس أحمد بن على بن أحمد القلقشندي : صبح الأعشى ، تقديم فوزي محمد أمين ،=

الزاي، وسمي كذلك لأنه يُزبر به أي يكتب به، وهناك فرق بين زبرت وذبرت، فبالزاي تعني كتبت كقولهم زبرت الكتاب أي أتقنت كتابته، وبالذال تعني قرأت[١]، وقد ورد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢]، وأيضا في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٣]، وكذلك في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[٤].

ازدهرت صناعة الأقلام المعدنية[٥] خاصة في فترة حكم أسرة محمد علي

=القاهرة ـ طبعة مصورة عن دار الكتب الخديوية ٢٠٠٤م، ٢: ٤٤٥.

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (المتوفى ٤٤٤-٥٢١هـ): الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقا ـ حامد عبد المجيد، القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية، ١: ١٦٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٩٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(٤) سورة فاطر، الآية ٢٥.

(٥) ويرجع اختراع القلم الحبر إلى عهد الدولة الفاطمية وبالتحديد في القرن الـ٤هـ/١٠م وذلك حتى يصبح القلم أداه متكاملة لا حاجة إلى الدواة التي تمده بالمداد والتي تلازمه ملازمة دائمة ويصعب حملها والتنقل بها في كل وقت، وقد كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٦٢-٣٦٥هـ/ ٩٧٥-٩٧٢م) هو صاحب الفضل في اختراع القلم النباع أو ما يسمى حديثا بالقلم الحبر وهو قلم يستخدم في الكتابة بدون حاجة إلى الاستمداد لأنه مزود بالحبر من داخله، حيث تذكر الرواية التاريخية أن المعز قال: «نريد أن نعمل قلما يُكتب به بلا استمداد من دواة، يكون استمداده من داخله فمتى شاء الإنسان كتب به فأمدّه وكتب به ما شاء، ومتى شاء تركه فارتفع المداد وكان القلم ناشفا منه، ويجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يبتغي منه ويراد الكتابة به»، فكان هذا القلم يوضع به المداد على قدر الحاجة ويُكتب به، وقد كان هذا القلم يقلب في اليد ويميل من كل ناحية فلا يبدو منه شيء من المداد، فإذا أخذه الكاتب وكتب به كتب أحسن كتاب وإذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد، ويتبين من ذلك أن الخليفة المعز لدين الله كان صاحب الفضل في صناعة هذا القلم وكيف أنه تابع تنفيذه وأمر بصناعته حتى صار قلما صالحا للكتابة، وهذا يكشف لنا أن اختراع القلم=

(١٢٢٠-١٣٧١هـ/ ١٨٠٥-١٩٥٢م)، حيث كانت بعض هذه الأقلام مقبضها يصنع من المعادن المختلفة أو القصب أو العاج أو الخشب المصقول ـ كما هو الحال في أقلام طاقم موضوع البحث ـ وريشتها من المعدن ، وقد كان يتم استخدام هذه الريش المعدنية في الخطوط الناعمة ، كما كان يُفضل استعمالها في الأعمال الخطية الطويلة لعدم تآكل سنه مما يؤدى إلى المحافظة على سمك الخطوط من أول الكتابة إلى آخرها ، حيث كانت ريشة القلم المعدنية تشق وتقط بمعرفة الخطاط ثم تُسوى / تُسن على حجر خاص للشحذ ناعم جدا ومشبع بالزيت (الجلخ) للحصول على درجة الانحراف المناسبة ولإكسابها بعض ليونة ومرونة الأقلام القصبية ثم تمد بالحبر كما هو الحال في الأقلام القصبية ويكتب بها[١]، وقد تطورت الأقلام المعدنية بعد ذلك حتى أصبحت تحمل في جوفها خزانا للحبر يمد به سن القلم[٢] .

أما عن أقلام الطاقم الذى نحن بصدده فهي أقلام مصنوعة من خشب الأبنوس أسطوانية الشكل مثبت بمقدمة بعضها ريش معدنية وبالبعض الآخر مكان لأسنان الرصاص.

المقط (شكل ٩)

المِقَطَّة بالتأنيث[٣] أو المِقَطّ بكسر الميم هو العود الذي يُقَطّ عليه القلم ، والجمع

=النباع fountain pen كان على يد المسلمين في القرن الـ٤هـ/١٠م وليس إلى القرن الـ١٨م كما يعتقد البعض ، وبالرغم من اختراع القلم النباع منذ عهد الخليفة المعز إلّا أن الأقلام المصنوعة من القصب ظلت شائعة الاستعمال وساعد على ذلك توافرها وقلة تكاليفها وحسن إخراج الكتابة بها مع إتقان صناعتها . عن : عبد الستار عثمان : صناعة الأقلام ، ٤٣-٤٤.

(١) حسن المسعود : الخط العربي ، باريس ـ دار نشر فلاماريون ١٩٨١م، ٢٢.

(٢) عبد العزيز عبد الرحمن مؤذن : فن الكتاب المخطوط في العصر العثماني ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الحضارة الإسلامية ـ كلية الشريعة والدراسات الاسلامية جامعة أم القرى ١٩٨٩م ، ٨٥.

(٣) البغدادي : الكتاب ، ٥٠.

مِقَاط ، ويقال قَطَتّ القلم أَقُطّه قطًّا[١] .

يذكر الصولي أن المِقَطّ عبارة عن قطعة صلبة مستطيلة غير مستديرة ـ لأنه إذا كان مستديرا تشظّى القلم وربما تهللت القطة فتأتي الإدارات والتشعيرات غير جيدة ـ[٢] ، مسطحة الوجه ، ناعمة الملمس ، مصقولة غير خشنة حتى لا يتشظى طرف القلم عليها[٣] ، فان كان على هذا الشكل رحب مطاه ووطؤ قراه وكان أملأ لليد وأمكن للقط[٤] .

المِسْطَرَة (شكل ٩)

هى أداة من الخشب مستقيمة الأطراف يستخدمها الكاتب والمُذهب في تسطير وتخطيط الأعمال الفنية البسيطة[٥].

المقص (شكل ٩)

المِقص بكسر الميم هو أداة للقص والجمع مِقاص ،يُسمى أيضا بـ المِقطَع ـ المِقراض ـ الجَلَم[٦] ، وعند قص الورق يُقال قصصت و قطعتُ ـ قرضت ـ جلمت وأحيانا يُقال جرَمت بالراء ، يتكون المقص من سكينتين مربوطتين ببعضهما من

---

(١) القط والقد متقاربان لأن القط أكثر ما يستعمل فيما وقع السيف في عرضه ، والقد لما وقع في طوله . عن : أبي بكر محمد بن يحيى الصولي : أدب الكتاب ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، ١٣٤١هـ ، ٢: ١٠٩.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ٢: ٤٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ٤٥٩.

(٤) الصولي : أدب الكتاب ، ٢: ١١٠.

(٥) محمد بن سعيد شريفي : اللوحات الخطية في الفن الإسلامي المركبة بخط الثلث الجلى دراسة فنية في تاريخ الخط ، الطبعة الأولى ، بيروت ـ دار ابن كثير ١٩٩٨م ، ٦٤.

(٦) البطليوسى : الاقتضاب ، ١: ١٧٦.

الوسط تقريبا ، وهو من الأدوات الضرورية للكاتب لاستخدامه في قص الأوراق وتسويتها ، يُطلق على طرفي المقص ذبابان وظبّتان ، وعلى حديه الغِراران ، وللجانبين اللذين لا يقطعان شيئا : الكلّان ، ولحلقتيه السّمّان ومُفردها سِمّ أي الثقب[1] .

ويُراعى أن يُصنع المقص من الحديد الصلب الرقيق ، وأن يكون صغير الحجم طويل الساقين ـ بمقدار سعة الدواة ـ لضمان قص الورق بشكل مستقيم دفعة واحدة ، ويتراوح طوله في الغالب ما بين ٢٣: ٢٩سم ، ونتيجة للاهتمام البالغ الذى حظيت به فنون الكتاب عامة وفن الخط والكتابة خاصة ، امتدت يد الاهتمام والعناية إلى المقص بتجميل وتهذيب شكله وزخرفته في معظم الأحيان بزخارف نباتية وكتابية وهندسية مع ترصيعه أحيانا بالأحجار الكريمة كما هو الحال في المقصات المحفوظة بمتحف قصر المنيل ومتحف المجوهرات الملكية بأرقام سجلات (١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٤).

وقد استمر العمل بهذا الشكل من المقصات حتى ظهر المقص الآلى الكبير الحجم لقص الورق والكربون ، والذي ظهر من بعده المقص الكهربائي الحديث[2].

الختم (شكل ٨)

قال الخليل[3] في الخاتم لغات حيث يُقال خَاتم ـ خاتِم ـ خاتام ـ خيتام ـ خيتوم ـ خاتيام[4]

---

(١) المرجع نفسه ، ١٧٧.

(٢) عبد العزيز عبيد : فن الكتاب ٥٩.

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري (المتوفي ١٧٠هـ) أمام اللغة وواضع علم العروض . عن : الزفتاوي : منهاج الإصابة ٢٤٦.

(٤) الدينوري : رسالة الخط ٢٨.

والختم(١) عبارة عن قالب(٢) تنقش عليه الكتابات والرموز محفورة ومعكوسة على قرص من مادة صلبة ، ويُطبع به بعد غمسه في الألوان أو الأحبار السائلة على مادة لينة مثل الورق فتظهر الكتابات معتدلة مستوية(٣) ، ظهرت أشكال بديعة للأختامفي عصر أسرة محمد علي قام الفنان بصناعتها من أغلى وأقيم المواد الخام كالذهب والأحجار الكريمة ، ومن أمثلة هذه الأختام مجموعة أختام محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية تنسب إلى الملك فاروق والأميرة سميحة حسين وزوجها وحيد يسرى ـ لم يسبق نشرها ـ .

فتاحة الأظرف (شكل ١٠)

يرجع إلى عصر أسرة محمد علي مجموعة كبيرة من فتاحات الأظرف المصنوعة من أغلى وأقيم المواد الخام كالذهب والفضة والعاج والنحاس الأصفر وعظم ظهر السلحفاة والباغة ، والمزخرفة بطريقة المينا والحز والحفر ، وقد شكلت

---

(١) قيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتمًا من فضة نقش عليه «محمد رسول الله» فكان في يده ﷺ حتى مات ، وفي يد ابى بكر ﷺ حتى مات وفي يد عُمر حتى مات ، وفي يد عثمان ست سنوات ، ولم يتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الخاتم حتى احتاج الي مكاتبة الملوك عندما قيل له إن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون مختوما فاتخذ ختما من فضة ونقش عليه «محمد رسول الله» في ثلاثة أسطر ٣٤، كما أنه كان منقوشا على خاتم علي بن أبي طالب ﷺ «الملك لله الواحد القهار» كما كان على خاتم الحسين بن علي «لا إله إلا الله الملك الحق المبين» ، وكان منقوشا على خاتم عبد الملك بن مروان بن الحكم «الله ثقتي ورجائي». عن : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد الفزاز القلقشندي : مآثر الإنافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ـ مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٥، ١٠٠ ـ ١٠٦ ـ ١٩٥.

(٢) الصولي : أدب الكتاب ١٣٩. وأيضًا : الزفتاوي : منهاج الإصابة ٢٤٧-٢٤٨

(٣) وهذه الأختام منها نوعية خاصة بالأشخاص تُعرف اصطلاحا باسم «الخاتم» الذي يُستخدم في اعتماد الأوراق الرسمية والوثائق وغيرها ، وكان يُلبس هذا الخاتم في الإصبع كحلية للزينة ، بالإضافة إلى وظيفته الرسمية التي تحمل شارة أو اسم صاحبها أو الدعاء له . عن : محمد عبد الستار عثمان : أدوات الكتابة بين النشأة والتطور ، مجلة مقاليد ٦، الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا (٢٠١٣) ، ٢١١- ٢١٢.

هذه الفتاحات على هيئة سيوف صغيرة وأعمدة بتيجان مزخرفة وساعة يد ، ومن أمثلة هذه الفتاحات مجموعة محفوظة بمتحف قصر عابدين بالقاهرة ومتحف المجوهرات الملكية ـ لم يسبق نشرها ـ ، ويتشابه مع فتاحة الأظرف الموجودة ضمن طاقم مكتب الأمير محمد علي فتاحة أخرى مصنوعة من الذهب ولها حافظة من الذهب أيضًا مزخرفة بالمينا الزرقاء والحمراء محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية ـ لم يسبق نشرها ـ .

المواد الخام والأساليب الصناعية والزخرفية

المواد الخام

استخدم خشب الأبنوس في صناعة طاقم مكتب الأمير محمد علي ـ موضوع البحث ـ سواء الصندوق الكبير أو محتويات الطاقم ، يُعد خشب الأبنوس من أغلى وأثمن أنواع الأخشاب على الإطلاق لما يتميز به من تعدد الألوان وإندماج الألياف وجمالها ، فمن الأبنوس الأسود الحالك السواد ـ الأسود المخطط بعروق بنية أو بيضاء ـ البني المعرق بخطوط بيضاء ، كما يتميز أيضًا خشب الأبنوس بقدرته العالية على تحمل الظروف الجوية وصلابته ومتانته لذلك يصفه البعض بالحجر حيث تبلغ كثافته ١,١٥ سم ٣، تنمو الأشجار التي يُستخرج منها هذا النوع من الخشب في جنوب وشرق الهند وأيضًا في أواسط أفريقيا ، عرف الأبنوس المصرى القديم عن طريق إثيوبيا وكان يطلق عليه اسم هابن Haben كما أنه عُرف في اليونانية باسم أبنوس وفي العربية بعد ذلك بنفس الاسم ثم في الإنجليزية Ebony[(١)].

---

(١) آلاء عبد العزيز محمد خيري : التحف الخشبية في الهند منذ عهد الدولة المغولية وحتى نهاية القرن الـ١٣هـ/ ١٩م ، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار جامعة القاهرة قسم الآثار الإسلامية ٢٠١٢م ، ٢٢١-٢٢٢.

الأساليب الصناعية والأدوات المستخدمة في صناعة الطاقم

استخدم الفنان في صناعة هذا الطاقم المكتبى عدّة أدوات للشق والنشر وضبط العلامات والقياس والطرق والمسح والتسوية والقطع والثقب والتغرية ، ومن أمثلة هذه الأدوات : الأمتار ـ البراجل ـ المطارق ـ الشواكيش ـ المفكات ـ المنشار ـ الفارة ـ الإزميل ـ المبرد ـ الغراية ، ويُعد البنك من أهم الوحدات التياستخدمها النجار في إجراء العمليات الصناعية المتبعة في تجهيز وإعداد هذا الطاقم وهي عمليات النشر والمسح والقشط اليدوي والتسمير والتجميع والتشطيب[١].

الأساليب الزخرفية

استخدم الفنان في تزيين الطاقم عدة طرق زخرفية تتمثل في :

الزخرفة بمينا السلك أو المينا المحاطة : (Cloisonne Enamel)

تُوصف كلمة مينا على وجه الدقة بأنها مادة أو طبقة زجاجية غير عضوية تلصق على سطح المعدن[٢] بصهرها في درجات حرارة عالية تبدا من ٤٤٧م (٨٠٠ف) تتمتع بدرجة مقاومة عالية للمواد الكيميائية في درجات الحرارة العالية ،

---

(١) محمد شمس الدين طلعت : المشغولات الخشبية بين التصميم والتنفيذ والتشطيب ، سلسلة فنون أشغال الخشب ، الجزء الأول فن القشرة الماركتزي الباركيتري الانتاريشيا ، ٢٠٠٤م ، ٢-٣٣.

(٢) يمكن تنفيذ المينا على معادن مختلفة مثل الذهب ـ الفضة ـ النحاس ـ الحديد ـ النيكل ، إلا أن أفضل النتائج تظهر على الذهب حيث يظل سطحه المموه بالمينا متلألًا بمرور الزمن ، لذلك يجب طلاء المعادن الأخرى قبل زخرفتها بالمينا برقائق من الذهب أو الفضة ، كما أنه يجب مراعاة تناسب درجة التمدد والإنكماش بين المعدن وطبقة المينا المطبقة فوق سطحه ، وذلك لأن التباتين قد يؤدى إلى تناثر المينا على السطح وانفصالها تمامًا أو إلى تشققها مع مرور الوقت ، ولكي يقوم الصانه يتجنب ذلك كان يقوم بطلاء الأواني المعدنية من الداخل أيضًا بطبقة من المينا وذلك للتقليل من تباين درجة الانكماش والتمدد عند الحرق . عن : ناصر بن علي : تحف الأثاث المعدني ٦١.

وهى عبارة عن مسحوق يتألف من سليكات البوتاسيوم وأكسيد الرصاص يمكن أن يكون صلب أو رخو أو متوسط الصلابة وذلك حسب كمية السليكا الموجودة به مقارنة بالمكونات الأخرى ، كما أن المينا تحتاج إلى درجة حرارة منخفضة عند تسويتها إذا كانت رخوة وتزداد هذه الحرارة كلما ازدادت درجة صلابة المينا[١] .

والمينا يمكن أن تكون شفافة أو قاتمة أو متعددة الألوان وذلك على حسب المركبات الكيميائية المضافة إليها مثل أكسيد الكوبلت ـ أكسيد الذهب ـ كلوريد الفضة ـ ثاني أكسيد النحاس ـ أكسيد القصدير ـ أكسيد المنجنيز ، كما أنه يمكن أن تختلف درجات ألوان المينا من تحفة فنية إلى الأخرى ويتحكم في ذلك عدة عوامل منها نوع وكمية المواد الملونة وطريقة خلطها مع مركبات المينا ، نوع الفرن المستخدم في التسوية ودرجة حرارته وزمن تسوية التحفة[٢] .

وتُعد طريقة تنفيذ المينا بالأسلاك من أقدم طرق تطبيق المينا على التحف الفنية المعدنية ، كما أنها تُعد الطريقة المحببة في أعمال الحلى والأشغال الدقيقة وذلك لدقتها واحتياجها إلى وقت طويل في التنفيذ[٣] .

تطبق المينا في هذه الطريقة منفصلة عن بعضها بواسطة أسلاك معدنية من الذهب أو الفضة أو النحاس[٤] يتراوح سمكها ما بين ٠,٧ : ١مم حسب حجم

---

(١) أحمد صبري : المعالجات السطحية قبل التغطية وأثرها على كفاءة مظهر السطح المعدني ، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الفنون التطبيقية جامعة حلوان ، ٢٠٠٨م ، ١١٢.

(٢) محمد صبري : أثر فن التزجيج على فن المصوغات في مصر ، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الفنون التطبيقية جامعة حلوان ، ١٩٨١م ، ١٢٥.

(٣) المرجع نفسه ، ١٣٠.

(٤) يقل استخدام الأسلاك النحاسية في المينا المحاطة أو المحجوزة وذلك لتكوينه طبقات من الأوكسيد تضر بالألوان . عن : مجدى عبد المنعم : تغطية أجزاء من المنتجات المصنوعة من الصلب الغير قابل للصدأ بالمينا ، مخطوط رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الفنون التطبيقية قسم التصميمات الصناعية والمعادن ، ١٩٨٠م ، ٧٢.

التحفة المراد زخرفتها، وتشكل هذه الأسلاك وفقًا للتصميم المراد تنفيذه على سطح التحفة حيث يتم تثبيتها على السطح بواسطة مواد لاصقة سريعة التماسك تتطاير أثناء عملية صهر المينا كما يمكن تثبيتها بواسطة اللحام[1].

يبدأ بعد ذلك الصانع بتنزيل المينا في الخانات المخصصة لها على سطح التحفة بشكل يتساوى مع مستوى حرف سلك الفواصل مع الضغط عليها للتخلص من الفراغات إذا كانت المينا صلبة وإذا كانت رخوة يقوم بتجفيفها أولًا قبل عملية الحرق[2].

نفذت مينا الحواجز في طاقم مكتب الأمير محمد علي على الحليات الزخرفية المصممة على هيئة حرفي "MT" والتاج الملكي على الصندوق من الخارج ومحتويات الطاقم من الداخل، وكذلك على الأشكال الهندسية التي تزين الصندوق من الخارج (لوحات ١- ٢ - ٤ - ٧).

وقد زُخرفت الكثير من التحف الفنية التي تنسب إلى العصر الإسلامي بطريقة المينا المحاطة (الكلوزونيه) أبرز هذه التحف مجموعة الحلى التي تنسب إلى العصر الفاطمي في القرن الـ ٥هـ/١١م حُددت فيها العناصر الزخرفية بالأسلاك الذهبية، ومن هذه المجموعة مشابك صدر محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ومتحف المتروبوليتان بنيويورك مصممة على هيئة هلال يزينه أشكال طيور وعبارات كتابية مثل «الله خير حفظا» منفذة بطريقة المينا المحاطة بالألوان الأزرق والأخضر والأحمر والأبيض، وهناك أيضًا صحن من النحاس الأحمر يُنسب إلى العراق في النصف الأول من القرن الـ٧هـ/١٣م منفذ عليه رسوم آدمية بطريقة المينا

---

(١) نبيل الظن: التصوير على المينا، مخطوط رسالة ماجستير كلية الفنون التطبيقية جامعة حلوان، ١٩٧٣م، ٣٤.

(٢) محمد صبري: أثر فن الترجيج على فن المصوغات ١٣١.

المحاطة بالألوان الأزرق والأخضر والأصفر والأبيض، ويرجع لنفس القرن قلادة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ومزينة بشكل هلال وعبارة «العز الدائم» منفذ بطريقة المينا المحاطة[١].

ومن أمثلة التحف الفنية التي زينت بالمينا وترجع إلى عصر أسرة محمد علي (١٢٢٠ـ١٣٧١هـ/ ١٨٠٥ـ١٩٥٢م) ساعة جيب من الذهب مرصعة بالماس محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية منفذ على أحد وجهيها صورة شخصية لمحمد علي باشا (١٢٢٠ـ١٢٦٤هـ/ ١٨٠٥ـ١٨٤٨م) بالمينا الملونة ويقابلها في الوجه الآخر صورة شخصية لابنه سعيد باشا (١٢٧١ـ١٢٨٠هـ/ ١٨٥٤ـ١٨٦٣م)، كما يحتفظ المتحف نفسه بمجموعة ساعات جيب خاصة بالملك فاروق (١٣٥٥ـ١٣٧٢هـ/ ١٩٣٦ـ١٩٥٢م) مزينة جميعها بمناظر تصويرية منفذة بالمينا المتعددة الألوان كما نفذ بالمينا الملونة مجموعة صور شخصية للخديوى إسماعيل (١٢٨٠ـ١٢٩٧هـ/ ١٨٦٣ـ١٨٧٩م) وزوجته جشم آفت هانم وبعض أفراد الأسرة العلوية[٢].

التفريغ

عُرف أسلوب التفريغ أو التخريم منذ العصور القديمة السابقة للإسلام، كما أنه عُرف في بلاد الشرق الأدنى منذ القدم، واستخدم كذلك في زخرفة المنتجات المعدنية الساسانية، استمر استخدامه في زخرفة التحف المعدنية حتى العصر الإسلاميومن أمثلة التحف الاسلامية المبكرة التي زخرفت بهذه الطريقة إبريقان من البرونز يرجعان إلى أواخر العصر الأموي (٤١ـ١٣٢ هـ/ ٦٦٢ـ٧٥٠ م) أحدهما

---

(١) شادية الدسوقي عبد العزيز كشك: طاقم مكتب من النحاس المموه بالمينا ينسب إلى الأسرة العلوية، مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠١٢م، ١٩.

(٢) المرجع نفسه، ٢٢.

محفوظ بمتحف الفن الإسلامي برقم سجل ٩٢٨١ وهو ينسب إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، والإبريق الآخر محفوظ بمتحف المتروبوليتان[١].

بلغ هذه الأسلوب قمة تطوره في العصر السلجوقي والمملوكي (٦٤٧ـ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ـ١٥١٧م) حيث أنتج الصانع في هذه الفترة أعمال فنية رائعة تتميز بدقة وصغر الثقوب المنفذة على التحف المعدنية[٢].

وقد استمر استخدام هذا الأسلوب حتى العصر العثماني (٩٢٣ـ١٢١٩هـ/ ١٥١٧ـ١٨٠٥م) وعصر أسرة محمد علي (٩٢٣ـ١٢١٩هـ/ ١٥١٧ـ١٨٠٥م) في زخرفة المقابض وقواعد الأوانى وحلقاتها وبعض أجزاء الأسلحة مثل السيوف والخناجر، كما أنها استخدمت على نطاق واسع في زخرفة أدوات الإضاءة المعدنية خاصة المصابيح بالإضافة إلى التنانير والمباخر ذات الأغطية النصف كروية والقناديل وظروف الفناجين والكوالين وأغطية الطسوت والأباريق والكبشات وغير ذلك من الأدوات، حيث كان هذا الأسلوب الزخرفي يخدم أيضا الغرض الوظيفي إلى جانب الغرض الزخرفي والجمالي[٣].

وقد كانت تنفذ الزخارف في هذه الطريقة بأسلوبين الأول عن طريق إعداد تصميم زخرفي مسبق يتم رسمه بعد ذلك على سطح المعدن ثم البدأ في تثقيب

---

(١) حسين عبد الرحيم عليوة: كراسي العشاء في عصر المماليك، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م، ٩٦.

(٢) ناصر بن علي بن عيضة الحارثي: تحف الأثاث المعدني في العصر العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الحضارة الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٩٨٩م، ٧٠ـ ٧١.

(٣) ربيع حامد خليفة: الفنون الإسلامية في العصر العثماني، الطبعة الثالثة، القاهرة ـ مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٥م، ١٣٧ـ ١٣٨.

الأرضية من حولها عن طريق استخدام آلة ذات حافة حادة قاطعة تُسمى أجنة يتم الدق عليها بواسطة مطرقة معدنية مستقيمة الرأس «جاكوش»[1]، والثاني تفريغ الزخارف ذاتها بدلًا من تفريغ الأرضية، وفي كلا الحالتين تحتاج هذه الطريقة الزخرفية إلى مهارة فائقة حيث يُشترط الترابط التام بين العناصر الزخرفية في التصميم[2]، وبعد الانتهاء من تنفيذ الزخارف كان يتم تنظيف وتنعيم حواف العناصر الزخرفية بواسطة مبرد[3].

استخدم الفنان في زخرفة الطاقم ـ موضوع البحث ـ أسلوب التفريغ في تزيين بعض أجزاء السطح العلوي من صندوق الطاقم وذلك عن طريق تثبيت الحليات النحاسية والبرونزية المزينة بطريقة التفريغ داخل الحلقة الدائرية التي تنتصف السطح العلوي للصندوق وأيضًا على جانبي هذه الحلقة، وقد استخدم الفنان في عمل ذلك أسلوب اللصق بالغراء وأيضًا من أجل تثبيت حليات الشعار والتاج الملكي، وقد كان الفنان يستخدم في هذا الأسلوب الغراية من أجل تحويل الغراء الحيواني من حالة الصلابة إلى حالة السيولة، وهذه الغراية تتكون من وعائين متداخلين الداخلي منهما لوضع الغراء والخارجي لوضع ماء ساخن لتسخين الغراء[4].

---

(١) حسين عبد الرحيم عليوة: السلاح المعدني للمحارب المصري في عصر المماليك، المنصورة ـ دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٧٤م، ١٤٣.

(٢) وفي بعض الحالات كان الصانع يقوم بتنفيذ هذا الأسلوب الزخرفي عن طريق الصب في القالب وذلك في حالة إذا ما كان المعدن سميكًا. عن: سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف وما به من الهدايا والتحف، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٩م، ٣٢٧.

(٣) عبد الله عطية عبد الحافظ: الفنون الزخرفية في العصر العثماني، القاهرة ـ دار النيل ٢٠١٢م، ١٦٠.

(٤) محمد شمس الدين: المشغولات الخشبية، ٣٣.

العناصر الزخرفية

نُفّذ على طاقم مكتب الأمير محمد علي ـ موضوع البحث ـ عدة عناصر زخرفية أبرزها شعار هذا الأمير المتمثل في الحرفين اللاتينيين "MT" والتاج الملكي، كذلك زين الطاقم بحليات الزخرفية مصممة على هيئة زخارف النباتية المحورة وأشكال الهندسية متنوعة.

شعار الأمير محمد علي "MT" (لوحة ٤ ـ شكل ٣)

اشتهر ملوك وأمراء ونبلاء الأسرة العلوية باتخاذهم شعارات (مونوغرام)[١] لأنفسهم مكونة من حرف أو حرفين في الغالب باللغة اللاتينية وأحيانًا باللغة العربية للتعبير عن أنفسهم، وقد كانت هذه الشعارات تنفذ على القطع الفنية المنسوبة إليهم وعلى أختامهم وأوراقهم الخاصة بهم وأيضًا على عمائرهم التي شيدوها، ومن أمثلة هذه الشعارات "FH" ذلك الشعار التي اتخذته النبيلة فاطمة الزهراء المعروفة بفاطمة حيدر[٢] لنفسها والذي يمثل أول حرفان من اسمها، وقد ظهر هذا الشعار على مواقع كثيرة من قصرها بالإسكندرية (حاليًا متحف المجوهرات

---

(١) المونوجرام هو الشعار الرسمي للملك مصر في فترة حكم الأسرة العلوية (١٢٢٠-١٣٧١هـ/ ١٨٠٥-١٩٥٢م)، ظهرت فكرته في عهد الملك فؤاد الأول (١٣٣٥-١٣٥٥هـ/ ١٩١٧-١٩٣٦م) وأطلق عليه مونوجرام لغلبة الثقافة الأجنبية في ذلك الوقت. عن: خالد عزب ـ محمد حسن: ديوان الخط العربي في مصر «دراسة وثائقية للكتابات وأهم الخطاطين في عصر أسرة محمد علي»، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية للنشر والتوزيع ٢٠١١م، ٤٣٦.

(٢) النبيلة فاطمة الزهراء أو فاطمة حيدر ابنة السيدة زينب فهمي والأمير على حيدر شناسي بن الأمير أحمد رشدي بك بن الأمير مصطفى بهجت فاضل باشا بن إبرهيم باشا بن محمد علي الكبير، تزوجت النبيلة فاطمة من محمد فايق يكن بك وأنجبت منه ثلاث أبناء هم فاضل ـ فايز ـ فايزة، أكملت النبيلة فاطمة بناء القصر الذي بدأته والدتها زينب هانم فهمي وانتهت من ذلك سنة ١٩٢٣م. عن: زاهي حواس وآخرون: متحف المجوهرات، ٢.

الملكية) ، أيضًا اتخذ الخديو[١] إسماعيل[٢] (١٢٨٤-١٢٩٧هـ/ ١٨٦٧-١٨٧٩م) لنفسه شعارًا مكون من حرفي "IP" إشاره إلى اسمه ولقبه إسماعيل باشا ، وقد ظهر هذا اللقب على بوابة باريس الخشبية بقصر عابدين[٣] ، كذلك اتخذ الخديو

---

(١) الخديو : خديو كلمة فارسية معناها السيد أو المولى أو الرب ، يعد إسماعيل باشا أول من منح هذا اللقب رسميًا حيث كان يسعى جاهدا للحصول على لقب أسمَى من لقبه الذي كان لا يتعدى إذ ذاك والي مصر ، وقد صدر فرمان في ربيع الأول ١٢٨٤هـ/ يوليو ١٨٦٧م بإنعام السلطان عليه بلقب الخديوية ، تأكد هذا اللقب في فرمان ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م .

عن : مرفت عبد الهادي عبد اللطيف محمد : الزجاج التركي العثماني من خلال مجموعات متاحف القاهرة «دراسة آثارية فنية» ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ١٤٠.

(٢) الخديو إسماعيل : هو ابن القائد إبراهيم باشا ، حكم مصر من عام ١٨٦٣-١٨٧٩م ، افتتحت قناة السويس في عهده «١٧ نوفمبر ١٨٦٩م» و يُعد منشئ القاهرة الحديثة وأول من تلقب باسم «الخديو» أى أمير الأمراء ، جعل الحكم في أبنائه بعد أن كان لأكبر أفراد الأسرة العلوية ، حاول الخديو إسماعيل في عهده نقل كل ما وصلت إليه أوروبا من حضارة إلى مصر لذلك شهد عصره نهضة كبرى في المجالات الفكرية والأدبية والمعمارية والتعليم ، شُيّدت في عصره أول مدرسة لتعليم الفتيات في الشرق وهى مدرسة السنية بحى السيدة زينب بالقاهرة ، أُنشأ في عهده أيضًا كوبري قصر النيل ودار الكتب المصرية ـ الكثير من الميادين والشوارع ـ دار الأوبرا المصرية ـ حديقة الأزبكية ـ خط السكة الحديد ـ أتم بناء حفر قناة السويس . عن : زاهي حواس وآخرون : متحف المجوهرات الملكية ، ٣٢. وأيضًا : خالد عزب ـ محمد حسن : ديوان الخط العربي في مصر (دراسة وثائقية للكتابات وأهم الخطاطين في عصر أسرة محمد علي) ، مكتبة الإسكندرية ، مركز الكتابات والخطوط سلسلة الخط العربي المعاصر ، القاهرة ـ المطبعة المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠١٠م ، ١٥٦.

(٣) قصر عابدين : بدأ انشاء هذا القصر سنة ١٨٦٣م على يد الخديو إسماعيل الذي قام بشراء القصر القديم الخاص بعابدين بك المنتمي إلى أحد فيالق المماليك ـ وهو الذي عرفت المنطقة باسمه ـ وأيضًا الأراضي والمباني والمنشآت حول القصر وذلك لبناء قصر على مساحة بلغت ٢٤ فدان ، بلغت تكلفة القصر مائة ألف جنيه ذهبي ، شيد القصر وفقًا لأرقى الطرز الأوروبية فكان هذا الصرح الملكي الرسمي الذي طال انتظاره رمزًا للتحول من أسوار قلعة صلاح الدين إلى قاهرة الزمن الجميل وهو ما يعد تحولًا عن الأفكار والنماذج التقليدية القديمة ، قام العديد من المهندسين والمعماريين ٥٩ بتصميم هذا القصر وذلك تحت إشراف رئيس المعماريين في القصور الملكية «ليوروسو» ، القصر مكون من طابقين الأول يضم مقر الحرس الخديوية ومكاتب التشريفية والمخازن والخدم ، والطابق الثاني يضم الحرملك والسلاملك . عن : مركز=

عباس حلمي الأول[١] (١٢٦٥-١٢٧١هـ/ ١٨٤٨- ١٨٥٤م) لنفسه شعار مكون من حرفين "AH" اختصارًا لعباس حلمي، أيضًا شعار الأميرة سميحة حسين[٢] "SH" والذي ظهر على علبة من العاج تنسب إليها مرصعة بعدد ٢٣٦ ماسة محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية.

ومن بين هذه الشعارات ما دلّ على اسم ملك وزوجته أو أميرة وزوجها مثل شعار "FF" إشارة إلى الملك فاروق وزوجته الملكة فريدة[٣]، كذلك شعار

=توثيق التراث الحضاري والطبيعي: قصر عابدين، القاهرة ٢٠٠٤م، ٩-١٠.

(١) خلف عباس حلمي الأول جده محمد علي في حكم مصر طبقًا لتسوية لندن ١٨٤١م التي جعلت الحكم في أكبر أمراء الأسرة، عرف عنه القسوة والغلظة والنفور من الناس وكراهية العلم والتآمر على أقرب الناس إليه، قام بإصلاح وتمهيد الطريق البري بين القاهرة والسويس - تنفيذ مشروع السكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة والسويس. عن: جمال بدوي: محمد علي وأولاده، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م، ١١٨-١٢٠.

(٢) الأميرة سميحة حسين هي ابنة السلطان حسين كامل (٢١ نوفمبر ١٨٥٣م - ٩ أكتوبر ١٩١٧م) ثامن حكام مصر من أسرة محمد علي، ولدت الأميرة ١٧ يوليو سنة ١٨٨٩م وهي الابنة الثانية من زوجة السلطان حسين الثانية (السلطانة ملك)، وحصلت على وسام الكمال عام ١٩١٥م كما حصلت على وسام السلطنة العليا في أكتوبر ١٩١٧م، وهي صاحبة القصر الموجود بحي الزمالك بشارع محمد مظهر حاليًا، اشترت هذا القصر من اليهودي القطاوي باشا وعاشت به حتى وفاتها في سنة ١٩٨٤م هي وزوجها وحيد يسري، كانت الأميرة سميحة عاشقة للفن والثقافة والشعر حيث كانت تكتب الشعر بثلاث لغات العربية والفرنسية والتركية، أوصت قبل وفاتها بتحويل القصر إلى عمل يخدم العلم والثقافة فأصبح حاليًا مكتبة القاهرة الكبرى. عن: هبة مسعد إبرهيم عبد الله: قصر الأميرة سميحة كامل دراسة معمارية فنية أثرية، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠٠٩م، ١٠٨.

(٣) الملكة فريدة: ولدت في سبتمبر ١٩٢١م وتوفيت سنة ١٩٨٨م، والديها زينب محمد سعيد ويوسف ذو الفقار، اسمها الحقيقي صافيناز ذو الفقار ولكنها عرفت بفريدة، تزوجت من الملك فاروق الأول في ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨م وأنجبت منه الأميرات الثلاثة فوزية وفريال وفادية، وطلقت منه في عام ١٩٤٨م، ظلت مقيمة في القاهرة حتى عام ١٩٦٣م وسافرت بعدها إلى لبنان وسويسرا وفرنسا التي أقامت بها حتى ١٩٨٢م، وعادت بعدها إلى القاهرة وظلت بها حتى ماتت.

عن: https://ar.wikipedia.org

"MF"[(١)] إشارة إلى الأميرة فوزية[(٢)] ـ شقيقة الملك فاروق ـ وزوجها محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران في ذلك الوقت[(٣)].

ومن أمثلة الشعارات التي كتبت حروفها باللغة العربية شعار للملك فاروق «ف ف» بطريقة متعاكسة، ورد هذا الشعار له على ثقالة ورق من اليشب الأخضر محفوظة بمتحف المجوهرات الملكية ـ لم يسبق نشرها ـ.

وقد اتخذ الأمير محمد علي توفيق لنفسه شعارًا مثل باقي أفراد الأسرة المالكة مكون من حرفين لاتينيين هما "MT" اختصارًا لمحمد توفيق، نُفّذ هذا الشعار على صندوق الطاقم من الخارج بحجم كبير وعلى كل أداة من محتويات الطاقم من

---

(١) ورد هذا الشعار على علبتين للحلوى من الذهب المموه بالمينا الزرقاء، زين الشعار الذي بأعلاه تاج ايران غطاء هذه العلبة التي صنعت بمناسبة زواج محمد رضا بهلوي ولي عهد ايران من الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق وذلك بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٩٣٩م.

(٢) الأميرة فوزية (٥ نوفمبر ١٩٢١ ـ ٢ يوليو ٢٠١٣م)، ابنة فؤاد الأول ملك مصر والملكة نازلي، وإمبراطورة إيران بين عامي ١٩٤١-١٩٤٩م، تزوجت من ولي عهد إيران محمد رضا بهلوي في ١٦ مارس ١٩٣٩م، حيث تم الزفاف في القاهرة. ثم بعد سفرها إلى إيران تم الاحتفال بالزفاف مرة أخرى في طهران، وبعد عامين من زواجها تقلد زوجها محمد رضا مقاليد الحكم بعد الغزو الروسي البريطاني لإيران والذي أجبر أباه رضا بهلوي على التنازل عن العرش ومغادرة إيران منفيا إلى جنوب أفريقيا، وفي ٢٧ أكتوبر ١٩٤٠م أنجبت ابنتهما الوحيدة الأميرة شاهيناز بهلوي، وتم الطلاق بينهما في عام ١٩٤٥م في حيث وقعت أزمة بين مصر وإيران بسبب هذا الطلاق بعد إصرار شقيقها الملك فاروق على الطلاق ورفضه عودتها إلى إيران، وفي مارس من عام ١٩٤٩م تزوجت من العقيد إسماعيل شيرين آخر وزير للحربية والبحرية في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو، وأنجبا نادية (مواليد عام ١٩٥٠م)، وحسين (مواليد عام ١٩٥٥م)، توفي زوجها في سنة ١٩٩٤م وبقيت الأميرة بعدها مقيمة في مدينة الإسكندرية في حي سموحه ولم تغادرها بعد قيام ثورة الضباط الأحرار؛ وتوفيت إمبراطورة إيران السابقة فوزية في ٢ يوليو ٢٠١٣م عن عمر يناهز (٩١) عامًا، وشيعت في جنازة متواضعة في ٣ يوليو ٢٠١٣م في مدينة القاهرة حيث تم حملها من مسجد السيدة نفيسة إلى أن تم دفنها بجانب زوجها الثاني إسماعيل شيرين.

عن: https://ar.wikipedia.org

(٣) زاهي حواس وآخرون: متحف المجوهرات الملكية، ٢٦.

الداخل، صنعت هذه الحليات المزينة للطاقم ومكوناته من معدن النحاس وزينت بالمينا المتعددة الألوان بطريقة مينا الحواجز.

ومن أمثلة التحف الفنية الأخرى التي ظهر بها شعار الأمير محمد علي صندوق خشبي محفوظ بالقاعة التركية بمتحف بيت الكريتلية[١].

التاج الملكي (لوحة ٤ ـ شكل ٣)

نفذ شعار الدولة العلوية «التاج الملكي» بكثرة على التحف الفنية التي ترجع إلى ملوك وسلاطين وأمراء هذه الأسرة وكذلك على عمائرهم، فنراه على هذا طاقم مكتب الأمير محمد علي ـ موضوع البحث عبارة عن حلية نحاسية ـ مزينة بالمينا الحمراء والبيضاء والخضراء ـ مثبتة أعلى صندوق الطاقم بحجم كبير وكذلك على كل أداة من أدوات الطاقم ولكن بحجم أصغر (لوحات ١٠: ١٥).

ويمكننا رؤية هذا الشعار أيضًا على مجموعة تحف فنية محفوظة جميعها في قصر المجوهرات الملكية بالإسكندرية مثل شخشيخة على هيئة التاج مصنوعة من البلاتين المرصع بالماس والزمرد والياقوت، وأيضًا على علبة من العقيق محفوفة بأطر من الذهب على غطائها صورة للملكة فريدة والتاج الملكي، كذلك على علبة من العاج خاصة بالأميرة سميحة حسين مزينة بالتاج الملكي المرصع بأحجار الماس[٢].

الزخارف النباتية المنفذة بأسلوب الركوكو (لوحات ٣: ٥ ـ أشكال ٤: ٥):

يعد طراز الركوكو من الطرز الفنية الهامة التي ازدهرت في أوروبا وتطورت في

---

(١) رقم سجل ١٣٩٥. عن: نجاح مهدي محمد مصطفي: الأشغال الخشبية الإسلامية المحفوظة في متحف بيت الكريتلية ـ دراسة أثرية فنية ـ، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠١٤م، ٦٣٣.

(٢) زاهي حواس وآخرون: متحف المجوهرات الملكية، ١٨ ـ ٢٣ ـ ٢٩.

فرنسا بعد وفاة لويس الرابع عشر عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م ومنها انتقل إلى بقية الدول الأوروبية وأصبح شائعًا خلال الفترة (١١٤٣-١١٩٤هـ/ ١٧٣٠-١٧٨٠م)، ولفظة ركوكو مشتقة من الكلمة اللاتينية "rocaille" التي تعني أشكال محارية وصدفية حيث كانت هذه الأشكال هي المفضلة في هذا الطراز[١] ، أمتاز هذا الطراز أيضًا بالميل إلى استخدام الخطوط الأكثر إلتواء وتشابك عن استخدام الخطوط المستقيمة ـ عناصر الزهور والقراطيس[٢] ـ الخطوط الملفوفة الطرفين التي تشبه حرف الـ"S" ـ العناصر الزخرفية المشجرة والمورقة خاصة في المشغولات المعدنية التي تميزت بتقاطع وتشابك قضبانها كالافرع النباتية التي ينبثق منها الأوراق المحورة والمنتهية بالأزهار المتفتحة ـ الميل نحو الرقة في تنفيذ العناصر الزخرفية بدلًا من الخطوط الغليظة ، انتقل هذا الطراز إلى تركيا العثمانية في القرن الـ١٢هـ/ ١٨م حيث قام الأتراك باستنباط بعض العناصر الزخرفية من هذا الطراز ومزجها بعناصر زخرفية أخرى عثمانية فنتج عن ذلك استحداث طراز مهجن أطلق عليه الركوكو التركي كان من أبرز عناصره أوراق الأكانتس ـ الأوراق الرمحية ـ الورقة ذات الخمس فصوص ـ أغصان الزيتون ـ الأفرع النباتية المتداخلة ، زُين بهذه العناصر الزخرفية جدران العمائر الدينية والمدنية بتركيا وكذلك التحف الفنية ، كما تأثر به أيضًا قصور الأمراء والباشوات وتحفهم الفنية التي ترجع إلى القرن الـ١٣هـ/ ١٩م وحتى النصف الأول من القرن الـ١٤هـ/ ٢٠م والتي من أمثلتها الحواجز المعدنية بقصر الزعفران ـ مصرعي الباب الجنوبي بقصر السكاكيني[٣] ـ طاقم شاي من الذهب خاص بالملك فاروق محفوظ بمتحف المجوهرات الملكية

---

(١) نعمت إسماعيل: فنون الغرب ، ١٩٩.

(٢) نها أبو بكر: الدوي والمحابر ، ١٠٦.

(٣) عبد المنصف سالم نجم: قصور الأمراء والباشوات في مدينة القاهرة في القرن التاسع عشر ـ دراسة للطرز المعمارية والفنية ، القاهرة ـ مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٢م، ٢: ٢٠٤-٢٠٥.

الملكي مكون من ١٣ قطعة مزينة بحرفي "F.F" والتاج وأيضًا الزخارف النباتية المنفذة بأسلوب الركوكو ـ طاقم مكتب الأمير سعيد طوسون المحفوظ بالمتحف نفسه يزين السطح العلوي لقسمه الثاني رقائق ذهبية مزينة بالأفرع النباتية المتماوجة التي ينبثق منها الأوراق والأزهار المتفتحة[1] ، أما عن طاقم مكتب الأمير محمد علي ـ موضوع البحث ـ فقد ظهر به هذا الطراز على الزخارف النباتية التي تزين غطاء الصندوق من الخارج والتي جاءت عبارة عن مجموعة أفرع نباتية متمأوجة ومتشابكة ينبثق منها الأوراق المحورة والرمحية والأزهار المتفتحة (لوحات ٣: ٥) .

ثالثًا : خاتمة البحث وأهم النتائج

يمكن من خلال دراسة طاقم مكتب الأمير محمد علي المحفوظ بمتحف قصر المنيل بالقاهرة استخلاص بعض النتائج وهي :

١ـ ينتمي هذا الطاقم إلى أنواع الأطقم المكتبية المحفوظة داخل صندوق خشبى يحتوى بداخله على مجموعة أدوات كتابية متنوعة مثل الأقلام ـ المِقَطّ ـ المقص ـ المسطرة ـ الختم ـ فتاحة الأظرف ـ المحبرة ـ علبة الدبابيس وكذلك على مكان مستوى للكتابة عليه ، لذلك فهو يعد متفردًا بتصميمه وبإحتوائه على مثل هذه الأدوات حيث أن الغالب في الأطقم المكتبية الأخرى إحتوائها على محابر ومرامل ومسقاة وأحيانًا مقص ومقط ومدية .

٢ـ اعتمد الفنان على استخدام مادة خام عالية القيمة وغالية الثمن وهي خشب الأبنوس في صناعة

صندوق الطاقم ومكوناته فلم يُسرف في استخدام الزخارف فنراه يزين السطح العلوي للصندوق بحليات بسيطة من النحاس والبرونز مزخرفة بالأرابيسك

---

(1) زاهي حواس وآخرون : متحف المجوهرات الملكية ، ٢٠-٢٨.

وكذلك حليات أخرى مصممة على هيئة الشعار "MT" والتاج الملكي، وكذلك الأمر على مكونات الطاقم من الداخل التي يزينها الشعار والتاج فقط، وكانت سمة عدم الإسراف في الزخرفة اعتمادًا على استخدام مادة خام عالية الجودة إحدى السمات الفنية التي انتشرت في تركيا في العصر العثماني وكذلك في مصر في العصر العثماني (٩٢٣-١٢١٩هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م) وعصر أسرة محمد علي (١٢٢٠-١٣٧١هـ/ ١٨٠٥-١٩٥٢م).

٣ـ توضح لنا زخارف الطاقم مدى تجلي التأثيرات الأوروبية على التحف الفنية التطبيقية التي ترجع إلى عصر أسرة محمد علي (١٢٢٠-١٣٧١هـ/ ١٨٠٥-١٩٥٢م) الذى اعتبر عصر انفتاح على أوروبا باعتبارها مصدر التقدم والحضارة والرقي، وقد تمثل هذا التأثير هنا في استخدام شعار للأمير من حروف لاتينية حيث أعتاد ملوك وأمراء أوروبا على اتخاذ شعار لهم من حرفين لاتينيين ينفذا على التحف والأدوات الخاصة بهم، وتأثر في ذلك سلاطين وملوك أسرة محمد علي، وأيضًا في الزخارف النباتية التي تزين غطاء الصندوق من الخارج والمنفذة بأسلوب الركوكو.

٤ـ اهتمام ملوك وأمراء أسرة محمد علي بفنون الكتاب عامة وبأدوات الكتابة خاصة حيث أنهم برعوا وأسرفوا في صناعتها من أجود المواد الخام كالفضة والذهب والأحجار الكريمة كالعقيق والمرجان والزمرد واليشب والتوباز وغيرها من الأحجار الكريمة، كما أنهم زخرفوها بأبدع وأثمن المواد كالترصيع بالماس والزمرد والزفير واللؤلؤ، وكذلك التمويه بالمينا على اختلاف أنواعها، وغير ذلك من الطرق الزخرفية.

رابعًا : الأشكال واللوحات

الأشكال

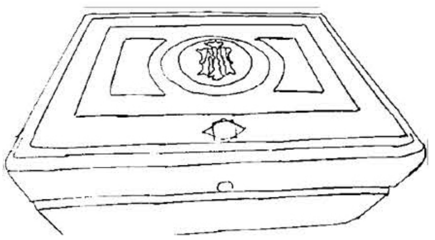

شكل (١) منظر عام لصندوق طاقم مكتب الامير محمد على. عمل الباحثة.

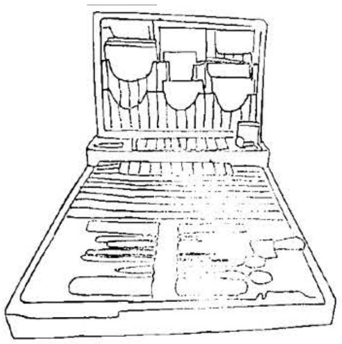

شكل (٢) منظر عام لطاقم مكتب الامير محمد على من الداخل ــ عمل الباحثة.

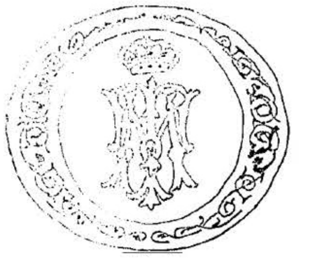

شكل (٣) تفاصيل لزخارف الركوكو وشعار الامير على السطح العلوى للصندوق ــ عمل الباحثة.

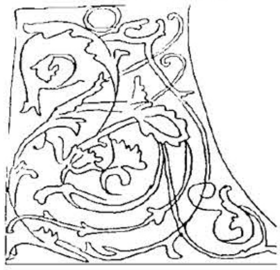

شكل (٤) تفاصيل من زخارف الركوكو على السطح العلوى للصندوق ــ عمل الباحثة.

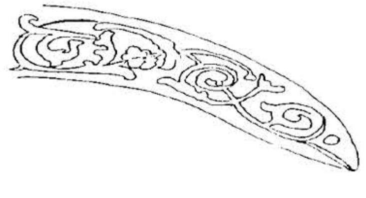

شكل (٥) تفاصيل من الزخارف البرونزية المفرغة على السطح العلوى للصندوق ــ عمل الباحثة.

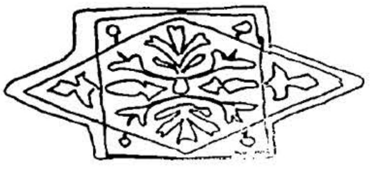

شكل (٦) تفصيل من الوحدات الهندسية التى تزين اطارات الصندوق الخارجية ــ عمل الباحثة.

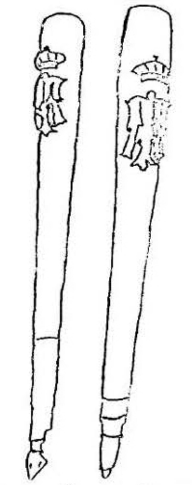

شكل (٧) نماذج من الاقلام الاربعة الموجودة بالقسم الاول من الداخل ــ عمل الباحثة.

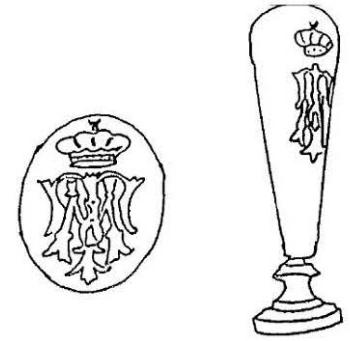

شكل (٨) تفريغ لمقبض الختم والختامة المزينة بالشعار والتاج الملكى ــ عمل الباحثة.

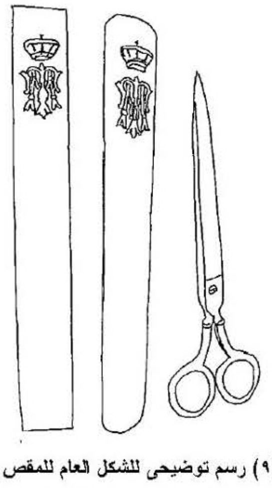

شكل (٩) رسم توضيحى للشكل العام للمقص والمقط والمسطرة ــ عمل الباحثة.

شكل (١٠) تفريغ لشكل فتاحة الاظرف الموجودة بالقسم الاول من الطاقم ــ عمل الباحثة.

لوحة (١) منظر عام لصندوق طاقم مكتب الامير محمد على.

لوحة (٢) تفاصيل لزخارف السطح العلوى من صندوق الطاقم.

لوحة (٣) تفاصيل من الحليات النحاسية المصممة على هيئة أفرع نباتية متداخلة.

والتاج الملكى.MT لوحة (٤) تفاصيل لشعار الامير محمد على

لوحة (٥) تفاصيل من الحليات البرونزية المستديرة المصممة على هيئة أفرع نباتية متشابكة.

لوحة (٦) تفاصيل من الزخارف النباتية والهندسية التى تزين الاطار الخارجى للصندوق.

لوحة (٧) تفاصيل من الوحدات الهندسية التى تزين الاطار الخارجة للصندوق.

لوحة (٨) منظر عام لاحد جوانب الطاقم.

لوحة (٩) منظر عام للطاقم من أحد جانبيه.

لوحة (١٠) منظر عام للطاقم من الداخل يوضح أقسامه الثلاث.

لوحة (١١) تفاصيل للقسم الاول للطاقم من الداخل.

لوحة (١٢) الاقلام الاربعة بالقسم الاول من الطاقم.

لوحة (١٣) المقط والمقص والمسطرة بالقسم الاول من الطاقم.

لوحة (١٤) ختم الامير محمد على وتفاصيل من الختامة.

لوحة (١٥) فتاحة الاظرف " المطوة " ضمن أدوات القسم الاول بالطاقم.

لوحة (١٦) تفاصيل للقسم الثانى والثالث من الطاقم بالداخل

لوحة (١٧) محبرة الطاقم وعلبة الدبابيس.

لوحة (١٨) القسم الثالث من الطاقم.

لوحة (١٩) تفاصيل للأظرف الموجودة بالقسم الثالث من الطاقم.

لوحة (٢٠) تفاصيل للأظرف والدفاتر والمفكرات الموجودة بالقسم الثالث من الطاقم

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٣٠٣ - ٣٣١

جَرَائِمُ الحَرْبِ الإسْرائِيلِيَّة وانْتِهَاكاتُ حُقُوقِ الإنْسَان

مروة جلال محمد دغيدي

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة الطبيعة العدوانية للكيان الصهيوني، وموقف المجتمع الدولي من جرائمه البشعة بحق العرب، ومدى أمتثال إسرائيل للقواعد والمباديء العامة المتفق عليها لزمن الحرب.

فيسعى هذا البحث إلى إيضاح أنواع جرائم الحرب التي قامت بها إسرائيل، والتي تقتضي محاكمة مرتكبيها دوليًا، وموقف المجتمع الدولي منها، وبالأخص هيئة الأمم المتحدة، والسبل التي اتبعتها إسرائيل للتهرب من تباعيات جرائمها بحق العرب.

وقد انتهى هذا البحث إلى أن إسرائيل التي لم يمر على ولادتها أكثر من ٦٨ عامًا قد استطاعت أن ترتكب جرائم أبشع من تلك الجرائم التي أرتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية، واستطاعت بفضل دراستها الشاملة بثغرات القانون الدولي وتغلغلها بالهيئات والمنظمات الدولية أن ترتكب أفعالها وتعترف بها علنيًا دون أن تخشى أي معاقبة.

وهو ما يدل على مدى خطأ الدول العربية واستهتارهم بالعدو الصهيوني، فهم وإن كانوا يعانون من تكاتل الدول الغربية ضدهم، يملكون من وسائل الضغط على المجتمع الدولي ما لا يملكه هؤلاء الصهاينة، من منتجات بترولية وثروة سكانية، ومناطق استراتيجية تتحكم في الملاحة العالمية.

لقد ثبتت الأسرة الدولية مجموعة من القواعد والمبادئ العامة في القانون الدولي لزمن الحرب، منها اتفاقية لاهاي لعام ١٩٠٧، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨[١]، واتفاقية جنيف المعقودة عام ١٩٤٩ لاسيما اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية المدنيين في زمن الحرب، وكذلك اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها النافذة عام ١٩٥١، واتفاقية إنهاء جميع أشكال التمييز العنصري لعام ١٩٦٥، وكل هذه الاتفاقيات الدولية حرمت العديد من صور جرائم الحرب وبخاصة جريمة القتل العمد التي تشمل كافة الأفعال التي تؤدي إلى الموت[٢].

كذلك فقد ثبتت الأسرة دولية في القانون الدولي مصطلح «عالمية المحاكمة»، الذي يقوم على مبدأ أن بعض الجرائم التي تُرتكب هي فظيعة لدرجة توجب ألا تمر بدون محاسبة أو يظل مرتكبيها بدون عقاب، وبالتالي فإن حق المحاكمة فيها يكون عالميًا ولا يقتصر على الدولة التي ينتمي إليها مرتكبو هذه الجرائم، وهذا المصطلح تم تبنيه في ميثاق النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية في روما، وجاء في بند الجرائم الدولية التي يعرفها:

---

(١) إدوار هيرو: «حقوق الإنسان»، مجلة الكتاب، يناير ١٩٥٢، ١٩.

(٢) عصمت عبد المجيد: مواقف وتحديات في العالم العربي، القاهرة ـ دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٣٤.

١- جريمة الإبادة الجماعية .

٢- الجرائم ضد الإنسانية .

٣- جرائم الحرب ، وتشمل :

أ ـ الانتهاكات الجسيمة لاتفاقية جنيف .

ب ـ الانتهاكات الجدية الأخرى للقوانين والأعراف السارية على المنازعات الدولية المسلحة في النطاق الثابت للقانون الدولي(١) .

هذا ولم تهتم الأسرة الدولية بمنع ومعاقبة مرتكبي تلك الجرائم الموجهة صوب جسد الإنسان فقط ، وإنما اهتمت كذلك بحماية ممتلكات الدولة ومواطنيها ، فقد نصت الفقرة ١ من المادة ٣٣ من اتفاقية لاهاي على حماية جميع الأموال الخاصة في الأراضي المحتلة ، بينما نصت الفقرة ٢ من نفس المادة على معاقبة مرتكبي جريمة السلب والمحرضين عليها والآمرين بها ؛ ووفقًا لنص المادة ٥٢ من نفس الاتفاقية ، تلتزم سلطات الاحتلال بدفع قيمة ما يتم الاستيلاء عليه بالنقد فورًا لأصحاب الحق ؛ وبالمثل جاءت المادة ٥٥ من اتفاقية جنيف ١٩٤٩، فنصت على مسئولية دولة الاحتلال عن تعويض السكان في الأراضي المحتلة عن قيمة ما تستولي عليه من البضائع ، وتدفع قيمة معقولة لما تستولي عليه من مواد غذائية ، أو إمدادات طبية كانت موجودة بتلك الأراضي(٢) .

وحيث أن ميثاق هيئة الأمم المتحدة يلزمها بالعمل على توقيع التزام أعضائها بتلك الاتفاقيات الدولية ، فضلًا عن إشرافها على صياغة اتفاقيات جنيف خاصة

---

(١) ياسر علي : المجازر الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني ، بيرو ـ مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات ، ٢٠٠٩، ١٣ ـ ١٦.

(٢) عصمت عبد المجيد : مرجع سابق ، ٢٤١، ٢٤٢.

الاتفاقية الرابعة وملحقاتها[١]، فقد وقع على عاتقها مسؤولية الوقوف في وجه انتهاك أية دولة من أعضائها لهذه الاتفاقيات.

ولأن فلسفة الصهاينة تقوم على الحقد والعداء لكافة البشر من غير اليهود، ولأن توراة اليهود مليئة بأوامر إبادة البشر واستئصالهم ومحو عقائدهم ودياناتهم ومعابدهم وحضاراتهم ومساكنهم[٢]، فقد ذهب حاخامات اليهود إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينيًا من أجل متطلبات القضية اليهودية[٣]، ولذلك فحينما ولدت الدولة الإسرائيلية حرس كبار قادتها على عدم التوقيع على بعض الاتفاقيات والمواثيق التي ذكرناها آنفًا، ولا سيما البروتوكول الاضافي الثاني لاتفاقية جنيف الخاص بلجان التحقيق الدولية في الانتهاكات[٤]؛ إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتملصوا من التوقيع على كافة تلك الاتفاقيات، فصدقت السلطات الإسرائيلية عام ١٩٥١ على اتفاقية جنيف الدولية، حيث أصبحت كافة أحكامها بموجب ذلك ملزمة للدولة الإسرائيلية، وبالتالي يقتضي عقوبة من يخالف تلك الأحكام من الإسرائيليين[٥].

---

(١) جهاد شعبان سليم البطش: المعتقلون الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية ١٩٦٧ - ١٩٨٥، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠٠٦، ٢٥١.

(٢) أبي الحسن علي الحسني الندوي: كارثة العالم العربي واسبابها الحقيقية، مكة المكرمة - رابطة العالم الإسلامي - الأمانة العامة، ١٩٨٧هـ، ٩.

(٣) رياسة مجلس الوزراء: برقية من القنصلية الملكية العامة بالقدس، إلى وكيل وزارة الخارجية، بتاريخ ١٩٤٥/١١/٣٠م، كود أرشيفي: ٠٣١٢٢٩ - ٠٠٠٨١؛ جمال عبد الهادي مسعود وعبد الراضي أمين سليم: قراءة في فكر علماء الاستراتيجية «الجولة الاسرائيلية» - العربية السادسة، المنصورة - دار الوفاء، ١٩٩٩، ٧٤.

(٤) ياسر علي: مرجع سابق، ١٢.

(٥) عصمت عبد المجيد: مرجع سابق، ٢٣٦.

إلا أن السلطات الإسرائيلية لم تر في تصديقها على اتفاقية جنيف أي عائق أمام انتهاكها لأحكام هذه الاتفاقية او أي اتفاقيات أخرى ، فلم تترك إسرائيل أي مبدأ أو حكمًا من مبادئ القانون الدولي وأحكامه إلا وخرقته أو انتهكته ، وكافة تلك الانتهاكات هي انتهاكات تتعلق بحقوق الإنسان ، حيث كان الإرهاب هو دومًا الوسيلة الأولى للدولة الوليدة[١] ، وقد ضمت وثائق الأمم المتحدة كافة الجرائم الإسرائيلية تلك في مجلدات كاملة[٢] .

ونظرًا لأنه من العسير أن نحيط بكافة جرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل ضد العرب منذ نشأتها ، فإننا سوف نعرض لأبرزها وفقًا لترتيب جرائم الحرب ببنود الاتفاقيات الدولية .

جريمة الابادة الجماعية

وتعرف بأنها أي فعل من أفعال القتل أو إلحاق الضرر الجسدي أو العقلي الجسيم أو الإخضاع لأحوال معيشية يقصد بها الإهلاك ، أو فرض تدابير منع الإنجاب أو نقل الأطفال عنوة إلى جماعة أخرى ، بقصد إهلاك جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية بصفتها هذه ، إهلاكًا كليًا أو جزئيًا[٣] .

ولقد تصدرت هذه الجريمة أولى بنود الاتفاقيات المنظمة لقوانين الحرب ، كما تصدرت قمة قائمة الجرائم الإسرائيلية ضد العرب وبخاصة الفلسطينيين منهم ، حيث رأى الصهاينة في وجود أقلية عربية بداخل حدود الدولة اليهودية وعلى

---

(١) هيثم الكيلاني : الإرهاب يؤسس دولة ـ نموذج إسرائيل ، القاهرة ـ دار الشروق ، ١٩٩٧، ٢٧؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمي : هل لإسرائيل حق تاريخي في فلسطين ، القاهرة ـ العربي للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠، ١٨١.

(٢) عبد العزيز محمد سرحان : الدولة الفلسطينية ، القاهرة ـ دار النهضة العربية ، ١٩٨٩، ١١٠.

(٣) ياسر علي : مرجع سابق ، ١٣، ١٤.

أطرافها مشكلة مؤرقة قد تحول دون تنفيذهم لمخططاتهم المستقبلية ، نظرًا لانتماء هؤلاء العرب إلى الدول العربية(١) ، فسعوا إلى القيام بعملية تطهير عرقي في فلسطين وفق خطة مدروسة(٢) أطلقوا عليها اسم الخطة (د) ، وقد كانت أولى أولويات هذه الخطة هي تدمير القرى العربية المجاورة للمستعمرات اليهودية وطرد سكانها(٣) ، وقد بدأ الصهاينة في تنفيذ خطتهم تلك في أواخر عام ١٩٤٧ موجهين لرجالهم تعليمات مباشرة بأن هجماتهم على القرى العربية يجب أن تثير أشد مشاعر الذعر في نفوس العرب فلا يتخللها أي شفقة أو تهاون(٤) .

وتعتبر الخطة (د) هي القاعدة الأساسية لخطة التطهير العرقي الإسرائيلية ، فقد مثلت فترة تنفيذها «١٩٤٧ـ١٩٤٨» فترة الذروة في ارتكاب المجازر الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، وقد اتسمت هذه المرحلة بعدة سمات كان على قمتها ترويع السكان ، وقتلهم أو طردهم ، وكان مألوفًا فيها إلى حد بعيد تشويه الجثث وتركها في العراء ، وقطع أيادي وآذان النساء وسرقة مصاغهن ، وتفجير المنازل على رؤوس سكانها ، واغتصاب الفتيات والنساء ، والقتل الجماعي والعشوائي ، وإطلاق النار على المدنيين الفارين بحياتهم(٥) .

ولعل أقوى مثال حي على هذه السمات الوحشية هو مجزرة دير ياسين الشهيرة ، تلك القرية التي لم يترك الصهاينة أية جريمة شنعاء عرفتها البشرية إلا

---

(١) هامشكايف : العدد ٢٦٧٠، ٣/١٢/١٩٤٧، ١.

(2) NUR MASALHA, *Imperial Israel and the Palestinians- The Politics of expansion,* (London: Pluto Press, 2000), p.45.

(٣) ميخائيل بالومبو : كيف طُرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨، ترجمة : زينب شرف الدين ، بيروت ـ دار الحمراء ١٩٩٠، ٤٨.

(٤) مناحم بيجن : التمرد ـ قصة الأرجون ، تقديم : حسن البدري ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨، ٤٥٥.

(٥) ياسر علي : مرجع سابق ، ٢٨.

واقترفوه ضد سكانها العزل، ففي مساء يوم ٩ إبريل ١٩٤٨ داهمت العصابات الصهيونية القرية[١]، التي كانت تحتفل بعرس كبير حينها، وأمروا جميع سكانها بالخروج من منازلهم، وما أن تجمعوا حتى أمرهم الصهاينة بأن يقفوا ووجوههم إلى الحوائط، ثم أخذوا في إطلاق رصاص الرشاشات عليهم، فكان العروسان هم أول الضحايا[٢]، ثم اندفع الصهاينة كالذئاب المسعورة إلى داخل البيوت بحرابهم وسكاكينهم يذبحون الشيوخ والأطفال[٣]، وينتهكون حرمات النساء ويبقرون بطون الحبالى منهن ويخرجون الأجنة منها برؤوس حرابهم ثم يجهزون عليهن وعلى أطفالهن، حتى راح ضحية وحشيتهم أكثر من ٢٥٠ شهيدًا[٤].

وقد أحدثت هذه المذبحة بلبلة هائلة في الأمم المتحدة حتى أن الدول التي كانت قد ناصرت فكرة التقسيم أخذت تفكر في إيجاد حل بديل[٥]؛ وأهابت دول العالم بجمعية الصليب الأحمر الدولي أن تستكشف حقيقة ما حدث، فطلب مندوبه «السيد جاك دي رينيه» Jac de Renye من الوكالة اليهودية أن تسمح له بزيارة مكان المذبحة، إلا أن زيارته قد عُوقت يومًا كاملًا حاول الصهاينة خلاله أن يزيلوا آثار جريمتهم، فقاموا بتجميع ما استطاعوا من أشلاء ضحاياهم

---

(١) محمد غريب جودة: موجز تاريخ العالم بالسنوات والأحداث، القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٩٩، ٥١.

(٢) طارق السويدان: فلسطين .. التاريخ المصور، الكويت: دار الإبداع الفكري للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٦٥.

(٣) هاني الهندي: التقويم الفلسطيني ـ محطات في تاريخ القضية، عمان: مكتبة الثقافة، ١٩٩٧، ٦٨.

(٤) إكرام لمعي: الاختراق الصهيوني للمسيحية، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣، ٩٩.

(5) ILAN PAPPE, *The Ethnic Cleansing of Palestine,* (Oxford: Oneworld Publication, 2007), p.35.

وألقوا بها في بئر القرية وأغلقوا بابه، وحاولوا تغيير معالم المكان كيلا يعثر عليه ممثل الصليب الأحمر[١].

فما أن وصل «دي رينيه» إلى دير ياسين في اليوم التالي حتى وجد القرية محتلة من قبل مقاتلين شبان من جماعة «الأرجون» الإرهابية مدججين بالسلاح والرشاشات والقنابل اليدوية، أكثرهم كان ما يزال ملطخًا بالدماء[٢]، فأخذ المندوب الدولي يبحث بين حطام المنازل المهدمة حتى عثر على بئر القرية، فوجد به ١٥٠ جثة مشوهة لنساء وأطفال، وعلاوة على تلك الجثث التي وجدها بالبئر كان غيرها يملأ الطرقات وخرائب البيوت المدمرة[٣]، فاستمر في بحثه حتى استطاع أن يعثر على بعض الأحياء من بينهم طفلة بعمر ١٠ سنوات، فقام بما يجب لإسعافهم، ومن ثم وضع تقريره الذي أوضح من خلاله مدى هلعه من هول ما رأى، وأكد من خلاله كذلك على أن العرب لم يقترفوا أي عمل يبرر هذا العمل المجنون، هذا في حين تنصلت الوكالة اليهودية من مسؤوليتها عن المذبحة، ووجهت رسالة إلى الملك عبد الله أظهرت من خلالها أسفها واشمئزازها للطريقة التي أتُبعت في احتلال القرية[٤].

ونظرًا لأن الوكالة اليهودية أنكرت علمها المسبق بخطة احتلال دير ياسين أو التخطيط لها أو المشاركة فيها، فقد أكتفت هيئة الأمم المتحدة بما قدمته الوكالة اليهودية من اعتـذار عما حدث، وأغلقت صحف تقاريرها عنها، فكان من نتاج الصمت الدولي عن المطالبة الفعالة بمعاقبة مرتكبي هذه الجريمة النكراء من جهة،

---

(١) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: اعتداءات إسرائيل قبل هجوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ على مصر، القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٩٦٥، ١٢.

(٢) طارق السويدان: مرجع سابق، ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ١٢.

(٤) سيدني دي بيلي: مرجع سابق، ١٨، ١٩.

وتعالي صيحات العرب ونشرهم أن اليهود قد نكلوا بالفلسطينيين من جهة أخرى، أن استغل الصهاينة الموقف لصالحهم(١)، فأخذوا ينشرون بين الفلسطينيين قصصًا عن أهوال ما لقاه أهالي دير ياسين على أيادي عصاباتهم المسلحة، بقصد بث الرعب بنفوسهم(٢)، فأحيطت قوة العصابات الصهيونية في كل مكان من العالم بهالة من الرعب(٣)؛ ومن ثم استغلت القيادات الصهيونية تلك السمعة التي انتشرت عن عصاباتها لتخطو خطواتها التالية للإجهاز على باقي القرى العربية وإبادة سكانها(٤).

فعقب ذلك ببضعة أيام، أي في ١٤ إبريل ١٩٤٨، كررت العصابات الصهيونية ما حدث في دير ياسين بنفس الصورة في قرية ناصر الدين، بالقرب من طبريا، فأزالتها من الوجود، بعد أن عملت في أهلها قتلًا وتشنيعًا، فلم ينج منهم سوى ٤٠ امرأة وطفل استطاعوا أن يفروا إلى إحدى القرى المجاورة(٥).

ومع عدم تحرك المجتمع الدولي ساكنًا أمام تلك الانتهاكات الصارخة لقوانينه، أخذ الإرهاب الصهيوني يتزايد، وأخذ رجاله يتفاخرون به، ويسعون لنشر أخباره على مسامع العرب كافة، فقامت العصابات الصهيونية في ٥ مايو ١٩٤٨ بمهاجمة بعض القرى على ضفاف نهر الأردن بالقرب من «بيت الخوري»(٦)،

---

(١) ناهض حتر: وصفي التل في مجابهة الغزو الصهيوني، عمان: المكتبة الوطنية، ٢٠٠٧، ٥٢.

(2) ANDREW HURLEY, *One Nation under Israel*, (Washington Truth Printing, 1994), p.49, 50.

(٣) روز اليوسف: العدد ١٢٢٠، ٣٠ أكتوبر ١٩٥١، ص ١٠.

(٤) بيرنار غوانوتييه: إسرائيل سبب محتمل لحرب عالمية ثالثة، ترجمة: محمد سميح السيد، دمشق: دار المعرفة، ١٩٨٤، ٣٦.

(٥) محمد عبد المنعم عامر: تاريخ الاستعمار الإستيطاني الصهيوني في فلسطين، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢، ١١٧، ١١٨.

(٦) جمال عبد الهادي مسعود: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ـ الطريق إلى بيت المقدس=

فقاموا بحصد رجال تلك القرى بالرشاشات، ثم أخذوا في ذبح النساء والأطفال وتشويه جثثهم، فما أن انتهوا منهم حتى أخذوا يقطعون رؤوس الشيوخ وأيديهم وأرجلهم، ثم جمعوا الشباب جميعًا في دار واحدة وأقفلوها عليهم، وأشعلوا به النيران، حيث شويت أجسام هؤلاء الشبان أمام أعين من تبقى من شيوخ القرية الذين سيقوا لمشاهدة هذا المنظر المروع، ثم أُطلق سراحهم بعد أن طُلب منهم أن يذهبوا ويحدثوا عالمهم العربي بما رأوا(١).

ومن ثم أخذت العصابات الصهيونية في إجلاء العرب المسالمين عن قراهم بلا هوادة، منذرين إياهم بأنهم في حال لم يتركوا بيوتهم فورًا فسيكون مصير أهل دير ياسين ينتظرهم(٢)، فوجهت العصابات الصهيونية ذلك الإنذار إلى أهالي قرية «بيت دارس» بغزة حين هاجمتها في ١٣ مايو ١٩٤٨، ولم تعطهم فرصة الفرار(٣)، إذ أخذت تجهز عليهم بوحشية، وتعامل نساءهم بنفس ما عوملت به نساء دير ياسين، ثم قامت بهدم كافة بيوت القرية الصالحة نسفًا بالديناميت أو دكًا بالمدفعية(٤).

وعلى نفس الشاكلة أخذت العصابات الصهيونية تهاجم القرى العربية الواحدة تلو الأخرى وتبيد سكانها، إلى أن جاء دور قرية الطنطورة في ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨(٥)، فقرر شبابها ألا يلاقوا نفس المصير الذي لاقاه أهالي القرى الأخرى،

=«القضية الفلسطينية»، المنصورة ـ دار الوفاء ٢٠٠١، ٢: ١٨٢.

(١) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ١٥، ١٦.

(٢) فوزي حامد: أسرار وأهداف العلاقة الأمريكية الإسرائيلية مع واقع الأمة العربية، القاهرة ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٩٣، ٢١.

(٣) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١١٨.

(٤) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ١٦.

(5) HARUN YAHYA, *Palestine, New Delhi: Islamic Book Services,* (1999), p.103.

فدافعوا عن قريتهم بكل قوة ، إلا أن الحظ لم يحالفهم حيث نفذت ذخائرهم ، فدخل الصهاينة القرية وأخذوا يقتلون كل إنسان تقع أعينهم عليه ، فما ان استتب الأمر لهم حتى أخذوا في قتل الرجال الذين ساقوهم لجمع الجثث من شوارع القرية[١] .

ومن ثم أخذ السيناريو الصهيوني في التكرار حتى بلغ عدد القرى التي هُدمت ونُكل بأهلها على يد رجال الصهاينة خلال تنفيذهم للخطة (د) أكثر من ٣٥٠ قرية ، بينما بلغ عدد القرى التي ضاعت معالمها تماما على أيديهم ما يقارب ٣٨٨ قرية[٢] .

وعقب إعلان إسرائيل كدولة مستقلة على الأراضي الفلسطينية ، تذرعت سلطاتها بأن المجازر التي حدثت خلال العامين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ قد قامت بها فرق عسكرية منشقة في زحمة المعارك وانشغالات الحرب[٣] ، وهو ما حال بين المجتمع الدولي ، وعلى رأسه هيئة الأمم المتحدة ، وبين تطبيقه أية عقوبة على حكومة الدولة الوليدة .

إلا أن ما شهدته فترة الخمسينيات من مجازر داخل الخط الأخضر وخارجه ، أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن الدولة الوليدة قد بنيت أساستها على قواعد الإرهاب لإجلاء العرب عن الأراضي الفلسطينية ، وعلى الرغم من أن المذابح التي شهدتها هذه الفترة كانت أقل من سابقتها ، إلا أنها لم تكن أقل همجية ، حيث قدر عددها بـ ١٩ مذبحة ، ارتكبت جميعها في مناطق

---

(١) يحيى محمود اليحيى : مذكرات ـ الطنطورة قرية دمرها الاحتلال الصهيوني ، دمشق : دار الشجرة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٨، ١١٩، ١٢٠.

(٢) كامل سعفان : اليهود من سراديب الجيتو إلى مقاصير الفاتيكان ، القاهرة ، دار الفضيلة ، د. ت ، ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) عبد الله التل : مصدر سابق ، ٥٤، ٥٥.

الضفة الغربية وقطاع غزة، وذهب ضحيتها أكثر من ١٥٠٠ فلسطيني[١].

ولعل من أبرز الأمثلة على هذه المذابح، مذبحة قرية قبية، التي قامت بها جنود الفرقة ١٠١ التابعة للجيش الإسرائيلي بقيادة آريل شارون* Ariel Sharon في مساء يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥٣[٢]، والتي راح ضحيتها أكثر من ٥٦ شهيدًا من بينهم عدد ليس بقليل من النساء والأطفال[٣].

وقد حاولت السلطات الإسرائيلية التنصل من المذبحة كما تنصلت من مذابح عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، فادعت أن مرتكبيها هم من المستوطنين الصهاينة وليسوا قوات نظامية[٤]، إلا أن الجنرال «فان بنكيه» قد أثبت في تقريره الذي قدمه إلى مجلس الأمن في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٣ «أن الهجوم كان مدبرًا ونفذته قوات نظامية إسرائيلية»[٥]؛ فما كان من مجلس الأمن إلا أن اكتفى بتوجيه أشد اللوم لإسرائيل على هذا الهجوم، ولم يوجه لحكومتها أية مطالب بمعاقبة مرتكبيه لعدم تكراره مرة أخرى، في حين طالب حكومة الأردن باتخاذ إجراءات شديدة لكبح جماح مقاتليها غير النظامين حتى لا يستتبع ذلك أعمال عنف[٦].

---

(١) ياسر علي: مرجع سابق، ٢٩.

* آريل شارون: من مواليد بولندا عام ١٩٣٢، اسمه الأصلي آرئيل صموئيل مردخاي شرايبر، لم يبرز شارون إلا بعد عام ١٩٤٨ كضابط في الوحدات الخاصة التي تعمل بإمرة الاستخبارات للقيام بالأعمال الانتقامية ضد مخيمات اللاجئين والقرى الفلسطينية الحدودية؛ عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة في جزأين، مج ٢، (القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٣)، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٢) القاهرة: العدد ٥، ١٦/١٠/١٩٥٣، ١.

(3) *The Morning Bulletin:* No. 29423, October 19, 1953, p.1.

(٤) عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى، القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٨٢، ٢٨٣.

(٥) القاهرة: العدد ١١، ٢٢/١٠/١٩٥٣، ص ١؛ جواد الحمد: في الذاكرة الإنسانية المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، عمان ـ مركز دراسات الشرق الأوسط ٢٠٠٠، ٥٤.

(6) *The Morning Bulletin:* No. 29456, November 26, 1953, p.5.

وهو ما يعني أن إدانة مجلس الأمن لإسرائيل ما هي إلا مجرد إدانة رمزية، حيث ألقى بمسؤولية الحادث في المقام الأول على عاتق الحكومة الأردنية، إذ تسمح لبعض الفلسطينيين بالتسلل للأراضي الحدودية، وقد جاءت عبارات المجلس الموجهة للحكومة الأردنية في صورة تهديد مستتر بأنها إن لم تمنع عمليات التسلل فإن ذلك سيؤدي إلى أن تتكرر مثل هذه الحوادث مجددًا !!!.

هذا الموقف المخزي الذي اتخذه مجلس الأمن أعطى شعورًا للسلطات الإسرائيلية بإمكانية القيام بكل ما ترغب ضد العرب دون قلق من العقاب، فتزايدت شجاعتها في الاعتداء على العرب ريثما تريد وأخذت تعد لمذبحتها التالية، فوقع اختيارها على قرية نحالين الواقعة داخل أراضي الضفة الغربية، فما أن انتصف ليل يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ حتى قامت قوة من الجيش الإسرائيلي باجتياز خط الهدنة إلى أن وصلت إلى القرية، فألقت كمية من القنابل على تجمعات السكان وبث الألغام في منازل القرية وفي المسجد الجامع، فوقع جراء ذلك ١١ شهيدًا عربيًا وجُرح ١٤ آخرون[١]؛ واكتفت هيئة الأمم المتحدة هذه المرة بالقرار الذي اتخذته لجنة الهدنة الأردنية ـ الإسرائيلية المشتركة بعد قيامها بالتحقيق حول الحادث بإدانة السلطات الإسرائيلية لمسؤوليتها عنه، وفي حين طالب رئيس اللجنة بصيغة ناعمة معاقبة مرتكبي الحادث بقوله: «أعتقد أن مسؤولي إسرائيل لن يصادفوا صعوبة كبيرة في القبض على مرتكبي هذه الجريمة وجلبهم إلى العدالة»[٢]، إلا أن إسرائيل قد أصمت آذانها عنه تمامًا وكأنه لم يقل شيئًا[٣].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى، القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٨٣.

(2) *Year book of the United Nations:* 1954-1955, (New York: U. N, 1955), p.69.

(٣) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١٢١.

ولقد استمرت إسرائيل في سلسلة مذابحها المتوالية ضد الشعب الفلسطيني مستترة تحت مسمى «الغارات الانتقامية» إلى أن تغير الوضع قليلًا في خريف عام ١٩٥٦ عقب الهجوم على مصر، حيث عملت السلطات الإسرائيلية على التسريع من عملية القضاء على الفلسطينيين، فلم تنتظر كعادتها أي حدث عارض يقوم به الفلسطينيون فتقوم بإحدى أعمالها الإجرامية متذرعة بالرد عليه، وإنما أمسكت هي بيديها زمام المبادرة، وذلك عشية الهجوم على الفور يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، إذ اعتقدت أن المجتمع الدولي سيكون مشغولًا بأحداث العدوان فقامت السلطات الإسرائيلية في ذلك اليوم بوضع العرب في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ تحت نظام منع تجول صارم، وكلفت كتيبة من حرس الحدود الإسرائيلي بالقيام بهذه المهمة على قرى المثلث «كفر قاسم، كفر برا، جلجولية، الطيرة، الطيبة، بير السكة وابطن»[1]، وأعطتها أوامر بأن يتم تنفيذ نظام منع التجول بكل حزم لا باعتقال المخالفين وإنما بإطلاق النار، وقد شددت على ذلك بعبارة «من المرغوب فيه أن يسقط بعض القتلى»، وقد تم الاتفاق على أن يسري هذا النظام من الساعة ٥ مساءً إلى الساعة ٦ صباحًا إلا أن قائد الكتيبة الإسرائيلية «شموئيل ملينكي» لم يقم بإعلام مختار قرية كفر قاسم «وديع أحمد صرصور» بفرض حظر التجول على قريته إلا في الساعة ٤ ونصف من مساء نفس اليوم، وحينما أكد مختار القرية أن مدة النصف ساعة لن تكون كافية لإعلام الأهالي الذين خرجوا لأعمالهم بذلك وعده «ملينكي» بأنه سيدع جميع العائدين من العمل يمرون على مسؤوليته ومسؤولية حكومته[2]، وبالطبع لم يوف الضابط الإسرائيلي بوعده، إذ ما أن دقت عقارب الساعة الخامسة حتى بدأت المذبحة التي راح ضحيتها ٤٩ من الفلاحين

---

(١) مصطفى موسى محمد الصيفي: أوضاع الشعب الفلسطيني داخل فلسطين من عام ١٩٤٨ - حتى عام ١٩٥٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٩٠، ٢٣٥.

(٢) منصور معاضة سعد العمري: مرجع سابق، ١٣٦، ١٣٧.

الفلسطينيين، بينما كانوا عائدين من حقولهم[١].

والحقيقة أن تسلسل الأحداث هذا إن دل على شيء فإنما يدل على النية الإسرائيلية المبيتة للقيام بقتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين، ولكن بذريعة عدم احترامهم لنظام حظر التجول، تحسبًا لأي إدانة قد يلاقوهـا من المجتمع الدولي.

وقد حاولت السلطات الإسرائيلية إخفاء الأمر إلا أن الأنباء قد تسربت إلى بعض الصحف، فخشت السلطات الإسرائيلية حينها أن يؤدي ذلك إلى إضعاف حجة الدفاع عن النفس التي تذرعت أمام المجتمع الدولي بها للقيام بالعدوان على مصر، فتظاهرت بسخطها على الفاعلين وعينت لجنة للتحقيق حول الحادث[٢] حيث انتهت إلى تقديم قائد الكتيبة وعددًا من مرؤوسيه إلى المحاكمة العسكرية، وعقب مرور عامين كاملين على الحادث حكمت المحكمة العسكرية الإسرائيلية بإدانة معظم المتهمين وأصدرت عليهم أحكامًا بالسجن تفاوتت ما بين ٨ سنوات إلى ١٧ سنة[٣].

إلا أن تلك الأحكام لم تغدو كونها أكثر من تمثيلية مرتبة لإسكات الرأي العام العالمي، حيث كشفت الصحف الإسرائيلية عقب ذلك عن أن غرف هؤلاء السفاحين بالسجن قد تحولت إلى غرف من فنادق الدرجة الأولى، وأنهم يغادرونها مساء كل ليلة إلى ذويهم ومنازلهم حتى أن أحدهم قد تزوج خلال فترة سجنه، وأن فترة مكوثهم بالسجن لم تقارب حتى فترة ربع العقوبة التي أقرتها المحكمة، هذا فضلًا عن أنهم قد عادوا إلى وحداتهم العسكرية برتب أكبر[٤].

---

(1) HARUN YAHYA, *Op. Cit.*, p.108.

(٢) هاتصوفاه: العدد ٥٧٨٥، ١٣ ديسمبر ١٩٥٦، ١.

(٣) مصطفى موسى محمد الصيفي: مرجع سابق، ٢٤٠، ٢٤١.

(٤) صالح مسعود أبو بصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، القاهرة ـ دار الفتح للطباعة والنشر ١٩٦٨، ٤٤٦، ٤٤٧.

وهو ما يؤكد تواطؤ كبار رجال الدولة الإسرائيلية معهم وموافقتهم وثنائهم على ما ارتكبوه من جرم.

وهو شيئ يزيده تأكيدًا تصريحات كبار رجال الدولة الإسرائيلية خلال فترة المحاكمة، فعلى سبيل المثال، أدلى مناحم بيجن ـ العضو البارز بالكنيست آنذاك ـ بتصريح أمام ممثلي الجيش الإسرائيلي يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٥٨، قال به: «إن قلوبكم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تتألم وأنتم تقتلون عدوكم، ولا ينبغي أن تأخذكم به شفقة طالما أننا بعد لم نقضي على ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على انقاضها حضارتنا الخاصة»[١].

ويتضح من قراءة التصريح أن الغرض منه إرسال رسالة مفادها التأكيد على أن المحاكمة التي حدثت لمرتكبي مجزرة كفر قاسم لن تتكرر لغيرهم مرة أخرى.

وقد أدى تكرار التصريحات المحرضة على العنف ضد العرب على ألسنة قادة الصهاينة إلى تشجيع الجنود الإسرائيليين على تنفيذ أعظم الجرائم بحق هؤلاء العرب، وعدم اكتراثهم في ذلك بأية أعراف أو قوانين أو حتى إدانة الأمم المتحدة، حتى وصل الأمر في فترة الستينيات إلى حد استهداف معسكرات اللاجئين الفلسطينيين على الحدود العربية المشتركة كأي هدف عسكري[٢].

وكان من نتاج اكتفاء هيئة الأمم المتحدة بإدانة مثل تلك الأعمال وعدم تدخلها بشكل إيجابي لإيقافها أو تقديم مرتكبيها لمحكمة العدل الدولية أن أخذ الارهاب الإسرائيلي يتزايد شيئًا فشيئًا إلى أن بلغ ذروته عقب حرب عام ١٩٦٧، إذ عمدت السلطات الإسرائيلية حينها إلى العمل على طمس الهوية الفلسطينية بكافة

---

(١) يوري ايفانوف: الصهيونية .. حذار ـ دراسة سوفييتية في تاريخ وتنظيم وأيديولوجية الحركة الصهيونية، ترجمة: ماهر عسل، القاهرة ـ دار الكتاب العربي ١٩٦٩، ١٣٧.

(2) HARUN YAHYA, *Op.Cit.*, p.109.

السبل، فأخذت في تقتيل الفلسطينيين اينما وجدتهم وأخضعت الباقين منهم لعمليات تدمير معالم حياتهم الوطنية، ووقفت في سبيل قيام الدولة الفلسطينية على الصعيدين الداخلي والخارجي بكل شراسة، وأخذت في اغتيال أي قائد فلسطيني يعمل على إقامة الدولة الفلسطينية، وجعلت قائد أي دولة يدعو إلى هذه الفكرة فريسة لإعلامها الصهيوني المتطرف[١].

الجرائم ضد الإنسانية

وتشمل القتل العمد، والاسترقاق، وإبعاد السكان أو نقلهم قسريًا، والسجن أو الحرمان الشديد على أي نحو آخر من الحرية البدنية بما يخالف القواعد الأساسية للقانون الدولي، والتعذيب، والأفعال اللاإنسانية الأخرى ذات الطابع المماثل التي تتسبب عمدًا في معاناة شديدة أو في أذى خطير يلحق بالجسم أو بالصحة العقلية أو البدنية؛ متى ارتكبت في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي موجه ضد أية مجموعة من السكان المدنيين[٢].

ليس بمستغرب على الكيان الصهيوني الذي بنى أساسته على قواعد العنف والإرهاب ارتكابه لأبشع الجرائم ضد الإنسانية، وقد استهل هذا الكيان سجل جرائمه ضد الانسانية تلك بقتله المتعمد لأطفال العرب باعتبارهم شباب المستقبل الذين سيرفعون السلاح بوجهه يومًا ما مطالبين بحقوقهم المسلوبة، فقامت قواته باستهداف الأطفال العرب وارتكبت بحقهم أبشع المذابح، وعلى رأسها مذبحة قرية وادي فوكين التي وقعت في ١١ سبتمبر ١٩٥٤ حيث فتحت القوات الإسرائيلية نيرانها دون سبب محدد على أطفال القرية وهم يلعبون وقتلت منهم

---

(١) حركة التحرير الوطني الفلسطيني: الإعلام والعلاقات الخارجية ـ وثائق فلسطينية، القاهرة ١٩٩٠، ٢: ٤.

(٢) ياسر علي: مرجع سابق، ١٤.

العشرات[١]، وقد هزت هذه الوحشية مراقبي الأمم المتحدة، فلم ير الكوماندر «هتشيسون» Hutchison ـ رئيس لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة ـ إزاء هذا الاعتداء الوحشي بدًا من رفع تقرير خاص عن الحادث إلى سكرتير عام الأمم المتحدة، كما أبلغ وزير الدفاع الأردني أسفه وتأكيده أن هذا العمل قد ترك أثرًا سيئًا للغاية في نفوس العالم المتمدن[٢].

وعلى الرغم من إدانة المجتمع الدولي وعلى رأسه هيئة الأمم المتحدة لهذا العمل الإجرامي إلا أن ذلك لم يمنع الدولة الصهيونية من استكمالها لمخطط قتل الأطفال العرب، فلم يمر شهرين على هذا الحادث حتى ارتكبت القوات الإسرائيلية جرمًا آخر ضد مجموعة من الأطفال العرب بالقرب من قرية دير أيوب[٣]، فقد خرج هؤلاء الأطفال صبيحة يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٤ لجمع الحطب ففاجأهم بعض الجنود الإسرائيليين فولت طفلة منهم هاربة فأطلق الجنود النار عليها وأصابوها في فخدها، لكنها ظلت تجري إلى أن وصلت إلى قريتها وأخبرت أهلها[٤]، فأسرع أهل الطفلين الآخرين إلى المكان التي ذكرته الطفلة فشاهدوا ١٢ جنديًا إسرائيليًا يسوقون أمامهم الطفلين باتجاه بطن الوادي في الجنوب حيث أوقفوهما وأطلقوا النار عليهما ثم اختفوا وراء خط الهدنة[٥]، وعقب هذا الحادث تم إطلاق لقب «عدو الأطفال» على موشيه

(١) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١٢٢.

(٢) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ٩٣.

(٣) عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى، القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٨٣.

(٤) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ٩٣، ٩٤.

(٥) عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى، القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٨٣.

شاريت تعبيرًا عن أن عهده قد شهد عددًا من مذابح الأطفال التي أدانها المجتمع الدولي[١] .

ولم تتغير الرؤية الصهيونية للأطفال العرب بتولي بن جوريون زمام الأمور عام ١٩٥٥ وإنما تغيرت خطة التخلص منهم ، حيث وجد بن جوريون طريقة تمكنه من قتل هؤلاء الأطفال دون إثارة الرأي العام العالمي أو إثبات مسؤولية السلطات الإسرائيلية عن ذلك ، وكانت هذه الطريقة هي تزويد مستشفيات الأطفال الفلسطينية بأمصال مسممة ومنتهية الصلاحية ، فضلًا عن إعطائهم الحلوى المسمومة وإلقاء الهدايا الملغمة لهم[٢] . وفي حين لم تحظ هذه الخطة بالنجاح الذي انتظره الصهاينة فإنهم أخذوا في قتل الأطفال العرب بشكل عشوائي أينما وجدوهم وأمكنهم ذلك[٣] .

ولم يكن استهداف الأطفال هو جرم إسرائيل الوحيد ضد الإنسانية ، وإنما تاريخها الإجرامي قد سجل عليها كذلك ارتكابها لجريمة التهجير القسري ، فما أن أُعلنت الدولة الإسرائيلية حتى أتخذ قادتها شتى أساليب الوحشية والتنكيل بالعرب المقيمين في القسم المحتل من فلسطين ـ داخل حدود الدولة الإسرائيلية ـ لإرغامهم على المغادرة ، وكان من بين أساليبهم جمع العرب في بقاع قاحلة لا ماء فيها ولا زرع ، ولا أسباب للحياة تساعدهم على الاستمرار ووضعهم تحت ظروف عسكرية قاسية لا يُسمح بموجبها بالانتقال إلا بتصريحات خاصة لا تمنح إلا في حالات نادرة . والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا ، منها على سبيل المثال ، أساليبهم في القضاء على عرب «بئر سبع» الذين كادت صحراء النقب تخلو منهم تمامًا ،

---

(١) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١٢٢.

(٢) رفعت يونان ميخائيل: مرجع سابق، ٢٠٨.

(٣) الأهرام: العدد ٢٧٦٥٤، ٢٨ أغسطس ١٩٦٢، ٥.

بالترحيل خارج فلسطين أو بالنقل إلى أماكن أخرى، مع وضعهم فيما يشبه «الجيتو» حيث يموتون ببطء، دون أن يعلم عنهم العالم الخارجي شيئًا[1].

وعقب هزيمة عام ١٩٦٧ بدأت إسرائيل تتبع أساليبًا جديدة في عملية التهجير القسري للمواطنين الفلسطينيين، فاستندت إلى المواد ١٠٨، ١١٢ من قانون الطوارئ لعام ١٩٤٥، تلك المواد التي تعطي حق إصدار أي أمر إبعاد لأي مواطن فلسطيني خارج الأراضي الفلسطينية لقائد المنطقة العسكري، وكل ما يستطيع أن يفعله المواطن الذي يصدر هذا الأمر بحقه هو تقديم التماس إلى المحكمة الإسرائيلية العليا التي دائمًا ما تقرر مشروعية الطرد[2].

وقد رافقت هذه الأساليب وسائل قمعية عدة؛ منها على سبيل المثال إغلاق الحدود عند نهر الأردن، وإطلاق النار على من يريد العودة للأراضي الفلسطينية بعد اتفاقية وقف النار[3]، وتشير الإحصائيات إلى أن ما يزيد على ٢٨٩٨ فلسطينيًا من الضفة الغربية وغزة قد تعرضوا لعملية التهجير القسري منذ عام ١٩٦٧ حتى نهاية عام ١٩٨٧، وبالتأكيد هذا الرقم مستثنى منه الآلاف الذين أبعدوا بطريق غير مباشر والذين لم يتمكنوا من العودة لديارهم عقب انتهاء الحرب[4].

هذا ولم تنظر هيئة الأمم المتحدة إلى تلك الأفعال الإسرائيلية على أنها جرائم ضد الإنسانية، وصبت كامل اهتمامها على الناتج الملموس لتلك الأفعال، وهو

---

(1) PAPPE, IIAN: *Op. Cit., p.173.*

(٢) وليد حسن عبد الله المدلل: عنصرية الصهيونية، بحث دبلوم الدراسات العليا التاريخية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٩، ١١٢.

(٣) ربيع خليفة عبد الصادق: «السلام المستحيل وعودة المقدسات»، جريدة التبيان، العدد ٧١، يونيه ٢٠١٠، ٤٨.

(٤) وليد حسن عبد الله المدلل: مرجع سابق، ١١٢.

نزوح عدد هائل من الفلسطينيين إلى الدول العربية المجاورة، فاعتبرت المنظمة الدولية أن المشكلة هي مشكلة لاجئين وطالبت السلطات الإسرائيلية في كل عام بداية من عام ١٩٤٩ إلى وقتنا هذا بإعادتهم لديارهم أو تعويضهم عن ذلك، في حين ظلت إسرائيل في تحديها لقرارات المنظمة الدولية معلنة استحالة قبولها بذلك.

ويضاف إلى سجل جرائم إسرائيل ضد الإنسانية ارتكابها لجريمة السجن غير المشروع وتعذيب المسجونين، فلقد أقامت السلطات الإسرائيلية منذ نشأتها معسكرات الاعتقال الواسعة في جميع أنحاء البلاد، حيث ارتكبت فيها ما لا تتخيله العقول من ضروب التعذيب، والحقيقة أن هذه المعتقلات كثيرة لدرجة عدم إمكانية ذكر اسمائها كافة، إلا أن أبرز مثال عليها هو معتقل «قطرا» في جنوب الأراضي المحتلة، هذا المعتقل الذي قذفت السلطات الإسرائيلية يوم ٣١ مايو ١٩٥٠ فيه بـ ١٢٠ فلسطينيًا من بينهم أطفال لم يتجاوزوا الثامنة، وشيوخ جاوزوا الثمانين دون جرم اقترفوه، حيث مارست ضدهم كافة أنواع التعذيب الجسدي من الجلد وتحطيم الأسنان نتيجة للكم، إلى نزع أظافر اليدين والقدمين، ثم استاقتهم تحت حراسة شديدة عبر «بئر سبع» إلى نقطة في «وادي عربة» بالقرب من مركز «عين حصب» فأنزلهم الحرس وأشار إلى سلسلة جبال تقع إلى الشرق وأمرهم بالهرولة صوبها، وأطلق من حولهم النار إرهابًا واستحثاثا على الركض إلى تلك الصحراء القاحلة المليئة بالثعابين السامة، فلم ينج منهم سوى ثلاثة أرباعهم، وصلوا إلى مراكز الجيش الأردني في حالة إعياء تام، وحين تقدمت الحكومة الأردنية بشكواها إلى لجنة الهدنة المشتركة، لم تقم اللجنة بأكثر من استجواب هؤلاء الناجين، ثم حفظت القضية ضمن ملفاتها[١].

---

(١) جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة، إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية: مصدر سابق، ٢١، ٢٢.

جرائم الحرب

وهي الجرائم التي ترتكب ضد قوانين وأعراف الحرب، وتشمل العديد من صور الانتهاكات، وعلى رأسها انتهاكات اتفاقية جنيف ولا سيما اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب التي تنص على «ضرورة أن يعامل الأسرى في جميع الأوقات معاملة إنسانية، وأي عمل أو حتى سهو غير مشروع يصدر من الدولة الحاجزة وينتج عنه وفاة أسير وقع في أيديها أو تُعرض صحته وحياته للخطر يُعتبر محظورًا، كما تلتزم الدولة الحاجزة بحماية الأسرى ضد أعمال العنف أو الامتهان أو التحقير التي تنال من شرف الإنسان وكرامته»، هذا فضلًا عن الانتهاكات الجدية الأخرى للقوانين والأعراف السارية على المنازعات الدولية المسلحة في النطاق الثابت للقانون الدولي، وأبرزها هو نهب الأموال العامة أو الخاصة[1]، وتدمير المدن والقرى، والهدم الذي لا تبرره المقتضيات العسكرية، وتعمُّد توجيه هجمات ضد المباني المخصصة للأغراض الدينية أو التعليمية أو الفنية أو العلمية أو الخيرية والآثار التاريخية والمستشفيات وأماكن تجمع المرضى والجرحى، شريطة ألا تكون أهدافًا عسكرية[2].

ومما لا شك فيه أن إسرائيل قد ارتكبت كافة هذه الجرائم منذ بداية نشأتها ولازالت ترتكبها حتى الآن، فعن اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، فقد أمعنت إسرائيل في انتهاكها مرارًا وتكرارًا، وقد ابتدأت سلسلة هذه الانتهاكات بأسرى العرب في حرب عام ١٩٤٨، حيث عاملتهم اسوأ معاملة، وبخاصة الضباط المصريين منهم، الذين مارست ضدهم كافة أنواع الاضطهاد

---

(١) مصطفى عبد الغني: معجم مصطلحات التاريخ العربي الحديث والمعاصر، القاهرة: دار العالم العربي ٢٠٠٣، ٤٣٨.

(٢) ياسر علي: مرجع سابق، ١٥.

المادي والمعنوي[١]، وفي حين اشتكت الحكومة المصرية هذا الأمر إلى الصليب الأحمر فقد قام مندوبه «دي رينيه» بالتحقيق في الأمر ووضع تقريره عنه، إلا أنه رفض إعطاءه لأي الخصمين، فمنع بذلك الدليل على الانتهاكات الإسرائيلية للأعراف الدولية عن الحكومة المصرية، فلم تستطع رفع شكواها لأي جهة دولية[٢].

إلا أن هؤلاء الأسرى ما لبث أن حالفهم الحظ بتوقيع اتفاقيات رودس عام ١٩٤٩، حيث تم بموجبها تبادل الأسرى بين الدول العربية وإسرائيل في مدة لم تتجاوز ٢١ يوم من توقيع كل اتفاقية على حدة[٣].

ولم تبدأ إسرائيل في انتهاكها الصارخ لاتفاقية معاملة الأسرى إلا ابتداء من عام ١٩٥٦ عقب عدوانها على مصر، إذ أخذت في هذه الفترة تمعن في تعذيبهم والتنكيل بهم ومن ثم الإجهاز عليهم[٤]. وقد وثق العديد من الضباط الإسرائيليين تلك الممارسات بشهادتهم، ففي مطلع شهر أغسطس عام ١٩٩٥ أعترف البريجادير الإسرائيلي «أرين بيرو» الذي كان يتولى قيادة وحدة مظلات تحت قيادة «آريل شارون» للصحافة الإسرائيلية، بأن القوات الإسرائيلية قد قامت بمذبحة بشعة ضد الأسرى المصريين خلال حرب ١٩٥٦ بقيادة «آريل شارون» نفسه، وذلك بعد أن تمكن من أسر حوالي ٣٥٠ ضابطًا وجنديًا مصريًا خلال عملية

---

(١) المجموعة الوثائقية بأرشيف وزارة الخارجية المصرية ـ الأرشيف السري الجديد: رسالة من وزارة الحربية والبحرية ـ مكتب الوزير إلى مكتب وكيل وزارة الخارجية، «سري وعاجل جدًا»، بتاريخ ٣ مارس ١٩٤٩، كود أرشيفي: ٠٣٩٥٥٢ ـ ٠٠٧٨.

(٢) المجموعة الوثائقية بأرشيف وزارة الخارجية المصرية ـ الأرشيف السري الجديد: رسالة من القنصلية المصرية العامة بفلسطين وشرق الأردن إلى وكيل وزارة الخارجية، «سري جدًا»، القدس ٣٠ يونيه ١٩٤٨، كود أرشيفي: ٠٣٩٥٥٢ ـ ٠٠٧٨.

(٣) مصطفى عبد الغني: مرجع سابق، ٦١٤.

(٤) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١٢٢.

الميتلة ، فأخذ في تعذيبهم ساعات طويلة ، ثم أمر المدرعات بالسير فوق أجسادهم فقط دون أن تلامس رؤوسهم وذلك حتى يتم تعذيبهم بالموت البطيء[١] .

وقد أعترف «بيرو» كذلك أنه قد أطلق النار بنفسه على ما بين ٤٠ إلى ٤٩ أسيرًا مصريًا أثناء سير العمليات العسكرية بسيناء ، بحجة أنه لم يكن هناك ما يكفي من الجنود الإسرائيليين لحراستهم ، بالإضافة إلى قتله ١٥٠ أسيرًا مصريًا آخرين عقب ذلك ، وقد أكد «بيرو» لصحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية أنه غير نادم على ما قام به ، وصرح بقوله : «إنهم إذا حاكموني كمجرم حرب سيضطرون إلى محاكمة نصف الجيش الإسرائيلي»[٢] .

وهو تصريح لا يدل فقط على مدى التبجح والطغيان الإسرائيلي ، وإنما يدل كذلك على ضخامة المذابح التي تعرض لها الأسرى المصريين أثناء عدوان ١٩٥٦، فإن كان ضابطًا إسرائيليًا واحدِ فقط قد قام بقتل أكثر من ١٥٠ أسير ، فهل تتخيل الإنسانية مجموع القتلى الذين وقعوا ضحايا لباقي السفاحين الإسرائيليين ؟؟!!

والحقيقة أنه لم يستطع أحد أن يحصي عدد القتلى من الأسرى المصريين خلال عدوان ١٩٥٦، وذلك نظرًا للتعتيم الذي فُرض على هذه القضية ، فكل ما كُشف من معلومات حول هذا الأمر هو عبارة عن شهادات منفصلة لأشخاص لم يعاصروا كافة المذابح[٣] .

---

(١) فداء طه (محرر) : أرئيل شارون ـ سجل خدمة وعمليات انتقامية ، إعداد وترجمة : دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ـ دار الجليل ، ٢٠٠١، ٣٠٤ ـ ٣٠٨.

(٢) أنور محمد : حرب بلا بنادق ـ أخطر مواجهة بين العرب وإسرائيل ، القاهرة ـ دار إيه ـ إم للنشر والتوزيع ١٩٩٧، ١١.

(٣) رفعت يونان ميخائيل : مرجع سابق ، ٢١٣.

أما عن موقف هيئة الأمم المتحدة من هذه المذابح، فلا أدل عليه مما انتهى إليه حديث جمال عبد الناصر مع عصام حسونة ـ رئيس محكمة غزة العليا آنذاك، والذي وقع في أسر القوات الإسرائيلية أول أيام العدوان ـ عقب لقائه به في مارس ١٩٦٠ بدمشق، إذ توجه «عبد الناصر» إليه سائلًا: «ماذا كان موقف الأمم المتحدة منكم أثناء الأسر؟»، فجاوبه «حسونة» بقوله: «إنهم يا ريس منحازون بطبعهم إلى إسرائيل»، فأعترض «عبد الناصر» على كلمة «بطبعهم»، وقال: «لا تقل بطبعهم بل قل إننا نحن العرب مقصرون في إعلامنا، بينما نجح الإعلام الإسرائيلي في مخاطبة الضمير الأوربي وكسب مشاعره الإنسانية»[1].

وقد صدق «عبد الناصر» في قوله، فكيف ستتدخل المنظمة الدولية في الأمر، إن كانت الدولة صاحبة الشأن لم تسعى مطلقًا لأخذ حقها وحق أبنائها، فلم تهتم بتقديم أية شكوى ضد هذه الانتهاكات إلى الأمم المتحدة أو طالبت الصليب الأحمر بالتحقيق في الأمر وتقديم تقارير عنه، بل إنها تعمدت إخفاء الأمر عن كافة وسائل إعلامها حتى لا تصاب بالحرج أمام شعبها وأمام الدول العربية التي ناهضت مشروع القومية العربية، فالحق هو أن مسؤولية التقصير هنا لا تقع مطلقًا على عاتق المنظمة الدولية بل تقع بالكامل على عاتق الدولة المصرية.

هذا التهاون من قبل الحكومة المصرية في حق أبنائها جعل الصهاينة يظهرون أبشع مظاهر العنف واللاإنسانية ضد المصريين دون أن يكترثون لأي شيء بمجرد أن واتتهم الفرصة باندلاع حرب ١٩٦٧، فأصدر رئيس الوزراء الإسرائيلي «ليفي أشكول» أوامره إلى وزير الدفاع «موشيه ديان» بعدم الالتجاء إلى أسر الجنود المصريين والعمل على قتلهم حتى لا يشكلوا عبئًا على الجيش الإسرائيلي أثناء تقدمه[2]، ولذلك قامت

---

(١) عصام حسونة: شهادتي ـ ٢٣ يوليو وعبد الناصر، القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠، ٩١.

(٢) محمد عبد المنعم عامر: مرجع سابق، ١٢٣.

القوات الإسرائيلية خلال عدوانها بقتل الآلاف من الأسرى المصريين[١] ، إلا أنهم أخذوا يتفننون في إظهار أبشع مظاهر الإجرام المكنونة بنفوسهم قبل الإجهاز عليهم ، ففريقًا منهم قام بإجبار الأسرى على حفر قبورهم بأيديهم قبل إعدامهم ، حتى وصل عدد الأسرى الذين أعدموا بهذه الطريقة إلى أكثر من ١٠٠٠ أسير[٢] ، وفريقًا آخر قام بقتل كل من وقع بأيديه من أسرى ببقر بطونهم بالسونكي (السلاح الأبيض) ، حتى أن فصيلة كاملة من الجنود المصريين قد قتلت بهذه الطريقة[٣] ؛ هذا فضلًا عن العديد من الأسرى الذين ألقوا بصحراء سيناء ليموتوا عطشًا أو لتأكلهم الوحوش الضارية[٤] .

ولم يخف الصهاينة تلك الجرائم التي ارتكبوها بحق الجنود المصريين ، إذ أخذوا ينشرون بالصحف العالمية صور هؤلاء الجنود وهم يجرون أقدامهم بصحراء سيناء ويلوحون للطائرات الإسرائيلية عسى أن تقذف إليهم ببعض المياه حتى التقطتهم الذئاب وأخذت تنهش لحومهم[٥] ، مما دعا مجلس الأمن الدولي في يوم ١٤ يونيو ١٩٦٧ إلى إصدار قراره رقم ٢٣٧ الذي يوصي الحكومات المعنية من خلاله بأن تحترم بدقة ، المبادئ الانسانية الخاصة بمعاملة أسرى الحرب وحماية الأشخاص المدنيين في زمن الحرب التي تتضمنها اتفاقيات جنيف الصادرة في ١٢ أغسطس ١٩٤٩[٦] .

---

(١) عبد المنعم عبد الرؤوف : أرغمت فاروق على التنازل عن العرش ، القاهرة ـ الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٩، ٢٤٦.

(٢) أنور محمد : مرجع سابق ، ١٠.

(٣) وجيه أبو ذكري : الإرهابيون الأوائل ـ جيراننا الجدد ، القاهرة ـ المكتب المصري الحديث ـ ١٩٩٥، ١٧٦.

(٤) فيليتسيا لانغر : مذكرات المحامية فيليتسيا لانغر ـ الغضب والأمل مسيرة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال ، بيروت ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩٣، ٦٢.

(٥) وجيه أبو ذكري : مرجع سابق ، ١٧٦.

(٦) مؤسسة الدراسات الفلسطينية : قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي=

وعلي ما يبدو أن مجلس الأمن لم يكن يريد من وراء قراره هذا سوى حفظ ماء وجهه فقط ، حتى لا يقال أن أحد أعضائه قد وقف يتباهى أمام المجتمع الدولي بانتهاكه لكافة الأعراف الدولية دون أن تقف هيئة الأمم المتحدة في وجهه ، فبمجرد النظر للطريقة التي صيغت بها بنود القرار يتضح بشكل جلي العديد من المآخذ عليه ، فأولًا جاء القرار في صيغة توصية ، أي أنه غير ملزم ، وهو بذلك كفل لإسرائيل حق رفض العمل بموجبه أو قبوله على حسب ما يتراءى لها ؛ ثانيًا لم يختص المجلس بتوصيته إسرائيل فقط ، بل حرص على أن تكون صيغة القرار موجهة «للحكومات المعنية» ، أي الدول العربية وإسرائيل معًا ، وهو بذلك قد أشار بإصبع الاتهام للدول العربية بأنها تقوم بنفس الانتهاكات التي تقوم بها إسرائيل ، وهو أمر فضلًا عنه أنه يتنافى مع الأحداث التاريخية فإنه يعطي لإسرائيل الحق في الاستناد إلى القرار لاتهام الدول العربية أنها قد قامت بانتهاكات ضد الأسرى الإسرائيليين ؛ ثالثًا وأخيرًا هو أن القرار قد صدر يوم ١٤ يونيو ١٩٦٧، أي بعد اندلاع الحرب بتسعة أيام وبعد أن توقف القتال على الجبهة المصرية بستة أيام ، وهو ما يعني أن القرار الذي أصدره مجلس الأمن يوصي من خلاله بضرورة معاملة الأسرى معاملة حسنة قد صدر عقب أن توارى هؤلاء الأسرى بين الثرى ، فلم يكن لهذا القرار أي قيمة للأسرى ، إلا إن كان قد صدر للحفاظ على حياة أسرى الأردن وسوريا الذين لم يرد عنهم أي تقارير أو معلومات تدل على أنهم عوملوا بنفس معاملة الأسرى المصريين .

وعلى الرغم من أن القرار الذي كان واجبًا على مجلس الأمن اتخاذه بإدانة إسرائيل ومحاكمة قادة جيشها كمجرمي حرب لم يصدر عن المجلس مطلقًا ، إلا أننا لا يمكن لومه على ذلك ، حيث أن الدولة المصرية التي امتلكت كافة تفاصيل

=الإسرائيلي ، بيروت ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩٣، ١: ١٩٧.

المجازر التي تعرض لها أسراها لم تنبت ببنت شفة، فضلًا عن أنها منعت كافة الصحف العالمية التي تحدثت عن تلك المجازر من الدخول إلى أراضيها خشية اهتزاز «الأمن السياسي الداخلي»، في حالة إثارة هذه القضية[١]، فكيف إذًا يكون مطلوبًا من مجلس الأمن أو أي فرع آخر من فروع المنظمة الدولية أن يبحث عن حق من لا يبحث عن حقه؟!

إلا أننا لا يمكن أن نجد عذرًا للمنظمة الدولية يبرر لها موقفها السلبي تجاه ما تعرض له الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال الإسرائيلي، فقد دأبت منظمة التحرير الفلسطينية على أن تبعث إلى سكرتير عام المنظمة بكشوف توضح أسماء الأسرى الفلسطينيين وكيفية وقوعهم في الأسر، فضلًا عن بيانات بكافة تفاصيل ما تعرض له أولئك الأسرى من تنكيل وتعذيب وإجراءات تعسفية لانتزاع اعترافات قسرية منهم[٢]، في حين دأبت فروع المنظمة الدولية المختلفة على إصدار الكثير من القرارات والتوصيات التي تدين أو تستنكر أو تناقش تلك الممارسات الإسرائيلية تجاه هؤلاء الأسرى، والتي ظلت حتى الآن بلا أدنى جدوى، حيث سمحت المنظمة الدولية لإسرائيل أن تتهرب من كل هذه القرارات ومن التزاماتها تجاه هؤلاء الفلسطينيين بموجب اتفاقية جنيف عن طريق جملة واحدة متناهية الصغر، ألا وهي «تعريف أسير الحرب»، فهؤلاء الأسرى من الفلسطينيين في نظر إسرائيل ليس لهم إلا تعريف واحد هو «إرهابيون»[٣]، ومع عدم اعتراض المجتمع الدولي على هذا التعريف الإسرائيلي أخذت إسرائيل تمارس ما يتراءى لها من الوسائل التعسفية حتى وصلت إلى حد وضع علامة (X) على ظهر كل أسير

---

(١) وجيه أبو ذكري: مرجع سابق، ١٨٠، ٢٣٣.

(٢) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٧، جمع وتصنيف: جورج خوري نصر الله، بيروت ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٩، ٨٨٧، ٨٨٨.

(٣) جهاد شعبان سليم البطش: مرجع سابق، ٢٥١، ٢٥٢.

فلسطيني ، تلك العلامة التي تعني أن هذا الأسير يمكن قتله دون الأخذ في الاعتبار القواعد القانونية .

وترى الباحثة أنه لم يُسقط سكوت المجتمع الدولي عن التصنيف الإسرائيلي للمقاتلين الفلسطينيين كإرهابيين حق هؤلاء الفلسطينيين في المعاملة كأسرى حرب فقط ، بل إنه قد أسقط عنهم كذلك حقهم في الدفاع عن أراضيهم المسلوبة ، وجردهم من مشروعية أفعالهم المضادة لسياسة الاحتلال الإسرائيلي ، وهو أمر يتنافى تمامًا مع مبادئ الأمم المتحدة الذي نص عليها ميثاقها عام ١٩٤٥، وما تتشدق به الدول الكبرى من شعارات .

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٣٣٣ ـ ٣٦٠

النِّـزَاعُ الأنجلُو ـ أمرِيكِي مع بُلْغارِيَا بشَأْنِ تَنْفِيذِ مُعَاهَدَةِ الصُّلْحِ المُـوَقَّعَة فِي فِبْرايِر سَنَة ١٩٤٧م

شريف محمد أحمد عبد الجوّاد*

كانت بلغاريا أثناء الحرب العالمية الثانية حليفة لهتلر[١] وقد جر عليها هذا التحالف في بداية الأمر بعض المكاسب، حيث استولت علي جزء من يوغوسلافيا عام ١٩٤١م بعد دخول الجيوش الألمانية والإيطالية ليوغوسلافيا وتقسيمها بين ألمانيا وإيطاليا وبلغاريا والمجر[٢]، هذا بالإضافة إلي أن بلغاريا بعد الهجوم علي اليونان استولت علي أقاليم مقدونيا وثراس، وبذلك اتسعت مساحة بلغاريا.

* مدرس بكلية الآداب ـ جامعة المنيا.

(١) أدولف هتلر (١٨٨٩ـ١٩٤٥م): سياسي ألماني، حكم ألمانيا من ١٩٣٣ـ١٩٤٥م. تطوع في الجيش الألماني عند نشوب الحرب العالمية الأولي. أصبح هتلر مستشارًا للرايخ في يناير ١٩٣٣م. وبغزو هتلر لبولندا في أول سبتمبر ١٩٣٩ اندلعت الحرب العالمية الثانية، والتي انتهت بهزيمة ألمانيا في مايو ١٩٤٥م. لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٤م، ٧: ٦٣ـ٦٥.

(٢) جاء الهجوم الألماني في ٦ أبريل ١٩٤١م علي يوغوسلافيا واليونان في آن واحد، حيث تمكنت القوات النازية من اجتياح يوغوسلافيا علي أربع جهات مرة واحدة، فقد جاءت هذه الحملة خاطفة بانطلاقها عبر النمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا. انظر: رمضان لاوند: الحرب العالمية الثانية، ط ١١، بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٨٧م، ١٢١.

ـ عقب الاحتلال الألماني ليوغوسلافيا عملت سلطات المحور علي إعادة تنظيم البلاد: فقسمت سلوفينيا بين ألمانيا وإيطاليا، كما أخذت المجر (Baranja & Backa) وجزءًا من كرواتيا، أما بلغاريا فقد=

ومع تغير الأوضاع العسكرية خلال الحرب بدأت الجيوش السوفيتية زحفها للقضاء علي القوات الألمانية ، وخلال عام ١٩٤٢م دعا الزعيم الشيوعي البلغاري جورجي ديمتروف[1] إلي حركة سياسية جديدة عرفت باسم الجبهة الوطنية ، بهدف تحرير بلغاريا من النازية والقضاء علي الملكية الموجودة في البلاد ، والاتجاه لإنشاء جمهورية تساند الاتحاد السوفيتي في كفاحه ضد النازية[2].

لقد سمحت عملية التغيير التي وقعت ضد الألمان للجبهة الوطنية البلغارية بأن تؤلف وزارة ائتلافية في ٩ سبتمبر ١٩٤٤م ، وقد حصل فيها الشيوعيون علي أربع وزارات ـ منها الداخلية والعدل ـ من عدد ست عشرة وزارة . وكان حصولهم علي هذه الوزارات يعني سيطرتهم علي الأوضاع الداخلية والتوجهات الفكرية ،

=احتلت الأقسام اليوغوسلافية لمقدونيا ، كما احتفظت إيطاليا بالجبل الأسود ، ودالماشيا وجزء من البوسنة والهرسك ، كما أنشأت الحكومة الألبانية في منطقة كوسوفو ـ ميتوهيا . ولقد أعطت كرواتيا جزء من الاستقلال ولكنها كانت تابعة لإيطاليا ، حيث احتفظ الأوستاشي (Ustasi) بالسيطرة السياسية علي كرواتيا تحت زعامة أنتي بافيليتش (Ante Pavelic)، كما صغرت مساحة الصرب التي كانت تحت الاحتلال الألماني ، حيث تولي فيها الإدارة ميلان نيدتش (Milan Nedic) وأولئك الصرب الذين كانت لهم رغبة في التعاون مع الألمان . انظر : CHARLES JELAVICH & BARBARA JELAVICH: *The Balkans*, Prentice - Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1965, pp.106-107.

(١) جورجي ديمتروف GEORGI DIMITROV: سياسي وزعيم شيوعي بلغاري ، ولد في ١٨ يونيه ١٨٨٢م ، وما أن بلغ سن العشرين حتي أصبح مناضلًا اشتراكيًا ، اشترك في المؤتمر الثالث للكومنترن في روسيا عام ١٩٢١م . كان له الدور الأكبر في توجيه حركات المقاومة في بلغاريا خلال الحرب العالمية الثانية . عاد في ٦ نوفمبر ١٩٤٥م إلي بلغاريا واستعاد الجنسية البلغارية ، وفي ٢٢ نوفمبر تولي رئاسة الوزارة . رفض ديمتروف المشاركة في الحملة الستالينية علي تيتو . أصيب في عام ١٩٤٨م بمرض أدي إلي وفاته في ٢ يوليو ١٩٤٩م . لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة ، ط ١، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١م، ٢: ٧٤٩-٧٥٠.

(٢) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٣، محفظة رقم ١١٠، ملف رقم ٤، المفوضة المصرية بمدينة صوفيا ، من الوزير المفوض إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : نظام الحكم في بلغاريا ، بتاريخ ١٩٥٧/١/١٨م ، سري .

وبذلك يظهر من سياق الأحداث مدي رغبة الشيوعيين البلغاريين في إحكام سيطرتهم علي الوضع في البلاد[١].

اتفاقية تقسيم مناطق النفوذ في البلقان ١٩٤٤م

سعت الجهود البريطانية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لمحاولة تخفيف الاندفاع السوفيتي تجاه منطقة البلقان ودول شرق أوروبا. فقد كان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا مضطرًا للتفاهم مع ستالين[٢] في هذا الشان. ومما يؤكد هذا أقوال بعض القيادات وصناع القرار من الأمريكيين والبريطانيين، فقد بعث الجنرال أيزنهاور[٣] برسالة في ٧ يوليو ١٩٤٤م إلي سفير الولايات المتحدة - إيفريل هاريمان - في موسكو يقول فيها: «إنني أتتبع زحف الجيش الأحمر علي الخريطة، وكان من الطبيعي أن أتأثر أعمقَ الأثرِ أمام هذا المعدل الفائق الذي يدمرون به القدرة القتالية

---

(١) جلال يحيى: العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية، الدّوَل الغنية الرأسمالية الغربية والاشتراكية واليابان، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م، ٤٣٧.

(٢) جوزيف ستالين JOSEPH STALIN (١٨٣٩-١٩٥٣م): سياسي سوفيتي، وزعيم شيوعي، ولد في بلدة جوري بجورجيا. انتخب عام ١٩٢٢م أمينًا عامًا للحزب الشيوعي السوفيتي، انضم ستالين لجبهة الحلفاء - بعد الهجوم الألماني في ١٩٤١م - حتى تحقق لهم النصر عام ١٩٤٥م. وقد استمر ستالين في حكمه للاتحاد السوفيتي حتى مارس ١٩٥٣م. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، بيروت - دار الجيل ١٩٩٥م، ٩٦٢.

(٣) داويت ديفيد أيزنهاور (DWIGHT. D. EISENHOWER): قائد أمريكي، ولد في ١٤ أكتوبر ١٨٩٠م بمدينة دينسون Denison بولاية تكساس، تولي أيزنهاور قيادة أكبر قوة عسكرية متعددة الجنسيات في التاريخ، فقد قاد هجوم الحلفاء والذي أدي لهزيمة قوات المحور في الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب حل أيزنهاور محل جورج مارشال كرئيس لهيئة الأركان، ومن أهم المناصب التي تولاها قيادة حلف شمال الأطلنطي، كما تولي منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٣م. لمزيد من التفاصيل انظر: مايكل لي لاننج: ١٠٠ قائد عسكري، تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيرًا في العالم عبر التاريخ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ١٩٩٩م، ١٠٠.

للعدو» ، كما بعث روزفلت(١) برسالة إلي ستالين في ٢١ يوليو ١٩٤٤م يقول فيها : «إنَّ سرعة زحف جيوشكم مذهلة حقًا ، وكم كنت أودُّ أنْ أزوركم لأري كيف تتمكنون من المحافظة علي خطوط مواصلاتكم وإمداداتكم إلي القوات الزاحفة» ، كما تحدث تشرشل في مجلس العموم في ٢ أغسطس ١٩٤٤م ليعلن : «..... وما كان يمكن أن تظهر في العالم قوة تستطيع شق الجيش الألماني وتدميره ما لم توجه إليه ضربات قاصمة ومميتة ، مثل التي وجهتها له الجيوش الروسية»(٢).

ومن هذه الحقائق يتضح أن تشرشل كان في موقف لا يحسد عليه ، خاصة بعد انحسار الدور البريطاني وبزوغ نجم الولايات المتحدة الأمريكية كقائد للمعسكر الغربي . ولقد اتجه تشرشل إلي ستالين يطلب منه عقد اتفاقية بين الدولتين لتحديد مناطق النفوذ في البلقان ، حيث كانت بريطانيا تعمل علي التصدي للأهداف السياسية السوفيتية التي تسعي للوصول إلي البحر المتوسط آنذاك .

وعلى وجه السرعة هبط تشرشل في مطار موسكو في ٩ أكتوبر ١٩٤٤م لتسوية جميع القضايا المتعلقة بالبلقان . وخلال المباحثات الدائرة بين الطرفين كتب تشرشل علي ورقة صغيرة لستالين البيان التالي :

* رومانيا : لروسيا ٩٠٪ والدول الأخري ١٠٪ .
* اليونان : بريطانيا بالاتفاق مع الولايات المتحدة ٩٠٪ ولروسيا ١٠٪ .

---

(١) فرانكلين ديلانو روزفلت FRANKLIN D. ROOSEVELT (١٨٨٢-١٩٤٥م) : سياسي أمريكي ، شغل العديد من المناصب الرسمية أهمها وكيل وزارة البحرية من ١٩١٣-١٩٢٠م ، كما رشح عام ١٩٢٠م نائبًا لرئيس الحزب الديمقراطي . تولي روزفلت رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٣٣م وحتى ١٩٤٥م . لمزيد من التفاصيل انظر : محمد شفيق غربال : مرجع سابق ، ٨٩١-٨٩٢.

(٢) ليونيد يريمييف : الإتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية من وجهة نظر الأصدقاء والأعداء ، القاهرة - دار الموقف العربي ١٩٨٥م ، ١٠٢-١٠٣.

* بلغاريا : لروسيا ٧٥٪ والدول الأخري ٢٥٪ .
* يوغوسلافيا والمجر : لروسيا ٥٠٪ بريطانيا وأمريكا ٥٠٪ .

ودفع تشرشل بهذه الورقة لستالين الذي وافق عليها ، وبذلك تم إقرار كل شئ في أسرع وقت ممكن ، وبذلك تم تقسيم مناطق النفوذ في البلقان[١] .

السيطرة السوفيتية علي منطقة البلقان وشرق أوروبا

وعقب تأليف الحكومة الائتلافية تم توقيع الهدنة مع الاتحاد السوفيتي في ٢٨ أكتوبر ١٩٤٤م ، وبموجبها أعادت بلغاريا الأراضي التي انتزعتها من يوغوسلافيا واليونان ، وشاركت في قتال قوات الحلفاء ضد ألمانيا[٢] .

علي كل حال راحت الدبلوماسية الغربية تبحث عن وسائل تنفيذ الحلول بالطرق السلمية ؛ وذلك لتخفيف قبضة السوفييت علي منطقة شرق أوروبا . وخلال انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الأول في لندن في سبتمبر وبداية أكتوبر ١٩٤٥م ، كانت مساعي الحلفاء تتجه لرسم خط لمعاهدة السلام مع بلغاريا والمجر وفنلندا .

وتجدر الإشارة إلي أن الموقف الأمريكي والسوفيتي لم يتغير منذ مؤتمر بوتسدام[٣] ، فبينما طالب جيمس بيرنيز وزير الخارجية الأمريكي بانتخابات حرة ،

---

(١) ونستون تشرشل : مذكرات تشرشل ، ٢: ٢٢٠، منشورات مكتبة المنار ، بغداد ، د. ت . وانظر كذلك : MICHAEL DOCKRILL & BRIAN MCKERCHER: *Diplomacy and World Power, Studies in British Foreign Policy 1890-1950,* Cambridge University Press, First Published, 1996, pp.229-230; ALBERT RESIS: *«The Churchill-Stalin Secret Percentages» Agreement on the Balkans, Moscow, October 1944, The American Historical Review,* Vol. 83, No.2 (Apr., 1978), p.368.

(٢) جماعة من المؤلفين الغربيين : تاريخ عصرنا منذ ١٩٤٥م ، تعريب نور الدين حاطوم ، دمشق ـ دار الفكر ١٩٧٠-١٩٧١م ، ٣٠١.

(٣) عقد هذا المؤتمر بمدينة بوتسدام بألمانيا في الفترة من ١٧ يوليو ـ ٢ أغسطس ١٩٤٥م ، وقد =

نري مولوتوف يُوليه أذنًا صماء، وبذلك خاب ظن بيرنيز في أن استعراض القنبلة الذرية ضد اليابان سيعزز من موقف أمريكا التفاوضي، واتضح أن القنبلة الذرية التي ألقيت علي نجازاكي وهيروشيما لم تحمل السوفييت علي الانصياع لوجهة النظر الغربية، فقد ذكر بيرنيز:

«... اننا نواجه روسيا جديدة، متباينة في كل سيرتها عما تعاملنا معها من قبل. لقد كان لنا معهم علاقة مرضية طالما كانوا في حاجة إلينا وقت الحرب. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، اتخذوا موقفا عدائيًا ووقفوا في قضايا اقليمية سياسية غير ذات منعة»[1].

وبالنظر للموقف في شرق أوروبا نهاية الحرب العالمية الثانية نجد أن السوفييت تمكنوا من خلق نفوذ لأنفسهم في هذه المنطقة، وذلك أنهم استغلوا سرعة تدفق قواتهم بنهاية الحرب في هذه الدول، فقد استغلوا القرب الجغرافي مع تضافر الأحوال السياسية والاقتصادية، ومنها بلغاريا ورومانيا والمجر[2].

لقد واصلت الدبلوماسية الأمريكية والبريطانية جهود اقناع السوفييت بالتدخل لتوسيع الحكومة البلغارية، وذلك بأن تدع تلك الحكومتين ـ خلال انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية بموسكو في ديسمبر ١٩٤٥م ـ لحكومة الاتحاد السوفيتي مهمة

= حضره الرئيس الأمريكي هاري ترومان، وجوزيف ستالين، ورئيس الوزراء البريطاني كليمنت أتلي الذي خلف تشرشل أثناء انعقاد المؤتمر. وكان من أهم قرارات المؤتمر تكوين مجلس وزراء الخارجية ليقوم بإعداد تسويات السلام، ونزع سلاح ألمانيا بالكامل والزامها بدفع التعوضيات، كما حدد المؤتمر شروط استسلام اليابان. للمزيد انظر: محمد السيد سليم: تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط ١، القاهرة ـ دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ٤٦٩- ٤٧٠.

(١) هنري كيسنجر: الدبلوماسية من الحرب الباردة حتي يومنا هذا، ترجمة: مالك فاضل البديري، ط ١، عمان ـ الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٩٥م، ٢٨.

(٢) هارولد تمبرلي، أ.ج. جرانت: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠م، ٢: ٤٨١- ٤٨٢، ترجمة: محمد علي أبودرة ولويس اسكندر، القاهرة ـ مؤسسة سجل العرب ١٩٧٨م.

نصح الحكومة البلغارية بتنفيذ ذلك، وكان هذا شرطًا من الحكومتين الأمريكية والبريطانية للاعتراف بحكومة بلغاريا وتبادل التمثيل السياسي معها في حال إجراء هذا التعديل[١].

وعند النظر بدقة لمباحثات ومقررات مؤتمرات موسكو في أكتوبر ١٩٤٣م، وطهران في ديسمبر ١٩٤٣م، ويالتا في فبراير ١٩٤٥م[٢]، يتضح أن الحلفاء الغربيين هم الذين مكنوا السوفييت من فرض سيطرتهم على أوروبا الشرقية؛ وذلك لأنهم في مقابل سرعة إنهاء الحرب وهزيمة ألمانيا لم ينظروا لأهداف روسيا فيما بعد. وبنهاية الحرب احتلت القوات السوفيتية أوروبا الشرقية، هذا بالإضافة إلى أن لجنة مراقبة الهدنة في هذه المنطقة كانت تحت سيطرة السوفييت، وقد ساعدهم ذلك في أن يحولوا الاحتلال العسكري المؤقت لاحتلال سياسي ومعنوي[٣].

---

(١) دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف البلدان، محافظ بلغاريا، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة المصرية بمدينة صوفيا، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن: وثائق عن السياسة العدائية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه بلغاريا، بتاريخ ١٥/٥/١٩٥٣م، سري.

(٢) مؤتمر موسكو (أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٤٣م): انعقد هذا المؤتمر بعد الانتصار السوفييتي علي الألمان في ستالينجراد، وانتصار الحلفاء علي قوات المحور في العلمين. حيث اجتمع ممثلوا بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وتم الاتفاق علي إنشاء منظمة عالمية للمحافظة علي الأمن والسلام الدوليين بعد انتهاء الحرب.

ـ مؤتمر طهران (٢٨ نوفمبر-١ ديسمبر١٩٤٣م): حضر هذا المؤتمر ستالين، وروزفلت، وتشرشل، وتم فيه الاتفاق علي تحديد أول مايو ١٩٤٤م موعدًا للقيام بغزو فرنسا، وهي الجبهة التي افتتحت بالفعل في ٦ يونيو ١٩٤٤م.

ـ مؤتمر يالتا (٤-١١ فبراير ١٩٤٥م): حضره تشرشل وروزفلت وستالين، وقد ناقش المؤتمر أربعة مسائل وهي: دخول الاتحاد السوفيتي الحرب ضد اليابان، القضية الألمانية، القضية البولندية، مناطق النفوذ في البلقان. ولمزيد من التفاصيل عن تلك المؤتمرات انظر: محمد السيد سليم: مرجع سابق، ٤٦٧-٤٦٩.

(٣) دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، مصدر سابق، بشأن: نظام الحكم في=

ومن هذا المنطلق تحول الاتحاد السوفيتي إلى قوة مهيمنة ، فمنذ ١٩٤٥م فرض نظامه على مختلف جيرانه . واضطرت جميع الدول المحررة في أوروبا الشرقية لتوقيع معاهدة عدم اعتداء وتعاون متبادل . فقد خضعت هذه الدول لوجود الجيش السوفيتي في أراضيها ، وتمثل ذلك في بلغاريا ورومانيا والمجر ، وكذلك بولندا التي أقام بها الجيش السوفيتي بحجة أنها ضرورة للربط بين الاتحاد السوفيتي والمنطقة التي تحتلها في ألمانيا ، أما يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا فقد ظلا خارج هذا النظام[١] .

توقيع بلغاريا معاهدة الصلح في ١٠ فبراير ١٩٤٧م

اتجه الحلفاء لإبرام معاهدات الصلح مع الدول المهزومة ، وعهدوا بهذه المهمة إلى مجلس وزراء الخارجية[٢] . وعلى الرغم من الخلافات التي ظهرت بين الدول الغربية من جهة والاتحاد السوفييتي من جهة أخري إلا أن هذا المجلس أُجبر ـ تحت ضغط الرأي العام العالمي ـ علي أن يصوغ في أواخر عام ١٩٤٦م معاهدات الصلح بين الحلفاء وكل من بلغاريا والمجر ورومانيا .

ولقد وقِّعت هذه المعاهدات في باريس في ١٠ فبراير ١٩٤٧م[٣] ، وكانت

=بلغاريا ، بتاريخ ١٩٥٧/١/١٨م ، سري .

(١) فرنسوا جورج دريفوس وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، أوروبا من عام ١٧٨٩م حتي أيامنا ، ترجمة : حسين حيدر ، ط ١، بيروت - باريس ـ منشورات عويدات ١٩٩٥م ، ٣: ٤٤٨.

(٢) أعلن الرئيس الأمريكي ترومان ، ورئيس الوزراء البريطاني كلمنت أتلي ، والمارشال ستالين في ٢ أغسطس ١٩٤٥م الاتفاق علي إنشاء مجلس لوزراء الخارجية ، لتكون مهمته وضع معاهدات الصلح . ويتكون المجلس من : الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، الاتحاد السوفيتي ، فرنسا ، الصين . لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ـ١٩٦٠م ، القاهرة ـ المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٠م ، ٤٤٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن النص الرسمي لمعاهدة الصلح البلغارية الموقعة في ١٠ فبراير ١٩٤٧م=

معظم شروطها متماثلة، حيث تعهدت هذه الدول بأن تكفل لرعاياها الحريات الأساسية وخاصة للأقليات اليهودية، هذا في الوقت الذي بقيت فيه حدود بلغاريا كما كانت عليه في يناير ١٩٤١م، وأعلن كذلك بأن الملاحة في نهر الدانوب سوف تكون حرةً لرعايا وسفن وبضائع جميع الدول، كما فرض عليها دفع مبلغ ٧٠ مليون دولار بوصفها تعويضات[١].

وطبقًا للمادة الثانية من المعاهدة التزمت بلغاريا بأن تؤمن لرعاياها التمتع بحقوق الإنسان وحرية التعبير والصحافة والنشر، وحرية ممارسة الشعائر الدينية والآراء السياسية، وكذلك حرية عقد الاجتماعات العامة[٢].

وعلي الرغم من تشابه هذه المعاهدات من الناحية السياسية إلا أن بنودها العسكرية التي وقعتها بلغاريا اختلفت عن غيرها حيث نصت علي:

* تحديد عدد القوات البرية بـ ٥٥٠٠٠ ألف جندي، ١٨٠٠ رجل للمدفعية المضادة للطائرات.
* يتكون الأسطول البحري من ٣٥٠٠ رجل و٧٢٥٠ طن من السفن.
* يتكون الأسطول الجوي من ٥٢٠٠ رجل و٧٠ طائرة حربية.
* عدم بناء بلغاريا لتحصينات دائمة في شمال الحدود اليونانية.

=باللغة (الإنجليزية - البلغارية - الفرنسية - الروسية) انظر: F.O., 93/1/313, *Treaty of Peace with Bulgaria 1947,* (Paris, 10 February 1947).

(١) هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، تعريب: أحمد بخيت هاشم، وديع الضبع، القاهرة - دار القاهرة، ١٩٧٢م، ٧٢٣-٧٢٤. وانظر كذلك: هارولد تمبرلي، أ. ج. جرانت: مرجع سابق، ٤٨٢.

(2) Marin Pundeff: «Documents on the Hostile and Aggressive Policy of the Government of the United States against the People's Republic of Bulgaria», *The American Journal of International Law,* Vol. 48, No.3 (Jul., 1954), p.520.

* تدفع بلغاريا ٤٥ مليون دولار لليونان كتعويض، وإلي يوغوسلافيا ٢٥ مليون دولار.

وبذلك رضخت بلغاريا لما فُرض عليها من الشروط التي نصت عليها المعاهدة، في مقابل أن تنسحب قوات الحلفاء منها، خلال تسعين يومًا اعتبارًا من تنفيذ المعاهدة(١).

الاعتراف الأنجلو ـ أمريكي بالحكومة البلغارية

وعقب التوقيع علي معاهدة الصلح البلغارية كتب الممثل البريطاني في ١١ فبراير ١٩٤٧م لديمتروف ـ رئيس الوزراء ـ يبلغه أن حكومة صاحب الجلالة قررت الاعتراف بالحكومة البلغارية، علي الرغم من عدم تمثيلها لرغبات الشعب البلغاري. ولقد أعربت الحكومة البلغارية في ١٢ فبراير عن ارتياحها للاعتراف البريطاني، وأكدت التزامها بشروط معاهدة الصلح. وعلى هذا الأساس قامت الحكومة البريطانية بتعيين جون ستيمدل John Stemdale وزيرًا مفوضًا لها في صوفيا، وجاء نيكولا دوليشيف Nikola Dolapchiev وزيرًا لبلغاريا في لندن.

أما الجانب الأمريكي فقد صدق مجلس الشيوخ على معاهدة الصلح مع بلغاريا فقط في يونيو ١٩٤٧م(٢)، وذلك ضد النصيحة القوية التي قدمها الممثل الأمريكي

---

(1) AMERICAN SOCIETY OF INTERNATIONAL LAW: «Treaty of Peace with Bulgaria 1947», *The American Journal of International Law,* Vo.42, No.3, Supplement: Official Documents (Jul., 1948), pp.181-185.

وانظر كذلك: ج. ب. دروزيل: التاريخ الدبلوماسي، تاريخ العالم من الحرب العالمية الثانية إلي اليوم، تعريب نور الدين حاطوم، دمشق ـ دار الفكر ١٩٧٨م، ١٣٧.

(٢) صدق مجلس الشيوخ الأمريكي علي معاهدات الصلح مع إيطاليا وبلغاريا والمجر ورومانيا في ٥ يونيه ١٩٤٧م. ولمزيد من التفاصيل انظر: F. R. U. S., 1947, Vol. IV, *Eastern Europe,* The Soviet Union, United States Government Printing Office, Washington; 1972, p.160.

بصوفيا، والذي شبه عدم التزام السوفييت باتفاقية يالتا بالسلوك الألماني خلال الحرب العالمية الأولي والثانية. ولقد أعرب الرئيس الأمريكي ترومان بمناسبة هذا التصديق عن استيائه الشديد من الحكومة البلغارية(١).

ومن المرجح أن هذا التأخير الأمريكي في التصديق علي المعاهدة لم يكن ذا تأثير علي الوضع في بلغاريا، ففي اليوم التالي لتصديق الولايات المتحدة تم القبض علي بيتكوف رئيس الحزب الزراعي البلغاري في البرلمان، وبذلك أحست الحكومة الأمريكية بالإحراج الشديد(٢).

علي كل حال فقد اعتقل بيتكوف بعد إزالة الحصانة البرلمانية عنه، حيث أُتهم بالتآمر للإطاحة بالحكومة البلغارية. ولقد جاء القرار النهائي لوزير الخارجية الأمريكي مارشال في ٩ يونيه ١٩٤٧م بالاعتراف بالحكومة البلغارية، وذلك بعد دخول معاهدة الصلح حيز التنفيذ. وقد استمرت محاكمة بيتكوف من ٥ إلي ١٥ أغسطس ١٩٤٧م، وحكم عليه بالاعدام، ومن ثم دخلت معاهدة السلام البلغارية حيز التنفيذ في ١٥ سبتمبر. وفي ١٩ سبتمبر أبلغت الولايات المتحدة بلغاريا نيتها إقامة علاقات دبلوماسية، وفي ٢٣ سبتمبر تم إعدام بيتكوف، بعد أن رفضت المحكمة استئناف الحكم. وفي أول أكتوبر قررت الولايات المتحدة الاعتراف الرسمي بالحكومة البلغارية(٣).

ومن منطلق الحكم بالإعدام علي بيتكوف اعتبرت الحكومة البريطانية والأمريكية أن هذا الاتجاه من الحكومة البلغارية هدفه القضاء علي أي شخص

---

(1) MARIETTA STANKOVA: *Bulgaria in British Foreign Policy 1943-1949,* Ph. D. Thesis, *Unpublished,* London, School of Economics and Political Science, September 1999, pp.247-248.

(٢) جلال يحيى: مرجع سابق ٤٣٧-٤٣٨.

(3) CYRIL E. BLACK: (The Start of the Cold War in Bulgaria: A Personal View), *The Review of Politics,* Vol. 41, No. 2 (Apr., 1979), pp.194-195.

يتحدي الحكومة التي يهيمن عليها الشيوعيون ، وذلك قبل انسحاب الجيش السوفيتي من بلغاريا . وبذلك فإن اعتراف بريطانيا والولايات المتحدة بالحكومة البلغارية لم يحسن السمعة الدولية لها ، فقد استخدمت الأخيرة هذا الاعتراف لتعزيز النظام الشيوعي داخل البلاد . وعلي هذا الأساس اعتبرت بريطانيا والولايات المتحدة أن عدم خوف الحكومة البلغارية من تدخلهم سيمكن الشيوعيين من مواصلة قمع معارضيهم السياسيين(١) .

وفي إطار الضغط علي بلغاريا اتجهت الولايات المتحدة إلي رفض طلبها للانضمام لهيئة الأمم المتحدة في يوليو ١٩٤٧م ، حيث أن هذا الانضمام كان متوقفًا علي توقيع بلغاريا لمعاهدة الصلح ، وعلي الرغم من التأييد السوفييتي لبلغاريا في هذا الاتجاه إلا أنه لاقي معارضة شديدة من الولايات المتحدة والدول التي تؤيدها في الجمعية العامة ، بحجة أن بلغاريا لا تطبق المعاهدة تطبيقًا يتمشي مع روح ونصوص المعاهدة(٢) .

وعلى كل حال فإنه بتوقيع بلغاريا على معاهدة الصلح استعادت السيادة القانونية ، وأقامت معظم الدول الأوروبية العلاقات الدبلوماسية معها ، وأنهت لجنة الرقابة من الحلفاء أنشطتها ، وسحب الاتحاد السوفيتي جميع قواته من بلغاريا بحلول منتصف ديسمبر ١٩٤٧م .

وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن الأعتراف الدولي ببلغاريا ساهم في تدعيم النظام الشيوعي الداخلي ، وزاد من قوتها في التخلص من المعارضة . وبذلك يظهر

---

(1) MARIETTA STANKOVA: *Op. Cit.*, p.248.

(٢) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : وثائق عن السياسة العدائية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه بلغاريا ، بتاريخ ١٥/٥/١٩٥٣م، سري .

دور الدعم والتوجية السوفيتي للحكومة البلغارية والذي جعل الأخيرة تقف علي أرضٍ صلبة في إتخاذ قراراتها في السياسة الداخلية والخارجية . ومن هذا المنطلق اتجهت الحكومتان البريطانية والأمريكية لإيجاد طرق جديدة للتأثير علي الحكومة البلغارية(١) .

النزاع الأنجلو ـ أمريكي مع بلغاريا

وفي إطار إحكام بلغاريا قبضتها علي البلاد تم إحالة خمسة عشر قسيسًا بروتستانتيًا للمحاكمة في فبراير ١٩٤٩م ؛ وذلك بتهمة التجسس نيابة عن دوائر مخابرات سرية أمريكية وبريطانية . وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن الاتهام البلغاري للهيئات الدبلوماسية الأمريكية والبريطانية بصوفيا كانت بمثابة ضربة قاصمة للعلاقات ، فقد أحست أمريكا وبريطانيا بموقف شديد الحرج في مواجهة السياسة البلغارية(٢) .

وانطلاقًا من هذا طالبت الحكومة البلغارية إبعاد السكرتير الأول بالمفوضية البريطانية بصوفيا باعتباره شخصًا غير مرغوب فيه ، وقد قابلت الحكومة البريطانية هذا الإجراء من جانبها بإجراء مماثل ، حيث طلبت المفوضية البريطانية من الحكومة البلغارية استدعاء المسيو دوجوميل تودروف Dogomil Todorov السكرتير الثالث بالمفوضية البلغارية في لندن ردًا علي الموقف السابق .

لكن الخارجية البلغارية أعلنت احتجاجها بمذكرة مرسلة للمفوضية البريطانية بصوفيا ، فقد اعتبرت بلغاريا هذا القرار التعسفي جاء كرد فعل على إبعاد سكرتيرها الأول ، والذي أثبتت الأدلة على إدانته خلال محاكمة القسس

---

(1) MARIETTA STANKOVA: *Op. Cit.*, p.260.

(2) APRIL ELIZABETH CURTIS: *British and US Relations with Bulgaria, 1949-1959: The Bulgarian-American Diplomatic Split and Britain's Fundamental Role,* M. A. Thesis, Unpublished, *MSc in History of International Relations,* 2014-2015, p.4.

البروتستانت . ومن هذا المنطلق أعلنت بلغاريا أن هذا القرار يعّد عملًا غير ودي ، ويتنافي مع القواعد الدبلوماسية(١) .

كانت الحكومتان الإنجليزية والأمريكية تري أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة البلغارية لنشر الشيوعية منافية لما التزمت ـ المادة الثانية ـ به في معاهدة الصلح ، ومن هذا المنطلق بدأ النزاع بين الطرفين ، حيث تقدمت الحكومتان البريطانية والأمريكية في ٤ إبريل ١٩٤٩م بمذكرتين للحكومة البلغارية تحتجان فيهما علي خرق بلغاريا لنصوص معاهدة الصلح ، والمطالبة بمعالجة تلك المخالفات .

ولقد جاء رد الحكومة البلغارية رافضًا لهذه الاتهامات ، وذلك على اعتبار أن الشعب البلغاري يتمتع بكافة الحقوق والحريات الأساسية ، وبذلك اعتبرت الحكومة البلغارية أن هذا الاتجاه يمثل تدخلًا في شؤونها الداخلية .

وسرعان ما جاء رد الحكومتان البريطانية والأمريكية في ٣١ مايو ١٩٤٩م بأن رد الحكومة البلغارية لم يكن مقنعًا ، هذا في الوقت الذي لم تبد فيه بلغاريا استعدادها لإنهاء هذا الخلاف بطريق مباشر ، وانطلاقًا من هذا اتجهت الحكومتان البريطانية والأمريكية لإحالة الخلاف الي اللجنة الثلاثية المؤلفة من رؤساء البعثات الدبلوماسية الإنجليزية والأمريكية والسوفيتية المعتمدين في صوفيا ، وذلك بمقتضي المادة ٣٦ من معاهدة الصلح(٢) ، حيث وجهتا الدعوة للحكومة السوفيتية لإشراكهما في بحث الخلاف مع بلغاريا(٣) .

---

(١) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٥، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : طلب الحكومة البريطانية ابعاد السكرتير الثالث بالمفوضية البلغارية بلندن ردًا علي طلب الحكومة البلغارية ابعاد السكرتير الأول بالمفوضية البريطانية بصوفيا ، بتاريخ ١٩٤٩/٤/٢٨م ، سري .

(٢) انظر ملحق رقم (١) النص الإنجليزي والبلغاري للمادة ٣٦ من المعاهدة .

(٣) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم=

ولم يكن من المتوقع أن يتخلي السوفييت عن مساندتهم لبلغاريا في هذا الشأن ، فقد رفضت الحكومة السوفيتية الاشتراك في بحث هذا الخلاف الذي يراه الغرب مع بلغاريا ، بل منعت سفيرها في صوفيا من الاجتماع بالممثلين الدبلوماسيين لإنجلترا وأمريكا بصوفيا للتباحث بشأن خرق بلغاريا للمادة الثانية من معاهدة الصلح ، والتي تضمن للشعب البلغاري التمتع بالحريات الأساسية . حيث اعتبرت الحكومة السوفيتية أن الاحتجاجات الإنجليزية والأمريكية ما هي إلا وسيلة لتدخل الدولتين في شئون بلغاريا الداخلية .

وعلى الرغم من محاولة الحكومتين البريطانية والأمريكية إظهار عدم تدخلهما في شؤون بلغاريا الداخلية ، وذلك باعتبار ان تنفيذ معاهدة دولية ليس من الأعمال الداخلية التي تمس سياسة البلاد الداخلية ، إلا أن محاولتهما لم تجد نفعًا لإقناع السوفييت ، فتم ارسال مذكرة للسوفييت في ٣٠ يونية ١٩٤٩م بمخالفة بلغاريا لنصوص معاهدة الصلح . حيث بعثت الحكومة السوفيتية بردها المباشر على وزارتي الخارجية البريطانية والأمريكية ، تضمن رفض السوفييت لطلب الحكومتين بإعادة النظر في هذا الموضوع .

ومن هذا المنطلق تقدمت الحكومتان بمذكرتين في أول أغسطس ١٩٤٩م للحكومة البلغارية ، طلبتا فيهما الاشتراك في تعيين مندوب عن بلغاريا ومندوب عن دولة محايدة ـ بالإضافة للدولتين الشاكيتين إنجلترا وأمريكا ـ حتي يتم تأليف اللجنة المنصوص عليها في معاهدة الصلح ، والتي ستتولى بحث النزاع بين الطرفين ، طبقًا للمادة ٣٦ من المعاهدة .

= ٧٣، محفظة رقم ١١٠، ملف رقم ١، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : النزاع بين بلغاريا من جهة وبين انجلترا وأمريكا من جهة أخري على عدم تنفيذ الحكومة البلغارية تعهداتها التي التزمت بها بمقتضي معاهدة الصلح المعقودة في فبراير ١٩٤٧م ، بتاريخ ١٩٤٩/٩/٣م ، سري .

لقد جاء رد الحكومة البلغارية في أول سبتمبر ١٩٤٩م علي مذكرتي بريطانيا وأمريكا برفض المشاركة في تأليف اللجنة ، وأعلنت بلغاريا بأنه لا يوجد نزاع مع إنجلترا وأمريكا اكثر من رغبتيهما في الواقع من التدخل في الشؤون الداخلية لبلغاريا ، والتأثير عليها لاتباع سياسة تمليها تلك الدولتين عليها[١] .

وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن كلًا من بريطانيا وأمريكا كانتا مصممتين على ضرورة التزام بلغاريا بتنفيذ معاهدة الصلح ، هذا في الوقت الذي ترفض فيه بلغاريا هذه الاتهامات وتعتبر أنه ليس لها أساس. وانطلاقًا من هذا تمسكت الحكومتين البريطانية والأمريكية بضرورة تطبيق معاهدة الصلح ، والتي تقضي بتأليف لجنة لبحث النزاع الذي ينشأ بين الدول الموقعة علي المعاهدة في حال وجود اختلاف علي تفسير نصوصها أو تنفيذها[٢] .

اتجهت الحكومتان البريطانية والأمريكية نحو اتخاذ كافة الوسائل التي تكفل لهما الضغط على الحكومة البلغارية ، وانطلاقًا من هذا قدمتا شكواهما إلي منظمة الأمم المتحدة لعرض النزاع مع بلغاريا علي محكمة العدل الدولية . وعلي وجه السرعة أصدرت اللجنة السياسية لمنظمة الأمم المتحدة قرارًا في ١٣ أكتوبر ١٩٤٩م يقضي بإحالة النزاع بشأن معاهدة الصلح البلغارية إلي محكمة العدل الدولية ، حيث صدر قرار اللجنة السياسية بأغلبية ٤١ صوتًا ضد خمسة أصوات وامتناع

---

(١) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، مصدر سابق ، بشأن : النزاع بين بلغاريا من جهة وبين انجلترا وأمريكا من جهة أخري علي عدم تنفيذ الحكومة البلغارية تعهداتها التي التزمت بها بمقتضي معاهدة الصلح المعقودة في فبراير ١٩٤٧م ، بتاريخ ١٩٤٩/٩/٣م ، سري .

(٢) نفسه ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٣، محفظة رقم ١١٠، ملف رقم ١، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : النزاع بين بلغاريا وانجلترا وأمريكا علي تنفيذ معاهدة الصلح المعقودة بينهم في ١٠ فبراير ١٩٤٧م، بتاريخ ١٩٤٩/٩/٢٠م، سري .

تسعة أعضاء عن التصويت ، وكان من الطبيعي أن تصوت الكتلة السوفيتية ضد القرار[١] .

علي كل حال فإن الموقف الأنجلو ـ أمريكي كان أكثر صلابة تجاه بلغاريا بخصوص معاهدة الصلح ، وهذا جعل الأخيرة تتخذ الإجراءات التي تكفل لها الرد علي ذلك . ويظهر ذلك من سياق الأحداث من حيث اتهام النائب العام البلغاري لوزير أمريكا المفوض بصوفيا ـ دونالد هيث Donald Heah ـ بالاشتراك في التآمر مع المسيو تريتشو كوستوف Traicho Kostov نائب رئيس مجلس الوزراء السابق لقلب نظام الحكم في بلغاريا . ولكن سرعان ما جاء رد الحكومة الأمريكية في بلاغها الرسمي أول ديسمبر ١٩٤٩م بتكذيب ما أذاعه النائب العام البلغاري في تقرير اتهامه للمسيو كوستوف من اتصال وزير أمريكا المفوض بصوفيا ، هذا بالإضافة إلي الاحتجاج الرسمي لدونالد هيث إلي وزارة الخارجية البلغارية ، والذي ردت عليه الخارجية البلغارية في بلاغها الرسمي مفندة آراء الحكومة الأمريكية ووزيرها المفوض بصوفيا[٢] .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بشأن التوتر القائم بين الطرفين ، فقد قدمت الحكومة البلغارية في ١٨ يناير ١٩٥٠م مذكرة إلي الحكومة الأمريكية عن طريق مفوضيتها في واشنطون ، والتي طلبت فيها ضرورة إبعاد وزير أمريكا المفوض في صوفيا مستر دونالد هيث . ولم تكن الولايات المتحدة تستطيع

---

(١) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : النزاع بين بلغاريا وانجلترا وأمريكا على تنفيذ معاهدة الصلح المعقودة بينهم في ١٠ فبراير ١٩٤٧م، بتاريخ ١٩٤٩/١٠/١٤م، سري.

(٢) نفسه ، بشأن : اتهام وزير أمريكا المفوض بصوفيا بالتآمر مع المسيو ترايتشو كوستوف لقلب نظام الحكم ببلغاريا ، بتاريخ ١٩٤٩/١٢/٢١م ، سري.

التضحية بمكانتها الدولية فجاء موقفها حازمًا من الحكومة البلغارية، حيث استدعت القائم بأعمال المفوضية البلغارية بواشنطون في ١٩ يناير ١٩٥٠م، وسلمته مذكرة تضمنت انذارًا من الحكومة الأمريكية نصه أنه اذا لم تسحب الحكومة البلغارية طلبها باستدعاء المستر هيث فأنها ستقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بلغاريا.

وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن الحكومة البلغارية قد تعمدت إثارة الولايات المتحدة للتهديد بقطع علاقاتها الدبلوماسية بين البلدين؛ ويرجع ذلك إلي تصميم الحكومة الأمريكية علي ضرورة قيام الحكومة البلغارية بتنفيذ تعهداتها التي التزمت بها في معاهدة الصلح[1].

علي أية حال فإن الضغط الأنجلو ـ أمريكي علي بلغاريا من خلال هيئة الأمم المتحدة، والتي أحالت النزاع لمحكمة العدل الدولية لم يجد نفعًا مع بلغاريا التي رفضت دعوة المحكمة للادلاء بوجهة نظرها في هذا النزاع. فقد بنت مذكرة الحكومة البلغارية المرسلة لمحكمة العدل الدولية رفضها لاختصاص المحكمة النظر في الموضوع ـ ولو بصفة استشارية ـ علي الأسباب التالية:

* أن هيئة الأمم المتحدة وفقًا للماده ٥٥ من ميثاقها لا تملك التدخل في الشئون الداخلية للدول، وبذلك لا تملك احالة هذه المسائل لمحكمة العدل الدولية، وقرارها في هذا الشأن يعد من جهة غير مختصة ولا حجية له.

* أن محكمة العدل الدولية لا تستطيع معالجة موضوع النزاع ولا إبداء رأي استشاري فيه؛ وذلك لأن اختصاصها اختياري وليس الزاميًا، فطالما أن طرفي

---

(١) دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف البلدان، محافظ بلغاريا، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن: قطع العلاقات الدبلوماسية بين بلغاريا والولايات المتحدة الأمريكية، بتاريخ ١٩٥٠/١/٢٠م، سري.

النزاع لم يتفقا علي قبول اختصاصها، فإنه يمتنع عليها النظر في الموضوع وفقًا للأسس التي تقوم عليها المحكمة ذاتها.

* أن بلغاريا ليست عضوًا في الأمم المتحدة، وغير ملزمة باتباع نصوص ميثاق الهيئة، وغير ملزمة بتنفيذ ما تتخذه الهيئة من قرارات(١).

قطع العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا وبلغاريا

لقد ألقت الحكومة البلغارية باللوم على الولايات المتحدة بسبب تهديدها بقطع العلاقات الدبلوماسية، وذلك إذا لم تسحب بلغاريا طلبها باستدعاء الوزير هيث. ولكن الحكومة البلغارية أصرت علي عدم سحب مذكرتها بشأن هيث، بل ورفضت الرد علي المذكرة الأمريكية؛ وذلك لأن الحكومة البلغارية لا تستطيع التغاضي عن موقف الوزير هيث، وتدخله في الشؤون الداخلية للدولة وانتهاك سيادتها(٢).

هكذا جاءت الاتهامات البلغارية للحكومة الأمريكية وممثليها الدبلوماسيين بصوفيا بمثابة ضربة قاصمة للعلاقات بين الطرفين، هذا بالإضافة إلى طلب الحكومة البلغارية من الولايات المتحدة سحب وزيرها المفوض من صوفيا. وبذلك لم تجد الحكومة الأمريكية أمام تصلب بلغاريا سوي قطع العلاقات الدبلوماسية

---

(١) دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف البلدان، محافظ بلغاريا، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن: رفض الحكومة البلغارية الدعوة الموجهة اليها من محكمة العدل الدولية للبحث في النزاع القائم على تنفيذ معاهدة الصلح الموقعة في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧م، بتاريخ ١/٢٨/ ١٩٥٠م، سري.

(2) F. R. U. S., 1950, Vol. IV, *Central and Eastern Europe; The Soviet Union, United States Government Printing Office,* Washington, 1980, *The Minister in Bulgaria (Heath) to the Secretary of State,* Sofia, February 23, 1950, pp.523-524.

معها في ٢٠ فبراير ١٩٥٠م، والطلب من الأخيرة سحب أعضاء مفوضيتها في واشنطون؛ وذلك بعد أن تعمدت الحكومة البلغارية ألا ترد علي إنذار الحكومة الأمريكية ـ سحب بلغاريا لطلب استدعاء المستر هيث ـ بالرفض أو القبول، هذا في الوقت الذي قوبل فيه طلب المستر هيث لمقابلة وزير الخارجية البلغارية بالرفض، وذلك بدعوي انشغال وزير الخارجية البلغاري في اجتماعات البرلمان. وفوق كل ما ذكر فقد رفضت الحكومة البلغارية الرد بالرفض أو القبول على المذكرة الأمريكية المقدمة للقائم بأعمال المفوضية البلغارية في واشنطون، وذلك في ١٦ فبراير ١٩٥٠م والتي طلبت فيها أمريكا من الحكومة البلغارية ايضاح موقفها.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد أوعزت الحكومة البلغارية الي جميع الصحف بنشر قرار اتهام وجهه النائب العام البلغاري ـ أذيع في ٢٠ فبراير ـ إلى بعض موظفي المفوضية الأمريكية في صوفيا بتهمة التجسس. وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن الحكومة البلغارية أطلقت العنان لصحفها للهجوم علي المفوضية الأمريكية وأعضائها، حيث وصفتها بأنها مركز الجاسوسية في بلغاريا، وبالرغم من ذلك فقد وصفت الحكومة البلغارية قرار الحكومة الأمريكية بقطع العلاقات بينهما بأنه إجراء عدائي تتحمل الحكومة الأمريكية تبعاته[1].

وعلى الجانب الآخر عانت المفوضية البريطانية بين عامي ١٩٤٩ـ١٩٥٠م من نفس مستوي المضايقات الموجهة للبعثة الأمريكية بصوفيا، حيث أتهم المواطنون البريطانيون بالتجسس أيضا في محاكمة كوستوف. ولكن اتهام كوستوف لم يلق بظلاله على أي من الموظفين البريطانيين الموجودين في المفوضية البريطانية. وتجدر

---

(١) دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف البلدان، محافظ بلغاريا، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن: قطع العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وبلغاريا، بتاريخ ٢٨/ ٢/١٩٥٠م، سري. وانظر كذلك: APRIL ELIZABETH CURTIS: *Op. Cit.*, p.13.

الإشارة إلى أن بريطانيا اختارت ألا ترد علي الادعاءات البلغارية بخلاف الأمريكان، فلم تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بلغاريا . ولقد أفاد القرار البريطاني بعدم قطع العلاقات مع بلغاريا الولايات المتحدة ؛ وذلك لأن وزارة الخارجية البريطانية كانت ترسل المعلومات بانتظام ـ تنسيقًا بين الحليفين ـ إلي واشنطون بشأن بلغاريا[١] .

إذن فإن النزاع الأنجلو ـ أمريكي مع بلغاريا بشأن عدم تطبيق بعض بنود معاهدة الصلح أدي في نهاية الأمر إلي قطع العلاقات مع الولايات المتحدة من جهة ، هذا في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين بلغاريا وبريطانيا متوترة لنفس السبب من جهة أخري . وفي ذات الموضوع صدرت الفتوي من محكمة العدل الدولية في ٣٠ مارس ١٩٥٠م والتي أقرت بوجود خلاف بين أمريكا وبريطانيا من جهة وبين بلغاريا من جهة أخري ، وأن الأخيرة ملتزمة بتنفيذ ما ورد في معاهدة الصلح عن وسائل تسوية مثل هذه المنازعات[٢] .

وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن الحكومة البلغارية لعبت دورًا كبيرًا في تقليص النفوذ الأنجلو ـ أمريكي داخل البلاد ، وذلك من خلال التضييق والقيود الإدارية علي البعثات الدبلوماسية ، والتي بلغت ذروتها ضد الوزير الأمريكي هيث أثناء محاكمة كوستوف . ومن هذا المنطلق رأت الحكومة الأمريكية أن بلغاريا كانت مستمرة في عدم الالتزام بالحد الأدني من المعايير والمجاملة الدولية في علاقاتها مع الولايات المتحدة .

---

(1) APRIL ELIZABETH CURTIS: *Op. Cit.*, p.5, 17.

(٢) دار الوثائق القومية : وثائق وزارة الخارجية المصرية ، أرشيف البلدان ، محافظ بلغاريا ، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا ، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية ، بشأن : النزاع القائم علي تفسير معاهدة الصلح مع بلغاريا ، بتاريخ ٢٨/٤/ ١٩٥٠م ، سري .

وعند النظر بدقة لتلك الأحداث يتضح مدي التأييد السوفيتي لحكومة بلغاريا ، والذي جعلها تقف علي أرضٍ صلبة في مواجهة القوي الغربية . وتجدر الإشارة إلي أن العلاقات السياسية بين بلغاريا من جهة وبريطانيا وأمريكا من جهة كانت مرتبطة بمدي تخفيف حدة التوتر بين الكتلتين خلال فترة الحرب الباردة ، والتي وضحت من خلال مبدأ ترومان ـ منح بموجبه الرئيس الأمريكي اليونان وتركيا معونات لمقاومة المد الشيوعي ـ في ١٩٤٧م(١) .

وأخيرًا فإن الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لحث الاتحاد السوفيتي على الوفاء بالالتزامات الدولية تجاه بلغاريا أثبتت فشلها الذريع ، وأن الحكومة البلغارية كانت تعمل بتشجيع من قبل السوفييت ، وتجاهلت التزاماتها بموجب معاهدة الصلح بلا تردد . وعلى الرغم من أن هذا التجاهل انطبق تمامًا علي المجالات العسكرية والاقتصادية ، فإن الانتهاك الصارخ تمثل في حقوق الإنسان والحريات الأساسية . وفي هذا الاتجاه استنفدت الولايات المتحدة كل الوسائل مع بلغاريا ، وذلك من خلال الاحتجاجات الرسمية والتصريحات المعلنة ، والاتهامات الرسمية بانتهاك المادة الثانية من معاهدة السلام ، وكذلك من خلال الأمم المتحدة وعدم اعتراف بلغاريا بالتحكيم(٢) .

وبذلك يظهر من سياق الأحداث أن لجوء كل من بريطانيا وأمريكا للأمم المتحدة لحل هذا النزاع مع بلغاريا لم يجد نفعًا ، وذلك في ظل مساندة السوفييت من جهة ، وعدم اتجاه الدولتين للصدام المسلح من جهة أخري . وبذلك لم يكن

---

(1) F. R. U. S., 1951, Vol. IV, *Europe: Political and Economic Developments,* Part 2, United States Government Printing Office, Washington; 1985, *Policy of the United States with respect to Bulgaria, Department of State Policy Statement,* Washington, July 31, 1951, Secret, p.1329.

(2) F. R. U. S., 1951, Vol. IV, *Policy of the United States with respect to Bulgaria,* Department of State Policy Statement, Washington, July 31, 1951, Secret, pp.1330-1331.

بمقدور الحكومتين الأمريكية والبريطانية إلزام بلغاريا بتنفيذ المعاهدة، كما أن الأمم المتحدة لم يكن لديها القوة الكافية لإرغام بلغارياعلي تنفيذ قراراتها.

لقد مثَّل عام ١٩٥٣م نقطة تحول في الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي. فقد خلق وفاة ستالين في مارس أملًا حذرًا في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة بتخفيف القبضة السوفيتية علي الدول التي تدور في فلكه. ولقد لوحظ في بلغاريا تحولا بدرجة صغيرة، وذلك من خلال اتجاه المسئولين البلغاريين في ١٩٥٣م لجس النبض عن طريق الدبلوماسيين الفرنسيين حول إمكانية عودة العلاقات مع الولايات المتحدة. ولم تستأنف العلاقات بين الطرفين، ولم يكن ذلك راجعًا إلي عدم الرغبة من الخارجية الأمريكية أو الرئيس ايزنهاور، فخلال اجتماع مجلس الأمن القومي الأمريكي ناقش وزير الخارجية جون فوستر دالاس وايزنهاور كيفية إعادة العلاقات مع بلغاريا، ولكن أخفقًا في اقناع الكونجرس بأن اهتمامات أمريكا كانت تنصب علي المحافظة علي الروابط الدبلوماسية مع الدول - الستالايت - التي تدور في الفلك السوفيتي(1).

علي أيه حال أُعيدت العلاقات الأمريكية فقط مع بلغاريا في ١٩٥٩م، بالرغم من الجهود التي بذلتها الخارجية الأمريكية في هذا الاتجاه، هذا بالإضافة إلي أن بلغاريا لم تكن مهمة استراتيجيًا للغاية؛ وذلك لامتلاك أمريكا مصدرًا للاستخبارات - التقارير البريطانية - بشأن بلغاريا، وهذا الاتجاه جعل الخارجية الأمريكية لا تسرع في عودة العلاقات مع بلغاريا(2).

---

(1) April Elizabeth Curtis: *Op. Cit.*, p.27.

(2) *Ibid.*, p.5.

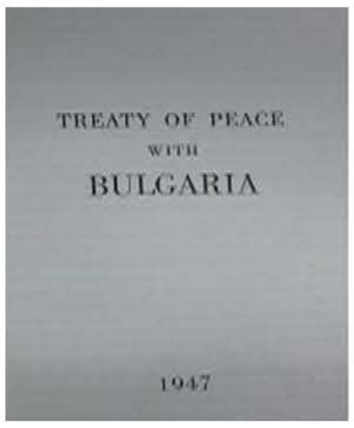

ملحق رقم (١)

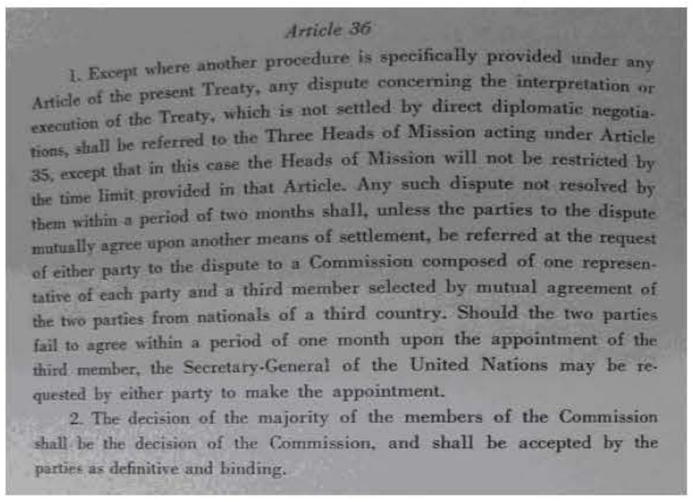

Article 36

1. Except where another procedure is specifically provided under any Article of the present Treaty, any dispute concerning the interpretation or execution of the Treaty, which is not settled by direct diplomatic negotiations, shall be referred to the Three Heads of Mission acting under Article 35, except that in this case the Heads of Mission will not be restricted by the time limit provided in that Article. Any such dispute not resolved by them within a period of two months shall, unless the parties to the dispute mutually agree upon another means of settlement, be referred at the request of either party to the dispute to a Commission composed of one representative of each party and a third member selected by mutual agreement of the two parties from nationals of a third country. Should the two parties fail to agree within a period of one month upon the appointment of the third member, the Secretary-General of the United Nations may be requested by either party to make the appointment.

2. The decision of the majority of the members of the Commission shall be the decision of the Commission, and shall be accepted by the parties as definitive and binding.

النص الإنجليزي

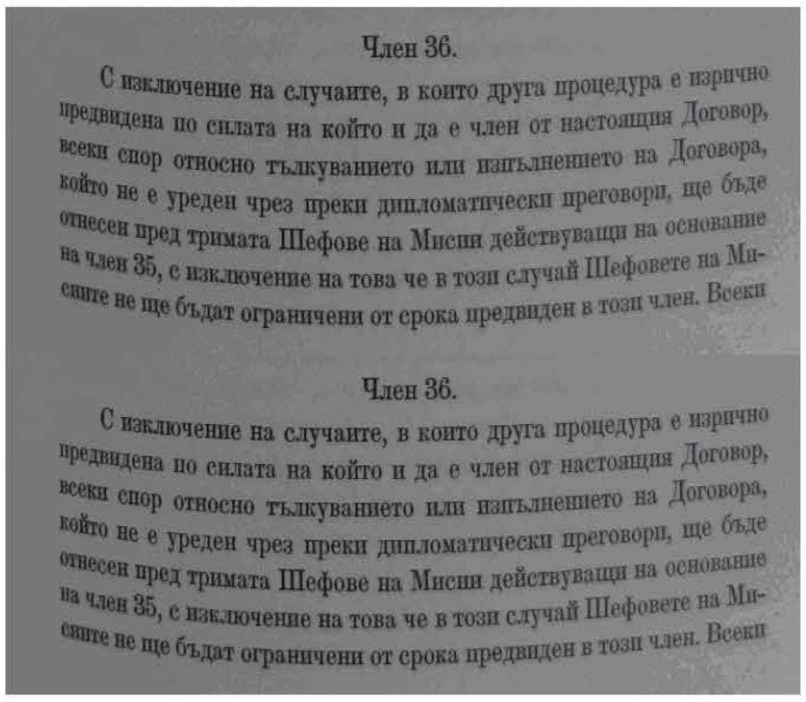

Член 36.

С изключение на случаите, в които друга процедура е изрично предвидена по силата на който и да е член от настоящия Договор, всеки спор относно тълкуването или изпълнението на Договора, който не е уреден чрез преки дипломатически преговори, ще бъде отнесен пред тримата Шефове на Мисии действуващи на основание на член 35, с изключение на това че в този случай Шефовете на Мисиите не ще бъдат ограничени от срока предвиден в този член. Всеки

Член 36.

С изключение на случаите, в които друга процедура е изрично предвидена по силата на който и да е член от настоящия Договор, всеки спор относно тълкуването или изпълнението на Договора, който не е уреден чрез преки дипломатически преговори, ще бъде отнесен пред тримата Шефове на Мисии действуващи на основание на член 35, с изключение на това че в този случай Шефовете на Мисиите не ще бъдат ограничени от срока предвиден в този член. Всеки

النص البلغاري

* F. O., 93/1/313, *Treaty of Peace with Bulgaria 1947*, (Paris, 10 February 1947). English text: p.18. Bulgarian text: pp.21-22.

ترجمة المادة ٣٦ من معاهدة الصلح مع بلغاريا

تنص المادة ٣٦ من المعاهدة على «أنه في حالة فشل الممثلين الثلاثة الدبلوماسيين لبريطانيا وأمريكا وروسيا بصوفيا في الوصول إلي حل بشأن أي نزاع ينشأ حول تفسير أو تنفيذ المعاهدة، يحال هذا النزاع إلي لجنة مكونة من عضو ينوب عن الحكومتين الشاكيتين (بريطانيا وأمريكا) وعضو ينوب عن الحكومة المنسوب اليها هذه المخالفات (بلغاريا) وعضو ثالث محايد من جنسية أخري يتفق عليه الطرفان. فإذا لم يصل الطرفان إلي اتفاق بصدد تعيين هذا العضو الثالث بعد مضي شهر فيكون لاي من الطرفين الحق في أن يطلب من سكرتير عام هيئة الأمم أن يعين هذا العضو وتكون قرارات هذه اللجنة نهائية وملزمة للطرفين».

* المصدر: دار الوثائق القومية: وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف البلدان، محافظ بلغاريا، فيلم رقم ٧٤، محفظة رقم ١١١، ملف رقم ٣، المفوضة الملكية المصرية بمدينة صوفيا، من القائم بالأعمال بالنيابة إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن: النزاع القائم علي تفسير معاهدة الصلح مع بلغاريا، بتاريخ ١٩٥٠/٤/٢٨م، سري.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق (وثائق غير منشورة) :

*** وثائق وزارة الخارجية المصرية ـ دار الوثائق القومية :**

أرشيف البلدان (عواصم الدول) :

أ ـ محافظ بلغاريا (صوفيا) : رول (فيلم) رقم ٧٣:

ـ محفظة رقم (١١٠) : الملف رقم (٤، ١) التقارير السياسية لسفارة مصر في صوفيا عن بلغاريا .

ب ـ محافظ بلغاريا (صوفيا) : رول (فيلم) رقم ٧٤:

ـ محفظة رقم (١١١) : الملف رقم (٥، ٣) التقارير السياسية لسفارة مصر في صوفيا عن بلغاريا .

*** الوثائق البريطانية (وثائق غير منشورة) :** Foreign Office

- F. O., 93/1/313, *Treaty of Peace with Bulgaria 1947,* (Paris, 10 February 1947).

*** الوثائق الأمريكية :**

1- F. R. U. S., 1947, Vol. IV, *Eastern Europe, The Soviet Union,* United States Government Printing Office, Washington: 1972.

2- _______, 1950, Vol. IV, *Central and Eastern Europe; The Soviet Union, United States Government Printing Office,* Washington; 1980.

3- _______, 1951, Vol. IV, Europe: *Political and Economic Developments,* Part 2, United States Government Printing Office, Washington; 1985.

ثانيًا : المذكرات الشخصية :

١ـ هنري كيسنجر : الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا ، ترجمة : مالك فاضل البديري ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٥م ، ط ١.

٢ـ ونستون تشرشل : مذكرات تشرشل ، ج٢، منشورات مكتبة المنار ، بغداد ، د .ت .

ثالثًا : المراجع العربية :

١ـ جلال يحيى : العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية ، الدُّوَل الغنية الرأسمالية الغربية والإشتراكية واليابان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٢ـ رمضان لاوند : الحرب العالمية الثانية ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٨٧م، ط ١١.

٣ـ عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ـ١٩٦٠م ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٤ـ محمد السيد سليم : تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ط ١.

رابعًا : المراجع المترجمة :

١. ج. ب. دروزيل : التاريخ الدبلوماسي ، تاريخ العالم من الحرب العالمية الثانية إلي اليوم ، تعريب نور الدين حاطوم ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٨م ، ط ٢.

٢. جماعة من المؤلفين الغربيين : تاريخ عصرنا منذ ١٩٤٥م ، تعريب نور الدين حاطوم ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٠-١٩٧١م .

٣. فرنسوا جورج دريفوس وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، أوروبا من عام ١٧٨٩م حتي أيامنا ، ترجمة : حسين حيدر ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، ج ٣، ط ١، ١٩٩٥م .

٤. ليونيد يريمييف : الإتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية من وجهة نظر الأصدقاء والأعداء ، دار الموقف العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٥. هـ. أ. ل. فشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ـ١٩٥٠) ، تعريب : أحمد بخيت هاشم ، وديع الضبع ، دار القاهرة ، مصر ، ١٩٧٢م ، ط ٦.

٦. هارولد تمبرلي ، أ. ج. جرانت : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ـ١٩٥٠م ، ج ٢، ترجمة : محمد علي أبودرة ولويس اسكندر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

خامسًا : المراجع والدوريات الأجنبية :

1. ALBERT RESIS: *The Churchill-Stalin Secret «Percentages» Agreement on the Balkans,* Moscow, October 1944, The American Historical Review, Vol. 83, No.2 (Apr., 1978).

2. American Society of International Law: *Treaty of Peace with Bulgaria 1947, The American Journal of International Law,* Vol. 42, No. 3, Supplement: Official Documents (Jul., 1948).

3. CHARLES JELAVICH & BARBARA JELAVICH, *The Balkans, Prentice - Hall,* Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1965.

4. CYRILL E. BLACK: *The Start of the Cold War in Bulgaria: A Personal View,* The Review of Politics, Vol. 41, No.2 (Apr., 1979).

5. MARIN PUNDEFF: *Documents on the Hostile and Aggressive Policy of the*

Government of the United States against the People's Republic of Bulgaria, The American Journal of International Law, Vol. 48, No. 3 (Jul., 1954).

6. MICHAEL DOCKRILL & BRIAN MCKERCHER: *Diplomacy and World Power, Studies in British Foreign Policy 1890-1950,* Cambridge University Press, First Published, 1996.

سادسًا : الرسائل العلمية :

1. APRIL ELIZABETH CURTIS; *British and US Relations with Bulgaria, 1949-1959: The Bulgarian-American Diplomatic Split and Britain's Fundamental Role,* M. A. Thesis, Unpublished, MSc in History of International Relations, 2014-2015.
2. MARIETTA STANKOVA, *Bulgaria in British Foreign Policy 1943-1949,* Ph. D. Thesis, Unpublished, London School of Economics and Political Science, September 1999.

سابعًا : الموسوعات :

١ـ عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨١م ، ج ٢، ط ١.

٢ـ ـــــ : موسوعة السياسة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٩٤م ، ج ٧.

٣ـ مايكل لي لاننج : ١٠٠ قائد عسكري، تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيرًا في العالم عبر التاريخ ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ، ١٩٩٩م، ط ١.

٤ـ محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ، مجلدين ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٥م .